مكتبة
مؤمن قريش
moamenquraish.blogspot.com

المؤتمر
الدائم
للمقاومة

قيم المقاومة

خيار الشهادة والحياة

نعيم قاسم
منوچهر محمدي
فتحي يكن
طه عبد الرحمن
حميد رضا دهقاني
محمد سليم العوا
محمد رعد
جورج مسّوح
محمد تيسير الخطيب
شفيق جرادي
عدنان السيد حسين
مالك وهبي
فرنكلن لامب
حسن جوني
منير شفيق
ألستر كرووك
أمين حطيط
حسين سلامة
علي أبو الخير
السيد نجم

قيـــم المقاومـــة
خيـــار الشهـادة والحيـاة

مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

قيم المقاومة

خيار الشهادة والحياة

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

معهد المعارف الحكمية
للدراسات الدينية والفلسفية

دار الهادي
للطباعة والنشر

إن الآراء الـواردة في هـذا الكتـاب تعبِّـر عـن
آراء أصحابـهـا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتـويـات

كلمة المنظمين

سماحة الشيخ شفيق جرادي ١

الافتتـــــاح

سماحة الشيخ نعيم قاسـم ٥

المحـور الأول

المقاومـة : الفلسفـة، الرؤيــة، المشــروع

المقاومة والسلطة

د. منوچهر محمدي ١٥

المقاومة الإسلامية والتجديد التكاملي للوعي الديني

د. طه عبد الرحمن ٢١

ضرورة وضع ميثاق للمقاومة وفق الرؤية الدينية

أ. حميد رضا دهقاني ٤٧

مشروعية المقاومة في ضوء القانون

د. حسن جوني ٥١

مرجعية ثقافة المقاومة في مجتمع تعددي

د. عدنان السيد حسين ٦٩

المحـور الثـاني

قيمـة النصـر بين الإعـداد والشهـادة

الأبعاد الثلاثية للمفاهيم المؤسسة للانتصار المقاوم

أ. علي أبو الخير ٧٥

الانتصـــار في عيون اسرائيليـــة

أ. محمد تيسير الخطيب ٩٧

عوامـل الانتصــار دور القيـادة والثقـة بهـا في تحقيـق الإنجـاز الميـداني

النـائب محمد رعـد ١٢٧

انتصار المقاومة هو انتصار الثقافة المقاومة في مواجهة الثقافة الصهيونية

د. السيــــد نجــم ١٤٣

انعكاســات حــرب تموز على الرأي العــام الاميركي ودعـم الكونغرس لإسرائيــل

د. فــرنكلــن لامب ١٥٩

المحـور الثـالث

مفهوم الشهادة والحياة من المنظور الديني والقيمي فيه

معنى الحياة في الرؤية المسيحية

الأب جـورج مسّـوح ١٨٧

المقاومة والشهادة بين قيم الدين وقيم المواطنة

د. محمد سليم العوا ١٩٣

مفهوم الشهادة والشهود في النص الديني

الشيخ مـالك وهبــي ٢٠١

المحـور الرابـع

الصراع بين نمط المقاومة الحضاري ونمط ثقافة العنف الإرهابي

المقاومة والإرهاب التكفيري

د. فتحي يكن ٢١١

المقاومة وسطوة العنف الحضاري الغربي

د. ألستر كرووك ٢١٩

إنتاج النمط وأدلجة التنميط

د. حسين سلامة ٢٣٥

المقاومة ما بعد انتهاء الحرب الباردة

أ. منير شفيق ٢٥٥

ورقة عمل لمشروع

مؤتمر العام القادم

المواطنة والمقاومة

العميد الركن المتقاعد أمين حطيط ٢٦٧

المداخلات ٢٧٩

كلمـــة المنظِّميْـــن

الشيخ شفيق جرادي*

أصحاب السماحة والمعالي والسيادة، أهل الفكر والثقافة والإعلام، ممثلي المؤسسات والهيئات والمنتديات أيتها السيدات والسادة.

السلام عليكم

باسم معهد المعارف الحكمية ودار الهادي، نتقدم منكم بالشكر لحضوركم الكريم في هذا المؤتمر السنوي، الذي سنطلق عليه بدء من هذا العام تسمية «المؤتمر الدائم للمقاومة»، وعنوان مؤتمرنا لهذا العام:

«قيم المقاومة خيار الشهادة والحياة»

أيها السادة، لأن قيمة أي فكرة أو عمل تمثل المعنى والروح الحاضنة له؛ ولأن الخطر الداهم الذي يؤثر في أصل وجود أي حقيقة، إنما يتمثل بتحريف قيمها؛ ولأن المقاومة حقيقة استطاعت أن تبث في جسد الأمة المنهك روح الاقتدار... واستطاعت أن تحيي في الذاكرة والوعي المهزوم، معنى الشوق والأمل والمستقبل.

ولأن المقاومة اليوم باتت بذاتها قيمة كبرى من قيم العز والعنفوان والحياة، وهي بذاتها اليوم تخوض أخطر صراع، تُستخدم فيه قوة الإرهاب الدولي، كما تُسخدم فيه كل العدة المفاهيمية التي ترى في طلب الشهادة انتحاراً ومغامرةً، وفي الحياة ركوناً للذين ظلموا، ودعةً تبحث عن استرضاء أسياد القوة، والمال، والسلطان، ولو على حساب بيع

* مدير معهد المعارف الحكمية.

الذات والذاكرة والتاريخ، وإعدام الحق، وقضايا الأمة والوطن والإنسان، وارتهان الواقع لسماسرة الصفقات الدولية والإقليمية.

لأنهم اليوم يريدون أن يشوّهوا معنى الانتصار، فأبلسوا قائلين إن النصر رفضٌ للحياة، وإن قيمة الحياة بمقدار ما نستمتع بلذائذها، بلهوها ولعبها، بالرقص الماجن ولو على جثث البؤس القابع خلف قضبان السجون وعلى أشلاء المشردين المنفيين من أرضهم وأوطانهم وحقوقهم المشروعة.

قالوا: إن الحياة حبٌّ تستسلم فيه لإرادة القرارات الدولية، وطائرات التدمير الشامل، كما أن ضريبة الحب غالية جداً؛ لأن فيها بناء مستقبل على شاكلة من تحب من صُنّاع الذل والتفرقة الدوليين، ولو اقتضى الأمر أن تنبذ الأهل والإخوة في الدين والأرض والوطن، وأن تقطع كل جسور الحوار والتواصل والتراحم بينك وبينهم؛ لأن في ما يصوغونه اليوم تبليسٌ للحقيقة ولمعنى الحياة والموت والشهادة، وتضييع لإرادة التحدي والانتصار.

من أجل ذلك كله، كان لا بُدَّ من مؤتمر دائم حول المقاومة يعالج مفاهيمها وثقافتها ومسارها وتداعيات نهوضها في حياة الأمة ووجدانها.

وكان لا بد لنا من أن نختار «قيم المقاومة» محوراً لمؤتمرنا لهذا العام. لنقول إن المقاومة إرادة إنسان هذا الوطن، وليست مشروع طائفة أو مذهب فيه. وأن المقاومة خيار بناء للمستقبل يقوم على قيم إنسانية ودينية ترى في الشهادة شهوداً، وشهادة حقٍ، من أجل العدالة والتحرير والاستقلال العزيز. وفي نفس الوقت ترتكز الشهادة على قيم الثبات، الملقي في قلوب الذين ظلموا وعتوا ودمروا وفرَّقوا هذه الأمة، كل عناصر التيئيس. ولعل فعل الشهادة اليوم يمثل المدخل الأكثر أهمية لإلقاء اليأس في قلب العدو وإرادته وإدارته. وفي تبديد أحلام مراكز دراساته الاستراتيجية الأمنية والعسكرية والسياسية.

إن فعل الشهادة سبيلٌ ينتهجه أفرادٌ صالحون مقاومون، من أجل أن يعمروا دنيا الجماعة وحياتها. وإن الحياة هنا تساوي الحق في أن تكون هوية الإنسان هي إنسانيته. إنها الرفض للهزيمة لأن الحياة انتصار، وهي رفض للجوع والأسر والتشرد والهوان، لأن الحياة غنىً وحرية، ووطن، وعزة، وهي رفض للقطيعة والفتنة والظلم؛ لأن الحياة تواصل، وحوار، وتراحم، وسيادةٌ عادلة.

إن الحياة هنا كما الشهادة خيارٌ مفتوحٌ على الإنسان لأجل الإنسان.. ولأن المقاومة هي

ذاك الشاهد والشهيد الذي انتصر على الموت بالحياة، وهي الحياة التي لطالما انتظرناها ولطالما سقيناها من دموعنا وعرقنا ودمائنا وأحلامنا وآمالنا وآلامنا، من أجل أن نحيا، ونشعر بأننا من عالم الأحياء، كان دفاعنا عنها، بكل ما نعتقد، وبكل ما نملك.

ندافع عنها ونحن نعتقد أنها استجابة نداء الرسل والأنبياء والأحرار عبر التاريخ، وأنها سرُّ إخراج الناس من ظلمات التبعية والأسر، إلى الحرية والاستقلال. وهو ما أشار إليه الله في محكم تنزيله ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ**﴾(1). هناك كانت ظلمات فرعون والعبودية، وهنا ظلمات الكيان الغاصب وانتهاك حرمة الأرض والشعب والحقوق في لبنان وفلسطين وكل هذا العالم المستضعف. هناك كان فعل النور الإلهي أن تشق عصا موسى البحر لينفلق جسراً للتحرر يتلوه بحرٌ يغرق فرعون وقواه الغاشمة. وهنا فعل النور الإلهي مقاومة تخرج بيضاء صافيةً كالتماعة الشمس من بين القرى والبيوت والدساكر المحرومة، لتشق تيه القلق والنسيان، مقتحمة صراط الشهادة نحو الحياة، لتصنع للحياة نصرها وعزها، ولتغرق وحش الموت في بحر الخيبة والضياع.

هناك كانت أيام الله التي يجب أن لا تُنسى يصنعها نبي الله موسى (ع) بقيادته. وهنا أيام الله تصنعها الشهادة وقيم الشهادة التي جعلت من الموت عشقاً للحياة، يرفع شعارها ومعناها سيد شهداء المقاومة الإسلامية بما كان يردده من قول: «اقتلونا فإن شعبنا سيعي أكثر».

أن تجعل من الموت فرصة للوعي، هذا يعني أن الموت صارت له قيمة توليد الحياة. وكي لا ننسى أيام الله، وأيام الله هي عبر اقتدار المستضعفين على صنع المستقبل والواقع. كي لا ننسى كيف تغلّب إبراهيم على النمرود، وموسى على فرعون، وعيسى على سماسرة الهيكل، ومحمد على الجاهلية، والحسين على موت الضمير وقتلة الأحرار، والخميني على ملك الملوك، والمقاومة على أخطر قوة عدوانية في المنطقة. كي لا ننسى أننا في مثل هذه الأيام كنا نصنع بالرجال الذين أعاروا الله جماجمهم، وبحفاة الشعب الذين ثبتوا في أرضهم، وبحكمة قيادة وقوى إسلامية ووطنية، كنا نصنع التحرير والفتح المبين لعصر سمّاه سيد المقاومة، السيد حسن نصر الله، بعهد الانتصارات وهزيمة العدو. لكي لا ننسى كل ذلك، وكثيرون هم الذين يعملون من أجل أن ننسى، فإن علينا أن نُعمِّق قيم هذه

١- سورة إبراهيم: الآية ٥.

المقاومة في وجداننا الإنساني والوطني، لتكون هي الخيار وهي الرمز الذي يمثل قيمة الشهادة عندنا والحياة.

بسبب هذا كله كانت فكرة إقامة مؤتمر فكري سنوي يعالج موضوعات ومفاهيم وجداليات تختص بالمقاومة. راجين من الله أن يوفقنا لنؤدي ولو بعضاً من حق هذه المقاومة الإسلامية الشريفة علينا، وعلى كل حر وصاحب نخوة ووفاء في هذا الوطن وفي كل هذا العالم التواق نحو الحرية والعدالة والعزة.

كلمـــة الافتتـــاح

سماحة الشيخ نعيم قاسم*

أيها الحفل الكريم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لا بدَّ في البداية من توجيه تحية خالصة للشهداء الذين عبّدوا الطريق وعرّفونا معنى الحياة، فقد كنّا نقرأ عن الحياة ونستلهم من التاريخ عِبَره، لكننا بعد أن عِشنا معهم أصبحنا أكثر إدراكاً لمعنى الحياة، هكذا فهمناهم، وهكذا عرّفونا الشهادة، فإلى الشهداء الأبرار، وإلى سيدهم وشيخهم، إلى محيي النهضة والجهاد الإمام الخميني (قده)، إليهم جميعاً وكلّهم سادة نهدي ثواب السورة المباركة الفاتحة.

١ـ مشروع المقاومة:

ليست المقاومة ردّة فعلٍ اعتباطية أو عاطفية، بل هي مشروع تحرير وممانعة، هكذا أردناها، وهكذا بدأناها. ولعلّ الالتباس الحاصل عند الكثيرين عن هذا المعنى للمقاومة، إنما هو ناشئ عن بعض التجارب التي حاولت أن تستخدم المقاومة بطريقة ظرفية تبعدها عن أسسها وجذورها وتدخلها في حالة يومية تتماهى فيها مع تطورات الموقف وتكتيكات السياسة.

هذه المقاومة التي قامت في لبنان كنتاج طبيعي لتجربة غنية من مقاومات سبقتها فأخذت منها، وجددت في أدائها، فأتقنت ما استلهمته من عِبَر، وأصّلت ما اكتشفته من تجربة، بناءً على المنطلقات الثقافية والفكرية التي انطلقت منها هذه المقاومة، نحن نرفض أن تُنزع مقاومتنا الإسلامية من سياق الفعل المقاوم في منطقتنا وفي العالم، بل نرفض أن تنزع من سياقها التاريخي الممتد إلى الأنبياء والرسل والأحرار؛ لأن الرفض والممانعة ومواجهة الاحتلال هي أعمال مطلوبة لمن تجلّت الإنسانية في شخصه وفكره وأدائه.

---

* نائب الأمين العام لحزب الله.

على هذا الأساس، فإن مقاومتنا الإسلامية والوطنية هي حق مشروع؛ لأنها تمثّل الدفاع عن الوجود والقرار الحر. وترجمتها من خلال إخراج المحتل من أرضنا، وحمايتها كي لا يعود مجدداً إليها، فهي ليست عملاً آنياً من باب ردّة الفعل، إنما هي عملٌ يؤصّل الممانعة والمواجهة.

٢ـ مجتمع المقاومة:

والمقاومة بالنسبة إلينا، هي رؤية مجتمعية بكل أبعادها، فهي مقاومة عسكرية، وثقافية وسياسية وإعلامية، هي مقاومة الشعب والمجاهدين، هي مقاومة الحاكم والأمة، هي مقاومة الضمير الحر في أي موقع كان، ولذلك كنّا ندعو دائماً إلى بناء مجتمع المقاومة. ولم نقبل يوماً بمجموعة المقاومة؛ لأنّ مجتمع المقاومة يحمل الاستمرار، أما مجموعة المقاومة فأداؤها ظرفي. وبما أننا انطلقنا من جذور الإنسان في حريته، فلا بدّ من أن تمتدّ حريته للتواصل مع بني الإنسان، وإلا أصبح في جزيرة معزولة، وهذا ما لا نريده وهي ليست مقاومتنا، فمن كان يطارد مجموعة المقاومة سيتعب كثيراً؛ لأنه سيواجه مجتمع المقاومة.

برز هذا الأمر بشكل جلي أثناء حرب إسرائيل الواسعة في تموز ٢٠٠٦ على لبنان، والتي ردّ عليها لبنان بالوعد الصادق، فكان المقاتل في الجبهة محمياً بالمرأة تحمل عذابات التهجير، وبالطفل يحمل أمل المستقبل، وبالشيخ يفتّش عن الرعاية والإطعام، وبشعب لبنان الأبي الذي أثبت للعالم أن كل حبة تراب وأرض فضلاً عن الروح والدم هي مقاومة، في كل بقاع لبنان وليس في بقعة واحدة. هذا نموذج لمجتمع المقاومة. لو لم تكن المقاومة في ضمائر هؤلاء الناس لما رأيناها في كل بقعة من بقاع لبنان. ونحن نرفض من يحاول مقاربة الموقف بالشفقة على المهجرين، فأثناء عدوان تموز لم يكن هناك مهجرون، إنما أبطال انتقلوا من مكان إلى مكان آخر فتلقّاهم الصامدون من الشعب اللبناني لتعزيز بطولة من قاتل في بنت جبيل ومارون الراس والجنوب.

٣ـ الشهادة طريق إلى الهدف:

نعم، نحن نؤمن بالشهادة، لكننا نؤمن بها طريقاً لتحقيق الهدف، فهي تتطلّب رعاية ضوابط دقيقة للوصول إليها. ومخطئ من يظن أن هدفنا الشهادة؛ لأن هدفنا هو سبيل

الله تعالى، والشهادة طريق إلى هذا الهدف، كما إنفاق المال طريق إلى هذا الهدف، وكما الاستقامة طريق إلى هذا الهدف. وعليه عندما نؤمن بهذه الشهادة طريقاً إلى الهدف نخرجها عن دائرة التصلّب والعصبية، ونبعدها عن كونها هدفاً بحد ذاته؛ لأن من اتخذها هدفاً ضاع وضيّع الطريق، إذ أصبح يبحث عن الموت كيفما كان. هذه الشهادة استطاعت أن تدفعنا إلى المقدّمة، وأعادت لنا بُنية تربيتنا، هي ضد المحتلين والظالمين. وهنا يجب التمييز بين الاستعداد للشهادة والإقدام عليها، فليس المقصود من ثقافة الشهادة أن تنحصر حركة المؤمنين باتجاه السعي للشهادة وإنّما باتجاه توفر الاستعداد الكامل للتضحية بالنفس، عندما يتطلّب الموقف ذلك. وهنا، تمثّل الشهادة آخر خطوة بعد استنفاد كل الجهود، لتكون السلاح الأمضى في المواجهة في حال عدم تكافؤ القوى، وهي النتيجة الطبيعية للدفاع المشروع عن الموقع وتحصين الهدف.

فالشهادة، مع كونها أمنية القرب الأرقى من الله (عز وجل)، لكنّها مقيّدة بالزمان والمكان المناسبين، هي جزء من التكليف الشرعي بضوابطه، وتصبح واجبة عند انحصار الخيارات بها، كما حصل مع الإمام الحسين (ع) عندما قال: «*إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً*»؛ حيث ضاقت خياراته وانحصرت في خيارين هما: الموت العزيز أو الاستسلام الذليل، فاختار الموت بعزة، على الحياة مع الظالمين بذل.

هذا الإمام العظيم، سيد الشهداء الذي قاتل في كربلاء، هو الذي صبر مع أخيه الحسن خلال حكم معاوية؛ لأنّه كان يرى خيارات أخرى قبل الوصول إلى خيار الشهادة، وبما أن أمانة النفس الإنسانية عظيمة عند الله، لا يمكن لأي إنسان أن يستهتر بها، ولا أن يتسرّع في زجّها في مواقع الخطر والموت، أو أن يتخذ قراره بالشهادة في كل حادثة أو صعوبة تواجهه. فالعطاء النبيل للشهادة وثمرة الدفاع المشروع في التوقيت والزمان المناسبين بقرار من القيادة الشرعية الحكيمة المسؤولة التي تحمل مسؤولية الدماء؛ إذ لا يستطيع أي فرد من الأفراد أن يذهب ويقدّم نفسه كيفما كان، بل يجب أن يكون جزءاً من المقاومة، وجزءاً من المشروع المجتمعي العام، وجزءاً من علامات الانتصار، وإلا فَقَدَ الاستشهادي معنى شهادته إذا انعزل عن قيادته وجماعته؛ إذ إنّ المطلوب توحيد الجهود وأن تتجه لأن تصبّ وتتراكم كي نصل إلى النتيجة المرجوّة من خلال الشهادة. وهذه الشهادة هي مبادرة اختيارية.

المقاومة تأسيس لما بعدها، ولا تنتهي بانتهاء حياة المُقبل عليها، لأنها خطٌّ وليست أداءً

آنياً يمكن أن ينتهي مع انتهاء الجسد بسبب بقاء العنوان. وإنّ الدرجة العليا للشهداء عند الله تعالى، تجعل الشهادة في هذه المنزلة وتلك الأهمية. وتحفّز المؤمنين للطموح إلى تحصيلها، قال تعالى : ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾[١]، وفي الحديث الشريف عن رسول الله (ص): «فوق كل ذي برٍّ برّ حتى يُقتل الرجل في سبيل الله فليس فوقه برّ»[٢]. وفي خطبة السيدة زينب (ع) في مواجهة ابن زياد قالت: «الحمد لله رب العالمين الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة ولآخرنا بالشهادة والرحمة»، فالشهادة خط متواصل مع الحياة الحقيقية.

إن الانتصار على النفس بالاستعداد للشهادة يختصر طريق الصراع مع النفس الأمّارة بالسوء ليحوّلها إلى نفس مطمئنة، ويرقى بالإنسان إلى أعلى درجات الاستقامة، ويساعده في استيعاب دوره ومكانته في هذه الدنيا كمعبرٍ إلى الآخرة. وبما أنّ الموت مرتبط بالأجل ﴿**فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾[٣]، فخيرٌ له أن يختار طريقاً يمكن أن يوفّقه للشهادة، من أن يموت على فراشه وهو قادرٌ أن يصنع طريقه إلى الموت من أجل الحياة، إذا وفّقه الله تعالى لذلك، لأن الأمور مرتبطة بالأجل، والأجل بيد الله تعالى.

٤ـ سعة مفهوم الجهاد:

هذه الشهادة هي جزء من مشروع سبيل الله، ولعلّ البعض لا يعرف تماماً معنى هذه العبارة التي نستخدمها دائماً، مفهوم سبيل الله تعالى هو مفهوم واسع يستوعب الحق الإنساني، والتّبل، ورفض الظلم والعدوان هو مفهوم لا يترك مفردة إيجابية في حياة الإنسان، إلا ويتطرّق إليها، هو رفض للاتجاه السلبي للباطل والانحراف والعدوان والقهر، من هنا قال تعالى: ﴿**فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾[٤].

لم يقل في الآية الكريمة بحصر الجهاد، وإنما تحدّث عن الجهاد بسعته في الحياة العامة للناس، وفي كل مفردات الحياة، وقال تعالى أيضاً: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ**

١- سورة التوبة، آية ٢٠.
٢- تهذيب الأحكام، كتاب الجهاد.
٣- سورة النحل، آية ٦١.
٤- سورة الحجرات، آية ١٥.

الصَّابِرِين﴾[1]، إذ قد لا تكون النتيجة سريعة في علمية الجهاد والمقاومة فتتطلب صبراً وعطاءً، في المقابل حدّثنا عن نماذج عدة في سبيل الله تعالى قال: **﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾**[2]، إذاً، فالموضوع أشمل بكثير من مجرد القتال. وهذا يعني أننا حينما نتحدث عن سبيل الله لا يقتصر فهمنا على الخصوصية الدينية التي لها علاقة بعباداتنا، وإنما يمتد امتداد الإنسانية في حياة الإنسان.

من هنا حب الوطن والموت في سبيل الأرض كتعبير من تعابير سبيل الله يتمازجان بامتزاج يصعب انفكاكه مع سبيل الله تعالى، فلا يمكنك القول لمن مات في سبيل وطنه، واستحضر سبيل الله إنه خارج عن هذه الدائرة؛ لأن سبيل الله ممتدّ في الحياة.

جاء أعرابيّ إلى رسول الله (ص) وقال له: يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله (ص): «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[3]. وكلمة الله العليا هي الحق والاستقامة والتحرير والوطن وكل هذه المعاني التي ذكرناها.

هنا يتشوّق المرء إلى الشهادة، وربما عاش عقدة بسبب عدم الحصول عليها، لكنَّ رسول الله(ص) يبشّره: «من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[4]. لأنه بنى فكره ومشروعه على قاعدة هذا السبيل الحر الوطني والإيماني الذي يوصل إلى طرد المحتل.

٥ـ سرُّ قوتنا:

نصل إلى قيم الشهادة، وهي نبيلة وهي ثقافة الحياة الحقيقية والعزيزة في مقابل ثقافة الموت، قيم الشهادة نبيلة، الشهادة حياة، والتبعية والذل موت. السيادة حياة، والوصاية موت. تحرير الأرض حياة والخضوع للاحتلال موت. قال الإمام علي (ع): «*فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين*»[5] هكذا نفهم الحياة.

هنا أتذكر الشاعر الكبير عمر أبو ريشة يصف أحد مؤتمرات القمة العربية قائلاً:

٢- سورة آل عمران، آية ١٤٦.

٢- سورة البقرة، آية ٢٦٢.

٣- البخاري: صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت، ج٣ ، ص٢٠٦ .

٤- مسلم: صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت، ج٦ ، ص٤٩ .

٥- الإمام علي (ع):نهج البلاغة، تحقيق الشيخ محمد عبده، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت، ص١٠٠ .

جلسوا على أرائكهم سبحان خالقهم
عاشوا وما شعروا ماتوا وما قبروا

على هذا الأساس تأتي المواجهة بين الحق والاستقامة والتحرير والفضيلة والعدالة والظلم والعدوان والاحتلال والفساد والطغيان، عندما لا تملك الأمة أو الثلّة المخلصة فيها القدرة المادية والعسكرية لمواجهة الكثرة وإمكاناتها، وعندما تقف الأمة أمام خيارين: إما الاستسلام وإما الربح والوقوف والصمود؛ حينئذ لا بدّ من اختيار الصمود مهما كانت كلفته، وهنا يأتي دور الجهاد ودور الشهادة.

فالشهادة إذاً، تعالج خلل التوازن في الإمكانات. ومع الاستعداد للشهادة يبطل مفعول القوة بالتخويف بالقتل والموت. ما يعطي قوة إضافية للمؤمنين، ويربك العدو ويعجزه عن التخويف، ويقوّي عامل الرفض في الأمّة ما يجعلها عصيّة على المؤامرات. ولا نبالغ عندما نعطي هذه القيمة الكبيرة للاستشهاد؛ لأن التجربة الواقعية أثبتت فعالية هذا الخيار. وهنا لا أكشف سراً عندما أقول: اكتشفنا سر قوتنا، كما اكتشفوا سرّ قوّتهم، اكتشفنا أن سر قوّتنا بالجهاد والمقاومة والمواجهة العسكرية والشهادة. وهذه المعاني مليئة بالإنسانية والحق. واكتشفوا سرّ قوّتهم بالتقنية والقدرة العسكرية والتقدم التكنولوجي واجتمعوا على قوّتهم بالظلم والطغيان.

هنا حصلت المواجهة بين سر قوتنا وسر قوتهم، فاستطعنا بسرّ قوتنا أن نهزم سرّ قوّتهم؛ لأن قوّتنا حق إنساني مع شهادة، أما قوتهم فمادة وإمكانات مع جبن وخوف. وهكذا تبيّن أن سرّ قوّتنا ينتصر على سرّ قوّتهم إذا عرفنا كيف نراكم هذا السرّ في داخل الأمة؛ لأن المسألة مرتبطة بالاستعداد، وعلينا أن نراكم بنيان الشهادة لمواجهتهم، وفي كل مراحل التاريخ كان الإنسان ينتصر دائماً على القوة والمادة عندما تكون له الإرادة، وعندما يرتبط بالله تعالى.

وهذا ما يفسّر السؤال الذي كان يُطرح دائماً: لماذا لا ننتصر طالما أنّ عندنا هذه المعاني وهذا السرّ؟ وهنا أؤكد على ضرورة مراكمة هذه الإمكانية لمواجهة التراكمات الأخرى. وحذارِ أن نذهب إلى سرّ قوّتهم لنتمثّل بها؛ لأنهم إذا جرّونا لنعادلهم برمز قوّتهم فسنفشل. علينا أن نأخذ من سرّ قوّتهم ما يعمق استقواءنا بالشهادة، لا أن نلغي سرّ قوّتنا لنندمج في أطروحتهم، وإلا نخسر ولا تقوم لنا قائمة. يجب أن ننتبه كي لا نقع أسرى

مفردات يحاولون جرَّنا إليها، كأن يقولوا لنا: تعالوا إلى السياسة وهم عندهم السياسة. أو يقولون: تعالوا إلى التفاوض وهم متسلّطون بالتفاوض. أو يقولون: لنرَ من هو أقوى وهم يتميزون بالقوة. هنا علينا أن نقول لهم: تعالوا إلى سرّ قوّتنا من أجل أن نُضعف موقعهم ومكانتهم، فقد نحصل على اعتراف بحقّنا ووجودنا، عندها نحصل على السيادة بلغة القوة لا بلغة الاستجداء، والاستجداء مفردة يمكن أن ينتصروا علينا بها، أما القوة فمفردة نحملها بإرادتنا وعزيمتنا.

٦ـ إنجازات المقاومة:

وهذا ما يطرح أمامنا الخطر الكبير الذي تعاني منه منطقتنا، فإسرائيل عدوّ شرس، وخطر توسّعي لن يكتفي بفلسطين، وإنما يمتد إلى العالم العربي والإسلامي، بل إلى العالم. وأميركا خطر استعماري بعيد المدى. ومجلس الأمن ألغى وظيفته لحفظ السلام العالمي وأصبح موظفاً في خدمة السلام الإسرائيلي، وهو يسخّر العالم لسلام إسرائيل. معنى ذلك أننا أمام مصيبة دولية حقيقية على مستوى الإنسانية. كيف نواجه هذا الاحتلال؟ يجب مواجهة هذا الواقع بالمقاومة، وبكل أنواع المقاومة وعلى رأسها المقاومة العسكرية.

هذه المقاومة أنجزت تحريراً للأرض، واستطاعت بحمد الله تعالى أن تقدّم لنا مجموعة من العناوين والقواعد المهمّة جداً في منطقتنا، سأذكر خمسة من هذه الإنجازات:

أولاً: أبرزت المقاومة معادلة القدرة الكامنة الموجودة في أمتنا لرفض الاحتلال.

ثانياً: أعادت المعنويات لمنطقتنا في مواجهة الإحباط وعدم الثقة بالقدرة على التغيير.

ثالثاً: أعادت إحياء المقاومة الفلسطينية في هذا الشعب الفلسطيني الأبيّ والشجاع.

رابعاً: أثبتت صلابة الممانعة لمواجهة مشروع الشرق الأوسط الجديد.

خامساً: نقلت المقاومة لبنان من الدولة الضعيفة إلى الدولة الصامدة، ونحن نريد أن نتابع لتنتقل إلى الدولة القادرة إن شاء الله تعالى.

ما الذي تحقق بالمقارنة بين المقاومة والعمل السياسي؟

المقاومة حقّقت إنجازات عظيمة، أما العمل السياسي فلم يحقّق شيئاً. كنّا نقول دائماً إننا سنصبر من أجل أن نتابع خطواتنا وليتابعوا خطواتهم، لكن تبيَّن بأن خطواتهم هي

الفاشلة.

هنا، المقاومة أثبتت جدواها، ولم يعد السؤال: المقاومة ستبقى أم لا؟ لأن الظروف تستدعي بقاءها، بل السؤال، كيف ينخرط المجتمع في المقاومة؟ ومن أجل أي مشروع لا يريد البعض استمرارها؟

وهنا سؤال آخر: هل يستطيع لبنان تحمل تكلفة المقاومة؟ وأنا أسأل: هل يستطيع لبنان تحمل تكلفة الاحتلال ومفاعيله؟ ليس النقاش حول المقاومة وسلاحها، بل أي لبنان نريد؟ إذا أردنا لبنان السيد الحر المستقل؛ إذاً، يجب أن يكون قادراً على الدفاع عن نفسه. لدينا المقاومة كقدرة دفاعية جاهزة، فلنعمل على تقوية الجيش اللبناني، ولنضع استراتيجية دفاعية تستفيد من عوامل القوة المتوفرة وتنظّمها بطريقة تحقق الهدف.

تعالوا نتفق على بناء الدولة القادرة العادلة، فإن من الخطأ أن نتخلّى عن أسباب قوّتنا. من هنا، نؤكد أن لا تعارض بين الدولة والمقاومة؛ لأن اتجاه المقاومة هو الدفاع عن الأرض ومواجهة الاحتلال وهو في صلب اهتمام الدولة، فالمقاومة تعتبر سنداً للدولة وليست منافسة، المقاومة تعتبر دعماً للدولة وليست بديلة عنها. نأمل أن تتوقف حرب النظارات المقفلة لمصلحة لبنان واللبنانيين.

أختم بالشكر الكبير لمعهد المعارف الحكمية ولدار الهادي على إتاحة مثل هذه الفرصة لهذا المؤتمر الكبير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المحور الأول

المقاومة:
الفلسفة، الرؤية، المشروع

- المقاومة والسلطة. — د. منوچهر محمدي
- المقاومة الإسلامية والتجديد التكاملي للوعي الديني — د. طه عبد الرحمن
- ضرورة وضع ميثاق للمقاومة وفق الرؤية الدينية — د. حميد رضا دهقاني
- مشروعية المقاومة في ضوء القانون — د. حسن الجوني
- مرجعية ثقافة المقاومة في مجتمع تعددي — د. عدنان السيد حسين

المقاومة والسلطة

د. منوچهر محمدي*

أصحاب الرأي والمفكرين الكرام،

الإخوة والأخوات المحترمين،

بداية أودّ أن أتقدّم بجزيل شكري وتقديري لمعهد المعارف الحكمية ودار الهادي لإقامة هذا المؤتمر، وتوجيه الدعوة إليّ للمشاركة فيه وإبداء وجهات نظري. كما أشكر الله سبحانه وتعالى على توفيقه إياي كي أرى وأدرك كيف تحققت وعوده - إنه لا يخلف الميعاد- وهو المكسب الذي تحقق في ظل المقاومة الباسلة لأبناء لبنان الأعزّاء.

ولا شك في أنه ليس هناك فؤاد ذو بصيرة لا يشكر الله سبحانه وتعالى على إنجاز وعده بالانتصار والنصر الإلهي في خضمّ مواجهة متواصلة للكفر والنفاق.

الحضور الكرام،

على الرغم من أن كلمة اليوم هي رؤية نظرية وأكاديمية لموضوع المقاومة وقيمتها العليا، إلا أنها في الوقت نفسه مستلهمة من تجاربي ومشاهداتي العينية والشخصية.

لقد أتيتكم من إيران التي شهدت خلال العقدين الأخيرين، أهم الأحداث والتطورات التاريخية التي غيّرت مصير إيران والمنطقة والعالم الإسلامي من الناحيتين الشكلية والماهوية، وهي مجموعة من الأحداث والتطورات التي طالما اقترنت بثقافة المقاومة الأصلية.

إن الثورة الإسلامية العظيمة التي صنعت التاريخ، بقيادة الإمام الخميني الراحل،

❖ مساعد وزير خارجية الجمهورية الإسلامية الإيرانية لشؤون التعليم والبحوث.

وبطولات إخوتكم وأخواتكم في إيران، وما تلاها من مقاومة باسلة ضد استهداف الاستكبار الشامل للثورة الإسلامية الفتية، كلها مؤشرات وآثار يمكنني القول وباعتقاد راسخ بأنها أثمرت في ظل الإيمان والمقاومة الشاملة فقط.

أصحاب الفكر المحترمين،

إن الحديث عن المقاومة هو الحديث عن إحدى الحاجات والمتطلبات الفطرية الملحة للإنسان، الحاجة النابعة من المبادئ والأسس الإنسانية في إطار مطالبة الناس بالعزة والكرامة، والتي أشاد بها جميع أحرار التاريخ. وكانت المقاومة في الأساس هي السنّة المتواصلة والفريدة لجميع الأنبياء والرسل والأئمة والصلحاء عبر التاريخ تجاه الحكومات الظالمة والجائرة، من أجل بناء مجتمعات توحيدية.

وهذا هو النداء الوحيد الذي انعكست أصداؤه في آذان جميع طلاب العدل في التاريخ على اختلاف أديانهم ومشاربهم ومذاهبهم.

فالمقاومة من حيث المفهوم ترتكز على ركنين أساسين، هما: الوعي والمعرفة من جهة، والإيمان من جهة أخرى. وتقترن المقاومة وتحتاج إلى مقوّمات من الصبر والشجاعة والخوف من الله سبحانه وتعالى، وطلب الشهادة لتتحول إلى أسلحة لا تقهر بوجه العتاة.

طبيعة هذه المقاومة تختلف باختلاف الزمان والمكان . والقاسم المشترك لجميع التجارب الناجحة للمجتمعات البشرية هو شمولية موضوع المقاومة والأخذ بعين الاعتبار وجوهها الثقافية والاجتماعية والاعتقادية المختلفة. وهذه الرؤية الشاملة لموضوع المقاومة هو سر نجاحها. وفي الواقع، وحسب معتقداتنا وثقافتنا الدينية والإسلامية، نرى أولاً أن المقاومة، وللأسباب نفسها، تختلف في واقعها عن العنف والدعوى المطلقة العنان إلى العنف الذي يعدّ اليوم الأساس لأعمال غير إنسانية نابعة عن المؤسّسات والفطرة المريضة.

ونرى ثانياً: أن المقاومة تُعتبر دفاعاً مشروعاً وهادفاً وعادلاً يهدف إلى إصلاح الأمور، وهذه النقطة التي تحسم الفرق بين المقاومة والحروب غير العادلة واللامشروعة.

ومن الناحية النظرية، فإن أية مبادرة عسكرية يتم تقييمها من خلال:

أولاً: الحوافز والدوافع (Cause Motivation).

وثانياً: الأسلوب القيادي (Conduct).

وثالثاً: الهدف والغاية (Goal).

وبذلك يتم تقييم كونها عادلة أو غير عادلة. وعليه، فإن جميع المواضيع المشار إليها تعد مشروعة ومتطابقة مع الأصول والمبادئ المقبولة والمعترف بها على الصعيدين الإنساني والدولي.

وعلى هذا الأساس، فإذا كانت الجذور والدوافع والأسباب للحروب غير العادلة وغير المشروعة وغير الموجهة، مبنية على القوة والأدوات العسكرية والمعدات، فإن دوافع المقاومة هي أمور مشروعة وعقلية وتستند إلى الفطرة الإنسانية الطامحة إلى العزة والكرامة، ومن أجل توفير الحاجات الأولية والبديهية للبشرية أو حق الحياة الحرة.

ومن جهة أخرى، إذا كانت الأجهزة والأساليب المستخدمة في الحروب غير العادلة غير مشروعة وغير منصفة وشرسة، فإن أسلوب قيادة المقاومة والأجهزة المستخدمة فيها نابع من أصلين رئيسيين:

أولاً: تناسب الرد مع الهجوم (Proportionality) مع مراعاة الإنصاف.

وثانياً: اختيار الأهداف المحددة (Discriminatory) في إطار مبادرة إنسانية تميّز بين الأهداف العسكرية والمدنية.

وأخيراً إذا كان الهدف والغاية من الحروب غير العادلة هو الاحتلال وتوسيع رقعة الحدود، فإن الهدف والغاية من المقاومة الأصلية هو إزالة الظلم والطغيان وإحلال السلام والهدوء والسكينة للبشرية.

المصداق البارز لهذا التقابل النظري على أرض الواقع هو الحرب الأخيرة للكيان المحتل للقدس ضد لبنان والمقاومة الباسلة لحزب الله والتي دامت رحاها ٣٣ يوماً.

وفي الوقت الذي شنّ فيه الكيان المحتل والمعتدي حرباً غير عادلة، بهدف تحكيم سيطرته ذات الطابع الاحتلالي وبدافع تأمين مصالح القوى الاستكبارية الأجنبية، دخلت قوات المقاومة في حلبة الصراع والنضال للذود عن حياة الناس والدفاع عن بيوتهم وأراضيهم المقدّسة - أرض آبائهم وأجدادهم - هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، فإن الكيان الغاصب والمحتل عكف على استخدام الأساليب البشعة كافة ولجأ إلى كل وسيلة وآلية لتحقيق أهدافه العسكرية، وكان يقتل يومياً الأطفال والنساء في الشوارع والأزقة، وفي المقابل كانت المقاومة تقوم باختيار الرد المناسب، وضبط النفس، والتمييز بين الأهداف العسكرية والمدنية، وفي إطار محدود ولكن بقوة وبسالة.

الكثير ممن يجهل الثقافة الأصيلة للمقاومة والشهادة، قد لا يصل في الأيام الأولى من الحرب الإسرائيلية إلى قناعة بانتصار حزب الله وأبناء لبنان الغياري، وهم وحدهم - في ظاهر الأمر - وذلك على خلفية المعدات والذخائر وعديد الجيش الإسرائيلي الضخم، وحماته الإقليميين الدوليين وخاصة بسبب لجوئه إلى أساليب تعسفية لا هوادة فيها، ولكن، وبناءً على نفس المبادئ والأسس النظرية المذكورة أعلاه، والتي تعود جذورها إلى معتقدات الديانة الإسلامية الأصيلة، كانت نتيجة المقاومة اللبنانية شيئاً آخر يختلف عن التكهنات والتوقعات.

أولاً: من البعد المفهومي، فإن الترتيبات التي حدثت خلال هذه الفترة، وبخاصة نتائج هذه المواجهة غير المتكافئة وآثارها، تؤيد مرة أخرى نظريتنا، حول أن مفهوم القوة آيل نحو التغير والتبدل الكامل. ومن الآن فصاعداً لا بد من التركيز على العناصر غير المادية للقوة. وعلى هذا الأساس، فإن القوة العسكرية البحتة لا ترسم وحدها المعادلات.

ثانياً: لقد أثبتت حرب الثلاثة والثلاثين يوماً مرة أخرى، أن هيكلية النظام الدولي والمؤسسات الدولية، وعلى رأسها منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، محتاجة وبصورة جادة إلى إعادة نظر.

وبعبارة أخرى: شكّلت هذه الحادثة صافرة إنذار للأزمات المستقبلية المتزايدة في النظام الدولي. وليس من الهيّن نسيان مماطلة هذه المؤسسات في إدانة جرائم الكيان الصهيوني وإصدار قرار فاعل لإنهاء هذه الحرب غير المتكافئة وإراقة دماء الشعب اللبناني الأعزل وقتله.

ثالثاً: على المستوى الدولي، فإن المقاومة المنتصرة لشباب حزب الله أفشلت مخططات القوى الأجنبية الكبرى وخاصة الولايات المتحدة الأميركية في الشرق الأوسط.

وتجدر الإشارة هنا إلى نقطة هامة هي أن جميع الأحداث والتطورات في منطقة الشرق الأوسط يرتبط بعضها ببعضها الآخر ارتباطاً وطيداً، حتى أن الكثير من المحللين، وبخاصة بعد أحداث ١١ أيلول (سبتمبر)، يعتقد أن أي حدث في المنطقة يكون له التأثير على المعادلات العالمية. وعليه، فإن أي تطور جذري يحدث في المنطقة ستكون له آثاره المتعاقبة على سائر ساحات السياسة الدولية . والولايات المتحدة، ومن خلال تجاوز سياستها التقليدية القائمة على حفظ الوضع الموجود في الشرق الأوسط، بدأت تبحث عن

تركيبة اجتماعية جديدة لتقديم تعريف جديد للتوازن الإقليمي على أساس شعار الشرق الأوسط الكبير، يكون فيه الكيان الصهيوني المركز والمحور الرئيس. وكانت الولايات المتحدة تعتقد، بأن القضاء على المقاومة في لبنان هو مفتاح النجاح لهذا المشروع. وفي الحقيقة فقد كان انتصار حزب الله سبباً لإحباط وإفشال مخططات واشنطن في المنطقة.

ولكن بعيداً عن هذه المحاور يمكن القول: إن من أهم وأبرز انعكاسات هذا الانتصار على مستوى العالم الإسلامي تَمثل في انبعاث روح الاعتماد على الذات والأمل والحركة بين أبناء الأمة الإسلامية وخاصة حركات التحرر في فلسطين الحبيبة.

وقد كان فشل السيطرة الكاذبة للكيان الصهيوني، وأسطورة الكيان الذي لا يقهر، انطلاقة للاتكال على الذات بين الشعوب العربية والإسلامية، وهذا الاتكال ومعرفة الذات كشجرة طيبة سرعان ما تنمو لتؤتي أكلها في المستقبل القريب إن شاء الله.

أيها الإخوة والأخوات الكرام،

وختاماً أرى لزاماً عليَّ أن أشير إلى أن العدو مع تفهمه لمرارة الهزيمة والإلمام بأسلحة المقاومة الفاعلة يسعى جاهداً لإجهاضها ويبحث عن مفتاح نجاحه في جبهتين:

الأولى: النيل من الوحدة والتنسيق الإسلامي بطرح موضوعات مثيرة للفرقة والخلاف،

والثانية: إلهاء المقاومة وقدراتها العالية لتنشغل بالأزمات والمشاكل الداخلية.

فمن أهم واجبات الأمة الإسلامية، ومنهم النخب الحكومية وغير الحكومية والعلماء ووسائل الإعلام، إجهاض المؤامرات التي يحوكها الأعداء لبث الفرقة والخلافات.

وعلى أبناء المقاومة الغيارى أن يركّزوا قدراتهم وإمكانياتهم على مواجهة العدو المعتدي، من خلال التحلي بالصبر وضبط النفس والوعي وليعلموا أن الجمهورية الإسلامية الإيرانية والأمة الإسلامية الواعية كافة تقف بجانبهم.

سلام الله وعباده الصالحين على جميع المجاهدين في طريق الحق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المقاومة الإسلامية والتجديد التكاملي للوعي الديني

د. طه عبد الرحمن*

إذا ما استقرينا الأسباب التي أدت إلى انتصار المقاومة بقيادة حزب الله، وقفنا على حقيقة أساسية، وهي: «أن الوعي الديني الذي حصَّلته هذه المقاومة يملك خصوصية تضمن لها الانتصار في معاركها»؛ ومن أجل البرهان على هذه الحقيقة، أبدأ بوضع تعريف عام للمقاومة الإسلامية، منطلقاً فيه من التداول اللغوي العربي، ثم أبني عليه دعوى خاصة بالمقاومة التي يقودها حزب الله؛ وقصدي هاهنا هو أن أقيم الدليل على هذه الدعوى.

معلوم أن التداول العربي في نطاق «المقاومة» يُبيح لنا الجمع بين معان أربعة أساسية هي: «القوم» و«القيام» و«القيمة» و«القَوْمة»؛ ذلك أن المقاومة ينهض بها قوم مخصوصون، وأن هؤلاء القوم يقومون بدفع شر قائم بين أظهرهم، ويتوسلون في ذلك بقيم مُثلى، عاملين على تحقيق قومة مخصوصة، فتكون القَومة عبارة عن نهوض بالقيم؛ ومن هنا، فالمقاوم، عموما، يتولى تجديد الوعي بالقيم؛ والمقاوم الإسلامي، خصوصاً، يتولى تجديد الوعي بالقيم الدينية التي يدعو إليها الإسلام؛ وانطلاقاً من هذه المعاني التداولية، يمكن وضع التعريف التالي للمقاومة الإسلامية على وجه العموم:

- ***إن المقاومة الإسلامية هي قيام طائفة من المسلمين بدفع الشرور التي ابتُلِي بها الناس في الزمن القائم، مجدِّدة الوعي بالقيم الإنسانية التي اكتملت مع الدين القَيِّم***[1].

---

* مفكّر مغربي.

١-أستوحي، في وضع هذا التعريف العام، مضمون الحديث الصحيح الذي ورد بروايات مختلفة، منها: «لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك».

واضح أن هذا التعريف يُبرز قوة الصلة الموجودة بين الفعل المقاوم وبين ظهور القيم؛ والمراد أن الفعل المقاوم باعث للقيم، فإن ماتت أحياها، وإن عُدِمت أوجدها، وإن ضعُفت قوّاها، وإن فسُدت أصلحها، كما أن هذا التعريف يجعل الإسلام دينَ الاستقامة والقيام على الحق، أي دين التمسك بأفضل القيَم، حيث إن القيم الإنسانية تبلغ فيه كمالها.

وبناء على هذا التعريف العام، يمكن صوغ الدعوى الخاصة الآتية:

- ***إن المقاومة الإسلامية بقيادة حزب الله هي أقدر مشاريع التجديد الديني الحديثة قياماً بتجليات الإسلام المختلفة، بحيث تُمَكّن الأمةَ من قومة متكاملة تَدخل بها عهد الانتصار على قوى الظلم والشر***[1].

قبل الاشتغال بإثبات هذه الدعوى، تدعو الحاجة إلى بيان مفهومين وردا فيها، وهما: «التجلي» و«التكامل».

- ***«التجلي» هو غير «الصفة»***: يختلف «التجلي» عن «الصفة» من وجهين: أحدهما، ***الاستلزام***[2]: إذا كانت الصفة هي الحالة التي تقوم بالشيء، لَزم منها غيرُها أم لم يلزم، فإن التجلي هو الحالة التي يظهر بها الشيء، وقد لزمت منها حالاتُه الأخرى غير المتجلية؛ فقولنا: «الإسلام تجلّى بالعادلية» غيرُ قولنا: «الإسلام عادل»؛ فالقول الثاني يفيد بأن العدل حالة يكون عليها الإسلام، دون أن يتعرض لسواها، في حين أن القول الأول يفيد بأن عدل الإسلام يستلزم تكريمه للإنسان وتحريمه للزنا ورحمته بالكائنات كلها وغيرها من

١- هناك من رجال الصحوة من جعل من مفهوم «القوْمة» مصطلحاً محورياً في فكره يلخّص مشروعه السياسي بكامله (عبد السلام ياسين)؛ بيد أن استعمالي لهذا المفهوم في كتابي: «الحق العربي في الاختلاف العربي»، اضطرتني إليه الصلة الاشتقاقية الموجودة بينه وبين «المقاومة»، على عادتي في تأثيل المصطلحات، جاعلاً معناه مرتبطاً أساساً بمعنى «القيمة»، فيكون حدُّه عندي هو «النهضة بواسطة الوعي بالقيم»؛ ولعلي أكون في الكتاب المذكور أول من لفت الانتباه إلى حاجة العرب والمسلمين إلى وضع «فلسفة المقاومة»، وذلك في أحد فصوله الذي كنت قد ألقيته كمحاضرة، مدةً غير قصيرة، قبل ضمّه إلى هذا الكتاب الذي صدرت طبعته الأولى سنة ٢٠٠٢؛ ولا يزيد استعمالي لمصطلح «القوْمة» هنا عن سابقه إلا بإضافة صفة «الدين» عموما، أو صفة «الإسلام» خصوصا، فيكون تعريفه هنا هو «النهضة بواسطة الوعي بالقيم الدينية» أو «النهضة بواسطة الوعي بالقيم الإسلامية»، أو اختصارا «تجديد الوعي بالقيم الإسلامية»؛ أضف إلى ذلك أن هناك قولاً مأثوراً منسوباً إلى معاذ بن جبل، مخاطبا أبا موسى الأشعري، يَرد فيه هذا اللفظ، وهو: «أما أنا فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»، مما يدل على أن معناه يتفق مع تعريفي للقومة في دلالته على القيام للعبادات والصالحات كما يتفق مع مفهوم «الصحوة» في مضادته لمفهوم «النومة».

٢- الاستلزام هنا ليس لزوما منطقيا صوريا، وإنما لزوما تداوليا مضمونيا، بمعنى أن القيم التي يتداولها القوم من خلال ثقافتهم وتاريخهم هي التي تُحدّد العلاقة بين الملزومات واللوازم كما إذا قلنا بأن التحية تستلزم الرد عليها بتحية أفضل منها أو بأن كون الإنسان مريضا يستلزم عيادته.

الأحوال؛ لذلك، صح أن يَنزل «التجلي» منزلة «الاسم»، فيقال «تجليات الشيء» أو «أسماء الشيء»؛ فاسم «العادل»، بالنسبة للمثال السابق، لا يَدُل على مجرد كون الإسلام يتصف بالعدل، بل يدُلّ على ذات الإسلام نفسها، وقد ظهرت بالعدل؛ والوجه الثاني: التاريخية، إذا كانت الصفة هي الحالة التي يكون عليها الشيء، سواء أقامت في الزمان أم لم تَقُم، فإن التجلي هو الحالة التي يظهر بها الشيء في زمن معين؛ فإذا قيل: «تجليات الإسلام»، فالمقصود إذن هو الحالات التي تجلت بها قيم الإسلام في الفترات المختلفة من الزمن الإسلامي الذي بدأ بنزول الرسالة ولا ينتهي إلا بانتهاء العالم.

- ***«التكامل» ضد «التجزيء»:*** إذا كان التجزيء هو الفصل بين عناصر الشيء بما يجعل بعضها يستقل عن بعض، فإن التكامل، على العكس من ذلك، هو الوصل بين عناصر الشيء بما يجعل اتصالها علامة على كمال هذا الشيء، أي أن كمال الشيء من تكامله؛ وينقسم التكامل إلى نوعين اثنين:

- **التكامل الأفقي**، وهو اتصال عناصر الشيء بعضها ببعض، بحيث تكون قوة تعلُّق بعضها ببعض متساوية، سواء زادت هذه القوة أو نقصت.

- **التكامل العمودي**، وهو اتصال عناصر الشيء بعضها ببعض، بحيث تكون قوة استلزام بعضها لبعض متفاوتة على الوجه الذي يجعل أحدها أقوى استلزاماً من الباقي، مقيما بينها ترتيباً معيّناً.

١. المقاومة الإسلامية والتكامل العمودي لتجليات الإسلام

إذا تمهد هذا، ظهر أن المطلوب هو بيان كيف أن المقاومة الإسلامية مع حزب الله تحفظ تجليات الإسلام في تكاملها العمودي والأفقي بما لا تحفظها مشاريعُ للتجديد الديني عرفها العالم الإسلامي في القرون الثلاثة الأخيرة[1]، وهي، على وجه التعيين، «المشروع الإحيائي» مع السلفية التقليدية (في النصف الثاني من القرن الثامن عشر)؛

١- روى أبو داوود عن أبي هريرة في سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»؛ غير أن هناك من علماء الشيعة من يضعف هذا الحديث، قادحاً في سنده من جهة أبي هريرة، مثل مرتضى مطهري في كتابه: «إحياء الفكر الديني وقيادة الجيل الشاب»، ص. ١٠-٤١؛ وفي كلامي هنا عن «القرون» التي ظهرت فيها المشاريع التجديدية المذكورة، لا أقصد الإشارة إلى أن الحديث المذكور ينطبق على هذه المشاريع وإن جاز التوسع في معناه بحيث يشمل مثل هذه المشاريع وسواها.

و«المشروع الإصلاحي» مع السلفية الحديثة (في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين)؛ وأخيرا، «المشروع الأصولي» مع السلفية المعاصرة (في الربع الأخير من القرن العشرين)، مع العلم بأن الإسلام قد تجلّى في كل واحد من هذه المشاريع بحالة قيمية مخصوصة.

١.١ - تجديد الوعي الديني وتجلي «الخاتمية»

لنشرع الآن في توضيح كيف أن المقاومة الإسلامية[١] استطاعت أن تحفظ للحالة القيمية التي تجلى بها الإسلام في فترة المشروع الإحيائي تكاملها العمودي، في حين أن صاحبة هذا المشروع، وهي السلفية التقليدية بريادة الحركة الوهابية، وقعت في تجزيء هذه الحالة القيمية المتجلية.

١.١.١- المشروع السلفي الإحيائي وتجزيء الخاتمية:

إذا نحن تأملنا هذا المشروع السلفي الإحيائي، وجدنا أن القيم الدينية التي رام تجديدَ الوعي بها تندرج تحت تَجلٍّ معين من تجليات الإسلام، وهو «الخاتمية»؛ ومقتضى هذا التجلي هو أن الإسلام عبارة عن الحلقة الأخيرة في سلسلة الأديان التي قامت على الوحي الإلهي، متضمّنا كل ما تضمنته هذه الأديان من القيم، ومضيفا إليها أخرى لا تتضمنها، بحيث تتكامل في داخله القيم التي تشترك فيها الأديان المنزلة مع القيم التي يختص بها من دونها والتي لا يُكمِّلها أي دين آخر.

والملاحظ أن القيم التي تهيمن في نطاق الخاتمية، بحيث تكون أشد ظهوراً من غيرها، هي، بالذات، القيم العقدية، ذلك أن الإسلام جاء خاتماً لأطوار القضاء على أشكال الشرك والوثنية، التي توالت عليها الأديان السماوية، داعياً بقوةٍ كل العالمين إلى إخلاص العبادة لله وحده؛ يترتَّب على هذا أن القيمة العقدية التي تستحق أن تتقدم على ما عداها، بحيث تندرج تحتها القيم الإسلامية الأخرى في تكامل عمودي بينها إنما هي «التوحيد».

وقد اختصت السلفية الإحيائية، بالذات، بالعمل على تجديد الوعي بهذه القيم العقدية، انطلاقاً من مفهوم «التوحيد» بشقيه: «توحيد الألوهية» و«توحيد الربوبية»؛ إذ رامت، أساسا، إحياء العقيدة حيثما اندرست معالمها، فتولَّت محاربة مظاهر الابتداع والانحراف في السلوكيات ومقاومةَ آثار الخرافة والشعوذة في الذهنيات، متشددة في

١- المقصود بـ «المقاومة الإسلامية» من الآن فصاعداً «المقاومة الإسلامية بقيادة حزب الله».

دعوتها إلى الاقتداء بالسلف الصالح فيما كانوا عليه من توحيد خالص وعقيدة صافية؛ لكن يبقى أن نسأل *هل استوفت هذه السلفية التقليدية شرط التكامل العمودي الخاص بتجلي الخاتمية؟*

لئن سلَّمنا بأن السلفية التقليدية قامت بتطهير السلوك التعبدي مما شابه من الانحراف، مُحقّقة نهضة عقدية تُعرَف باسم «الإحياء»، فلا نُسلّم أنها استطاعت أن تُفرِّع على القيم العقدية التي دعت إليها باقي القيم الإسلامية المتعلقة بمجالات الحياة والسلوك الأخرى، بحيث تنشأ عن هذا التفريع وحدة قيمية متكاملة تُحتّم وجودَها خاتميةُ الإسلام؛ فقد باتت لا تأخذ أحكامها إلا من الأدلة العقدية، وتُلبس كل شيء لباس العقيدة، في عملية تعميمية تجاوزت حدها.

ومن ثَمَّ، كان لا بد أن يؤدي انغلاقها في دائرة العقيدة إلى انقلاب مقصودها إلى نقيضه؛ فقد أرادت تخليص العقيدة من شوائب الباطن، فإذا بها تُدخل عليها شوائب الظاهر؛ وإيضاح ذلك أن العقيدة أمر باطني محله القلب، لأن متعلقاته غيبية، فنحتاج في تصفيته إلى إعادة تربية الإنسان من الداخل، لكن ما نشاهده في الإحيائية هي أنها حصرت اشتغالها في تربيته من الخارج، مستغرقة في العناية برسوم العبادات وأشكالها، لا بروحها ومعانيها، حتى أضحت المظاهر الخارجية للمتدين هي عنوان سلامة عقيدته، فضلا عن الجمود على ظاهر النصوص؛ وبإيجاز، فقد عاملت هذه السلفية الأمر الروحي بِحَرْفية - أو شكلية - بالغة تخالف مقتضاه، حتى نزل بساحتها الجفاف الروحي. وهكذا، لم يكن بوسعها أن تبني على القيم العقدية قيماً روحية خالصة، لا هيئة لها ولا صورة؛ وفَقْدُها لأسباب الوصل بين النوعين من القيم أوقعها في تجزيء ما لا يتجزأ من قيم الخاتمية الخاصة بالإسلام.

٢.١.١- المقاومة الإسلامية وتكامل الخاتمية:

أما مشروع التجديد الديني المتمثل في المقاومة الإسلامية، فلا يقع ألبتة في هذا الانفصال بين القيم العقدية والقيم الروحية، لأن النص عنده ليس له ظاهر وحسب، بل له باطن أيضاً؛ والعقيدة ليس لها صورة فقط، بل لها روح كذلك؛ وما كان للمقاومة أن تحقّق هذا الوصل بين قيم الإسلام في خاتميته لولا دخولها في عملية تربوية راسخة وشاملة اقتضت تعبُّداً مكثّفاً وتخلّقاً متواصلاً، مجدّدة، بذلك، الإنسان في كلّيته، حتى صار

إنساناً ربانياً؛ ولا ربانية إلا لمن يحيا من أجل الآجل، لا من أجل العاجل، وفي سبيل الآخرين، لا في سبيل الذات؛ ويعود هذا التجديد الرباني إلى التزام المقاوم بمبدأين اثنين.

- المبدأ الأول أسمّيه «**مبدأ المعية الإلهية**» [1]، فهناك معيتان اثنتان: «أن يكون الله مع المقاوم» و«أن يكون المقاوم مع الله»؛ أما معية الله للمقاوم، فهي الأخرى على نوعين: «المعية العامة» وهي الواجبة لله بحكم خالقيته ورازقيته؛ و«المعية الخاصة»، وهي التي يخص بها الله عباده الذين حباهم صفات يُحبها ويرضاها كالصدق والإحسان والصبر والتقوى والتوكل والتطهر والركوع والسجود؛ وأما معية المقاوم لله، فهي أنه لا يفتأ يجاهد نفسه ويحملها على التحلي بهذه الصفات المحبوبة لله، حتى يتيقن في سِرِّه بحضوره مع الله في أفعاله؛ وتَشي بهذا الحضور الرباني شدةٌ تفاعله مع المعاني في التلاوة والتوسل والدعاء [2].

- المبدأ الثاني أسمّيه «**مبدأ الاتصال الروحي**»؛ إذا الروح أصبحت القانون الذي تنضبط به سيرة المقاوم الإسلامي، أخذت تمده بصفات واستعدادات تخترق صفاته وقدراته التي يضبطها قانون المادة وحده؛ فيضحَى البعيد عنده قريبا، والغائب حاضرا، والغريب مألوفا، بل يضحى المحال ممكناً؛ إذ المقاوم الإسلامي يستطيع، وهو باق بجسمه في هذا العالم، أن يرتحل بروحه، وقد رقَّت وشفَّت، إلى عوالم أخرى، فيدرك عالم الغيب إدراكه لعالم الشهادة، ويرى عالم الآخرة قريباً منه قرب عالم الدنيا، ويشهد عالم الشهداء شهوده عالم الأحياء؛ فهو الإنسان المتصل بحق؛ إذ اتصاله مزدوج: اتصال أفقي، إذ يمتد في الماضي والمستقبل، حتى كأن الزمان يُجمع له، ويمتد في الهنا والهناك، حتى كأن المكان يُطوى له؛ ويَشي بهذا الامتداد المزدوج زهدُه في الآن والأين؛ واتصال عمودي، إذ يَعرج بروحه إلى الآفاق العليا، مُلقياً سمعه إلى من جادوا قبله بأرواحهم، إذ يحدثونه بما وجدوا وما أدركوا، فيطيب الأنس بهم ويشتد شوقاً إليهم.

وهكذا، فإن تحقُّق المقاوم الإسلامي بمبدأي «المعية الإلهية» و«الاتصال الروحي» يضفي

١- «أردنا أن نكون مع الله لنكون أقوياء بقوة الله، وأن نكون مع الله لنكون صادقين من خلال أن الله يحب الصادقين، ولنكون مع الله لنكون المحسنين المتقين الصامدين الذين لا يهتزون»، محمد حسين فضل الله، الإمام الخميني، الفقيه والأمة، ص. ١٦٩.

٢- يقول نصر الله في أول خطاب له في حرب يوليو/تموز: «لم نراهن في يوم من الأيام عليكم [أي الذين وصفوا أسر الجنديين من العدو بكونه مغامرة غير محسوبة]، راهنا على الله وعلى شعبنا وعلى قلوبنا وعلى سواعدنا وأبنائنا، ونحن اليوم نقوم بنفس الرهان، والنصر آت آت إن شاء الله»، يوميات الحرب الإسرائيلية على لبنان ٢٠٠٦، ص. ٢٣٦.

على عقيدته دلالات جديدة ترقى بالعبادات التي يؤديها، وتُوسِّع نطاق تأثيرها في أعماله الأخرى؛ ذلك أن قيمه العقدية تغدو مرتبطة بقيم روحية تمدها بقوة خاصة؛ وبفضل هذه القوة الروحية، تصبح قادرة على أن تستلزم القيمَ الإسلامية الأخرى؛ ومتى تحقَّق للقيم العقدية هذا الاستلزام القيمي، استوفت شرط التكامل العمودي الخاص بالتجلي الأول للإسلام، أي الخاتمية؛ وتحصيل المقاوم الإسلامي لتكامل الخاتمية يُجدِّد وعيه الديني؛ ويتخذ هذا التجديد على مستوى الخاتمية صورة معيَّنة، وهي «تجديد صلة المقاوم بالله»، ذلك لأنه يتحقق بالإخلاص في توحيده، علماً بأن التوحيد هو رأس القيم العقدية.

٢.١- تجديد الوعي الديني وتجلي «العالميـة»

لننتقل الآن إلى توضيح كيف أن المقاومة الإسلامية استطاعت أن تحفظ للحالة القيمية التي تجلى بها الإسلام في فترة المشروع الإصلاحي تكاملها العمودي، في حين أن صاحبة هذا المشروع، وهي السلفية الحديثة بريادة الحركة الإصلاحية، وقعت في تجزيء هذه الحالة القيمية الثانية المتجلية.

١.٢.١- المشروع السلفي الإصلاحي وتجزيء العالميـة:

إذا نحن نظرنا ملياً في المشروع السلفي الإصلاحي، تبيَّنا أن القيم الدينية التي رام تجديدَ الوعي بها تندرج تحت تَجلٍّ آخر من تجلّيات الإسلام، وهو «العالمية»؛ ومقتضى هذا التجلي الثاني هو أن القيم التي يتضمّنها الإسلام لا تختص بقوم دون آخرين، مهما اختلفت اعتقاداتهم ولغاتهم وأجناسهم وعاداتهم، ولا تختص بزمان دون آخر، مهما تقلبت أطوار الزمن وامتدت في المستقبل البعيد، ولا بمكان دون آخر، مهما تغيرت أحوال المكان وامتدت إلى عوالم أخرى قد يرتادها الإنسان؛ وليس هذا فقط، بل إن الإسلام يستوعب كل القيم الإيجابية التي تتوصل إليها الحضارات الإنسانية بما فيها الحضارة الغربية الحديثة كما لو كانت موجودة فيه بالقوة، وإلا فلا أقل من أنه يقدر على التكيف معها، حتى تكاد تشكل جزءًا متكاملاً مع أجزائه القيمية الأخرى.

والملاحظ أن القيم التي تهيمن في نطاق العالمية، بحيث تكون أشد ظهوراً من غيرها، هي، على التعيين، القيم الفكرية؛ ذلك أن القرآن ما انفك يحثُّ الإنسان على النظر في الآفاق والتفكر في العواقب والتذكر في الابتلاءات وتدبُّر الآيات والاعتبار بسير الأمم، حتى جعل النظر نظرين والسمع سمعين، أحدهما انطباع حسي مجرد والثاني إدراك معنوي

يقوم على التأمل[١]؛ يترتَّب على هذا أن القيمة الفكرية التي تستحق أن تتقدم على ما عداها، بحيث تندرج تحتها القيم الإسلامية الأخرى في تكامل عمودي بينها إنما هي **«العقل»**.

وقد اختصت السلفية الإصلاحية، بالذات، بتجديد الوعي بالقيم الفكرية؛ فقد اجتهدت بالأساس في وضع المبادئ النظرية ورسم المعالم الضرورية لإخراج الأمة من حال التخلف الحضاري، سواء من جهة تحصيل أسباب المعرفة العلمية أو من جهة بناء الدولة الحديثة أو من جهة التفاعل مع الأنساق الفكرية الأجنبية، ناقلة إلى الأمة أسباباً عصرية تنهض بقيمها الفكرية؛ لكن يبقى أن نسأل هل استوفت هذه السلفية الحديثة شرط التكامل العمودي الخاص بتجلي العالمية؟

لئن سلَّمنا بأن السلفية الحديثة عَمِلت على فتح الموروث الإسلامي على الأفكار الحديثة في مجال العلم والحكم، قائمة بنهضة فكرية تُعرف باسم «الإصلاح»، فلا نُسلّم أنها استطاعت أن تربط بين هذه القيم الفكرية وبين باقي القيم الإسلامية، بحيث تُنشئ من هذا الربط وحدة قيمية متكاملة تُحتّم وجودَها عالمية الإسلام؛ والسبب في ذلك أنها، على الرغم من انطلاقها من العقيدة الإسلامية، توسلت، في إقامة هذا الربط بين القيم الإسلامية، بتصوّرين لا يمكن أن يؤديا إليه:

أحدهما، تصورُّها لوظيفة العقل؛ فقد كان هذا التصور هو عين التصور الذي وضعته جماعة الأنواريين في الغرب والذي يجعل العقل قوة إدراكية مجردة مستقلة عن غيرها ومستغنية بنفسها، أي قوة حاكمة على غيرها بإطلاق، لا محكوماً عليها؛ ونحن نعلم أن العقيدة الإسلامية تُقيِّد العقل على المستوى التجريدي، حتى لا يتعدى طوره، ولكنها توسّع نطاقه من وجه آخر بفضل ما يقترن به من الأعمال، حيث إنه يستمد منها مقاصد جديدة.

والثاني، تصورُّها للإصلاح الديني؛ فقد تصورت هذه السلفية الحديثة الإصلاح الديني على مقتضى الإصلاح «البروتستنتي» الذي دعا إلى الاستغناء بالنص الأصلي (أي

١- الآيات القرآنية في هذا الباب كثيرة، نخص بالذكر منها: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾** (سورة الأعراف، ١٧٩)؛ **﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾** (سورة الأعراف، ١٩٨)؛ **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ﴾** (٤٢) **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ﴾** (سورة يونس، ٤١-٤٢).

التوراة)، وقدَّم الإيمان المجرَّد على عمل العبادة في تحصيل الخلاص، حتى هجرَه أتباعُه من المصلَحين (بفتح اللام)، مستغنين عنه بالعمل الدنيوي.

ومن ثمَّ، كان لا بد أن تؤدي تبعيتها في دائرة الفكر إلى انقلاب مقصودها، هي الأخرى، إلى نقيضه؛ فقد أرادت تقوية الصلة بين الشريعة الإسلامية والفكر الحديث، فإذا بها تعمل على إضعاف هذا الصلة، حتى وُجد من أتباعها المتأخرين من أقدم على قطعها[1]؛ أو قل بإيجاز، فقد رامت تجديد الإيمانية الإسلامية، فإذا بها تبث العلمانية الغربية؛ وينهض دليلا على ذلك تراجع أحد أقطابها، وهو محمد رشيد رضا، عن جل الاجتهادات التي توصَّلت إليها، مدركا ما تتضمنه من بذور الفصل بين الشريعة والسياسة، وما يتولد من هذه البذور من إضعاف الروح الدينية الضرورية لمقاومة الاستعمار الذي استباح بلاد المسلمين؛ والحال أن هذه الروح، متى أُشبع بها قلب المسلم، حرَّكت، أكثر من غيرها، جوارحه إلى العمل؛ إذ ليس أقدر منها على الارتقاء بملكات الإنسان، وكلما ارتقت هذه الملكات، زادت قدرة الإنسان على تمثُّل القيم العملية والتخلق بها؛ وهكذا، يتضح أنه لم يكن بوسع السلفية الإصلاحية، وهي التي فُتنت بتقدُّم الغرب المخاصم للدين، أن تبني على القيم الفكرية قيماً عملية تشهد على رسوخ الروح الدينية، فوقعت بذلك في تجزيء ما لا يتجزأ من قيم العالمية الخاصة بالإسلام.

١.٢.٢. المقاومة الإسلامية وتكامل العالمية:

أما المقاومة الإسلامية بقيادة حزب الله، فلا تقع ألبته في هذا الانفصال بين القيم الفكرية والقيم العملية؛ وما كان لها أن تتمكَّن من الوصل بين قيم الإسلام في عالميته، لولا أن الإنسان الجديد الذي صنعته، والذي هو، أصلاً، إنسان رباني يُقدّم الآجل على العاجل، ويُقدّم الغير على الذات، ظل يعمل بمبدأين آخرين:

أحدهما، «**مبدأ العلم المستعمَل**»: لقد تفردت المقاومة بأن ضمت في صفوفها، بل بأن تولَّى تأطيرها دعوياً وتوجيهياً ومرجعياً مجموعة كبيرة من علماء الدين الذين جمعوا إلى زادهم من العلم قدرة متميزة على إبداع أساليب العمل في مواجهة الاحتلال، إيمانا منهم بأنه لا بد للعلم من نضال يكمله ويتكامل معه؛ فأعادوا إلى مراكز العبادة، مساجد وحسينيات، دورها التعبوي والجهادي، فضلا عن دورها في التربية على أركان العبادة؛ وقد

١- انظر كتابي: العمل الديني وتجديد العقل، ص ١٠٨-١١٠ .

انتظم هؤلاء العلماء العاملون في مؤسسات عُلمائية مختلفة منها «هيئة علماء جبل عامل» و«العلماء المسلمون في البقاع» و«تجمُّع العلماء المسلمين»، فضلاً عن علماء بارزين بقوا خارج هذه الإطارات التنظيمية؛ وقد نقسم هذه المجموعة من العلماء إلى فئات ثلاثة غير متباينة:

أولاها، العلماء الدعاة: لم تكتف هذه الفئة بأن تؤم بالناس الصلوات وتُلقي فيهم خطب الجمعة وتبين لهم تفاصيل شعائرهم وتزوّدهم بالأدعية والمواعظ والإرشادات، بل تجاوزت ذلك إلى اتخاذ أساليب عملية في مواجهة الاحتلال، فأشرفت على الاعتصامات في المساجد والحسينيات، وقادت حركات الاحتجاج الشعبي والرفض والتظاهر والإضراب ضد المحتل، وأحيت الذكريات التي تحمل دلالات التصدي والتحدي(١)، ونظمت المناسبات الدينية والسياسية التي يتم فيها تحريض الجمهور على المقاومة.

والثانية، العلماء المجاهدون(٢): لم تقف هذه الفئة عند عتبة المقاومة بالأساليب السلمية، بل تعاطت التدريب العسكري وخزّنت العتاد في بيوتها وحملت السلاح تباشر القتال بنفسها ضد العدو في مختلف نقاط تواجده، طالبة إحدى الحسنيين: إما النصر أو الشهادة، فسامها العدو ألوانا من الأذى، إن تهديدا أو ترويعا أو اعتقالا أو إبعادا أو اغتيالا(٣) أو محاولات اغتيال(٤).

والثالثة، العلماء المراجع(٥): فهذه الفئة من «مراجع التقليد»، وهي المؤتمنة على رسالة الإسلام في الأمة والمكلفة بأمر الاجتهاد في عصرها، قد أقرت مختلف أشكال المقاومة، جاعلة منها الطريق الوحيد لطرد الاحتلال؛ وتولت ترشيدها في مختلف أطوارها، ووضعت لها إطارها الشرعي الكامل وأصدرت، على التوالي، الفتاوي التي توجبها وتصعّدها وتعممها، مراعية تقلُّب الظروف الداخلية والخارجية.

-المبدأ الثاني، «**مبدأ الشخصية المتكاملة**»: واضح أن الشخصية المتكاملة ـ باصطلاح أهل المقاومة أنفسهم ـ هي التي توفَّرت على المقومات العقدية والفكرية والسلوكية

١- الاحتفالات بـ«يوم عاشوراء» و«يوم غدير خم» و«مولد المهدي».

٢- من هؤلاء الشيخ راغب حرب، والسيد عبد اللطيف الأمين، والسيّد عباس الموسوي.

٣- الشيخ محرم العارفي، والشيخ عبد الكريم عبيد، والشيخ علي ياسين، والشيخ يوسف دعموش.

٤- عبد المحسن فضل الله الذي تعرض لسبعة عشر محاولة اغتيال وحسين سرور ومحمد حسين فضل الله.

٥- العلامة محمد مهدي شمس الدين والعلامة محمد حسين فضل الله.

الضرورية والكافية لتحصيل كمالها؛ والجدير بالذكر أن العمل قد بلغ لدى هذه الشخصية أعلى رتبة، بحيث انطبعت به كل مقوماتها، واتخذ صورتين أساسيتين:

إحداهما الحالة الجهادية؛ وهذه الحالة ليست مجرد ممارسة الجهاد والمثابرة عليه، ولا حتى تقديمه في سلَّم الأوليات، وإنما هي **شكلُ حياة** يتخذه المقاوم الإسلامي لنفسه، وإلا فلا أقل من أنها نمطُ تفكير لا ينفك عنه؛ فالمقاوم لا يوجد في العالم إلا على جهة الجهاد، ولا ينظر في الأمور إلا بعين الجهاد؛ وبهذا، لا ينحصر عمله في خوض العمليات القتالية في الجبهات، ولا في اكتساب الاستعدادات الاستشهادية، بل يجاوزهما إلى أن يتعقب، خارج ساحة المعركة، مختلف الأسباب التي قد تمنع من تحصيل هذه الحال، متصديا لها بقوة؛ وأن يطلب، على العكس من ذلك، مختلف الأسباب التي تُثبّت هذه الحال، فيأخذ بها بقوة، بدءا باحتضان الأمة للمقاومة وانتهاء بالحفاظ على المكتسبات.

والثانية، الحالة الاقتدائية؛ وهذه الحالة ليست مجرد تقليد العالم في فتاويه في أمور العبادة خاصة، ولا حتى تقليد أحد المراجع في اجتهاداته في أمور الدين عامة، وإنما هي سعيُ المقاوم الإسلامي إلى إقامة صلة روحية دائمة وشاملة مع المرجع الكامل، سواء كان قريباً منه يشهد أفعاله أو بعيداً عنه يتلقى أخباره؛ وبفضل هذه الصلة الروحية الخاصة، ينفتح له باب التفاعل مع الأحوال القلبية لهذا المرجع على قدر طاقته، كما يتيسر له الارتباط روحياً بمن ورث منه هذا الأخير عِلْمه وعمله، ثم لم يزل يرتبط روحياً بالمراجع السابقين الواحد تلو الآخر، حتى يصل إلى الأئمة من آل البيت الأطهار، منتهياً بالنبي المختار، حتى كأنه يتلقى منه عمله مباشرة.

وهكذا، فإن تحقّق المقاوم الإسلامي بمبدأي «العلم المستعمل» و«الشخصية المتكاملة» يضفي على فكره دلالات عملية ترقى بآرائه واجتهاداته وتوسّع مجال تأثيرها في أعماله الأخرى؛ ذلك أن قيمه الفكرية تغدو مرتبطة بقيم عملية تمدها بقوة خاصة؛ وبفضل هذه القوة العملية، تصير قادرة على أن تستلزم القيم الإسلامية الأخرى؛ ومتى تحقّق للقيم الفكرية هذا الاستلزام القيمي، استوفت شرط التكامل العمودي الخاص بالتجلي الثاني للإسلام، وهو «العالمية»؛ وتحصيل المقاوم الإسلامي لتكامل العالمية **يُجدّد وعيه الديني**؛ ويتخذ هذا التجديد على مستوى العالمية صورة أخرى، وهي «**تجديد صلة المقاوم بالكون**»، ذلك لأنه يتحقق **بالاتساع في عقله**، علما بأن العقل هو رأس القيم الفكرية.

٣.١- تجديـد الوعـي الدينـي وتجلي «الجامعيـة»

لنأت أخيراً إلى بيان كيف أن المقاومة الإسلامية استطاعت أن تحفظ للحالة القيمية التي تجلى بها الإسلام في فترة المشروع الأصولي تكاملها العمودي، في حين أن صاحبة هذا المشروع، وهي السلفية المعاصرة بريادة الحركة الأصولية وقعت في تجزيء هذه الحالة القيمية المتجلية.

١.٣.١- المشروع السلفي الأصولي وتجزيء الجامعيـة:

إذا فحصنا هذا المشروع السلفي الأصولي، ظهر أن القيم الدينية التي رام تجديدَ الوعي بها تندرج تحت تَجلٍّ ثالث من تجلّيات الإسلام، وهو «**الجامعية**»؛ ومقتضى هذا التجلي الثالث هو أن الإسلام لا تنحصر قِيَمه في توجيه وتقويم ما يدخل في دائرة الشأن الخاص من اعتقادات وعبادات، بل تتسع هذه القيم لتوجيه وتقويم جميع ما يندرج في دائرة الشأن العام من معارف ومعاملات وسياسات، بحيث يكون الإسلام نظاماً متكاملاً من القيم المختلفة التي يحتاجها الإنسان(١).

والملاحظ أن القيم التي تهيمن في نطاق الجامعية، بحيث تكون أشد ظهورا من غيرها، هي بالذات **القيم السياسية**: ذلك أن القرآن ما انفك يحث على النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، ويدعو إلى مقاومة أشكال الظلم، ويوجب الحكم بالعدل بين الناس، وإقامة حدود الشريعة، والتصدي للشأن العام؛ يترتَّب على هذا أن القيمة السياسية التي تستحق أن تتقدم على ما عداها، بحيث تندرج تحتها القيم الإسلامية الأخرى في تكامل عمودي بينها هي «**الحكم**»(٢).

١- والمُراجع للكتاب والسنة وفقه المذاهب من الشيعة والسنة يظهر له بالبداهة أن دين الإسلام الذي جاء به النبي الأكرم «ص» لم تنحصر أحكامه في أمور عبادية ومراسيم وآداب فردية فقط، بل هو جامع لجميع ما يحتاج إليه الإنسان في مراحل حياته الفردية والعائلية والاجتماعية من المعارف والأخلاق والعبادات والمعاملات والسياسات والاقتصاد والعلاقات الداخلية والخارجية، فهو بنفسه نظام كامل يجمع الاقتصاد والسياسة أيضا». آية الله العظمى المنتظري، ولاية الفقيه، ص. ٨.

٢- من هنا يُدرك القارئ كون «الحاكمية» طغت في الخطاب الأصولي؛ فذلك يرجع إلى كون قيمة الحكم تتصدر القيم السياسية التي تتجلى بها الجامعية كما يرجع إلى كون القائلين بها - كما سيتضح الآن - فصلوها عن باقي القيم الإسلامية: وليس هذا مجال بسط الكلام في الالتباس الكبير الذي دخل على مفهوم «الحاكمية» وتوظيفِ بعضهم لهذا الالتباس لأغراض القدح والطعن؛ فسواء أُريد به أن لله السيادة المطلقة على الكون أو أريد به أن له التشريع المطلق على جميع أفعال الإنسان، فلا تتعارض الحالة الأولى مع أن يكون الإنسان سيدا في الكون. لأن السيادتين ليستا من نفس الجنس ولا بنفس الاعتبار؛ كما لا تتعارض الحالة الثانية مع أن يكون الإنسان مشرعا، لأنه قد يشرع على مقتضى مقاصد التشريع الإلهي حتى ولو لم يكن يريد ذلك، إذ أن المقاصد الإلهية تشمل كل ما يمكن أن يتوصل إليه الإنسان بنفسه من القيم والمصالح التي ترقى بإنسانيته.

وقد اختصت السلفية الأصولية المعاصرة، بالذات، بتجديد القيم السياسية؛ فبعد الإخفاق السياسي الشنيع الذي تعرَّض له المشروع القومي والحداثي، لم يكن بد من أن يَغمُر الساحةَ الإسلامية المحبَطة سيلٌ من الحركات الدينية التي يرفدها الشباب المتحمس، حركات تأخذ على عهدتها تغيير الواقع السياسي للأمة عن طريق تطبيق الشرع الإلهي لراسخ اعتقادها بأن الداء الذي يفتك بها ينحصر في فساد الحكم؛ ومن أجل تغيير هذا الوضع، تقلَّبت في وسائلها أيما تقلب، بدءا من المواجهة المسلحة للنظام القائم، وانتهاء بالاشتراك في اللعبة السياسية، مع ما قد ينشأ عن هذا الاشتراك من تحييد لأثرها أو تحريف لتوجُّهها، مروراً بمراتب أخرى في التعامل مع هذا النظام هي عبارة عن تكتيكات المناورة والتراجع والنوم إلى حين؛ لكن يبقى أن نسأل **هل استوفت السلفية المعاصرة الأصولية شرط التكامل العمودي الخاص بتجلّي الجامعية؟**

لئن سلَّمنا بأن السلفية المعاصرة نبَّهت على أهمية العامل السياسي في النهوض بالأمة، وكشفت عن أصوله في مصادر التشريع الإسلامي، قائمة بنهضة سياسية تُعرف باسم «الصحوة»، فلا نُسلّم بأنها استطاعت أن تربط بين القيم السياسية وبين باقي القيم الإسلامية، بحيث تُنشئ من هذا الربط وحدة قيمية متكاملة تُحتّمها جامعية الإسلام؛ والسبب في ذلك أنها، على الرغم من انطلاقها من الشريعة الإسلامية، توسلت، في إقامة هذا الربط بين القيم الإسلامية، بتصوّرين لا يمكن أن يؤديا إليه:

أحدهما، **تصورُها لوظيفة السياسة**؛ فقد كان هذا التصور هو عين التصور الذي يسود في الممارسة الحزبية الحديثة والذي يجعل السياسة عملاً يحكمه تقديم المنفعة الحزبية على المنفعة العامة، كما يحكمه تحقيق الغلبة على الخصم بكل الوسائل المتاحة، على اعتبار أن الغاية فيه تبرر الوسيلة؛ والحال أن هذه السلفية الأصولية كان يتعيَّن عليها أن تبتكر مفهوماً جديداً للممارسة السياسية يجعلها تتسع لمنافع غير المحازبين، بحيث يكون الحزب تابعاً للأمة، لا متبوعاً لها(١).

والثاني، **تصورها للعلاقة مع المخالف**؛ فقد كان هذا التصور متأثراً بالموقف العقدي الذي ورثته عن السلفية التقليدية، وأيضاً بالموقف السياسي الذي اضطرتها إليه قوى الاستعمار العالمية؛ فأصبح عندها المخالف، مسلماً كان أو غير مسلم، موسوما بسمة

١- هذا الهم هو الذي جعل المقاومة الإسلامية تضع نفسها في إطار أمة حزب الله، لا في إطار حزب الله من أحزاب الأمة.

الانحراف العقدي، ومستحقا لأن يحارَب محاربة المعتدي؛ والحال أنه كان يتعيّن عليها أن تتخلص من هذا التأثير الذي ازدوج فيه الاختلاف العقدي بالظلم السياسي، وأن تبني تصوراً جديداً للمخالف يتسع لاعتباره والاعتراف بحقوقه حتى ولو خالف عقيدتها وجار على حقوقها.

ومن ثمَّ، كان لا بد أن يؤدي انحصارها في دائرة السياسة إلى **انقلاب مقصودها**، هي كذلك، **إلى نقيضه**؛ فقد أرادت إقامة النظام السياسي للأمة على الشريعة الإسلامية، فإذا بها تعمل على قطع الأسباب الموصِّلة إلى هذا النظام، ذلك أنها وقعت في محذورين اثنين:

أحدهما، أنها رَدَّت مجمل الشريعة الإسلامية إلى الممارسة السياسية، وفي هذا تعسُّف كبير؛ وكان هذا الرد يصح لو أنها لم تتعاطَ السياسةَ على مقتضى التصور الحزبي المنفعي الضيق، وتعاطتها على مقتضى التصور الأخلاقي الواسع الذي يختص به الإسلام، إذ يجوز أن نعرِّف الشريعة تعريفاً يجعلها أشبه بالسياسة إن لم يجعلها مطابقة لها؛ فكما أن السياسة إجمالاً هي إدارة شؤون الناس بواسطة قوانين مخصوصة، فكذلك الشريعة هي، إجمالا، إدارة شؤون الناس بواسطة أحكام مخصوصة[1].

والمحذور الثاني، أنها سخَّرت القيم الدينية لتكريس تصورها السياسي، على اختلاله، بما جعل التدين - وهو الذي ينبغي أن يُعدَّ غاية في ذاته - يبدو وكأنه مجرد وسيلة للتمكن من مقاليد الحكم؛ وهكذا، يتضح أنه لم يكن بمقدور السلفية الصحوية، وهي التي استولت عليها الرغبة في تسلُّم السلطة، أن تبني القيم السياسية على قيم أخلاقية تجعل نظام الحكم المختار راسخا في المرجعية الإسلامية؛ وبهذا وقعت، هي الأخرى، في تجزيء ما لا يتجزأ من قيم الجامعية الخاصة بالإسلام.

١.٣.٢- المقاومة الإسلامية وتكامل تجلي «الجامعية»:

أما المقاومة الإسلامية بقيادة حزب الله، فلا تقع ألبته في هذا الانفصال بين القيم السياسية والقيم الأخلاقية؛ وما كان في مكنتها أن تصل بين قيم الإسلام في جامعيته، إلا لأن الإنسان الجديد الذي أرادت صنعه، والذي هو، أصلا، إنسان رباني يُقدّم الأخروي

١- قال الإمام الخميني: «إن السياسة التي تصفها، فإني تاركها لكم، وأما السياسة التي أعمل بمقتضاها، فهي شيء آخر، إنها سياسة الصدق في خدمة عباد الله، فإن سياستنا هي عين ديننا، وديننا هو عين سياستنا». الشيخ حسن حمادة، سر الانتصار، ص. ٦٨.

على الدنيوي ويُقدّم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، يلتزم بمبدأين أخلاقيين:

-**أولهما، مبدأ الصدق الكامل؛ لم يسبق لحركة نضالية معاصرة أن تعاطت مع** الأحداث السياسية والعسكرية بالصدق الذي تحلت به المقاومة الإسلامية، حتى كادت تبدو حركة شاذة في هذا الزمان الذي ابتُلي بالكذب؛ وما ذاك إلا لأن المقاوم الإسلامي لا يكمِّل جهاده لعدوه، بل لا يقطع بنصر الله له، حتى يكون قد جاهد نفسه طويلاً، فروَّضها على الطاعات والصالحات، نازعاً منها الأهواء والأغراض، وزارعاً فيها صدق التوجه بالأعمال إلى الله وحده، طلبا لمرضاته وتحققا بخشيته دون سواه؛ ومن حصَّل الصدق مع الله، **لم يُعجزه الصدقُ مع غيره، لأنه لا مكان لخشية الناس في قلبه، ولا للخوف على نفسه؛** فنجد لصدقه عدة مستويات:

أولها، **الصدق مع الذات**؛ والذات هنا على نوعين: **ذاته الخاصة** التي هي شخصه، فلا يخالف ظاهرُه باطنه ولا عملُه نيته، حتى يستوي عنده الظهور والخمول، والعلن والسر، إلا أنْ تقتضي المصلحة أن يُذكر اسمه ويُعرف عمله؛ **وذاته العامة** التي هي الأمة، فلا يخبرها بالأشياء على خلاف ما هي عليه، ولا يَعِدها بما لا يفي به، ولا يدعوها إلى ما لا تقدر عليه، ويظل في شفافية تامة معها، حتى في ما تألم له - إصابات في الأنفس كانت أو خسائر في الأموال - زافّاً إليها الشهداء ومحتسباً أجر ما ضاع.

والثاني، **الصدق مع العدو**؛ لم يَصدُق عدو عدوَّه صدق المقاوم الإسلامي أعداءَه، حتى تقرَّر عندهم صدّيقاً، فصدَّقوه ولم يصدّقوا بعضهم بعضاً؛ وهل في الصدق معهم أبلغ من أن يُطلعهم على خططه في الرد على اعتداءاتهم، وأن يدلهم على أسرار صموده ضدهم، بل على سر انتصاره اليقين عليهم، ألا وهو **أن المقاوم يملك إيمانا لا يملكه أحد على وجه البسيطة!** ولو أنه يعلم أنهم، وإن سمعوه وصدَّقوه، فهم قوم لا يعون ولا يفقهون، متمادين في الغي ومصرين على العدوان.

والثالث، **الصدق مع العالم**؛ لقد أضحت ممارسة السياسة في عالم اليوم مقترنة بالمهارة في الكذب، بل بات الفرق بينهما لا يعدو كون **السياسة هي أن تَثبُت على كذبك، حتى يصدّقك الجمهور، بينما الكذب قد لا تثبت عليه أو لا يُصدقك أحد**؛ حتى إن بعضهم ذهب إلى أن السياسة هي كذلك مذ كانت، بموجب قانون التسلط الذي يحكمها، فدعا الإسلاميين، وهم المتعلقون بقيمة الصدق، أن يتركوا السياسة لمن لا يصلها بالدين،

ولا بالأولى يُدخلها فيه؛ غير أن المقاوم الإسلامي يأبى إلا أن يمارسها بصدق، وأن يتصدى للباطل فيها، مقيماً حداً فاصلاً بين «سياسة الرأي» التي أصبح الكذب يغشاها، و«سياسة الحق» التي يَصدق فيها القولُ ويُصدِّقه الفعل؛ ولا نعدو الصواب إن قلنا بأن المقاومة هي المدرسة التي سوف تبقى تُذكِّر السياسيين في العالم بواجب الصدق، بل سوف تظل تُعلّمهم كيف يصدقون في أقوالهم وأفعالهم؛ وهل في الأقوال أصدق من العهد الذي يقطعه المقاوم على نفسه! وهل في الأفعال أصدق من استشهاده!

- **الثاني، مبدأ الاختيار الشامل**: لم ترع حركة دينية إسلامية مبدأ الاختيار في الدين رعاية حركة المقاومة الإسلامية له، منطلقة من الآية الكريمة: «لا إكراه في الدين»؛ فلولا وجود الاختيار، لما وُجدت المسؤولية، ومعلوم أن المسؤولية هي الأصل في الأخلاق؛ ولم تحصُر المقاومة مدلول هذا المبدإ في جانب العقيدة كما حصرته الحركات الإسلامية الأخرى، بل عمَّمته على جوانب الدين كلها، متفقة مع تعريفات للدين تنص على عنصر «الاختيار» فيه كتعريف ابن خلدون الذي يقول: «الدين وضع إلهي سائق للبشر **باختيارهم** إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم»[1]؛ وتترتب على هذا التعميم نتيجة غاية في الأهمية، وهي أن غير المسلم، وإن لم يختر جانب القيم العقدية من الإسلام، فقد يختار جانب القيم الروحية أو جانب القيم الفكرية أو جانب القيم السياسية؛ ومن هنا، تتمكن المقاومة الإسلامية من فتح آفاق سياسية ثلاثة:

أولها، جَعْل التشريع قائما، لا على مبدإ الوضع كما اشتهر، وإنما على مبدإ الاختيار؛ إذ ليس المطلوب أن يضع الشعب بنفسه كل القوانين المنظمة لشؤونه: فيجوز أن يُقلّد فيها غيره من الشعوب لضعف تجربته السياسية أو أن يتلقاها من المشرع الإلهي الذي هو أدرى بمصالح عباده؛ وإنما المطلوب أن يمارس بكل حرية حق اختياره لهذه القوانين، سواء وضعها كلَّها من عنده أو وضع بعضها أو تولَّى غيرُه وضع بعضها أو رسم له حدود هذا الوضع، إنساناً كان أو إلهاً.

والثاني، طرْح الإسلام كنظام للحكم، في البلاد ذات الطوائف الدينية المختلفة أو ذات

١- ورد معنى «الاختيار» هذا أيضا عند علماء آخرين مثل أبي البقاء في الكليات، إذ يقول: «لأنه -أي الدين- عبارة عن وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات، قلبياً كان أو قالبياً، كالاعتقاد والعلم والصلاة (ص. ٤٤٣، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت)»؛ وأيضا التهانوي في كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، إذ يقول: «ويقال الدين هو وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل»(ص. ٤١٨، ط. مكتبة لبنان ناشرون).

الأقلية الإسلامية، إلى جانب ما يُطرح فيها من أنظمة حكم غير إسلامية؛ إذ يصير الفاصل بينها هو إرادة الشعب في كليته، فهو الذي يختار بنفسه شكل نظامه؛ فإن رضي بالإسلام نظاماً، فبها ونعمت؛ وإن لم يرض به، فقد أُفرِغت الذمة من واجب الدعوة إليه(١).

والثالث، إبطال الطائفية السياسية، حيث إن ممارسة الاختيار لا تستقيم إلا ضمن نظام حكم عادل؛ فإذا النظام لم تتوفر فيه المساواة، أصبح الاختيار في ظله غيرَ ذي موضوع، بل أصبح مدلوله لاغياً، إذ لو أنك تكلَّفت الاختيار في نطاق نظام كهذا، لكنت كمن يشرع الظلم الواقع عليك؛ ومعلوم أن هذه الطائفية تقوم على توزيع حصص للمسؤوليات متفاوتة بين الطوائف، فيلزم أنها لا تسمح بتكافؤ فرص الاختيار بين المواطنين، فيغدو الاختيار معها غير ذي معنى(٢).

وهكذا، فإنَّ تحقُّق المقاوم الإسلامي بمبدأي «الصدق الكامل» و«الاختيار الشامل» يضفي على سياسته دلالات أخلاقية ترقى بقراراته ومواقفه وتوسّع نطاق نفوذها في أعماله الأخرى؛ ذلك أن قيمه السياسية تغدو مرتبطة بقيم أخلاقية تمدها بقوة خاصة(٣)؛ وبفضل هذه القوة الأخلاقية، تصير قادرة على أن تستلزم القيم الإسلامية الأخرى؛ ومتى تحقَّق للقيم السياسية هذا الاستلزام القيمي، استوفت شرط التكامل العمودي الخاص بالتجلي الثالث للإسلام، وهو «الجامعية»؛ ومن هنا، فإن تحصيل المقاوم الإسلامي لتكامل الجامعية **يُجدِّد وعيه الديني**، ويتخذ هذا التجديد على مستوى الجامعية صورة جديدة، وهي «**تجديد صلة المقاوم بالإنسان**»، ذلك لأنه يتحقق **بالشعور بالمسؤولية في حكمه**، علماً بأن الحكم هو رأس القيم السياسية.

وخلاصة ما تقدم هو أن المقاومة الإسلامية تمتاز عن السلفية الإحيائية بكونها تحفظ التكامل العمودي لقيم الخاتمة، نظراً إلى أن وصلها للقيم العقدية بالقيم الروحية يُولِّد

١- «إذا ما أتيح لشعبنا أن يختار بحريته شكل نظام الحكم في لبنان، فإنه لن يرجح على الإسلام بديلا. ومن هنا ندعو إلى اعتماد النظام الإسلامي على قاعدة الاختيار الحر والمباشر من قبل الناس، لا على قاعدة الفرض بالقوة كما يخيل للبعض»، ميثاق حزب الله بتاريخ ١٦ شباط ١٩٨٥.

٢- «حزب الله ليس حزباً طائفياً، ولا حزباً للطائفة، إنه حزب إسلامي على منهج أهل البيت عليهم السلام، وله رؤيته المتكاملة، ويضم في صفوفه من آمن بأفكاره ومنهجه، بصرف النظر عن انتسابه الطائفي بالولادة»، الشيخ نعيم قاسم، حزب الله: المنهج، التجربة، المستقبل، ص. ٢٩٩-٣٠٠.

٣- أستعمل هنا لفظ «الأخلاق» بمعناه الضيق المتداول، لا بمعناه الواسع الخاص بي كما فعلت في بعض كتبي التي باشرت فيها تأسيس نظرية أخلاقية إسلامية.

باقي القيم الإسلامية؛ وأيضا تمتاز عن السلفية الإصلاحية بكونها تحفظ التكامل العمودي لقيم العالمية، نظرا إلى أن وصلَها للقيم الفكرية بالقيم العملية، هو الآخر، يُولِّد باقي القيم الإسلامية؛ وأخيرا، تمتاز عن السلفية الأصولية بكونها تحفظ التكامل العمودي لقيم الجامعية، نظرا إلى أن وصلها للقيم السياسية بالقيم الأخلاقية، هو كذلك، يُولِّد باقي القيم الإسلامية؛ كل ذلك يجعلها تقوى على تجديد الوعي بالقيم الدينية وتحقيق قومة إسلامية بما لا تقوى عليهما هذه الحركات السلفية الثلاث؛ **فواضح أن العقيدة بلا روح أقل وعياً بحقيقة الدين من العقيدة مع الروح**؛ وأيضاً **أن الفكر بلا عمل، هو الآخر، أقل وعيا بهذه الحقيقة من الفكر مع العمل**؛ وأخيراً **أن السياسة بلا أخلاق، هي كذلك، أقل وعيا بحقيقة الدين من السياسة مع الأخلاق.**

٢ـ المقاومة الإسلامية والتكامل الأفقي لتجليات الإسلام

لكن المقاومة الإسلامية لا تمتاز على هذه الحركات السلفية في حفظ التكامل العمودي للقيم الإسلامية في تجلياتها الثلاثة، متعاطية تجديد الوعي الديني بقدر لا تبلغه هذه الحركات فحسب، بل إنها تزيد على هذا الامتياز درجة، حيث إنها تتفرد عنها بقدرتها على أن تحفظ لهذه التجليات القيمية الثلاثة تكامل بعضها مع بعض، أي ما أسميته بـ «التكامل الأفقي»، فإذن كيف يتحقق لها هذا الأمر؟

رأينا أن كل تكامل من التكاملات العمودية الثلاثة يقوم على مبدأين، فتكامل الخاتمية يقوم على مبدإ المعية الإلهية ومبدإ الاتصال الروحي، وتكامل العالمية على مبدإ العلم المستعمَل ومبدإ الشخصية التكاملية، وتكامل الجامعية على مبدإ الصدق الكامل ومبدإ الاختيار الشامل؛ فكذلك التكامل الأفقي الذي تنهض به المقاومة الإسلامية يتأسَّس على مبدإ خاص لا نجد له نظيراً في الحركات السلفية المذكورة، مما جعلها لا تقدر على الجمع بين التجليات الثلاث للإسلام، وجعل كل واحدة منها تستقل بواحد من هذه التجليات وتَحصُر كل جهودها فيه، رافعة له إلى رتبة التجلي المحيط بالإسلام كله؛ وما هذا المبدأ الذي تفردت به المقاومة الإسلامية، والذي أقدرها من دون سواها على الوصل بين التجليات القيمية الثلاثة للإسلام، سوى «مبدأ الولاية العامة»[١].

١- اشتهر التعبير عن مفهوم «الولاية العامة» بمصطلح «ولاية الفقيه»؛ ويبدو لي أن اختصاصها بالفقيه جعل الذين

٢.١- مبدأ الولاية العامة

معلوم أن حديث العلماء والمفكرين بصدد هذا المبدإ قد طال وتشعب؛ ولا يهمني هنا إلا الوجه الذي يدفع به هذا المبدأ **المعاملة التجزيئية** التي يتعرض لها الإسلام في مختلف البلدان الإسلامية[١]؛ فبناءً على ما تقدم، لا مجال للشك في أنه ما لم تكن ثمة «ولاية عامة» في العالم الإسلامي، فلا مطمع في أن يهتدي المسلمون إلى الوصل بين الأنواع الستة من القيم التي تحملها تجليات الإسلام بين خاتمية وعالمية وجامعية، ولا بالأولى أن يهتدوا إلى الاستفادة من وجوه التفاعل بين هذه الأنواع القيمية المختلفة في تجديد رسالته إلى البشرية؛ ألا ترى كيف صرنا نسمع عن شتات من «الإسلامات»: «الإسلام العقدي» و«الإسلام الروحي» و«الإسلام الفكري» و«الإسلام العملي» و«الإسلام السياسي» و«الإسلام الأخلاقي»! وحتى نوضح كيف يتم دفع هذه التجزيئية المنحرفة التي أصابت المسلمين في دينهم، نصوغ مبدأ الولاية العامة على الوجه التالي:

- لا يتحقق التكامل بين تجليات الإسلام الثلاثة: «الخاتمية» و«العالمية» و«الجامعية» في فترة معينة من فترات الأمة إلا مع إنسان ارتقى توحيده إلى أعلى رتبة في الإخلاص، وعقلُه إلى أعلى رتبة في الاتساع، وارتقى حُكمه إلى أعلى رتبة في المسؤولية بالنسبة لهذه الفترة.

= تأثرت عقولهم بالثقافة الغربية ينزلون الفقيه منزلة رجل الدين في مقابل رجل الفكر ورجل السياسة في هذه الثقافة؛ وشتان بين الرجلين: فالفقيه يحيط بما يحيط به رجل الفكر ورجل السياسة، فضلاً عن إحاطته بأمور العقيدة، بينما رجل الدين الغربي تبقى معرفته محصورة في نطاق العقيدة، ومتى جاز أن يُحصل معرفة في مجال غير الدين، لم يُمكّنه ذلك من تصدي الشأن العام؛ لذا، أرى من المناسب، دفعاً لشبه المغرضين والجاهلين، الاكتفاء بتسمية «الولاية العامة»؛ ومَن استحق رتبتها فهو في ذات الوقت «فقيه ومفكر وسياسي» على مقتضى الشروط المعلومة؛ وقد سعيت في بحثي إلى أن أعطيها هذا البعد العام الذي يدفع اعتراضات الذين يحملون في قلوبهم غلا لأهل الدين.

١- «مما يؤسف له أن الإسلام ابتلي بقوم جعلوه لحما على وضم، فأعملوا في كيانه سكين التقطيع والتجزئة، مغيّرين لطبيعته التي أنزله الله عليها: فهناك من يريد الدين مجرد عقيدة نظرية بلا عبادة ولا عمل.... ومنهم من يريده عبادة بلا أخلاق. أو أخلاقاً بلا تعبد....، ومنهم من يريده عقيدة وعبادة وأخلاقاً، ولا يريده تشريعاً ولا نظاماً للحياة....، وقام في بلاد المسلمين من يفصل بين الإسلام والحكم، وينادي به ديناً بلا دولية، وعقيدة بلا شريعة، وقرآناً بلا سلطان...□. إن الإسلام في عقائده وأخلاقياته وتشريعاته وحدة مترابطة، لا تقبل التجزئة، ولا يجوز أخذ بعضها وإهمال بعضها، فإن الذي شرعها واحد، وهو الله تعالى الذي أمر بطاعته فيها. وحذر من تركها أو ترك بعضها». يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية، وهموم الوطن العربي والإسلامي، دار الصحة للنشر، القاهرة، ١٩٨٨.

وبناءً على هذا التعريف للولي العام، يمكن أن نتوصل إلى النتائج التالية:

أ. أن التكامل الأفقي للإسلام مبني على تكامله العمودي، حيث إن أمهات القيم الإسلامية، أي «التوحيد المخلِص» و«العقل الموسَّع» و«الحكم المسؤول» هي نفسها التي يُتوسَّل بها في إقامة التكامل الأفقي، إلا أنها، ها هنا، تتساوى في الرتبة، قدراً وظهوراً.

ب. أن التكامل الأفقي يتحقق على يد فَرد بَلغ وعيُه الديني أعلى رتبة، بحيث جدد صلته بالله وصلته بالكون وصلته بالإنسان بقدر لا يضاهيه فيه غيره في وقته؛ إذ يكون توحيده قد بلغ أعلى درجة في الإخلاص، وعقله بلغ أعلى درجة في الاتساع، وحكمه بلغ أعلى درجة في المسؤولية بالنسبة لهذا الوقت.

ج. أن التكامل الأفقي درجاتٌ تختلف باختلاف فترات الأمة، إذ لكل فترة درجتها العليا في إخلاص التوحيد، ودرجتها العليا في اتساع العقل، ودرجتها العليا في الشعور بمسؤولية الحكم، هذه الدرجات التي يجب أن ينزلها الولي العام المؤهل لهذه الفترة.

د. أن قدرة الولي العام على إقامة التكامل الأفقي تزداد بازدياد ارتقائه في رُتب التوحيد المخلص ورُتب العقل المتسع ورُتب الحكم المسؤول.

هـ. أن الولي العام الأكمل هو من بلغ توحيده النهاية في الإخلاص وبلغ عقله النهاية في الاتساع وبلغ حكمه النهاية في المسؤولية في وقته.

و. أن التكامل الأفقي الأتم الذي لا مزيد عليه هو الذي ينهض به الولي العام الأكمل، بحيث تتَّحد فيه القيم الثلاث حتى كأنها قيمة واحدة، إذ يجد في عمله السياسي أو إنتاجه الفكري من أسباب التدين ما يجده في اعتقاده بوحدانية الله؛ فكل الأعمال أضحت عنده عبادة، عقيدة كانت أو فكراً أو سياسة.

٢.٢- الوعـي الدينـي الأقـوم

إذا كان الولي العام بهذه الأوصاف، فلا مناص من أن ترتبط به المقاومة الإسلامية، حتى تدفع عن نفسها آفة التجزيئية التي تبقى تتهددها ولو أنها حققت التكامل العمودي الذي يتطلبه كل واحد من التجليات التاريخية للإسلام والذي فات كل حركات التجديد السلفية؛ ذلك أن هذا الارتباط يُوفِّر لها أسباب التكامل بين هذه التجليات الثلاث؛ وقد تقدَّم أن كل تكامل يحقق للمقاومة تجديداً خاصاً في وعيها الديني؛ فتكامل الخاتمية يجدد صلتها بالله، وتكامل العالمية يُجدّد صلتها بالكون، وتكامل الجامعية يُجدّد صلتها بالإنسان؛ فإذن لا بد أن يُحدث التكامل الأفقي بين هذه التكاملات العمودية الثلاثة، هو الآخر،

تجديداً في الوعي الديني للمقاومة أرفع رتبة من التجديد الذي حققته هذه التكاملات الأخرى، إذ هو ثمرة تفاعل هذه التجديدات الثلاثة بعضها مع بعض؛ فلِنُطلق على هذا الوعي الذي وَسِع أكبر عدد من القيم المتفاعلة فيما بينها اسم **«الوعي الديني الأقوم»**؛ ولنوضح كيف تتجلى أقومية هذا الوعي في سلوك المقاومة الإسلامية.

يمكن القول بأن الوعي الديني الحاصل بطريق التكامل الأفقي يجعل المقاومة الإسلامية في **حالة امتداد شامل**، مبرزاً دورها الرسالي في المجتمع الإنساني.

تتجلى هذه **الحالة الامتدادية** للمقاومة في ثلاثة مستويات أساسية:

أولها، **الامتداد في الزمان**، وهو **«الاستمرار»**؛ حقاً، إن العمل المقاوم يراهن على المستقبل في الوصول إلى النصر، بحيث تكون الاستمرارية عاملاً من عوامل نجاحه في التصدي لكل تحدٍّ، كائنا ما كان[١]؛ فما بالك إذا لم تكن تحديات الظلم والحرمان التي تواجه الأمة منحصرة في فترة زمنية مخصوصة، بل تتعداها إلى فترات متلاحقة تبقى آخر فترة منها في طي الغيب، ولم يكن المطلوب هو دفع هذه التحديات فقط، بل قطعُ الأسباب وإزالة الظروف نفسها التي لا تفتأ تُولّدها! فحينذاك، تغدو المقاومة بقيادة الولي العام واعية بأن ذمتها لا تفرغ أبداً بالتغلب على هذا التحدي أو ذاك، وإنما هي لا تزال مشغولة ما بقي سبب من أسباب الاغتيال للقيم الإنسانية في أي فترة من الفترات؛ فها هنا، الاستمرارية تجاوز كونها عاملَ نجاح للمقاومة لكي تصبح شرطاً في وجودها وكمالها.

والثاني، **الامتداد في المكان**، وهو **«الانتشار»**؛ ليست التحديات التي تواجهها الأمة محدودة بالمكان ولو كان منطلق تصديها لها مكاناً بعينه، بل إنها تحديات تتسع للعالم بأسره وتشكّل خطراً على الإنسانية جمعاء[٢]؛ والمقاومة الإسلامية، بموجب تمسكها بالولاية العامة المهتمة، لا بوحدة المسلمين فقط، بل بوحدة المستضعفين في الأرض، مؤمنين كانوا أو غير مؤمنين، تعي أكثر من غيرها أنه يتعين عليها أن تتولى تجديد، بل توليد القيم الكفيلة بمناهضة الظلم والقهر حيثما كان، وأن تبثها في جموع المظلومين والمحرومين أينما

١- «إن الأداء المقاوم عمل تراكمي لا تتحقق نتائجه بجولة أو جولات، فالرهان على مواصلته ليؤدي نتيجته في المستقبل. ولا يقتصر النصر على العامل العسكري فقط، فهناك عوامل عديدة تتداخل لتؤدي إلى النصر، منها الأداء الفعال، والمعنويات العالية، وتدخل الظروف المحلية والإقليمية والدولية»، نعيم قاسم، حزب الله، ص.١٠٤.

٢- نحو «الصهيونية» و«الامبريالية الجديدة» و«الاستكبار العالمي».

وجدوا، كما يتعين عليها أن تقيم علاقات وتحالفات مع قوى الممانعة في كل مكان، متجاوزة الحدود الجغرافية والعقدية والثقافية والعرقية، سعياً وراء تحقيق عالم أفضل يملأه العدل والسلام، لا سيما وأن ما راكمته من الانتصارات وفتحته من آفاق كانت غير منظورة من قبل، يؤهلها لأن تكون أفضل نموذج نضالي يفزع إليه الممانعون في العالم، مقتدين به في ثورتهم على قوى الاستكبار والاستبداد.

والثالث، **الامتداد في الشكل**، وهو «التقلُّب»: لا تظهر أقومية المقاومة الإسلامية مثلما تظهر في قدرتها على التقلب بين المكونات القيمية الثلاثة لتكاملها الأفقي؛ إذ يصبح بإمكانها أن تُغيّر أشكال وأساليب عملها بتغير الظروف الميدانية والاعتبارات السياسية الداخلية والخارجية وموازين القوى وبحسب مستويات المعركة المختلفة وأهداف التغيير المرتقبة؛ فقد تنتقل من العمل المسلَّح إلى العمل السياسي أو العمل الفكري أو العمل العقدي، أو تجمعه إلى واحد من هذه الأعمال أو إلى أكثر من ذلك[1]؛ وقد تتخلى عنه لوقت محدود أو لأجل مسمى، مكتفية بالمقاومة السياسية، حتى تنتزع حقوقها في المشاركة السياسة، وترفع ظلم الحرمان والتهميش عن فئات من الناس؛ أو تكتفي بالمقاومة الفكرية، حتى توضح مبادئها وأهدافها ومشروعها وبرامجها؛ أو تقتصر على المقاومة العقدية، داعية إلى التعرف على مخزون الإسلام من القيم والمبادئ الروحية والعملية والأخلاقية وإلى إعطاء هذه القيم فرصة التنافس في الساحة الوطنية والعالمية، حتى تظهر فائدتها للآخرين، وتطلب حظها في مجال التطبيق؛ بل لها أن تزاوج بين هذه المقاومات غير العسكرية، فتجمع مثلاً بين الدعوة والسياسة، جاعلة نشاطها النضالي في ساحة الواقع السياسية امتداداً لنشاطها التعبدي في ساحة المسجد أو تَجمع بين الفكر والسياسة، حتى تبني صرحاً من المفاهيم والتصورات وتُفرِّع عليها آراء ونظريات، بل تفرِّع عليها فلسفة كاملة تؤسس لمشروعها النضالي الشامل؛ وهكذا دواليك، في انتقال مدروس وموصول بين مختلف جبهات الممانعة التي يفتحها تكامل المقاومة الإسلامية.

وبإيجاز، إن الوعي الديني الذي تورّثه المقاومة الإسلامية المؤمنة بمبدإ «الولاية العامة»

١- «لا يمكن لأي عمل جهادي أن يكون معزولاً عن عمل سياسي يواكبه ويتكامل معه ويراكم ثماره باتجاه تحقيق الأهداف، كما لا يقتصر عمل الحزب على مقاومة الاحتلال كهدف حصري. فالمقاومة وإن كانت التعبير الأبرز ولها الأولوية في حركة حزب الله، لكنه يحمل مشروعاً متكاملا ينطلق من رؤيته الإسلامية للعمل على الساحة اللبنانية بكل متطلباتها ومستلزماتها. كما يطل على قضايا المنطقة من منطلق ارتباطها بما يجري في لبنان، وبما تُلقى عليه من تبعات بسبب إيمانه ومسؤوليته الشرعية»، الشيخ نعيم قاسم، حزب الله: المنهج، التجربة، المستقبل، ص.١٤٣.

لا يستغرقه نوع معين من القيم مأخوذٍ من إحدى دوائر التجلي القيمي للإسلام ولو كان يستلزم القيم الأخرى، بل إنه يستوعب كل أنواع القيم التي تدخل في كل دوائر هذا التجلي، بحيث يصبح وعيا مستمرا غير منقطع، ومنتشرا غير منطوٍ، ومتقلباً غير متجمد؛ ولا مجال للشك في أن الوعي الديني الذي يكون بهذه الصفات يجمع من إمكانيات المبارزة للأعداء ومن أسباب الانتصار على قوى الشر ولو كان «الشر المطلق»[1] ما لا يجتمع لغيره من أشكال الوعي المقاوم[2].

وفي الختام، لا يبقى إلا أن أستجمع الأفكار التي تم التطرق إليها، فأقول بأن المقاومة الإسلامية بقيادة حزب الله استطاعت أن تحقق للأمة وعياً متكاملاً بالقيم الإسلامية فاق في سَعته ورُتبته ما حققته المشاريع السلفية للتجديد الديني، فاتحة بذلك عهد الانتصار للأمة.

لقد تبيّن أن المشروع الإحيائي، وإن تجلّى فيه الإسلام بخاتميته، فقد أخلَّ بشرط التكامل العمودي الذي يَخُصُّ هذا التجلي والذي تتصدَّر فيه القيم العقدية، فاصلا بين هذه القيم الأخيرة وبين لوازمها من القيم الروحية؛ بينما استطاعت المقاومة الإسلامية، بفضل التزامها بمبدإ «المعية الإلهية» ومبدإ «الاتصال الروحي»، أن تُقيم الوصل بين النوعين من القيم؛ فحازت بذلك تكامل الخاتمية الذي جعلها تُجدّد صلة المقاوم بالله، إذ تَحقَّق بالإخلاص في توحيده.

كما تبيّن أن المشروع الإصلاحي، وإن تجلّى فيه الإسلام بعالميته، فقد أخل بشرط التكامل العمودي الذي يَخُصُّ هذا التجلي الثاني والذي تتصدّر فيه القيم الفكرية، فاصلاً بين هذه القيم الأخيرة وبين لوازمها من القيم العملية؛ في حين استطاعت المقاومة الإسلامية، بفضل التزامها بمبدإ «العلم المستعمَل» وبمبدإ «الشخصية المتكاملة» أن تقيم الوصل بين النوعين من القيم؛ فحظيت بتكامل العالمية الذي جعلها تُجدّد صلة المقاوم بالكون، إذ تَحقَّق بالاتساع في عقله.

١- نشير هنا إلى المقولة المشهورة لموسى الصدر: «إسرائيل شر مطلق، قاتلوهم بأسنانكم وأظافركم».

٢- «سيكون هذا الانتصار حافزا للوحدة والتكامل، وليس عاملاً للتغلب والاستعلاء، سيكون هذا الانتصار دافعا قويا لتجسيد وحدتنا الوطنية التي جسدها شعبنا في هذه الأيام وجسد من خلالها قيم السيد المسيح عليه السلام، وقيم رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم في التكافل والتضامن والتحاب والتآزر واللهفة والتعاون والمحبة التي أبداها الناس جميعاً»، نصر الله، يوميات الحرب الإسرائيلية، ص. ٢٤٨.

وأخيراً تبيَّن أن المشروع الأصولي، وإن تجلَّى فيه الإسلام بجامعيته، فقد أخلَّ بشرط التكامل العمودي الذي يَخُصُّ هذا التجلي الثالث والذي تتصدّر فيه القيم السياسية، فاصلا بين هذه القيم الأخيرة وبين لوازمها من القيم الأخلاقية؛ بينما استطاعت المقاومة الإسلامية، بفضل التزامها بمبدإ «الصدق الكامل» ومبدإ «الاختيار الشامل»، أن تقيم الوصل بين النوعين من القيم؛ ففازت بتكامل الجامعية الذي جعلها تجدّد صلة المقاوم بالإنسان، إذ تَحقّق بالمسؤولية في الحكم.

ولم تكتف المقاومة الإسلامية بالتكامل العمودي في تجلياته الثلاثة، وهي مفترقةٌ بعضها عن بعض، بل إنها عمَدت، بفضل التزامها بمبدإ الولاية العامة، إلى الوصل بين هذه التجليات نفسها، فكان أن أنجزت تكاملاً أفقياً بينها جعلها ترقى بالوعي الديني إلى رتبة الوعي الديني **الأقوم**، وهو الوعي الذي يجمع من القيم الحية ما يُكسبه القدرة على الاستمرار والانتشار والتقلب بحسب ظروف الزمان والمكان.

وبهذا، يكون الإسلام قد تجلَّى في المقاومة الإسلامية بحالة جديدة هي، بالذات، «التكاملية»؛ فإذن القيم الدينية التي تروم المقاومة تجديدَ وعي المسلمين بها تندرج تحت تجلّي «**التكاملية**» من تجليات الإسلام، تتقدّمها قيمة «الكمال» كما اندرجت القيم العقدية للإحيائية تحت تجلّي «الخاتمية» تتقدّمها قيمة «التوحيد»، واندرجت القيم الفكرية للإصلاحية تحت تجلي «العالمية» تتقدّمها قيمة «العقل»، واندرجت القيم السياسية للأصولية تحت تجلِّي «الجامعية» تتقدّمها قيمة «الحكم»؛ ولما كانت المقاومة الإسلامية قد اختصَّت بكون الإسلام تجلّى فيها بالحالة التكاملية، فقد تجلَّى عليها الحق سبحانه وتعالى بنصره المبين[1].

---

١ – مصداقا لقوله تعالى: ﴿**ولينصرن الله من ينصره**﴾، سورة الحج، آية ٤٠؛ وأيضا لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾، سورة محمد، آية ٧.

المراجع

حمادة، حسن: [٢٠٠١]، سر الانتصار، قراءة في الخلفية الإيمانية الجهادية لحزب الله، دار الهادي، بيروت.

سويد، محمود: [١٩٩٨]، الجنوب اللبناني في مواجهة إسرائيل، ٥٠ عاماً من الصمود والمقاومة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.

شرارة، وضاح: [١٩٩٦]، دولة «حزب الله»، لبنان مجتمعا إسلاميا، دار النهار للنشر، بيروت.

طه، عبد الرحمن: [٢٠٠٠]، العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت.

عمارة، محمد: [٢٠٠٥]، الإسلام والسياسة، مركز الراية للتنمية الفكرية، دار السلام، دمشق.

عماد، عبد الغني: [٢٠٠٥]، حاكمية الله وسلطان الفقيه، قراءة في خطاب الحركات الإسلامية المعاصرة، دار الطليعة، بيروت.

العوا، محمد سليم: [١٩٨٩]، في النظام الإسلامي للدولة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة.

فضل الله، حسن: [١٩٩٤]، الخيار الآخر، حزب الله، السيرة الذاتية والموقف، دار الهادي، بيروت.

فضل الله، حسن: [١٩٩٧]، حرب الإرادات، صراع المقاومة والاحتلال الإسرائيلي، دار الهادي، بيروت.

فضل الله، حسن: [٢٠٠١]، سقوط الوهم، هزيمة الاحتلال وانتصار المقاومة في لبنان، دار الهادي، بيروت.

فضل الله، محمد حسين: [١٩٨٧]، الإسلام ومنطق القوة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.

فضل الله، محمد حسين: [١٩٩٣]، الحركة الإسلامية، هموم وقضايا، دار الملاك، بيروت.

فضل الله، محمد حسين: [٢٠٠٠]، الإمام الخميني، الفقيه والأمة، دار الملاك، بيروت.

فضل الله، محمد حسين: [٢٠٠٤]، الحركة الإسلامية، ما لها وما عليها، دار الملاك، بيروت.

فضل الله، محمد حسين: [٢٠٠٦]، خطاب المقاومة والنصر، دار الملاك، بيروت.

قاسم، نعيم: [٢٠٠٢]، حزب الله، المنهج، التجربة، المستقبل، دار الهادي، بيروت.

القرضاوي، يوسف: [؟]، من أجل صحوة راشدة، دار المعرفة، الدار البيضاء،

القرضاوي، يوسف: [١٩٨٨]، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، دار

الصحوة للنشر، القاهرة.

مطهري، مرتضى: [؟]، إحياء الفكر الديني وقيادة الجيل الشاب، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.

الموصللي، أحمد: [٢٠٠٤] ، موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي وإيران وتركيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

المنتظري، آية الله العظمى: [١٩٨٨]، في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، غدير.

جريدة السفير: [٢٠٠٦]، يوميات الحرب الإسرائيلية على لبنان، النصر المخضب، المركز العربي للمعلومات، بيروت،

معهد المعارف الحكمية: [٢٠٠٤]، السلفية، النشأة، المرتكزات، الهوية، معهد المعارف الحكمية، بيروت.

Hizbu'llah [2002],Amal: SAAD-GHORAYEB, **Polititics and Religion**,Pluto Press,London.

ضــرورة وضــع ميثــاق للمقاومـة وفـق الرؤيـة الدينيـة

أ. حميد رضا دهقاني*

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(1).

أيها الحضور الكريم:

منذ فجر التاريخ ومنذ أن بدأ الإنسان يعي حقيقة وجوده، تاق إلى الحرية والعيش الحر الكريم. لقد فُطر الإنسان على حب العيش بأمان، رافضاً العبودية، والخضوع، والظلم.

من هنا، وانطلاقاً من قوله تعالى: ﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾(2)، و﴿**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً**﴾(3). وحفاظاً على قيم المقاومة ومثلها في الحياة والشهادة، أرى أنه لا بد للمقاومين وحاملي لواء الجهاد الذين قالوا ربنا الله، والمدافعين عن المدارس الإنسانية في هذا الشأن، أن يتناولوا هذا الموضوع الهام ويطرحوه للنقاش، توصلاً إلى تصور موحّد للمقاومة.

بداية لا بدّ من الإشارة إلى أننا إذا بحثنا في القرآن الكريم، بما هو وحي وتنزيل إلهي، فإننا نرى تواتر موضوع المقاومة كمفهوم قرآني عميق، يتّخذ في كثير من الآيات جملة من المداليل والأبعاد على النحو التالي:

❖ القائم بأعمال سفارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في بيروت سابقاً.

1- سورة فُصّلت، الآية 30 .

2- سورة الروم، الآية 30 .

3- سورة الأحزاب، الآية 62 .

أولاً: قال تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ ألاَ نَعْبُدَ إلاَ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شيْئاً وَلاَ يَتَخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ الله﴾**(١).

فما معنى «كلمة سواء» التي دعانا إليها رب العالمين نحن أتباع مختلف الديانات السماوية؟ هل هي غير عبادة الله وعدم الاشراك به؟ ثم هل إن المقاومة يمكن أن تكون إحدى مصاديق هذه الكلمة السواء؟ وبعبارة أخرى هل إن المقاومة يمكن اعتبارها القاسم المشترك بين الأديان السماوية عامة في الحث على مواجهة الظلم والاستكبار وفي السعي إلى حفظ السيادة والكرامة وحقوق الأمة والشعوب وحتى الأفراد؟

فلقد أولت الأديان كافة هذا الأمر أهمية مطلقة في تعاليمها، وفيما حاولت ترسيخه من مفاهيم الحق والعدل، وقيم الخير والسلام، فصاغته صياغة حضارية يبلغ معها الإنسان قمة إنسانيته، ويحقق من خلالها سعادته في الدنيا وفوزه في الآخرة.

فلقد أتى السيد المسيح (ع) بالتعاليم الإلهية التي تدعو إلى احترام الإنسان وحماية حقوقه وكرامته، وهو إذ دعا إلى المحبة بين بني البشر، والإخلاص لله وحده، فإنه (ع) دعا إلى الثورة الطوباوية، الروحية والفكرية على الظالمين والمارقين. أولم يقم بطرد اللصوص من الهيكل؟ أولم يعظم (ع) الإنسان المضحي في حياته من أجل وطنه ودينه وأهله بقوله: «**ما من حب أعظم من حب يبذل الإنسان فيه حياته عن أحبائه**» (إنجيل يوحنا).

ثانياً: يقول سبحانه وتعالى: **﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾**(٢). لقد شرح كبار المفسِّرين عبارة «الاستقامة» بأنها الثبات على الشيء وتأدية الأمر وفق المعنى المراد في إطاعة الله عز وجل، وعدم الخضوع والتسليم أمام الظالمين، وعليه هل يمكن الركون إلى كلمة الاستقامة في هذا السياق بمعناها المقاوم؟ وبكلمة أخرى هل أن استقامة المسلم «مقاومة»؟ أو هل يمكن اعتبار المقاومة أنها أحد المفاهيم التي تدخل في إطار الاستقامة؟ فالله تعالى في سورة هود يلقي مزيداً من الضوء على معنى الاستقامة، حيث يقول: **﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إلى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾**(٣)، من هنا يمكن للاستقامة أن تلبس لبوس الانصياع للأوامر الإلهية وحدها ورفض الخضوع للظالمين.

١- سورة آل عمران، الآية ٦٤ .

٢- سورة هود، الآية ١١٢ .

٣- سورة هود، الآية ١١٣ .

وهنا نصل إلى إشكالية أخرى؛ إذ على رغم أن المفاهيم القرآنية التي تمس حياة الإنسانية مباشرة، إنما هي كل متكامل لا يمكن تجزئته، ومع ذلك لا بد من القول: إن المترتبات على عصيان بعض الأوامر الإلهية هي أكثر بكثير مما يترتب على عصيان البعض الآخر.

يقول تعالى في سورة الأحزاب: **﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾**(1).

انطلاقاً من هذه الآيات المباركة يمكن استنتاج مسألتين:

- إن ركون المؤمنين في بعض العصور وتغاضيهم عن تطبيق الأمر الإلهي، بالقيام بوجه الظلم والطغيان، له مفاعيل وارتدادات زلزالية مدمّرة على الأمة جمعاء.

- إن أهم المشاكل التي تواجهها المقاومة في عصرنا الحاضر، هي التخلّف عن نصرتها، وفي ما تواجهه من حملات تجنٍ واتهامات تارة بوسمها بالإرهاب، وأخرى عبر إحاطتها بالضبابية والالتباس...

من كل ما تقدم يمكن القول: إنه لو لم يكن لنا أن نعتبر المقاومة في سبيل الله هي الاستقامة بمعناها الجهادي، لأمكننا القطع باليقين أن أحد أوجه المقاومة هو الاستقامة.

من هنا، تظهر أهمية التوصل إلى مفهوم واحد للمقاومة، والاستقامة في تطبيق الأوامر الإلهية المتمثلة «بالكلمة السواء» بين جميع أتباع الديانات السماوية، بل وحتى أصحاب العقائد الوضعية المحبين الحقيقيين للحرية والديمقراطية وشرعة حقوق الإنسان في العالم كافة.

أيها الإخوة، يا أبناء المقاومة:

في إسقاط سريع على واقعنا الحالي، نجد أن غياب مثل هذا الإطار الجامع للمقاومة، في كل من بغداد وفلسطين المحتلتين، نجد أن البعض هناك في حال من التقاتل والتناحر تحت أعين المحتل وبتشجيع منه. وهو الذي لم يرقب بالمسلمين إلاً ولا ذمة، نراهم يقتلون

1- سورة الأحزاب، الآيات 11-13 .

النساء والأطفال والشيوخ، يفجرون الأماكن المقدّسة، ودور العبادة باسم الدين تارة والمقاومة أخرى، بل إن بقتالهم وأفعالهم هذه يظنون أنهم ينفّذون الأوامر الإلهية.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾(١).

وفي مقلب آخر، تستمر المقاومة المقدّسة في لبنان العزيز ضد العدو الصهيوني، وبلدان أخرى محتلة في المنطقة، رجال لا تأخذهم في الله لومة لائم، معتمدين على إيمانهم بربهم وثقة بقواهم الذاتية دون مساعدة الآخرين، كل الآخرين.

لذلك نقترح أن يجتمع العلماء والمثقفون من المدارس الإلهية المختلفة والعقائد الوضعية المتنوعة، لوضع ميثاق جامع للمقاومة درءً للأخطار والتخرصات كافة التي أطلقها عليها الأعداء من جهة ووعاظ السلاطين من جهة أخرى فضلاً عن الجاهلين.

أيها الأخوة والأخوات الأعزاء:

تعالوا لنتبيّن أحد مصاديق «كلمة سواء» بيننا وأقصد بها المقاومة ونضع لها ميثاقاً نعلن من خلاله أننا، أبناء الديانات السماوية والمدافعين عن الأفكار والمثل الإلهية، لسنا دعاة عنف، ميثاقاً يفرّق بين العنف والمقاومة، بين الإرهاب والجهاد، بين الانتحار والاستشهاد.

والحمد لله رب العالمين

١- سورة الكهف، الآية ١٠٤ .

مشروعية المقاومة في ضوء القانون الدولي العام

د. حسن جوني*

كل شعوب العالم لجأت في مرحلة من مراحل تاريخها إلى المقاومة المسلحة دفاعاً عن الأرض والاستقلال والكرامة.

ولا يشكل الشعب اللبناني في هذا المجال استثناءً، بل على العكس كان رائداً في نضاله ضد الاحتلال الإسرائيلي، فتمكنت مقاومته من تحرير الجزء الأكبر من أراضيه، ومن ثم من تحقيق انتصارٍ تاريخيٍ على العدو الإسرائيلي.

وإذا كانت المقاومة ضد المحتل تشكل إرثاً تفتخر به الشعوب، إلا أن الاعتراف القانوني بشرعيتها جاء متأخراً؛ حيث كان يجب على الإنسانية أن تنتظر الحرب العالمية الثانية كي تبدأ مرحلة الاعتراف القانوني بها.

فالنضال الذي خاضته الشعوب الأوروبية عامةً والشعب الفرنسي خاصةً، أثناء الحرب ضد الفاشية والنازية، كان السبب الأساس لتخصيص الفقرة الثانية من البند «أ» من المادة الرابعة من اتفاقية جنيف الثالثة العام ١٩٤٩، بالمقاومة المسلحة ضد الاحتلال، والتي جاءت لتحدد الشروط المطلوبة كي يتمتع المقاوم بصفة المقاتل، وبالتالي كي يحصل على كل الامتيازات التي يمنحها القانون الدولي للمقاتلين في النزاعات المسلحة الدولية.

ترفض إسرائيل الاعتراف بشرعية المقاومة اللبنانية وبتطبيق القانون الدولي الإنساني، وخاصةً اتفاقية جنيف الثالثة ١٩٤٩ والبروتوكول الأول ١٩٧٧ على المقاومة

* أستاذ في القانون الدولي بالجامعة اللبنانية، خبير دولي في قانون النزاعات المسلحة.

اللبنانية، متهمة إياها بالإرهاب، ما يطرح عند البعض إشكالية التمييز بين المقاومة والإرهاب في القانون الدولي العام.

مع العلم أنه إذا كان هناك من يعتقد بأن ليس للإرهاب حتى الآن أي تعريف، إلا أنه لا شك في وجود تعريف واضح ومعترف به للمقاومة؛ لذلك فإن أي محاولة للخلط بين المفهومين؛ أي الإرهاب والمقاومة، ليس له أي قاعدة قانونية، بل هو محاولة لها أبعاد سياسية بامتياز.

من هنا إننا لن نتوسع كثيراً في موضوع التمييز بين المقاومة والإرهاب[١]؛ لأننا لا نوافق على طرح البحث بهذا الشكل، فالتمييز والمقارنة يتمان بين موضوعين غير معروفين أو عند وجود غموض يحيط بكل منهما. وإذا كانت هناك إشكالية عند البعض في تعريف الإرهاب، إلا أن هذه الإشكالية غير مطروحة في موضوع المقاومة، فمقولة المقارنة بين الإرهاب والمقاومة مقولة مشبوهة وغير علمية.

كما أنه يجب عدم الخلط بين الأعمال الإرهابية وبين المقاومة، فالأعمال الإرهابية التي يحرمها أو يمنعها القانون الدولي الإنساني[٢]، هي أعمال يمكن أن ترتكبها الدول والجيوش النظامية، كما هو الحال مع إسرائيل التي ترتكب كل الأعمال الإرهابية الممنوعة في القانون الدولي الإنساني. وعليه فالإرهاب هو الإرهاب والمقاومة هي المقاومة.

لذلك إن دراسة مشروعية المقاومة في ضوء القانون الدولي العام يتطلب معرفة مدى انسجام المقاومة في لبنان مع قرارات الأمم المتحدة، وخاصةً تلك المتعلقة بمشروعية استعمال القوة لدحر المحتل (أولاً) ومن ثم مع قواعد وأعراف القانون الدولي الإنساني وخاصةً اتفاقيات جنيف ١٩٤٩، والبروتوكول الأول التابع لهما ١٩٧٧ (ثانياً).

١- حول هذا الموضوع أنظر: الدكتور موسى القدسي دويك، «التفرقة بين الإرهاب والمقاومة الشعبية: دراسة في القانون الدولي العام»، ضمن كتاب المقاومة والإرهاب في القانون الدولي والشريعة الإسلامية. منشورات جامعة جرش الأردن، ٢٠٠٥، ص ٣٠٦، ٢٢٥.

2- Hans-Peter Grasser,«interdiction des actes de terrorisme dans le droit international humanitaire». R.I.C.R Juillet- out1986 .

أولاً: مشروعيـــة اللجـــوء
إلى القوة مـن قبـل المقاومــة في ضـوء القانـــون الدولي العـــام.

إن ميثاق الأمم المتحدة يحرم على الدول اللجوء إلى القوة لتسوية النزاعات في ما بينها، وقد جاءت الفقرة الرابعة من المادة الثانية من الميثاق لا لتحرم اللجوء إلى القوة فقط إنما أيضاً التهديد بها[1].

إلا أن ميثاق الأمم المتحدة ترك للدول إمكانية اللجوء إلى استعمال القوة في حالتين:

١- حق الدفاع عن النفس (المادة ٥١).

٢- اللجوء إلى القوة من قبل مجلس الأمن، وذلك في حالة تهديد السلم والأمن الدوليين (المادة ٤٣).

من هنا فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو على أي أساس قانوني تلجأ المقاومة إلى السلاح واستعمال القوة في نزاعها العسكري مع المحتل؟

إن القانون الدولي العام ترك مجالاً للمقاومة لاستعمال القوة واللجوء إلى العمليات العسكرية، وذلك عندما حرم الاحتلال العسكري والعدوان، من جهة، وعندما اعترف بحق الشعوب في تقرير مصيرها، من جهة ثانية، مضافاً إلى حق الدفاع عن النفس.

١- منــع الاحتــلال العسكـري في ضـوء القــانون الدولي العــام

- يمنع ميثاق الأمم المتحدة اللجوء إلى القوة أو التهديد بها في العلاقات الدولية (المادة الثانية الفقرة الرابعة).

- مبادئ الأمم المتحدة، ومقدمة الميثاق «إن شعوب الأمم المتحدة قد آلت على نفسها أن تنقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب...»

- إعلان مبادئ القانون الدولي المتعلقة بالعلاقات الوديّة بين الدول وفقاً لميثاق الأمم المتحدة والصادرة بقرار من الجمعية العامة. ٢٦٢٥- ١٩٧٠.

ونصــه: «على كل دولة واجب الامتناع في علاقاتها الدولية عن التهديد باستعمال القوة، أو استعمالها ضد السلامة الإقليمية أو الاستقلال السياسي لأية دولة...... والامتناع عن التهديد بالقوة وباستعمالها لخرق الحدود الدولية...

ولا يجوز اكتساب إقليم أي دولة، من قبل دولة أخرى نتيجة للتهديد باستعمال

١- حول الدفاع عن النفس في ميثاق الأمم المتحدة أنظر Antonio Cassese commentaire de article in La Charte des Nations Unies:51 Bruylant. Economica pp. 768-794.

القوة أو استعمالها ... ولا يجوز الاعتراف بشرعية أي اكتساب ناتج عن التهديد باستعمال القوة أو استعمالها»[1].

٢ - حق الشعوب بتقرير مصيرها

أصدرت الأمم المتحدة العديد من القرارات الدولية تعطي بموجبها الحق للشعوب بالكفاح في سبيل تقرير مصيرها، وذلك انسجاماً مع ميثاقها وقد جاء فيما بعد البروتوكول الأول الإضافي لاتفاقيات جنيف ليؤكد ذلك.

- ميثاق الأمم المتحدة

المادة الأولى الفقرة (ج) تنص على احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب وبأن يكون لكل منها حق تقرير مصيرها.

المادة ٥٥ المصطلح ذاته.

العهدان الدوليان-١٩٦٦- المادة الأولى اعتبرت أن الحق في تقرير المصير هو شرط أساس لانطباق حقوق الإنسان الواردة في العهدين.

اعترفت الجمعية العامة بحق الشعوب بتقرير مصيرها في كثير من القرارات وخاصة القرار- ١٥١٤ - الصادر عام ١٩٦٠.

وكذلك القرار ٣١٠٣ - ١٩٧٢ - الذي اعتبر أن كفاح الشعوب لتقرير مصيرها كفاح مشروع يتفق مع مبادئ القانون الدولي العام.

وقد أكدت محكمة العدل الدولية حق الشعوب في تقرير مصيرها، وذلك في أكثر من حكم لها، نذكر على سبيل المثال قضية، وسترن صحراء، وكذلك في قضية ناميبيا؛ حيث اعتبرت هذا الحق قاعدة من القواعد الآمرة في القانون الدولي العام وكررت ذلك في الكثير من المرات وخاصة في قضية نيكاراغوا ضد الولايات المتحدة الأمريكية وفي رأيها الاستشاري المتعلق بالجدار الفاصل في فلسطين المحتلة.

- البروتوكول الأول لاتفاقية جنيف - المادة الأولى

تنص المادة الأولى من البروتوكول الأول في فقرتها الرابعة على أنه:

ينطبق هذا البروتوكول الذي يكمل اتفاقيات جنيف لحماية ضحايا الحرب على الأوضاع...

١- أنظر: الدكتور رشيد محمد العنزي، «المركز القانوني لأفراد المقاومة المسلّحة في ظل قواعد القانون الدولي الإنساني»، ضمن كتاب «الإرهاب والمقاومة في القانون والشريعة الإسلامية»، جامعة جرش، الأردن، ٢٠٠٥، ص ١٩ ، ٢٠، ٢١.

تتضمن الأوضاع المشار إليها في الفقرة السابقة، المنازعات المسلحة التي تناضل بها الشعوب ضد التسلط الاستعماري والاحتلال الأجنبي وضد الأنظمة العنصرية، وذلك في ممارستها لحق الشعوب في تقرير المصير، كما حرسه ميثاق الأمم المتحدة والإعلان المتعلق بمبادئ القانون الدولي الخاص بالعلاقات الودية بين الدول طبقاً لميثاق الأمم المتحدة.

ثانياً: مشروعية المقاومة
في ضــوء القانــون الدولي الإنســانــي

أمام المقاومة الباسلة ضد قوّات العدو الصهيوني الغازية في العام ١٩٧٨، وجد العدو نفسه مضطراً نتيجة هزائمه إلى أن يصف هذه المقاومة بـ «الإرهاب الفلسطيني». إلاّ أنه، مع إصرار المقاومة اللبنانية على ملاحقة الغزاة حتى تحرير آخر شبر من الأرض اللبنانية المحتلّة، بدأ العدو الصهيوني بتغيير اتهاماته؛ حيث إن الإرهاب لم يعد، حسب نظره، فلسطينياً فقط، بل أصبح لبنانياً يتّهمه بشتّى الافتراءات.

وفي الفترة الأخيرة أخذ العدو الصهيوني يركز على الطابع الإيديولوجي للمقاومة الإسلامية خالطاً بين الإرهاب والإسلام ومعتبراً أن حزب الله يطبق سياسة خارجية وأنه خاضع لأجندة بعض دول الجوار.

وليست هذه الاتهامات عفوية، بل مقصودة ومدروسة وخاضعة لاعتبارات سياسية وقانونية؛ حيث إن إعطاء أهمية خاصة للطبيعة السياسية والأيديولوجية للمقاومة يهدف إلى رفض اعتبار العمليات العسكرية التي يقوم بها أبطال المقاومة أعمال مقاومة مشروعة، وبالتالي عدم تمتّعهم بالامتيازات التي يُعطيها القانون الدولي الإنساني لهم.

إن هذه المقولة مرفوضة أساساً من الناحية السياسية والقانونية، ولا بد لنا وقبل الشروع في دراسة مفصلة حول القانون الدولي الإنساني والمقاومة، من أن نشير إلى أن القانون الدولي لا يربط بين أيديولوجية المقاومة أو مشروعها السياسي وبين شرعيتها، فالمقاومة حرة في اختيار مشروعها السياسي وأن تتبنى أي أيديولوجية ويؤكد ذلك البروفسور H. Meroywuitz حيث يعتبر أنه يجب أن نمنع المحتل من أخذ برنامج المقاومة السياسي كحجة لرفض تطبيق القانون الدولي الإنساني(١).

1- H.Meroywuitz Le statut des guerilleros das le droit international. J.D.I.1973n4pp899,918.

فإسرائيل تعتبر أن اتفاقية جنيف الثالثة والبروتوكول الأول لا يطبقان على من تعتقلهم قوّاتها في لبنان من المقاتلين، حيث تعتبرهم «مجموعة إرهابية». ويتأكد هذا الموقف الصهيوني من خلال المحاكمات الصورية التي تقوم بها السلطة الصهيونية بحق أبطال المقاومة.

إن هذا الموقف لا يهدف فقط إلى حرمان هؤلاء المقاومين من المعاملة الإنسانية، التي تنصّ عليها الاتفاقية الثالثة المذكورة، إنما يرمي أيضاً إلى تحقيق أهداف سياسية أهمّها رفض الاعتراف بشرعية الأسلوب الذي تعتمده المقاومة في القتال، ونزع صفة المقاتل عمن يحمل السلاح تحت رايتها (أولاً)، ومن ثم رفض الاعتراف بشرعية المقاومة التي أقرتها اتفاقيات جنيف والبروتوكول الأول التابع لها (ثانياً).

١- شرعيـة المقـاتلـين

المنتميـن إلى قـوات غيـر نظاميـة في القانـون الدولي العـام

إن القانون الدولي الإنساني، عندما يُميّز بين المدنيين والعسكريين، لا يُميّز بطريقة عشوائية وبسيطة؛ حيث إنه على الرغم من أن المدنيين هم الذين يعانون ممارسات العسكريين أثناء المعارك وبعدها، فإن القانون الدولي الإنساني وُضِع أساساً لحماية العسكريين الذين هم أيضاً ضحية منذ اللحظة التي يصبحون فيها خارج المعارك(١).

إذاً، إن القانون الدولي الإنساني يحمي المقاتل، مما يطرح المشكلة في تحديد صفة المقاتل، أي من له الحق في القتال في ضوء القانون الدولي، وبمعنى آخر من هو المقاتل وكيف يتميّز عن المدنيين؟

إن الجواب عن هذا السؤال قد يكون سهلاً لو كان الأمر يتعلّق بنزاع مسلّح كلاسيكي، أي بين قوتين نظاميتين تابعتين لدولتين، إلاّ أن الأمر مختلف في النزاع المسلّح بين الكيان الصهيوني ولبنان، وذلك أنه يتجاوز في طبيعته وشكله هذا النوع من النزاع المسلّح إلى نزاع مسلّح تشترك فيه، ليس فقط القوّات النظامية، وإنما أيضاً قوّات مختلفة في شكلها وتنظيمها وطُرق قتالها وكيفية الانتماء إليها والمعروفة في القانون الدولي بحرب المقاومة أو حرب الغوار(٢).

1-Torrelli Maurice: "Le droit international humanitaire", Paris, P.U.F. Que sais-je, 1995, p21.

٢- مع العلم بأنه يمكن للقوات التي تتبع هذه الطريقة في القتال أن يكون عندها أيضاً قوات نظامية. أنظر:
Meyrawitz Henri: "Le Statut des guérilleros dans le droit intenational", J.D.I. N4, 1973, p 876.

ميز القانون الدولي الإنساني بين المركز القانوني للمقاتلين الذين ينتمون إلى القوات المسلحة النظامية وبين المقاتلين غير النظاميين الذين يخوضون حرباً دولية، ولكنهم لا ينتمون إلى القوة العسكرية المسلحة النظامية الرسمية التابعة للدولة.

وقد فرض القانون الدولي الإنساني على القوات غير النظامية شروطاً إضافية كي يقبل بها كقوة عسكرية وليعترف لأعضائها بصفة المقاتلين.

إن أول إشارة إلى هذا التمييز؛ أي بين القوات النظامية وغير النظامية، يعود إلى المادة الأولى من قواعد لاهاي المتعلقة بقانون وأعراف الحرب على الأرض عام ١٩٠٧.

تتحدث هذه المادة عن الميلشيات، دون الحديث عن المقاومة، وتعتبر أن أعضاء هذه الميلشيات هم أعضاء في الانتفاضة الشعبية، وهي تعطي لمن يخوض المعارك من أفراد هذه الانتفاضة حق الحصول على صفة المقاتل.

يعتبر البروفسور Eric David أن الانتفاضة الشعبية لا يمكن أن تطول طويلاً فهي تعمل على رد العدوان أثناء الهجوم، ولكن عندما يحتل العدو أرضاً، فلا يستطيع السكان الاستمرار في الانتفاضة الشعبية، بل عليهم إذا أرادوا الاستمرار في المعارك أن يشكلوا مقاومة(١).

وبالرغم من أن اتفاقية جنيف الثالثة المخصصة لحماية أسرى الحرب، قد اعتبرت أنه يحقُّ لكل مقاتل يقع في قبضة العدو أن يعامل معاملة الأسرى، إلاّ أنها لم تُعرِّف أو تُحدّد مَن هو المقاتل بشكل صريح(٢). ومن أجل سدّ هذه الثغرة في القانون الدولي اعتبر البروتوكول الأول التابع لاتفاقيات جنيف أن: «أفراد القوّات المسلّحة لطرف النزاع (عدا أفراد الخدمات الطبية)... وأولئك الذين تشملهم المادة ٣٣ من الاتفاقية الثالثة مقاتلون لهم حق المساهمة المباشرة في الأعمال العدائية»(٣).

يتبيّن إذا، أن المقاتلين ليسوا فقط الأشخاص النظاميين، أو غير النظاميين التابعين للقوّات المسلّحة، وإنما هم أيضاً كلّ شخص يشارك في المعارك بشكل مباشر(٤). كما يعتبر البروفسور De La Pradelle أن هذا التعريف جاء «أكثر انسجاماً والحقيقة السياسية

1- Les principes des droit des conflis armes, Brullans ,Bruxcel.pp384.385.

2- De Preux Jean, in le commentaire des protocoles, C.I.C.R.Geneve. op.cit, p 501.

٣- الفقرة الثانية من المادة ٤٣ من البروتوكول الأول ١٩٧٧.

4- Furet Marie - Françoise, Martinez Jean Claude, Dorandeu Henri: "La guerre et le Droit", Paris, 1979.

الناتجة عن إزالة الاستعمار»[١].

٢- مشروعيـــة المقاومـــة

في ضوء اتفاقيـات جنيـف ١٩٤٩ والبروتوكول الأول التابـع لها ١٩٧٧:

ومن أجل مجابهة العدو والمستعمر الذي يتمتّع بتفوّق تقني وأجهزة متطوّرة، لجأت المقاومة الشعبية بطبيعة الحال إلى أسلوب قتال مختلف معتمد على المقاتلين غير النظاميين، واعتُبر هذا الأسلوب أسلوبَ الضعفاء[٢]. وقد لجأت الشعوب الأوروبية ذاتها في ما بعد إلى هذا الأسلوب من القتال، وخصوصاً أثناء الحرب العالمية الثانية، وذلك للقتال ضد القوّات الغازية[٣].

وقد دفع هذا الواقع الجديد الخبراءَ المشاركين في المؤتمر المنعقد في جنيف العام ١٩٤٧، حول حماية ضحايا الحرب، إلى اقتراح الاستفادة من اتفاقية جنيف وتوسعتها لتنطبق على فئات عدّة من المقاتلين الذين يقعون في قبضة العدو، ومنهم: «**الأشخاص الذين يؤلّفون في الأراضي المحتلّة مُنظّمةً عسكريةً لمقاومة الاحتلال وتيوفرون على بعض الشروط التي ستحدّد فيما بعد**»[٤].

وأثناء مؤتمر الصليب الأحمر الدولي الثامن عشر المنعقد في ستوكهولم في آب ١٩٤٨، اقترح الصليب الأحمر الدولي أن يُعتبر أسرى حرب الأشخاص الذين ينتمون إلى مُنظّمة عسكرية أو إلى حركة مقاومة مُنظّمة مُشكلّة في الأراضي المحتلّة من أجل النضال ضد القوّات المحتلّة، ويتوفرون على بعض الشروط[٥].

وبناء عليه جاءت الخطوة الجبّارة في هذا المجال بإدخال المقاومة ضد الاحتلال في اتفاقية جنيف الثالثة العام ١٩٤٩، وذلك من خلال المادة الرابعة الفقرة (أ) البند الثاني والمخصّصة لتعريف أسرى الحرب.

1- De la Pradelle p.: "Le droit international des conflits armés", R.G.D.P. 1978, N_ p 22.

2- Venthey Michel: "Guérilla et Droit humanitaire", C.I.C.R. Genève, 1983, p 18.

3- Meyrowitz Henri: "Les guerres de liberation et les Conventions de Genève", in politique étrangère, N6, 1974, pp 608 - 610.

4- C.I.C.R. Rapport sur les travaux et la conférence d'experts gouvermentaux, pour l'étude des Conventions protégeant les victims de la guerre, Genéve, 14 - 26 Avril, 1947, et Décembre 1947, p 106.

٥- اللجنة الدولية للصليب الأحمر: مشروع مراجعة الإتفاقيات التي تحمي ضحايا الحرب، نصّ تمّ تصديقه أثناء المؤتمر الثامن عشر مع بعض التعديلات، C.I.C.R. جنيف، ص ٥٢ - ٥٣.

وقد أدّى تطوّر النضال ضد الاستعمار بقيادة حركات التحرّر والمقاومة بعد الحرب العالمية الثانية، مُتلازماً مع دعم الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الأخرى لهذه الحركات، إلى فرض نظام جديد لأسرى الحرب وذلك عبر إضافة البروتوكول الأول لعام ١٩٧٧، المادة ٤٤ منه التي تخففت من الشروط المذكورة في المادة الرابعة لاتفاقية جنيف(١)، وأوجد فريقاً جديداً في القانون الدولي العام.

وعلى العكس مما يعتقد البعض، فإن المقاومة اللبنانية لا تستمد شرعيتها القانونية فقط من المواقف السياسية، المتخذة حيالها من أصدقاء أو أعداء أو حتى باعتراف العدو بها، كما هي الحال بالنسبة إلى حركات التحرّر التي هي بحاجة إلى هذه المواقف لتدخل باب القانون الدولي بمفهومه العام على قدم المساواة تقريباً مع الدول، أو من تفاهم نيسان كما يركز البعض؛ لأنه لو اعتبرنا أن تفاهم نيسان هو الذي أعطى الشرعية للمقاومة، فما هو وضعها القانوني قبل هذا التفاهم؟

مع أهمية المواقف السياسية الداعمة للمقاومة، ومع أهمية تفاهم نيسان الذي أكد شرعية المقاومة فإن المقاومة تستمد شرعيتها من قواعد القانون الدولي العام وأعرافه، وخاصة من المادة الأولى البند (ألف) الفقرة الرابعة من اتفاقية جنيف الثالثة.

والسؤال: هل تُلبّي المقاومة اللبنانية والمقاتلون المنتسبون إليها الشروط التي يفرضها القانون الدولي في المادة الرابعة لاتفاقية جنيف الثالثة؟

تنص المادة الرابعة لاتفاقية جنيف الثالثة على:

«أن أسرى الحرب بالمعنى المقصود في هذه الاتفاقية هم الأشخاص الذين ينتمون إلى إحدى الفئتين التاليتين ويقعون في قبضة العدو:

١- أفراد القوّات المسلّحة لأحد أطراف النزاع والميليشيات أو الوحدات المتطوّعة التي تُشكّل جزءاً من هذه القوّات المسلّحة.

٢- أفراد الميلشيات الأخرى والوحدات المتطوّعة الأخرى بمن فيهم أعضاء حركات المقاومة المُنظّمة الذين ينتمون إلى أحد أطراف النزاع ويعملون داخل أو خارج إقليمهم حتى لو كان هذا الإقليم محتلاً.

على أن تتوفّر الشروط التالية في هذه الميليشيات أو الوحدات المتطوّعة بما فيها حركات

١- أنظر: .Commentaire des Protocoles, op.cit

المقاومة المُنظّمة المذكورة.

وهـــذه الشروط هــي:

أ- أن يقودها شخص مسؤول عن مرؤوسيه.

ب- أن تكون لها إشارة مميّزة مُحدّدة يمكن تمييزها من بُعد.

ج- أن تحمل الأسلحة جهراً.

د- أن تلتزم في عملياتها قوانين الحرب وعاداتها.

يبدو واضحاً من هذه المادة أن هذه الشروط تنقسم إلى قسمين:

١- الشروط الموضوعية.

٢- الشروط الذاتية(١).

١- الشروط الموضوعيـــة لاكتســاب المقاومـــة مشروعيتـــها

الشروط الموضوعية هي أن تكون هذه المقاومة مُنظّمة من جهة، وأن تنتمي إلى أحد أفرقاء النزاع من جهة أخرى وأن تعمل داخل او خارج إقليمها:

أ - مشروعيــة عمـل المقاومة اللبنانيــة (داخل الخط الأزرق)

إن قيام المقاومة اللبنانية بقيادة حزب الله بعملية أسر الجنديين الإسرائيليين داخل الأراضي الفلسطينية وخارج حدود الخط الأزرق طرح سؤالاً أساسياً عند البعض حول شرعية هذه العملية للمقاومة، معتبرين بأن هذه العملية التي تجاوزت الخط الأزرق قد يُفقد المقاومة شرعيتها.

إن عبارة «يعملون داخل أو خارج إقليمهم حتى لو كان هذا الإقليم محتلاً». المذكورة في المادة الرابعة آنفة الذكر تطرح عدة أسئلة:

فما المقصود بداخل أو خارج الإقليم؟ هل المقصود فقط المناطق المحتلة وخارجها؟ أم المقصود داخل أراضي الدولة المحتلة؟

إن الجواب عن هذه الأسئلة، وعن هذا الطرح، يأتي من اتفاقية جنيف الثالثة التي أعطت الحق للمقاومة بالقيام بعمليات عسكرية ليس فقط في داخل أراضيها المحتلة أو خارجها، وإنما أيضاً داخل الدولة المعتدية أو المحتلة.

1- Meyrowitz. H.: "Le statut.", op.cit, p 877.

وقد أكد البروفسور جان بيكتيه jean pictet، وذلك في التفسير الرسمي الصادر عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر في جنيف، أن عمليات المقاومة يمكن أن تحصل داخل الأراضي المحتلة وخارجها، ويمكن أن تمتد إلى مجمل أراضي الدولة المحتلة، بما في ذلك فضائها ومياهها الإقليمية، بل أكثر من ذلك إلى أعماق البحار(١).

ب- التنظيم

إن المقاومة في لبنان ضد الكيان الصهيوني المحتل منذ بداياتها مقاومة مُنظّمة تتمتّع بتنظيم مركزي تقوده قيادة سياسية وعسكرية فرضت نفسها على الساحة السياسية الوطنية والإقليمية وحتى الدولية، وأصبحت قُدوة لكل المقاومات الشعبية في العالم ومثلاً يحتذي به كلّ ثوّاره.

وليس من الضروري أن نُثبت أهمية التنظيم في المقاومة، وذلك كونها قد تجاوزت في تنظيمها حتى بعض الجيوش النظامية، وهذا ما تعترف به كلّ الهيئات والمنظمات الدولية.

ج - الإنتماء إلى أحد طرفي النزاع:

أما بالنسبة إلى شرط الانتماء إلى أحد فرقاء النزاع، فالمعروف أن المقاومة في لبنان أعلنت، منذ اللحظة الأولى لانطلاقتها، انتماءها وارتباطها بالدولة اللبنانية. مع العلم أنه يمكن اعتبار المقاومة اللبنانية فريقاً في الصراع العربي الصهيوني، وليس فقط في الصراع اللبناني الصهيوني، (وهناك سابقة حيث إن بريطانيا اعتبرت قوّات الجنرال شارل ديغول - فرنسا الحرّة - جزءاً من قوّاتها وذلك كي يحصل مقاتلو هذا الجيش على صفة الأسير عند القوّات الألمانية، وهذا ما وافقت عليه ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية). كما أنها تخوض معركتها بالتعاون مع الدولة اللبنانية حكومةً وجيشاً، وهذا ما أعلنته الدولة اللبنانية نفسها(٢).

ويكفي هنا التذكير بأن رئيس مجلس النواب اللبناني الأستاذ نبيه بري، أعلن حين كان وزير دولة لجنوب لبنان، أنه يعتبر نفسه وزيراً للمقاومة، وقد وزّعت هذه الوزارة بطاقات للانتماء إليها، وأخيراً شاركت المقاومة في الحكومة بوزراء تابعين إلى كتلتها النيابية.

---

1 - Jean pictet, commentaire, de la III convention de Geneve. C.I.C.R. 1958. p66.
2- Hassan Jouni: "Le droit international humanitaire dans les conflits armés contemporains au Liban", th. Droit, Université de Maonthpellier I, 1996, PP 81-82.

وها هي مواقف رئيس الجمهورية العماد إميل لحوّد تأتي لتتوّج موقف الدولة اللبنانية، حكومةً وشعباً، المساندة والمكمّلة للمقاومة في لبنان.

ويمكن أن نذكر أيضاً المواقف التي اتخذها الجيش اللبناني وخاصة تلك التي عبَّر عنها قائد هذا الجيش العماد ميشال سليمان، وذلك قبل أو أثناء أو حتى بعد عدوان تموز ٢٠٠٦، والتي أكّدت على أن الجيش اللبناني هو جيش غير محايد في النزاع ضد إسرائيل، بل هو أساس المقاومة ومع المقاومة في مجابهة العدوان.

ولعلّ البيان الوزاري الذي على أساسه أخذت الحكومة الحالية ثقة المجلس النيابي، يشكّل أهم وثيقة رسمية تؤكّد على الارتباط بين المقاومة ودولتها اللبنانية، فالبيان الوزاري ينص على: «**أن المقاومة اللبنانية هي تعبير صادق وطبيعي عن الحق الوطني للشعب اللبناني في تحرير أرضه والدفاع عن كرامته في مواجهة الاعتداءات والتهديدات والأطماع الإسرائيلية، والعمل على استكمال تحرير الأراضي اللبنانية**».

إلا أن البعض اعتبر أن الحكومة بناء على الموقف الذي اتخذته عشيّة العدوان على لبنان، بأن لبنان ليس طرفاً في النزاع ضد إسرائيل، وخاصة حين تبرّأت هذه الحكومة من العملية العسكرية التي قام بها رجال المقاومة وأدّت إلى أسر أسيرين صهيونيين، لم تعلن فقط عدم علمها بالعملية، بل إنها ذهبت بعيداً؛ حيث إنها أعلنت عدم مسؤوليتها عن هذه العملية وعن نتائجها.

وكذلك الأمر في ما يتعلق «بحفلة الشاي» في ثكنة مرجعيون، فهذه الحفلة قد يعتبرها البعض إشارة على أن الجيش اللبناني ليس طرفاً في النزاع مع إسرائيل.

إن موقف الحكومة و «**حفلة الشاي**» هما من أخطر ما حصل في محاولة إخراج لبنان الرسمي من النزاع العربي – الإسرائيلي. من هنا كان الإعلام المعادي لا يعتبر الحرب حرباً بين لبنان وإسرائيل، بل يحصرها بين إسرائيل وحزب الله.

والخطورة هي سياسية طبعاً، إلا أنها قانونية أيضاً؛ حيث كما سبق وذكرنا أن من شروط قبول شرعية المقاومة في القانون الدولي العام، هو أن تنتمي هذه المقاومة إلى فريق من أفرقاء النزاع.

هذا الوضع كان مقصوداً وقد بدأ استغلاله من بعض رجال القانون الدولي، إلا أن هذه

الأطروحة لم تصمد أمام الحقيقة التي أكّدناها، وهي أن المقاومة اللبنانية بقيادة حزب الله متجذرة في أرضها، وتنبع من آلام وآمال شعبها، وإن المواقف المتخاذلة والعميلة لن تغيّر لا في الواقع السياسي ولا في الواقع القانوني للمقاومة.

فمواقف رئيس الجمهورية العماد إميل لحود، ومواقف قائد الجيش اللبناني العماد ميشال سليمان، والرئيس سليم الحص، والجنرال ميشال عون، والمير طلال إرسلان، والوزير سليمان فرنجية وكل الشرفاء في هذا الوطن التي لا تكفي هذه الصفحات لذكر أسمائهم، تثبت انتماء المقاومة إلى فريق في النزاع ألا وهو لبنان في نزاعه ضد إسرائيل.

أما المواقف المتخاذلة والعميلة فيجب وبأسرع وقت ممكن محاكمة أصحابها، وذلك لسحب الورقة من هؤلاء الذين ما زالوا يصرّون على أن النزاع العسكري هو نزاع بين إسرائيل وحزب الله، وليس بين إسرائيل ولبنان.

٢- الشروط الذاتية لاكتساب المقاومة شرعيتها:

أمّا في ما يتعلّق بالشروط الذاتية، على عكس الشروط الموضوعية التي يجب على المقاومة كمُنظّمة أن تملأها، فإن هذه الشروط موجّهة إلى المقاتل في المقاومة، حيث تفرض:

أ- أن يقود المقاومة مسؤول عن مرؤوسيه

إن وجود مسؤول على رأس المقاومة وعلى رأس العمليات العسكرية فرضها القانون الدولي الإنساني لكي يتميّز المقاتل في المقاومة عمّن يقوم بعمل عسكري عفوي من جهة، وكي يتحمّل المسؤول المسؤولية عن أي عمل يتعارض ومبادئ وأحكام القانون الدولي الإنساني في حال حصوله من جهة أخرى.

وما يهمّنا هنا هو أن المقاتل في المقاومة لا يقوم بأية عملية عسكرية بشكل عفوي، بل بشكل منظّم يلتزم فيه المقاتل بقرار المسؤولين عنه وبخططهم، كما أن كلّ العمليات العسكرية ضد قوّات الاحتلال الإسرائيلي يُعلَن عنها من مركز قيادة المقاومة مع شرح عنها وعن تفاصيلها يقوم به أحد المسؤولين، كذلك يعرض في أكثر الأحيان أفلاماً مصوّرة مفصلة كاملة عن هذه العمليات. كلّ ذلك يثبت أن المقاتل المنتمي إلى المقاومة اللبنانية، وفي مراحل العمل العسكري، من التحضير إلى التنفيذ، يخضع إلى قرارات وأوامر مسؤوليه وخاصة في قيادة حزب الله التي تقود القيادة المسلحة ضد اسرائيل.

ثم إن هؤلاء المسؤولين معروفون، والعدو الإسرائيلي يعلن ذلك صراحة. ويمكن أن نذكر، على سبيل المثال، ما صدر عن الكيان الإسرائيلي بعد اغتيال العدو الصهيوني للأمين العام لحزب الله الشهيد السيد عباس الموسوي في العام ١٩٩٢[١]، وكذلك اختطاف المناضل الحاج مصطفى الديراني من بيته في بلدة قصرنبا في البقاع عام ١٩٩٤. وقد صرّح الجنرال الصهيوني ساغاي Saggy آنذاك أن إسرائيل قد ألقت القبض على مسؤول عن عدّة نشاطات ضدّها في جنوب لبنان[٢].

كما أن لا شيء يمنع أن يكون المسؤولون عن الأحزاب السياسية التي شاركت وتشارك في المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي في لبنان، مسؤولين أيضاً عن المقاتل الذي يقع في الأسر. فحسب الشرط المطروح الذي نحن بصدده، ليس «من الضروري أن يكون المسؤول عن المقاومة مسؤولاً عسكرياً»[٣].

هنا، يمكن اعتبار قيادة حزب الله السياسية والعسكرية معاً مسؤولة عن المقاومين، وخاصة أن التاريخ أعطى لها قائداً مميّزاً ليس فقط على الصعيد اللبناني، إنما أيضاً على الصعيد العربي والعالمي، وهو سيد المقاومة القائد سماحة السيد حسن نصر الله.

ب- حمل شارة مميزة ومحددة:

ومن الشروط الذاتية حسب البند (ب)، أنه يجب على المقاتل في المقاومة، أن يكون حاملاً **شارة خاصة مميّزة مُحدّدة** يمكن تمييزها عن بُعد. والشارة المميّزة يمكن أن تكون ثياباً مشتركة، أو معطفاً، أو قميصاً، أو عَلَماً، أو حتى لوناً مُحدّداً مطبوعاً على الصدر، إلخ...[٤]. علماً أن هذا الشرط يهدف أساساً إلى حماية المدنيين، وذلك بتمييزهم عن العسكريين.

إن أبطال المقاومة اللبنانية يلبسون ثياباً خاصة بهم معروفة لدى الجميع، كما إنهم يضعون أعلاماً مميّزة كأعلام الأحزاب السياسية التي ينتمون إليها، وخصوصاً علم «حزب الله» المعروف والذي تستهدفه إسرائيل دائماً. ومن المفيد هنا أن نذكّر بأن للمقاومة

١- حول الموقف الصهيوني الذي يعترف فيه بأن الشهيد كان مسؤولاً عن المقاومة ضدّ الاحتلال، انظر: جريدة Le Monde الفرنسية، ١٨ شباط، ١٩٩٢.

٢- المرجع السابق، ٢٤ أيار، ١٩٩٤.

3- Le Commentaire de La 3éme Convention, op.cit, p 67.

٤- المرجع السابق، ص ٦٨.

في لبنان شارة يعرفها القاصي والداني، أطفالاً وشباناً ونساءً وشيوخاً، فضلاً عن العدو نفسه.

على أن هذا الشرط الذي تُلبّيه المقاومة اللبنانية أسقطه البروتوكول الأول من المادة ٤٤ وأبقى على الشروط الثلاثة آنفة الذكر. والسبب هو أن حمل الشارة المميّزة ليس ضرورياً في حال إمكانية تمييز المقاتل عن المدنيين بوسائل أخرى(١). نقول هذا دون أن يغيب عن بالنا أن العدو الصهيوني وصل به الأمر إلى أن يعتبر كلّ مدني عسكرياً؛ حيث إنه خلط بينهما عملياً ليبرّر اعتداءاته على المدنيين، وكل عسكري إرهابياً كي يبرر جرائمه.

ج- حمل السلاح جهراً:

يفرض الشرط الثالث على المقاتل أن يحمل سلاحه جهراً، وهذا يطرح إشكالية قانونية وصعوبة عملية في تحديد المقصود منه. فهل المقصود أن يكون حاملاً سلاحه جهراً قبل تنفيذ العملية العسكرية أم أثناءها(٢)؟ ويتناقض هذا الشرط مع الحق المعطى أساساً للمقاتل في مفاجأة العدو أو اللجوء إلى الحيلة العسكرية(٣). ومن دون الدخول في تفاصيل هذه النقطة التي أخذت حيّزاً مهمّاً من النقاش أثناء المؤتمر الدبلوماسي التحضيري للبروتوكول الأول ١٩٧٧، وخصوصاً تلك المتعلّقة بالمادة ٤٤(٤)، نستطيع أن نؤكّد أنّ المقاتل، في صفوف المقاومين في لبنان، يحمل سلاحه جهراً، وذلك قبل وأثناء العملية العسكرية، وهذا السلاح متطوّر أيضاً من الناحية التقنية، وهذا ما يعترف به العدو نفسه.

وبما أن القصد الأساسي من هذه المادة هو أن يتميّز المدني من العسكري، ليصبح المقاتل هدفاً عسكرياً، بينما المدني لا يمكن اعتباره كذلك، فإن رجال المقاومة في لبنان يُلبّون الشرط الثالث المطروح.

د- التزام المقاومين بقوانين الحرب وعاداتها:

أما الشرط الرابع والأخير، فيتطلّب من المقاومين أن يلتزموا في عملياتهم بقوانين الحرب وعاداتها. وإذا كان المقاوم يريد أن يتمتّع بالحماية التي يُعطيه إيّاها القانون

1- Rapport du Secretaire Général des N.U. sur le respect des droit de l'homme dans le conflit armé, 1970, A/8052, p 177.
2- De Preux Jean, op.cit, p 542.
3-Furet Françoise, op.cit, pp 132 - 133.

٤- المرجع السابق.

الدولي الإنساني، فمن الطبيعي أن يلتزم بقواعد ومبادئ هذا القانون وذلك في كلّ مراحل العملية العسكرية التي يقوم بها. وعلى المقاوم أن يحترم المدنيين، وأن لا يعرِّض حياتهم للخطر، ولا يستعمل سلاحاً ممنوعاً في القانون الدولي، وأن يأخذ بعين الاعتبار مبدأ النسبية أثناء الهجوم، وأن يحترم مبدأ الشرف في القتال[1]. كما أن عليه حين يأسر مقاتلاً للفريق المعادي أن يحترم القواعد والقوانين والمبادئ التي تحمي هذا الأسير.

إن المقاومة في لبنان ضد الكيان الصهيوني احترمت، وما تزال، قواعد وأعراف القانون الدولي الإنساني، وذلك أثناء عملياتها العسكرية التي لم توجّهها إلاّ إلى أهداف عسكرية، وهي على عكس العدو الإسرائيلي لم تدمّر الأعيان الثقافية والأملاك المدنية ولم تقتل المدنيين ... وهذا طبيعي كون العمليات العسكرية تدور في مجملها على الأرض اللبنانية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن المقاومة هي صاحبة المصلحة في تطبيق القانون الدولي الإنساني، ويشهد على ذلك كلّ ممارساتها وكذلك التزامها ببنود «تفاهم نيسان» الذي يُجسّد بعض القواعد الأساسية في القانون الدولي الإنساني[2].

كما إن قبول وساطة اللجنة الدولية للصليب الأحمر، والتعاون معها طوال النزاعات العسكرية، يعطينا أيضاً فكرة واضحة عن أن المقاومة في لبنان تلتزم في عملياتها بقوانين الحرب وعاداتها.

من كلّ ما تقدّم يبدو واضحاً أن المقاومة في لبنان، والمقاتلين في صفوفها، يتوفرون على جميع الشروط الذاتية المذكورة في المادة الرابعة فقرة (أ) البند (٢)، وبذلك على العدو الصهيوني أن يلتزم بتطبيق معاهدة جنيف الثالثة بكاملها على مقاتلي المقاومة الذين يأسرهم، وذلك عملاً بالاتفاقية الثالثة؛ لأنه «**على الدولة المحتلّة أن تلتزم بشكل صريح أن تعامل كلّ أعضاء المقاومة الذين يقعون في الأسر كأسرى حرب، وأن تُطبّق عليهم المعاهدة بكاملها**»[3].

1-Commenataire de la 3éme Convention, op.cit, p. 69.

٢-أنظر حول هذا الموضوع، حسن جوني: «قراءة قانونية في بيانات لجنة مراقبة تفاهم نيسان»، جريدة النهار، ٢١ كانون الأول، ١٩٩٦. وأيضاً حسن جوني: «تفاهم نيسان في ضوء القانون الدولي الإنساني»، محاضرة في نقابة المحامين، ٤ كانون الأول ١٩٩٩، منشورات المؤتمر الدولي لمناسبة الذكرى الخمسين لاتفاقيات جنيف، نقابة المحامين، بيروت، ٢٠٠٠.

3- Commentaire de la 3éme Convention, op.cit, p 66.

خـاتمـة

بينما تكسب المقاومة شرعيتها من القانون الدولي العام الذي شرَّع للشعوب حقاً في تقرير المصير واللجوء إلى القوة والسلاح لتحقيق ذلك، وكذلك لتحرير أرضها من المحتل والمستعمر. فإن هناك من لا يعترف بهذه الشرعية. وللأسف ليس فقط العدو الصهيوني وإنما أيضاً بعض عملائه في لبنان، تارة بحجة تجاوز الخط الأزرق، وتارة بحجة الأيديولوجية الإسلامية لحزب الله، وتارة لعدم معرفة الحكومة بالعمليات العسكرية مسبقاً... إلخ.

بيّنا في هذه الدراسة كيف أن كل هذه المواقف لا قيمة لها من حيث مشروعية المقاومة، ولا تأثير لها على مشروعية المقاومة، معتمدين على قواعد وأعراف القانوني الدولي العام.

وإننا نرى أنه من الطبيعي أن يعارض البعض المقاومة ويرى أنه يجب استرداد الأرض المحتلة عبر المفاوضات الدبلوماسية فقط، حيث إن في تجارب كل شعوب العالم التي قاومت الاحتلال كان هناك دائماً من يقف ضد المقاومة ويتعامل مع العدو المحتل، وكان هناك أيضاً من يتخذ موقفاً محايداً ويعتبر نفسه غير معنيّ عن حسن نية أو سوء نية.

هذا ما يثبت بأن المقاومة وإن كانت بحاجة إلى الالتفاف الشعبي حولها، وهذا هو الحال بالنسبة للمقاومة اللبنانية بقيادة حزب الله، إلا أن ذلك لا يعني أن المقاومة بحاجة إلى إجماع كل القوى السياسية حولها؛ لأنه لو كان كذلك لما حرّر شارل ديغول فرنسا؛ حيث كان هناك فريقٌ كبير من الفرنسيين يرى أن مقاومة ديغول قد تدمر فرنسا. لذلك تعامل هؤلاء مع القوات النازية الألمانية المحتلة وألّفوا حكومة تابعة للاحتلال في مدينة فيشي، إلا أن إصرار الشعب الفرنسي على التحرر والنضال طرد هؤلاء وحاكمهم وتحرّرت فرنسا وما زال الشعبان الفرنسي والأوروبي يحتفلان بدحر النازية وبالانتصار.

إن شعبنا اللبناني يستحق ويليق به أن يحتفل، ومعه كل أحرار العالم بانتصار مقاومته وبدحره للاحتلال والعدوان الصهيوني الغاشم.

مرجعية ثقافة المقاومة في مجتمع تعددي

د. عدنان السيد حسين *

المجتمع التعددي هو المجتمع الذي يضم فئات اجتماعية مختلفة لغوياً، أو ثقافياً، أو دينياً، أو قومياً، أو عرقياً... لكنها تتفاعل في إطار دولة واحدة.

درجة تماسك، أو ضعف، هذا المجتمع تختلف بين دولة وأخرى. فلكل واحدة منها ظروف نشأتها، وقدرتها في مرحلة معينة، وعلاقاتها الخارجية الوطيدة أو الضعيفة. وتجدر الإشارة إلى انبعاث التعددية الكامنة، أو الصريحة، بعد انقضاء الحرب الباردة. حتى أن حروب البلقان، وآسيا الوسطى، والقرن الأفريقي، اتخذت منحىً عرقياً أو طائفياً أو إقليمياً... وبتنا نشهد مخاطر انهيار الدولة القومية، وما يحمله من تهديد للسلم والأمن على المستويات الإقليمية والدولية كافة.

ومما لا شك فيه أن التوازن الدولي أيام الحرب الباردة بين القوتين العظمتين، الاتحاد السوفياتي السابق والولايات المتحدة الأميركية، أوجد نوعاً من الاستقرار النسبي على مستوى الدولة. هذا بالإضافة إلى الدور الإيجابي الذي أدّته حركة عدم الانحياز لجهة حماية الاستقلال الوطني للدول الحديثة العهد بالاستقلال، وإذكاء شعلة التحرّر في نفوس الشعوب التوّاقة للتقدم والنمو، ومكافحة الاحتلال والتمييز العنصري.

ليس صدفة والحال هذه أن يعلن مجلس الأمن الدولي في قمته التاريخية التي انعقدت في العام ١٩٩٢، عشية سقوط الاتحاد السوفياتي، أن أخطر ما يهدد السلم والأمن الدوليين

---

* عضو مجلس أمناء منتدى الفكر العربي - لبنان.

هو تفكك هيكليات الدول. كانت نُذر التقسيمات العرقية والطائفية تسيطر على المجتمع الدولي، بالتزامن مع صعود قوة عظمى واحدة أرادت أن تستفرد بقيادة النظام العالمي، وتسيطر على الأمم المتحدة.

اليوم، عندما نتفحّص تعقيدات العلاقات الدولية نلاحظ سيطرة الحروب الداخلية بدلاً من الحروب الإقليمية بين دولة ودولة. معظم الحروب تدور داخل الدولة، وبين شعبها، فتدمر قدراتها ومواردها، وتطرح مصير كيانها على بساط البحث.

في حالة وجود احتلال أجنبي يهدد استقلال الدولة، واستقرارها، ومستقبل شعبها... يمكن لمقاومة الاحتلال أن توحّد الإرادة الوطنية.على الرغم من التعددية الداخلية. ومن شأن هذه المقاومة أن تؤسّس لنهضة وطنية جديدة بعد دحر الاحتلال. حصل ذلك في حروب الفيتنام ضد الفرنسيين والأميركيين، وتكرر في التجربة الجزائرية التي شهدت أكبر ثورة تحررية ضد الاستعمار. وما تزال المقاومة الفلسطينية – على رغم ما يعترضها من عقبات - حاجة موضوعية لتحقيق الاستقلال الوطني.

بقدر ما تمكنت هذه المقاومات من تجميع القدرات الوطنية، بعيداً عن الانقسامات الداخلية، بقدر ما انتصرت وحقّقت أهدافها المشروعة. لقد شكّلت ساحة لقاء لجبهة سياسية متعددة الأطراف، وأحياناً متعددة الأفكار والسياسات، بيد أنها متفقة على هدف مقاومة الاحتلال.

وتكمن إشكالية المقاومة اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي في أنها نشأت أثناء فترة الحرب الداخلية(١٩٧٥-١٩٨٩)، وبدلاً من أن تشكّل التعددية اللبنانية دعماً لها، وسنداً إضافياً، صارت عبئاً عليها في أوقات الشدة. هذا مضافاً إلى العوامل الخارجية الضاغطة على لبنان واللبنانيين كي يظلوا في دائرة الانقسام الطائفي، والمناطقي، والعشائري.

ويسجّل للمقاومة الإسلامية، أنها تمكّنت من دحر الاحتلال الإسرائيلي في سنة ٢٠٠٠، وهزمته في العام ٢٠٠٦، على الرغم من الضغوط الداخلية الصعبة، والضغوط الخارجية المستمرة. ولم تدخل في تنازع داخلي قد يؤدي إلى حرب أهلية أو داخلية. هذا على رغم الضغوط التي مورست ضدها خلال الحرب الإسرائيلية السادسة في صيف العام ٢٠٠٦، وحملة التشويه الإعلامي، والتضليل السياسي، ونكران الانتصار الذي حققته تلك المقاومة.

في مواجهة هذه الإشكالية الداخلية المرتبطة بالطائفية، وما توجده من عصبيات، واصطفافات سياسية واجتماعية، ترتقي ثقافة المواطنة لتشكّل مرجعية كبرى، أو المرجعية الأساس للمقاومة، ثقافة المساواة بين المواطنين في حقوقهم وواجباتهم أمام القانون، ثقافة الدفاع عن الوطنية في مواجهة أطماع إسرائيل بمياه الحاصباني والوزاني والليطاني، ثقافة حماية السيادة الوطنية من العدوان الإسرائيلي المتكرر منذ العام ١٩٤٨.

ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا العدوان ما زال مستمراً؛ فقد أحصينا نحو ١٢٠ عدواناً إسرائيلياً على لبنان بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧، أي قبل وجود المقاومة الفلسطينية المسلّحة، وقبل تفجّر الأزمة الداخلية اللبنانية، وقبل نشوء المقاومة الإسلامية أو غيرها من المقاومات الوطنية. وعليه فإن الدفاع عن السيادة يكون بالتلازم بين ثقافة المواطنة ومواجهة العدوانية الإسرائيلية.

هنا لا بدّ من التوقف عند الاتجاه الشعبي العام في لبنان أمام كل منعطف خطير، أو عند كل عدوان إسرائيلي أو حرب إسرائيلية على لبنان. لقد ظهر الشعب جلياً في دفاعه عن مقاومته، وفي احتضانه للنازحين من أبناء الجنوب مرات عدة. إن هذه الظاهرة تفسّر جدلية العلاقة بين مجتمع تعددي وبين مقاومته الباسلة من خلال المواطنة التي لم يعزّزها النظام السياسي، ولا الحكومات المتعاقبة على السلطة.

إلى ذلك، تبقى فكرة الجهاد مرجعية مركزية في أساس المقاومة، وفي فكر المقاومة، وعقيدة المقاومين. الجهاد ليس إرهاباً كما روّجت أوساط غربية متصهينة. الجهاد ليس مساوياً للقتل والموت، كما تفسّر عصابة المحافظين الجدد في الولايات المتحدة. الجهاد هو دفاع عن الحق، ونصرة للمظلوم، واستشهاد في مواجهة العدو المغتصب للأرض. الجهاد هو ظاهرة إنسانية نبيلة بعيداً عن غطرسة القوة المادية، التي طالما أسّست للنظرية الواقعية المادية في العلاقات الدولية. هذه النظرية التي قادت إلى فلسفة توازن القوى بعيداً عن قواعد الشرعية الدولية. والجهاد عند كل المسلمين ؟ على اختلاف مذاهبهم الفقهية ؟ هو فرض عين على كل مسلم ومسلمة متى احتُلت الأرض.

في القانون الدولي الوضعي، الدفاع عن الوطن الذي يتعرض للعدوان هو حق مشروع بموجب ميثاق الأمم المتحدة (القاعدة الأسمى في القانون الدولي). وما نراه داخل أروقة الأمم المتحدة هو انحياز سياسي لإسرائيل، وليس تطبيقاً لقواعد الشرعية الدولية. هذا

ليس رأينا فقط، إنه رأي جمهرة علماء الغرب أنفسهم الذين يعترفون بالانحياز لإسرائيل.

إذاً، ثمة مرجعية دولية - عالمية لثقافة المقاومة بوجه عام. بقي أن تتخلى القوى الدولية الكبرى عن ازدواجية المعايير في التطبيق. وثمة مرجعية إسلامية في الجهاد، الذي هو أنبل من أن تشوهه الدعاية الصهيونية المغرضة.

بقيت المرجعية الوطنية، أو ثقافة المواطنة التي نحتاجها في وطننا لبنان، وفي عدد من الدول العربية والإسلامية. إنها الثقافة الجامعة، بدلاً من ثقافة الفتن، والحروب الأهلية، واستثارة العصبيات. إنها ثقافة حقوق الإنسان مهما كان لونه وجنسه ودينه ومذهبه السياسي والفكري في إطار ثقافة المواطنة، لا أقليات غاضبة أو متناحرة. ولا صراعات داخلية مهددة للكيان الوطني عند كل منعطف كبير.

ثقافة المواطنة مطلب لبناني جامع متى وجدت وانتشرت تصير المقاومة في مأمن داخلي، فتزداد قوة. ما السبيل إليها؟ هنا فليجتهد المجتهدون.

المحور الثاني

قيمة النصر بين الإعداد والشهادة

■ الأبعاد الثلاثية للمفاهيم المؤسسة للانتصار المقاوم.
أ.علي أبو الخير

■ الانتصار في عيون إسرائيلية
أ.محمد تيسير الخطيب

■ عوامل الانتصار دور القيادة والثقة بها في تحقيق الإنجاز الميداني
النائب محمد رعد

■ انتصار المقاومة هو انتصار الثقافة المقاومة في مواجهة الثقافة الصهيونية
د. السيد نجم

■ انعكاسات حرب تمّوز على الرأي العام الأميركي ودعم الكونغرس لإسرائيل
د.فرنكلين لامب

الأبعاد الثلاثية للمفاهيم المؤسسة للانتصار المقاوم بين فلسفة القوة ومنطق الإيمان

أ. علي أبو الخير *

مقدمة:

الشهيد محور التاريخ

ما إن شنّت الدولة الصهيونية الحرب على لبنان يوم الثاني عشر من تموز/يوليو العام ٢٠٠٦ حتى تساءل كثيرون بصدق عن مدى إمكانية صمود المقاومة أمام الآله الإسرائيلية، كما تساءل آخرون: لماذا المغامرة أمام جيش يعتمد على أحدث ما أنتجه العالم المهيمن من أسلحة بما فيها أسلحة الدمار الشامل.

وما بين التساؤلين جاء الانتصار المقاوم مفاجأة للمخلصين وغيرهم من كل الطوائف والتيارات المحلية والعالمية، وتوّج الصمود بالانتصار.

وهذا الانتصار هو الذي أكّد وأصّل المفهوم المقاوم والمفهوم الإيماني ضد فلسفة القوة، كما أكد على أن ثقافة المقاومة تعتمد ضمن ما تعتمد على منطق إيماني يقول «إن الشهيد هو محور التاريخ وليس البطل»[1]، والاستشهاد هنا ليس استشهاداً انتحارياً أو دون هدف محدد.

إن الحرب كانت بين الأثرة والأريحية، بين البطولة الزائفة والشهيد الحق، بين فلسفة القوة ومنطق الإيمان.

---

* مدير مركز الفارابي للإعلام ودراسات المستقبل - مصر.

١- من كلمات الإمام الخميني - نقلاً من كتاب مدافع آية الله - محمد حسنين هيكل - دار الشروق - القاهرة - ١٩٢٨ - ص١٨٧.

إن منطق التاريخ يقول إن القوة لا يردعها إلا القوة وإن فعل التحرير لا يتحقق بالتمني أوالترجي، ولا بالتسول أو الاستجداء، وإلى هذا أشار الامام علي (ع) عندما قال: «ردوا الحجر من حيث جاء فإن الشر لا يردعه إلا الشر»[1] هذا الردع الذي هو شر على الأعداء لكنه خير لأبناء الإسلام.

وهذا البحث هو محاولة تأسيسية واستجلائية للمفاهيم التي أدت للانتصار وميزت المقاومة عن سائر حركات التحرر العالمية نظرا لأن الصراع مع الصهيونية يعني الصراع مع الهيمنة والاستكبار، كما أن هذا الصراع يختلف عن كل الصراعات العالمية، لأنه صراع حول المبادئ وهو صراع قديم ، لأن الفكر الصهيوني يعتمد على تزييف الوعي ، والكذب على التاريخ والاستكبار على الناس بمفهوم الشعب المختار عن العالمين، وهو ما نريد توضيحه والكتابة فيه، وهو بحث عن الأبعاد الثلاثة التي أسست لمفاهيم الانتصار المقاوم.

البعد الأول: المفهوم الرسالي

إن الكلمة هي أولى المفاهيم التي أسست لانتصار المقاومة ، والكلمة هنا رسالية عقائدية بالمفهوم الواسع للمعنى الرسالي.

إن كل حركات التحرير في العالم وكل حركات المقاومة انطلقت بالكلمة ضد السلاح. وغالباً ما تنتصر الكلمة لأن الحق في جانبها، وعندما تكون الكلمة رسالية يصير الإيمان جزءًا منها، لأن المقاومة العقائدية الإيمانية مقاومة مختزنة وموجودة في مشروع فلسفي وعقائدي وتنظيمي حيث لها شعاراتها وعناوينها[2]، ثم تأتي المقاومة العسكرية كأحد روافد المشروع المقاوم، والعقل المنظم والإرادي جزء من ذلك المشروع، والإيمان أيضاً، لأن الله تعالى لم يترك الإنسان لعقله فقط، بل منحه دفعة إيمانية قوية، روحانية خالصة تعمر قلبه حتى يتمكن من تقبل الصدمات الحياتية والروحانية التي تواجهه أثناء مسيرة حياته، وهي نعمة إلهية للإنسان يقول الحق في قرآنه الكريم: ﴿**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[3]، النفحة الإيمانية في القلب الذى يملك الحدس والوجدان والعواطف فإذا كان العقل يفكّر في السموات والأرض

١- نهج البلاغة / ٢/ ٥٤.

٢- من أقوال السيد موسى الصدر من كتاب المقاومة والمجتمع السلمي - كتاب سواسية - مركز الإمام موسى الصدر٢٠٠٠.

٣- سورة القصص، الآية ١٠ .

والكون، ويصل بالتاي إلى نعمة الإيمان بخالق الكون، فإن الله يربط على قلبه هذا الإيمان فلا يعود للتشكك في إيمانه، ولا يصبح العقل مصدر نقمة إن هو فكّر في الغيبيات الإلهية وفي ذات الله جل شأنه؛ فطالما وصل لاقتناع بأن خلق هذا الكون ليس عبثاً؛ تغمره النفحة بأنوارها القدسية فيثبت على الحق الذى هداه الله إليه؛ فيتفرّغ العقل لإعمار الكون واستغلال كل موارده لسعادة البشر على اختلاف مللهم ونحلهم. والنفحة الإيمانية تفطر الإنسان على حب الخير ورفض الظلم ونجدة المظلوم وإيثار الغير على النفس ولو كان بها خصاصة؛ مناط التكليف العقل، ومناط الإيمان القلب، وهما توأمان متلازمان ضروران لحياة الإنسان واختياره، وهما أساس كل دين إلهى منذ نوح وحتى محمد صلوات الله عليهم؛ والدين عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ في الأفئدة وتصطبغ النفوس بعقائده؛ فهو سلطان الروح ومرشدها فلم يترك الله الإنسان سدى، بل أعطاه كل الملكات الفطرية والتعليمية لكى يصل بنفسه إلى الحق المبين[١]، والميراث الثورى القرآني العقلي والروحي تم تطبيقه على أرض الواقع، واستلهمت المقاومة هذا المفهوم الثوري الرسالي الذي طبق في الثورة الحسينية التي رفعت شعار رفض الظلم وإعادة الكرامة للإنسان، ولا يمكن فهم المشروع المقاوم إلا في إطاره الحسيني لأن ثورة الحسين(ع) لم تكن ثورة وقتية لتموت بعد زمان، وإنما كانت ثورة الحق ضد الباطل، وثورة العدالة ضد الظلم، وثورة الإنسانية ضد الوحشية، وثورة الهداية ضد الضلال، ولذا كان من الضروري، امتداد هذه الثورة مادامت الدنيا باقية، ومادام يتقابل جيشا الحق والباطل والهداية والضلالة، وهذا المشروع المقاوم له فلسفته العقائدية والإنسانية، يهدف إلى نبذ الظلم كما قال الإمام علي(ع) «الحياة في موتكم قاهرين والموت في حياتكم مقهورين»[٢]، هذا المشروع الرسالي يُحدّد للأتباع والموالين ولغيرهم من بني الإنسان فرصة الثورة على الطغيان أياً كان مصدر هذا الطغيان، ولقد عاشت المقاومة الإسلامية في لبنان في أحضان هذا المشروع الرسالي بداية من وصول الإمام موسى الصدر الذي أسس حركة المحرومين وعمل على إشاعة التسامح وحذّر من المشروع الصهيوني رغم أن إسرائيل لم تكن تحتل أي أرض من لبنان وقتها، ولكنه أدرك أن الصهيونية مشروع استعماري استئصالي، وأن له برامجه التوسعية، ومن ثم كانت نداءاته لوحدة الصف اللبناني والصف الإسلامي، وربما كان تغييبه راجعاً لهذا المشروع الوحدوي الرسالي المثالي، ثم انطلق المشروع المقاوم مع الغزو الصهيوني

٣- علي أبوالخير - الهوية من منظور فلسفة الأديان - بحث منشور في مجلة المحجة - العدد١٤ ص ١٤٩.

٢- نهج البلاغة / ٣/ ٥١.

للبنان في صيف عام ١٩٨٢، ولابد من التأكيد على أن الخلفية الرسالية المقاومة لها جذورها البعيدة الكربلائية ولها جذورها القريبة في ظهور الفكر المقاوم من منطلق الثورة على الظلم الصهيوني، كما أن الوعي المقاوم أدرك أنه يخوض المقاومة ضد مشروع صهيوني قائم على ميراث قهر المغلوب دون أدنى شعور من شفقة أو نظرة إنسانية، ففي سفر يشوع أنه قتل كل سكان أريحا (**فنفخ الكهَنةُ في الأبواقِ فهَتفَ الشَّعبُ عِندَ سَماعِ صوتِها هُتافًا شديدًا فسَقطَ السُّورُ في مكانِهِ. فاَقتحَمَ الشَّعبُ المدينةَ لا يَلوي أحدُهُم على شيءٍ واَستولَوا علَيها، وقتلوا بحَدِّ السَّيفِ إكرامًا للرّبِّ جميعَ ما في المدينةِ مِنْ رِجالٍ ونِساءٍ وأطفالٍ وشيوخٍ، حتى البقَرَ والغنَمَ والحَميرَ وقالَ يَشوعُ لِلرَّجلَينِ اللَّذَينِ اَستطلَعا الأرضَ: أُدخلا بَيتَ المَرأةِ الزَّانيةِ وأخرِجاها مِنْ هُناكَ معَ جميعِ ما حوَ لها، كما حَلَفْتُما لها. فدَخلا وأخرَجا راحابَ وأباها وأمَّها وإخوتَها وجميعَ ما لها وسائرَ أقاربِها وأقاموهُم جنبَ محلَّةِ بَني إسرائيلَ. وأحرَقوا المدينةَ وجميعَ ما فيها بالنَّارِ إلاَّ الذَّهبَ والفِضَّةَ وآنيةَ النُّحاسِ والحديدِ، إذْ وضَعوها في خزانةِ بَيتِ الرَّبِّ. وأبقى يَشوعُ على راحابَ الزَّانيةِ وبَيتِ أبيها وجميعِ ما هوَ لها، فأقامَت بَينَ بَني إسرائيلَ إلى هذا اليومِ، لأنَّها أخفَتِ الرَّجلينِ اللَّذَينِ أرسلَهُما يَشوعُ لِيَستطلِعا أريحا**)[١]، ففكرة القتل مستوحاة عن يشوع كما تراها الصهيونية، فيشوع قتل كل من قابله إكراما للرب، حتى الحيوانات، كما أحرق المدينة أو المكان لكي يفرغ الأرض من سكانها، فلا يرتبط الإنسان بالمكان، وهو نفس ما قامت به الصهيونية الحديثة بعد أن احتلت فلسطين عام ١٩٤٨، وكان لابد من المشروع الرسالي لدحر هذا المشروع الصهيوني على مستواه الفكري قبل السياسي لأن الهزيمة تأتي من النفس قبل الغير، وأن النفسية المهزومة تكون مهيأة وقابلة للاستعمار كما أشار مالك بن نبي[٢]، فاستعد المقاومون نفسياً وإيمانياً وأخلاقياً، فلم يتورطوا في صراع مع أي فريق لبناني ولم يدخلوا في مواجهة مذهبية مع المسلمين، وهذا من أسرار الانتصار، ثم كان الاستعداد العسكري الذي جاء بالنصر وليس العكس بالتأكيد أو حسب قول السيد حسن نصر الله: نؤكد على التزامنا العلمي والثقافي والفكري واهتمامنا الأكيد والقوي والراسخ بهذا الجانب، وهذا في الحقيقة كما هو تعبير عن الفطرة الإنسانية الصحيحة والسليمة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الإنسان والمجتمع البشري، لذلك هو تعبير عن انتمائنا الديني والإيماني وللرسالة والرسول

١- سفر يشوع / ٢٠ - ٤٢.

٢- مالك بن نبي - مجلة رسالة الإسلام - القاهرة - يناير ١٩٦١.

والكتاب والدين الذي أصله وأساسه وروحه العلم وآيته الكبرى المعرفة. نحن نترجم ونعبّر عن هذا لنؤكد بعداً آخر في مسيرتنا وجهادنا ومقاومتنا، وفي الحقيقة ما المقاومة والجهاد إلا التزام عملي بما يفرضه علينا العلم والمعرفة والقانون والرسالة والالتزام.

البعد الثاني : المفهوم التربوي للمقاومة

التربية الثورية إنما ينهض بها القادة التاريخيون الذين يهدفون إلى تحرير الإنسان من إسار وضع اجتماعي فاسد ولبناء مجتمع صالح على أنقاضه لأن الباحث في التاريخ الإنساني يجد أن كل الأفكار الإصلاحية والتغيّرات الثورية في تاريخ البشرية تقوم على الفرد، لأن الإنسان الفرد هو محور التاريخ، والخطاب الإصلاحي يتوجّه للفرد قبل الجماعة، لأن التغيير للأصلح أو للأسوأ يبدأ من الفرد الذي يكوّن من حوله خلية تصير نواة للتغيير. والتغيير المقصود هنا قد يكون للخير، وقد يكون للشر، ولكنه في كل الحالات تغيير يقلق المجتمع وربما المجتمعات المجاورة أو العالم بأسره، و مسيرة البشرية شهدت حروباً و صراعات دامية يقودها أفراد لهم إمكانات بشرية عالية المستوى في التفكير والإدراك، وكل الديانات الوضعية كالبوذية والهندوكية والزرادشتية والديانات الفرعونية القديمة نبتت من عقول أناس أفراد، وكل الحروب التوسعية الدامية كالتي قام بها جنكيزخان وهولاكو ونبوخذنصر وهتلر وغيرهم، كانت من بنات أفكار أفراد، أشخاص لهم ذكاء نادر استخدموه للغزو والتوسع، كما أن كل الحركات السياسية والفكرية التي أثّرت في البشرية كالشيوعية والرأسمالية والدياليكتيكية والأممية جميعها خرجت من مخ إنسان فرد تمكّن من تطويع البيئة التي يعيش فيها بالكتابة والتبشير بوعود المساواة والعدل والإخاء، ويتلقّفها أشخاص ثم جماعات تقوم بإخراج تلك الأفكار إلى نطاق حيوى تستثمر فيها، وتنطلق منها في حروب مازالت تصبغ البشرية بالفرقة والدماء.

وفي المقابل فإن الأنبياء جميعاً أفراد، بشر، تميّزوا بالبشرية المثالية كما تميّزوا دون الناس جميعاً بالاصطفاء الإلهي لهم ليكونوا قدوة للناس، لينشروا العدل والتبشير بالقيم الرساليه، فهم بشر مصلحون أرسلهم الله ومعهم ميزان معنوى ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[1]، فالميزان هنا هو حقيقة العدل، وحامل الميزان ليس مخلوقاً معصوب العينين لكي لا ينحرف عن سواء

١- سورة الحديد / ٥٢ .

السبيل، ولكن حامل الميزان مفتوح العينين، يدرك الأحياء والأشياء، يحكم بالقسط بين كل البشر، ويخوض الحروب ضد كل المستكبرين، فالأنبياء هم المصطفون دون الناس جميعاً ومعهم كتب سماوية تبشّر بالعدل والتوحيد . وعلى نهجهم يأخذ القادة التاريخيون الرساليون على عاتقهم دفع الظلم والدفاع عن المستضعفين والمحرومين، وهذا هدف وهاجس للقائد الذي يستلهم مفردات الصراع فيعمل على تربية المقاومين على أسسها الرسالية.

وعندما يصبح مثل هذا الهدف هو الهاجس الوحيد للقائد التاريخي، عندها يبدأ عملية التعبئة الفكرية والروحية بهذا الاتجاه، وتلتحق به النخبة المختارة التي ترتضي هذا الهدف محوراً لحركتها وهمومها ومواقفها.

الإسلام العظيم بصفته الدين السماوي الخالد الذي اختاره الله تعالى للبشرية جمعاء يهدف إلى إخراج الناس من عبودية العباد والطواغيت إلى عبودية الله وحده، قال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً**﴾[1]، وهذا بدوره يؤدي إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن الفساد والانحلال والفوضى إلى الخير والأمن والازدهار، وقد أوكل هذا الهدف العظيم إلى أنبياء الله المرسلين وإلى خاتم الأنبياء وإلى أوصيائه النجباء، قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [2] ومن هنا أخذ قادة المقاومة على عاتقهم تربية المقاومين تربية ثورية قرآنية تقوم على الآتي:

١- الوعي والتبصير ووضوح الهدف
٢- الإيمان المطلق بالقيادة والوفاء لها
٣- الاستعداد العالي للتضحية
٤- الانضباط التام

وهذه أهم عناصر المنهج الثوري عند الإمام الحسين(ع)[3].

وقد تمّت تربية المقاومين على هذه الأسس الثورية، وقد أفرغ هذا المفهوم التربوي كل

١- سورة النساء / ٦٠.

٢- سورة الحديد / ٩.

٣- طه الديواني - المنهج الثوري عند الإمام الحسين - موقع الكتروني - شبكة المستبصرين.

الطاقات غير الإنسانية من قلوبهم ، كما نجحت التربية في إيقاظ همم أبناء الأمة لقضية المقاومة الإسلامية.

القائـد يؤصـل المفهـوم التربـوي

وقد أكّد السيد نصر الله على هذا المفهوم التربوي عندما أكّد على أنه يمكن للطالب وهو على مقاعد الدراسة أن يكون مقاوماً، كما أنه بالفعل كانت تلك أبرز ما تربى عليه المقاومون الشبان:

أولاً: أن يكون هواه مع المقاومة، يعني الهوى الحب بمعنى العاطفة والميل الفكري والسياسي. وهذا يجعله بشكل أو بآخر شريكاً في المقاومة. وكما حصل في إحدى حروب أمير المؤمنين(ع) حين قال له أحد أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائه. فقال عليه السلام: أَهَوَى أخيك معنا؟ فقال نعم، فقال عليه السلام: فقد شهِدَنا ولقد شَهِدَنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعَفُ بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان.

ثانياً: المقاومة لها أشكال مختلفة ومتنوعة، أبرز أشكالها هو العمل العسكري، لكن هناك أشكال أخرى للمقاومة، كالتأييد السياسي، والدعم المادي والمشاركة في الأنشطة التي تثبت هذا الخيار وتقوّيه على المستوى الوجداني والثقافي والسياسي والشعبي، وهذا النوع من الأنشطة لا يتنافى مع دراسة الطالب.

ثالثاً: أن يعمل ليكون مستعداً للمشاركة في المقاومة في يومٍ من الأيام وهناك أشكال من التشكيلات التطوعية الموجودة، هو يستطيع أن ينتسب إلى هذه التشكيلات، وهذه التشكيلات تؤهّله وتدرّبه وتحضّره وتثقّفه ليوم يمكن أن يشارك فيه في أعمال المقاومة وفي كل الأحوال هذا المستوى من الجهوزية هو من المسؤوليات الشرعية؛ لأن لبنان في معرض الخطر. قد لا تكون المقاومة في وضعها الطبيعي اليومي بحاجة إلى مقاتلين كثر، ولكن إذا تعرّض البلد إلى عدوان واسع فيجب حينئذٍ على الجميع أن يحمل السلاح ليدافع. وهناك مقدمة لهذا الواجب هي التدرب والاستعداد والجهوزية النفسية ومعرفة وسائل القتال وفنونه، وفي لبنان لا توجد قوى عسكرية، حتى الجيش وحتى المقاومة، لا تستطيع وحدها صدّ عدوان واسع وإنما هي بحاجة إلى مشاركة هؤلاء الطلاب في بعض أعمال التدريب أو بعض أعمال المرابطة وهذا يساعدهم أكثر ليعيشوا بالقرب من نشاطات المقاومة ومن

أجواء المقاومة، لكن النقطة التي أودّ التأكيد عليها أن المقاومة اليوم ونتيجة التطور التقني والتكنولوجي ووسائل القتال هي بالتأكيد بحاجة إلى متعلّمين وإلى متخصّصين، فالطلاب الذين ما زالوا على مقاعد الدراسة نؤكّد على ضرورة أن يواصلوا دراستهم ويبقوا في مناخ المقاومة وأجواء المقاومة وأن يحصلوا على تخصّصات علمية مناسبة، وأعتقد بعد ذلك بإمكانهم أن يكونوا مفيدين لهذه المقاومة أكثر، وأعني بالتحديد في المجال التخصصي، فعندما نتحدث عن المقاومة فنحن بحاجة لأن نتخصص في علم الفيزياء وفي مجال الكيمياء، الكومبيوتر، وبقية الاختصاصات التقنية والهندسية المختلفة، لأن المقاومة لديها قدرات من هذا النوع، أيضاً عندما نتحدث عن المقاومة يجب أن يكون لدينا أطباء أكفّاء وهذا جزء من جهوزية المعركة، وأيضاً نحن بحاجة إلى متخصّصين في المجال الإعلامي لأن الإعلام هو جزء من المعركة وهو جزء أساسي فيها، هذه التخصّصات هي تخصّصات مهمة وضرورية جداً ونحن بحاجة إلى هذا الكادر، وأيضاً هناك جانب آخر يجب على الطلاب أن يحرصوا عليه وهو ما يؤهّلهم ليساعدوا هذه المقاومة ويكونوا جزءًا منها، وهذا الجانب هو الجانب الإيماني والأخلاقي والسلوكي، لأن أهمية هذه المقاومة أنها لم تكن مقاومة مقاتلين أشدّاء أو متعلمين أو متخصّصين وإنما كانت مقاومة مؤمنين ومتدينين وعاشقين وطلاب آخرة وزاهدين في الدنيا ومؤدين لتكليفهم الشرعي، وهذا هو السبب الأول والأساس الذي مكّن هذه المقاومة من الاستمرار والتداوم والتماسك وإلحاق الهزيمة بالعدو.

وعلى مستوى المناهج التعليمية، يجب بالتأكيد أن نستفيد من كل التجارب التي تحصل في العالم ويجب أن نكمل من حيث انتهى غيرنا بالتأكيد لا يجوز تكرار التجارب السابقة نفسها وارتكاب الأخطاء نفسها التي ارتكبها آخرون ثم عدلوا عنها بعد ذلك، لكن الملاحظة الأولية وانطباعي الأولي والظاهري أن المناهج الأخيرة التي تم إقرارها تثقل كاهل الطالب وتتعبه وبالتالي قد تؤثّر على مستوى إنتاجيته (أنا أعني المناهج الرسمية) وهذا ما يجب إعادة النظر فيه بالتأكيد. المناهج إلى جانب البعد التربوي والأخلاقي والإيماني والوطني في المجال العلمي التخصصي يجب أن تكون مناهج مفيدة وتستطيع أن تؤهّل الطالب إلى المرحلة الجامعية أو إلى مرحلة التخصص العالي، ولا يجوز أن تثقل كاهله أو تراكم عليه مجموعة كتب ومجموعة علوم ينوء بحملها وتوجد لديه تشتتاً ذهنياً أو إرهاقاً نفسياً. مما لا شك فيه أن هذه الرسالة عالية وعظيمة جداً، ورسالة التربية

أخطر من رسالة التعليم، التعليم في نهاية المطاف هو أن تنقل علماً لشخص آخر، والعلم يجتمع مع الأخلاق الحسنة والأخلاق السيئة، فهناك شخص لديه علم وأخلاقه حسنة، وشخص لديه علم وأخلاقه سيئة، هناك عالم جبار وهناك عالم متواضع، فنقل العلم هو مسألة فنية تقنية ليست مسألة معقّدة بشكل أو بآخر، الأهم والأخطر هي المسألة التربوية وهنا الاشتراك بين الأم والمعلم لو افترض المعلم أن مسؤوليته هي نقل العلم فقط، ، فهنا سوف تفترق الأم عن المعلم، الأم مسؤوليتها بالدرجة الأولى هي التربية ومن ثم التعليم، إذا أردنا أن نتحدث في البعد الإسلامي والقرآني والإيماني هي هذه المسؤولية، عندما أؤكد على البعد التربوي لأنه في نهاية المطاف إذا علّمنا رجالاً ونساء وأوجدنا لديهم كفاءات علمية وتخصصات علمية راقية ولم يكن لديهم الإيمان والالتزام والأخلاق والتعهّد بمجموعة من القيم الفكرية والأخلاقية والإيمانية والوطنية، إذا أردنا الحديث في البعد الوطني نحن نصدّر أشخاصاً خطرين على أنفسهم وعلى بيئتهم وعلى مجتمعهم، أشخاصاً خطرين بكل ما للكلمة من معنى، وهنا قد يكون تعليم هؤلاء في الحد الأدنى فيه نوع من الإشكال الشرعي والإشكال الأخلاقي؛ لأنه عندما أعلم مثلاً في مجال التدريب العسكري، لو كنت أعلم أنني أدرّب هؤلاء الأشخاص على المتفجرات مثلاً وهؤلاء ليس لديهم لا التزام ديني ولا التزام أخلاقي ولا التزام وطني، ما هي الضمانة أن لا يتحول هؤلاء الأشخاص إلى عملاء للعدو ويقومون بصنع المتفجرات ووضعها للمقاومين أو للناس العاديين أو لتخريب أمن البلد، هنا بالتأكيد يصبح نقل العلم والتعليم هو من الأمور المحرّمة، لذلك نحن لا ننظر إلى العلم بشكل مجرّد يجب دائماً أن يكون العلم محاطاً قبله وبعده ومعه بالجوانب التربوية وهذه طبعاً مهمة مقدسة، مهمة نبوية، الله تعالى شرّف فيها الأنبياء وكلّف فيها الأنبياء، والأم يجب أن تتحمّل مسؤوليتها بشكل كامل، لا يكفي أن تكون الأم أمّاً بالمعنى البيولوجي إذا أولدته وأرضعته ولو لفترة من الزمن لتكون الجنة تحت أقدامها وإنما الأم المربية الجنة عند أقدامها، وكذلك المعلم الذي ينقل العلم لا يكتسب هذه المكانة العالية لأنه لا يمكن التفكيك بين الأمرين.. بين التزكية التي هي شكل من أشكال التربية والتعليم. وكلمتي الأخيرة للإدارة، للأساتذة، للطلاب ولكل المعنيين بهذه المدارس أن مسؤوليتهم هي مسؤولية كبيرة جداً.

نحن أمامنا أهداف مهمة هي بحاجة إلى جهد متواصل، معركتنا التي نخوضها مع الاحتلال، مع الظلم، مع الجهل والأمية والتخلف، مع الفقر والحرمان، بتعبير آخر معركة

كرامة الإنسان، وعلم الإنسان، وهداية الإنسان هي ليست معركة جيل وحده، وإنما معركة أجيال، المدارس هي التي تؤمن هذه الأجيال التي تخوض كل هذه المعارك، بالتأكيد هذه التجربة والحمد لله كانت تجربة ناجحة وكانت أيضاً تجربة تمتاز بالنموذجية وكانت قدوة، وأعتقد أن بقية المؤسسات والمدارس التي نشأت لاحقاً استفادت كثيراً من هذه التجربة، والذي يجب أن نؤكّد عليه في كل الأحوال لكل المدارس الإسلامية هو أهمية التأكيد على الجانب الأخلاقي والتربوي وتزكية الأنفس كما نركّز على الجانب العلمي، نحن بالتأكيد نعتزّ ونفتخر عندما نرى نسباً مئوية عالية في النجاحات في الشهادات المختلفة وفي المحافظات المختلفة، بنفس هذا المستوى يجب أن تتعاون الإدارة والأساتذة والطلاب لتكون النسب المئوية التي تتعلّق بالجانب الديني والإيماني والأخلاقي، وبذلك تستطيع وتتمكّن هذه المدارس من تأدية رسالتها الأساسية وهي إنما قامت على هذا الأساس، وهذا الأساس يجب أن يبقى إن شاء الله حاضراً وعلينا جميعاً أن نحتضن مدارس المصطفى (ص) كما كل المدارس الإسلامية الأخرى التي برأينا تتكامل فيما بينها وتؤدي نفس الرسالة وتؤدي نفس الدور، أحياناً قد يختلف بعض الأداء وبعض التفاصيل ولكن هذه المدارس عموماً اليوم برأينا هي التي تمارس عملية التأسيس الإيماني والعلمي والتربوي والجهادي الذي نتطلع إليه لضمانة استمرار هذه الحالة الإسلامية وهذه الحركة الإسلامية وانتقال إنجازات هذه المقاومة وهذه الحركة من جيل إلى جيل آخر[1]، هنا يمكن القول إن المقاومة في تربيتها لكوادرها وأهلها بصفة عادة تعتمد الأسلوب التعليمي الهادف لإحياء القيم الرسالية، وفي نفس الوقت لا تعتمد مناهج دراسية مختلفة على ما تقوم عليه المناهج في الدولة بعمومها، لأن ذلك يعني وجود دولتين في التربية، لكن من المؤكد أن المدارس الدينية لها دورها الفاعل والأصيل من النواحي الروحية والاجتماعية والمعرفية كما سنرى ...

البعد الثالث: المفهوم المعرفي الثقافي[2]

ترتبط الثقافة المعرفية والثقافية بالثقافة التربوية لأن المنهج التربوي يمثل إسقاطاً على الجوانب الفكرية والمعرفية والسلوكية للفرد والمجتمع، و ثقافة النصر تتكوّن من عدة عناصر:

١- مجلة أجيال المصطفى ١١-٢٠٠٤ - بيروت.

٢- مسعود صبري - مجلة الإسلام - القاهرة - ٢٠٠٧ ببعض تصرف.

١- نشر الوعي فيما يخص ثقافة النصر من خلال الجانب العقدي، وأن هذه الأمة منصورة على من اعتدى عليها، وتربص بها الشر، على أن تأخذ بالأسباب **﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾**[1]، والنصر لهذه الأمة بنص القرآن ليس محصوراً في حياتنا، وإنما هو ملازم لنا في الدنيا والآخرة، مع التأكيد على تطبيق قانون السببية في الدنيا.

٢- تعميق مفهوم الإرادة عند أفراد الأمة، لأن الإرادة هي المحرّكة للمؤمنين أفراداً وشعوبا، وحكاماً ومحكومين، وهذه الإرادة تجعلنا نتخطى بعض الحواجز النفسية والاجتماعية، بل هي نافعة في مجال السياسة والعلاقات الدبلوماسية وغيرها، ولعل هذه الإرادة هي التي تصنع نموذج الشهيد، الذي يجعل حياته رخيصة في سبيل التضحية للمبدإ والدين، وإن كانت عند الله تعالى غالية، إذ الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، وإن كان الرسول (صلى الله عليه آله وسلم) قد عبّر عن الجهاد بكونه ذروة سنام الإسلام، فلن يتأتّى هذا إلا من خلال التدريب على توليد الإرادة، أو إحيائها في نفوسنا كبشر في المقام الأول، يسعون لرسالة، و كمسلمين، يحتّم علينا ديننا أن نكون ذوي دور فعال في الحياة.

٣- البعد عن السطحية والعشوائية في التفكير والسلوك، وألا يكون كل الهم هو مجرد التعبير فحسب، وإن كنا لا نغفل أهمية التعبير والكلمة، فإن المقصود من التعبير هو تحريك النفس والجمهور والشارع والحكومات وغيرها إلى ما هو مطلوب فعله على أرض الواقع، وإلا كان الأمر محصوراً على شكل ظاهر، ظاهره الخير، وباطنه العجز المقوت، ولعل هذا ما قد يريده البعض منا كشعوب، سواء أكان على مستوى الأعداء، أم على مستوى بعض الحكومات التي لا تريد أن تتحرّك بشكل إيجابي، وإنما تسمح ببعض التظاهرات، حتى يقال: إنها سمحت بفعل شيء، فيجب النظر بنوع من الشمولية وإدراك حقيقة الأمور.

٤- التنوع في أنواع الفعل المطلوب لتحقيق الهدف، فالحياة معقّدة بطبيعتها، ولا تقف الظاهرة الواحدة في إطار معين، أو شكل واحد، بل هناك تداخل كبير، ومن هنا، كان واجباً علينا أن ننوّع الأدوار المطلوبة والمنوطة بنا، حتى نسعى إلى سد الثغرات المفتوحة، ولا يجرّنا العدو إلى التشاغل بشيء واحد، وإن كان مهماً، لنتناسى جوانب متعددة، لأن طبيعة

١- سورة غافر / ٥١.

العداء لنا – ممن يعادينا – لا تقف عند الشكل الواحد، فكان واجباً أن تتنوع وسائل صد عدوانه بحسب كثرة الأشكال التي يطرحها علينا، وأن ننتقل من مجرد الدفاع إلى ما هو أكبر منه، من تحقيق الغاية المنشودة، ففي الوقت الذي نجاهد فيه أعداءنا – في فلسطين مثلاً- لا نتغافل عن الأدوار الاجتماعية والاقتصادية والدينية، ولا يتمركز الدور على مجرد الرد العسكري، مع التركيز على أهميته، وإعطائه أولوية عن غيره، لثبوت أثره وانعكاساته الإيجابية، مع التفكير فيما قد يكون فيه من جوانب قد تبدو سلبية في التطبيق لا في مشروعية الفعل.

٥- عدم استصغار بعض الأفعال التي يأتيها بعض الأفراد، لأن المطلوب هو أن يفعل كل إنسان ما يقدر عليه ، والأدوار هنا تختلف ، فدور الفرد في التفكير والفعل ، غير دور المجموعة ، مع تنوع العمل المجموعي من المؤسسات الرسمية والشعبية، ودور الحكومات ودور الدول كأمة واحدة ، لأن استصغار الدور يؤدي إلى نوع من الإحباط والظن بأن هذه الأفعال اليسيرة لن تجدي شيئا ، ولكن كل شيء كبير ، يتكون من ذرات قليلة ، فالجبل العظيم يتكون من حبات الرمال ، والبحر الخضم يتكون من قطرات ماء صغيرة، والقطرة تتكون من ذرات أصغر، وهكذا كل كبير يتكون من صغير.

٦- الابتكار والتجديد، وعدم الوقوف عند وسيلة واحدة، لأن الوسيلة ترتبط بالزمان والمكان، ولأننا لسنا متعبدين بوسائل معينة، مالم يكن فيها نص صريح، وهذا التنوع في الوسائل يعطي ثراء كبيراً في آليات التعامل مع الأحداث بشكل يتفهم طبيعتها، ويدرس الطريق الأمثل للوصول إلى حل أقرب إلى الصواب، و أنفع للأمة كلها.

٧- محاولة نشر ثقافة النصر من خلال الوسائل الممكنة، من الإذاعة والتليفزيون والفضائيات، والجرائد والمجلات، ومواقع الإنترنت وغيرها، لأن التغيير يحتاج منا إلى الوجود والعمل من خلال قنوات متعددة، لأن لكل قناة جمهورها، فطبائع الناس المختلفة تجعل البعض يفضل الجريدة، بينما تأخذ القنوات المرئية من التلفزيون والفضائيات مساحة أوسع من الجمهور، وتليها مواقع الإنترنت، وهكذا، فإنه يجب توسيع دائرة الخطاب الموجه للجمهور، لتوصيل الرسالة الإعلامية المطلوب عملها، ولا ننس اهتمامات الناس، فهناك المجتمع المتدين من خلال المساجد، وهناك المجتمع الطلابي في الجامعات والمعاهد والمدارس، وهناك مجتمع العاملين في المؤسسات وغيرها.

٨- الاهتمام بالجمهور المخاطب، من حيث مداخل التأثير، ومراعاة الفئة العمرية في الخطاب أو الوسيلة العملية الموجهة لكل فئة، والنظر إلى الاهتمامات كمدخل للخطاب أو الحث على فعل شيء، وعدم حصر الخطاب في فئة دون أخرى، مع معرفة تأثير كل فئة في المجتمع، مع وضع الثقافة الرسالية في مكانها الحقيقي اللازم والجامع لكل المفاهيم الأخرى المعرفية والثقافية والأصول الثمانية التي ذكرناها من حيث التنوع والابتكار، فالثقافة الرسالية جامعة لها في محتواها ومضامينها الفكرية والسكوكية وغيرها.

الثقافة الرسالية

إن أبرز صفة في الثقافة الرسالية أنها ثقافة مسؤولة غير متواكلة، (وايمان الثقافة الرسالية بالمسؤولية آتية من رؤيتها الواضحة إلى الحياة والهدف منها، تلك الرؤية التي تنسجم مع الحق والفطرة، كما تستلهم من نصوص الرسالة)[١] التي تبيّن أن الحياة ليست عبثاً، وانما تهدف تجربة إرادة الإنسان، بدلالة الآية الكريمة: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً . لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾**[٢].

أما الأفكار اللامسؤولة ، فهي التي تدعو إلى الثقافة التبريرية والأفكار السلبية، تماماً مثل (الهيبز) في العالم الغربي اليوم[٣].

والفكر اللامسؤول يصيب كل الأمم، عندما تمر بفترة الجمود والتقاعس، فتتشبّث بتبرير جمودها وتقاعسها، وحين تكاسلت الأمّة الإسلامية استوحت ثقافتها من ثقافة التبرير السلبية التي كانت منتشرة في الأمم الأخرى.

وتنطلق الأسس التي ثبتت عليها الثقافة الرسالية من الجهة المفهومية للثقافة، من التعريف الذي يقول بأن الثقافة هي تلك المعارف التي تعطي الإنسان البصيرة والنور لمعرفة الحياة، كتعريف أمثل للثقافة المجرّدة، و هنالك فرق بين هذه الثقافة المطلوب تحصيلها لدى الإنسان، وبين الثقافة الاجتماعية السائدة في المجتمع وهي التي تشكّل رؤيته

١- السيد محمود الموسوي - شرح كتاب الثقافة الرسالية - بدون دار نشر - ١٩٧٨- ص ٢٥.

٢- سورة الأحزاب / ٧٢.

٣- السيد الموسوي - المصدر السابق - ٨٧.

للحياة بغض النظر عن (أحقية ميزانها)، ولذلك فإن الكتّاب الرساليين أرجعوا سبب التخلّف إلى تلك الثقافة السائدة، وعمدوا إلى وضع تصوّر أمثل للثقافة البديلة والأصيلة التي لا بدّ أن تقوم مقام تلك الثقافة، وبناء على ذلك فإن حركة الإنسان سوف تتجّه باتجاه التقدّم.

للثقافة الرسالية تعريف عبر المواصفات والمعالم التي تختصّ بها، وهي (الثقافة السليمة والإنسانية، والشجاعة، التي تنتج الإصلاح الجذري لمشاكل الأمة اليوم). فإذا نظرنا لها بنظرة اختصاص للثقافة الرسالية، فإن صفة السلامة والإنسانية والشجاعة، كلها متوافقة مع الأطروحات السائدة التي تبشّر بالثقافة الإسلامية وتدعو لتفعيلها في الواقع الإسلامي، إلا أن الإصلاح الجذري يعدّ ميزة أساسية، فالرسالية لا تؤمن بالإصلاح الترميمي إن صح التعبير أو المعالجة الفوقية للأمور، وقد أصدر المرجع محمد تقي المدرسي الكثير من الأطروحات التي تعالج المشكلات جذرياً، كبناء المجتمع الإسلامي، وإصلاح الشأن السياسي، وغيره، ولذلك فهناك مغايرة مع من يتبنّى خيار الإبقاء على ما كان من ظروف الواقع ومحاولة الرضا به أو إصلاحه بقدر المتاح.

ولعل أهم ما يميّز الثقافة الرسالية عن سائر الرؤى، ميـزتــان:

الأولى سـر الفاعليـة:

حيث تحاول الثقافة الرسالية أن تكشف سر الفاعلية الذي يمكّن الإنسان من العمل والحركة والانطلاق لصنع واقع جديد، فلم تقتصر على بيان الرؤية أو عرض المفاهيم، بل تناولت بشيء من التدقيق في السر الذي يجعل الإنسان فاعلاً بعد أن كان جامداً، والعكس، فإن الإنسان المسلم يؤمن بالقرآن، و يؤمن بجميع عقائده و قيمه، إلا أنه يعيش واقعاً متخلّفاً، فالسر إذاً هو في شيء يكمن في ربط العلاقة بين الإنسان وبين ما يؤمن به، وهذه العلاقة هي طريقة الفهم، أو الانحراف الذي قد يصيب رؤيته إلى مصادر التفكير نفسها، ولذلك ومن خلال التأسيس لفكرة (المسؤولية) كأهم صفة في المكونات الثقافية التي يؤمن بها، يمكن تحديد الأفكار الميتة من الأفكار الحية والطيبة، ويمكن من خلال تجزيء النظريات إلى أجزاء ووضعها في ميزان الفكرة المسؤولة أن نتعرّف إلى صدقيتها.

فالمسؤولية هي هدف الحياة، حيث (تؤمن الثقافة الرسالية بالفكر المسؤول، وترفض بإصرار الأفكار اللامسؤولة، الأفكار الغيبية التواكلية التي توحي بتعطيل دور الإنسان

وفاعليته في الأحداث، وبالتالي ترفض كل الأفكار المتخلّفة التي ورثتها الأمة من أجيال التخلّف، كما ترفض الثقافات الحتمية[١] التي استوردتها الأمّة من الخارج).

وإيمان الثقافة الرسالية بالمسؤولية آتية من رؤيتها الواضحة إلى الحياة والهدف منها[٢]. وتأسيساً على ذلك سعت الثقافة الرسالية إلى إعادة بلورة المفاهيم الإسلامية لإزالة الالتباسات والتشويشات الحاصلة في فهمها عند بعض الفئات، وبيّنت على سبيل المثال معنى التوكّل، و معنى الخوف والرجاء، و معنى الانتظار، وسر الغيبة و غيرها على أساس البناء المفهومي للفكرة المسؤولة التي تحتويها و تتميّز بها الثقافة الرسالية.

الثانية استيعابية الحقول:

لم تأت الثقافة الرسالية لتعالج الحقل المعرفي المجرّد عن الواقع، و لم تختصّ بحقل دون آخر من الحقول المتصلة بحياة الإنسان، فالثقافة الرسالية لم تكن نظرية في التفسير السياسي فحسب، أو في التفسير العقيدي، وإنما جاءت لتعالج الأساس الثقافي التوجيهي للإنسان الذي يلامس ويستوعب الحقول كافة التي يتحرّك في مجالاتها.

فإنها وبفعل التأسيس القرآني التأصيلي، يمكن أن تعالج الوضع الاجتماعي وما يجري فيه من تفكّك و فساد، ويمكن أن تعالج الوضع السياسي الاستبدادي، أو الوضع الثقافي التبعي، ولكن ذلك لا من خلال الوصفة السريعة للثقافة الرسالية، و إنما من خلال الاعتماد على النظرية الرسالية للثقافة في كافة تلك المجالات عند إرادة معالجتها، اعتماداً على المعطيات الواقعية لأي مشكلة من جهة، واعتماداً على استخراج واستنباط العلاج من المصادر الأصيلة للثقافة من جهة أخرى.

من هذا المفهوم المعرفي الرسالي عمد قياديو حزب الله إلى التأصيل المعرفي للمقاومين فألهبت عقولهم وأرواحهم، كما أنهم صاروا على يقين بالخطر الصهيوني على مقدرات لبنان وسائر البلاد الإسلامية، ومن نتائج هذه التأصيلات الإعلامية أن شباب المقاومة دافعوا عن الأرض بمنطق الرسالة الإسلامية العامة لا من منطق المذهبية الضيقة، وتلقى المسلمون هذه المفاهيم فأيقنوا بصدقها، ومن أبرز ما قيل عن تلك المعرفة الرسالية ما قاله السيد نصر الله: هناك مشكلات وثغرات أيضاً كبيرة، من أهم الإيجابيات حالة الصحوة الإسلامية العارمة التي تجتاح العالم الإسلامي اليوم، أينما ذهبنا في بلاد

١- السيد الموسوي، م.س.

٢- المصدر نفسه.

المسلمين نجد أن هناك عودة شاملة إلى الإسلام وإلى الالتزام بالدين وشعائره وثقافته، في مختلف البلدان ولدى مختلف الشرائح وخصوصاً عند الشباب وهذه ظاهرة إيجابية لم نعهد لها مثيلاً منذ عشرات السنين، ونستطيع أن نقول بحقّ إن هذا القرن هو قرن الإسلام وقرن عودة المسلمين إلى الإسلام كما أعلن الإمام الخميني رضوان الله عليه في أكثر من مناسبة، المسلمون في إطار هذه الصحوة ونتيجة للتحديات التي تواجههم وأهمها وأخطرها هو تحدي العولمة الذي تعمل له بشكل أساس الولايات المتحدة الأميريكية حيث تسعى إلى تكريس زعامتها وقيادتها للعالم من الموقع السياسي والاقتصادي والأمني وحتى الثقافي والفكري... المسلمون بحاجة إلى أن يستعيدوا كيانهم ووحدتهم وموقعهم وقدرتهم وحضارتهم ليكونوا الرقم الأصعب أو القطب الآخر، وهم قادرون على ذلك، لكن هذا بالتأكيد بحاجة إلى جهود مضنية وكبيرة... هذا إذا أردنا أن ننظر إلى الحالة العامة فيما يتعلق ويرتبط بمسؤولياتهم... طبعاً المشكلات التي يعاني منها المسلمون هي مشكلات كبيرة كحالة التشتت والتمزق وواقع الأنظمة. إذ إن أغلب الأنظمة الحاكمة في العالمين العربي والإسلامي هي من مشاكل المسلمين في هذا الزمن، إضافة إلى واقع الاحتلال في فلسطين وفي العراق وقضايا التنمية وقضايا الجهل وانتشار الأمّية، إلى المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، لكننا نعتقد أنه ومن خلال النقطة الأولى التي ذكرتها وهي العودة الشاملة إلى الإسلام والجهود المخلصة، تستطيع الأمة أن تخرج من كل هذا الواقع الصعب لتستعيد مكانتها وقوتها وتتجاوز كل مشكلاتها القاهرة. من هذا المنطق المعرفي تلاحم فكر القادة والشعب مع المعرفة الإعلامية.

المعرفة الإعلامية

الإعلام الرسالي هو الجهر بالقيم التي يدعو إليها الوحي، ولعل الكلمة المرادفة له في المنطق الإسلامي «الأذان» . وإذا كانت الدعوة إلى الله هي الركيزة الأولى لرسالات الله، فإن الإعلام جانب أساسي منها.

وقد كانت واقعة الطف واحدةً من أعظم الإثارات الإعلامية، أولم يقل السبط الشهيد أنا قتيل العبرة؟ أولم يتواتر عن أئمة أهل البيت (ع) فضلُ البكاء على الحسين (ع) وزيارة قبره، والدعاء تحت قبته- وهذا الدور الإعلامي الذي أوضح الهدف من استشهاد الإمام الحسين (ع) اضطلع به الإمام زين العابدين (ع)، ومعه البقية العائدة من كربلاء، وبالذات عقيلة الهاشميين زينب الكبرى (ع).

وكانت تلك الإثارة الإعلامية المبكرة لها تداخل إيماني وثوري ومعرفي، ولها إلهامات في الإعلام المقاوم، ولقد أدرك قادة المقاومة وشبابها أن الرسالة الإعلامية يجب أن تقوم على الدعائم المعرفية الصادقة الثورية الرسالية دون اللجوء إلى أي مزايدة كلامية أو هوس صوتي، بل الرسالة متوائمة مع الموقف المقاوم، والرسالة الإعلامية للمقاومة لم تقتصر على قناة المنار، بل هي سلسلة من المنشآت الإعلامية والثقافية التي تؤصل القيم الرسالية، وإن كانت المنار أخذت على عاتقها نشر ثقافة المقاومة بين جموع المسلمين، كما تأكد العدو نفسه من صدق حديثها ورسالتها الإعلامية، فلم يكن تلفزيون المنار مجرد بوق إعلامي لحزب لبناني، يستغله الحزب للتهجم على خصم سياسي أو التشهير بآخر، إنما نجح في تأسيس بنية مجتمعية مقاومة، ويقاس مدى نجاح المقاومة في استخدام هذا السلاح الإعلامي بمدى اتساع ثقافة المقاومة وتشكيل الرأي العام حولها. وهذا ما لمسناه جليّاً في حديث النازحين والمنكوبين عن الاعتزاز بالمقاومة وولائهم المطلق لها، واستعدادهم للتضحية بالمال والولد في سبيل المقاومة وسيدها.

إنه نجاح باهر يسجّل لهذا الإعلام في نشر ثقافة المقاومة في المجتمع، ليس من خلال برامج عسكرية وبيانات سياسية و«كليبات» جهادية .. لقد طوّع «المنار» كل برامجه (الترفيهية والسياسية والثقافية والاجتماعية والشبابية...) لتأسيس هذه الثقافة ونشرها وعند النزال، أمّنت هذه الثقافة الحماية والدعم للمقاومة.

وتتحدد وظائف هذا الإعلام المقاوم بنقاط أربع:

- الإعلان عن رأي المقاومة.
- إظهار صورتها النضالية والتبشير بقرب الانتصار.
- الردّ على الحرب الإعلامية للعدوّ و دحض آرائه بدعاية مصادة.
- شنّ الحرب النفسية على العدوّ ومجتمعه.

ولقد تحدث السيد نصر الله عن الإعلام فقال: الإعلام الحالي يواجه تحديات كبرى جداً.. ونحن بكل بساطة نعترف أنه لا يوجد توازن في المجال الإعلامي.. في تجربة لبنان، المقاومة الإسلامية استطاعت أن تحدث نوعاً من توازن الرعب، ولكن على المستوى الإعلامي هناك سيطرة صهيونية وأميركية كبيرة جداً، وتكاد تكون شاملة، على وسائل الإعلام في العالم المرئي والمسموع والمكتوب وكذلك على وسائل الاتصال والتوجيه والتأثير على الرأي العام وهذا أمر معروف.

إن وجود بعض القنوات التلفزيونية الفضائية وبعض الإذاعات والمجلات، والجرائد التي تؤيد الاتجاه الجهادي والمقاوم أو الاتجاه الإسلامي هو شيء يكاد لا يذكر أمام حجم الإمكانات الهائلة المتاحة أمام أعداء هذه الأمة، ولذلك نحن نعتبر أن الإعلام بوسائله الحالية وبإمكاناته المتواضعة هو أمام تحدٍ كبير وخطير وعظيم جداً، هذا لا يعني أننا وقفنا مكتوفي الأيدي، بل هناك أمور جيدة تم إنجازها حتى الآن، ولكن أعتقد أننا لا زلنا في بداية الطريق. - لقد أدخلت المقاومة الإسلامية على قاموس الفكر الإسرائيلي ولأول مرة منذ قيامه، مفردات جديدة «كالهزيمة» و«الحصول على ضمانات» وآخرها «الإذعان» في تبادل الأسرى، ما هي عوامل صناعة هذه المفردات؟ الواقع الجهادي والميداني هو الذي فرض حقائق على العدو، تم التعبير عن هذه الحقائق بهذه المفردات، عندما يكون هناك مقاومة جدية، واستنزاف حقيقي لقدرات العدو البشرية والمادية فإن الرعب يسيطر على كيان العدو وعلى جنوده وبالتالي سيفرض عليه واقع الإذعان والخروج من أرضنا بلا قيد وبلا شرط وبشكل مذلٍ له ومشرّف للمقاومة. إن الصمود الذي مارسته المقاومة الإسلامية في مفاوضات تبادل الأسرى والالتزام بدرجة عالية جداً بالشروط التي طرحتها فرضت على العدو أن يذعن لشروطها وبالتالي أن يقبل هذه الصيغة التي تم التوصل إليها، إذاً هذه المفردات في الحقيقة لم تُصَغ في مجمع لغوي أو أدبي أو في مؤتمر خطابي، وإنما فرضها الواقع الجهادي الميداني كحقائق تم البحث لها عن كلمات تعبر عنها بشكل دقيق[١].

الدفاع عن المستضعفين

لقد كان لحزب الله رؤية محددة وواضحة في المال أو الثروة قائمة على أسس التوزيع العادل والمساواة الحقيقية والرعاية الخاصة للمستضعفين، جاءت أدبيات المقاومة الإسلامية في لبنان منطلقة من ضرورة رعاية المحرومين الصابرين الآملين في مساواة قرآنية ونهضة اقتصادية تساوي بين البشر في الحقوق والواجبات، فكان تأسيس حركة المحرومين على يد الإمام موسى الصدر بداية حركة المقاومة والمساواة، وكان قادة المقاومة الراحلين والأحياء من الذين أسهموا في الحركة، فقد جاء في المبدأين الثالث والرابع منها: إن حركة المحرومين أمل انطلاقاً من هذه المبادئ تؤمن بالحرية الكاملة للمواطن وتحارب دون هوادة كافة أنواع الظلم من استبداد وإقطاع وتسلّط وتصنيف المواطنين وتعتبر أن نظام الطائفية السياسية في لبنان لم يعط ثماره وهو الأن يمنع التطور السياسي ويجمد

١- مجلة أجيال المصطفى - مصدر سابق.

المؤسسات الوطنية ويصنف المواطنين ويزعزع الوحدة الوطنية، وترفض الحركة الظلم الاقتصادي وأسبابه من احتكار واستثمار الإنسان لأخيه الإنسان وتحول المواطن إلى المستهلك والمجتمع إلى تجمع المستهلكين وحصر النشاطات الاقتصادية في أعمال الربا والتحول إلى سوق للإنتاج العالمي. وتعتقد الحركة أن توفير الفرص لجميع المواطنين هو أبسط حقوقهم في الوطن وأن العدالة الاجتماعية الشاملة هي أولى واجبات الدولة. من تلك القناعات الرسالية توّج حزب الله رؤيته الإنسانية الشاملة على حق الإنسان في الكرامة وأن الأصناف الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم أولى الناس بأخذ حقوقهم دون إهدار ماء وجوههم، فقد سمى القران أصنافا كثيرة من المستضعفين، بل لقد أحصاهم إحصاء، فهم الضعفاء من ذوي القربى (العجزة من الآباء والأمهات وبقية الأقارب) والفقراء والمساكين واليتامى وابن السبيل والسائلين والعبيد والأسرى- وقد خصّ القرآن هؤلاء بعناية بالغة فأكّد مراراً وتكراراً حقوقهم وأوصى بالوفاء بها وتوعّد كل من مسها أو هضمها. **﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾**(١)، والمستضعفون الذين ذكرتهم الآية هم: ذوو القربى (والمقصود المحتاجون منهم)؛ اليتامى؛ المساكين (وهم الذين لا يملكون ما به يعيشون، وهو بالاصطلاح المعاصر العاطل الذي لا يجد عملاً يكسب منه قوته وقوت عياله)؛ ابن السبيل (هو المسافر الذي تقطعت به الطريق، ويمكن ان يحصل عليه اللاجئ السياسي بالمعنى المعاصر)؛ السائلون (الذين يسألون الناس الصدقة سواء بسبب فقر أو بسبب ظرف طارئ)؛ الرقاب (أي العبيد، فقال بعض المفسرين إن المقصود هو شراء العبيد وعتقهم). إضافة إلى الأصناف المذكورة وردت في القرآن أصناف أخرى من المستضعفين مثل قوله تعالى **﴿فكلوا منها وأطعموا البائس والفقير﴾**(٢). فالبائس هو الذي أصابه عسر وشدة، أما الفقير فهو الذي لا يكفيه ما في يده لقوته وقوت عياله. وأما الزكاة فهي لأصناف ثمانية ذكرهم القرآن في قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ**

١-سورة البقرة / ١٧٧.

٢- سورة الحج / ٢٨.

﴿وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(1).

أما المساكين والرقاب وابن السبيل فقد سبق ذكرهم. ويبقى ذكر العاملين عليها أي الذين يقبضونها ويجمعونها ويأتون بها إلى ولي الأمر، وهؤلاء تدفع لهم الزكاة تعويضاً لعملهم. وأما المؤلفة قلوبهم فهم بعض أشراف العرب كان الرسول يستألفهم بها ترغيباً لهم في الإسلام. وأما الغارمون فهم الذين كثرت عليهم الديون فأصبحوا لا يملكون شيئاً بعدها. أما في سبيل الله فهم فقراء المجاهدين والحجاج الذين تقطعت بهم الطريق. وهكذا نرى إن حقوق المستضعفين صنفان: حق في الزكاة، وحق في البر. والفرق بينهما هو أن الزكاة جعلها الله ركناً من أركان الإسلام مثل الشهادة والصلاة والصيام والحج، بمعنى أن إسلام المرء لا يكتمل إلا بالإقرار بها كفريضة من الله، وهي رمز لولاء الفرد المسلم نحو المجتمع الإسلامي ككل.

بناءً على ما تقدم نجد أن منظومة حقوق الإنسان في الإسلام هي منظومة متكاملة، تلحظ بعين الاعتبار الجوانب المختلفة من حياة الإنسان وعلاقاته في إطار الجماعة التي يعيشها، والطبيعة المتغيرة والمتطورة للمجتمعات مع تقدم الزمن وتعقد جوانب الحياة(2)، وقد تعمّق هذا المفهوم حول المستضعفين فكان أن ألزمت نفسها بما جاء في القرآن الكريم حول حق الأصناف الثمانية وتمكّنت بما لديها من المال القليل أن يكفي حاجة الناس حتى أولئك الذين لا ينتمون له مذهبيا أو دينياً.

إن الحديث عن المستضعفين هو حديث عن المقاومة بكل تجلياتها، لأن الحزب في الأساس تشكل من فيالق الفقراء والمثقفين الذين استوعبوا الجهاد على حقيقته الرسالية الإيمانية، فكان أن دخل الأغنياء في مساعدة المقاومة والإنفاق عليها من خلال الوعي بأن المال وسيلة، وبهذا امتزج الغنى بالفقر بالرسالة المقاومة.

١-سورة التوبة / ٦٠.

٢- محمد عابد الجابري ومحمد محمود الإمام، التنمية البشرية في الوطن العربي: الأبعاد الثقافية والمجتمعية، سلسلة دراسات التنمية البشرية رقم(٢)، الأمم المتحدة، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ١٩٩٥، ص٦١-٦٥.

فقـه الأولـويـات

ومن أهم أسباب النصر، الوعي بما سمّاه الدكتور رفعت سيد أحمد بفقه الأولويات[1]. وحددها في نقطتين:

١ ـ إن اللبنانيين حين امتلكوا حريتهم قاوموا في الوقت الذى هزم فيه الآخرون لأنهم فقدوا بالأصل حرياتهم، وكما يعلّمنا التاريخ، فإن المستبد لا يقاوم والعبيد لا يقاتلون والشعب اللبنانى رغم حروبه الأهلية الدامية، لم تكن تكتم على أنفاسه حكومة مستبدة، كان اللبنانيون شعباً حراً، لذلك انتصر.

٢ ـ كان لدى لبنان مقاومة إسلامية ووطنية تدرك ما نسمّيه بـ فقه الأولويات، كانت تعرف أن العدو المحتل هو الذى يستحق القتال أولاً وأخيراً وليس أبناء الوطن من مسيحيين أو سياسيين مخالفين لهم في الرأي، كانوا أكثر وعياً بهذه الأولويات، لقد أدركوا أن الأولوية وكل الجهد موجّه بالأساس ضد العدو الحقيقى المحتل للوطن وليس ضد غيره.

خـاتمـة

إن الأبعاد الثلاثة التي كتبناها في هذا البحث لا يعني أننا أحطنا بكل ما في المقاومة من مفاهيم تأسيسية، لأن النصر الذي تحقق له أبعاده النفسية والاستراتيجية والعسكرية والسياسية على مستوى العالم، ولكنّا ركزنا في الأبعاد الرسالية والتربوية والمعرفية لأنها جميعاً تشكّل الحيز التراكمي للأسباب التي أدت للانتصار، وهي جميعها أسباب مترابطة وشكّلت الروح الدافعة للتلاحم الشعبي الإسلامى مع المقاومة، لأن الشعوب تدرك بضميرها ووعيها الفروق بين البطولة وادعاء البطولة كما تدرك بعفوية أن البطل الحقيقي للتاريخ ومحور الأحداث فيها هو الشهيد، ولقد قدّمت المقاومة الإسلامية الشهداء في قافلة ممتدة تمكّنت من نشر التفاؤل بعد أن صار القادة يفخرون عندما يستشهد أبناؤهم...

والفلسفة الإسلامية للمقاومة وردّ العدوان مفهوم له دلالاته المستوحاة من معناه اللغوي، فمعطياته اللغوية واستعمالاته الشرعية تعود في مجموعها إلى بذل الجهد والاجتهاد في التبليغ والدعوة والقتال، والجهاد لم يُشرع إلا كوسيلة لحفظ الدين ونشره والدفاع عن دعاته ومبلغيه، وحماية لبيضة المسلمين، ومواجهة كل المعتدين والمحتلين لأراضي الأمة ومكتسباتها؛ ولا شك أن هذا يقتضي بذل الغاية من الجد والاجتهاد، والقائد

---

١ - رفعت سيد أحمد - عدة أبحاث في نشرة المقاومة - مركز يافا - القاهرة.

المسلم حامل لواء العمل بالجهاد سواء كان قتاله للطلب والدعوة، أم للدفع والمقاومة، عليه مسؤولية كبرى في حماية هذا المسلك الخطير من النزوات النفسية والمطامع الدنيوية؛ حتى لا يكون جهاده تنفيساً للغرور بالقوة أو العلو في الأرض، والقادة والجنود في حالة المقاومة أو النصرة عليهم واجب المراعاة التامة لمقاصد الجهاد في حفظ الدين وليس تضييعه، وحقن الدماء، وليس سكبها رخيصة في كل وادٍ يمرون فيه. وأن الأرواح التي تُزهق بسببهم هي في ذمتهم أحياءً وأمواتاً، وقطرات الدم التي تُراق بغير وجه حق هي أعز عند الله تعالى من الكعبة ولو نُقضت حجراً حجراً.

ولقد أدركت المقاومة تلك الفلسفة فعملت على تعميقها والمزاوجة بين قيمها الرسالية وآفاقها المعرفية وكان أن استلهمت المقاومة في فلسطين تلك المفردات فكان أن أجبرت العدو على الانسحاب من المناطق التي تتواجد فيها تلك المقاومة ومن هنا جاء الانتصار. وما بعد الانتصار لا يعني أن الجولة مع العدو قد انتهت، بل هي حلقة في سلسلة من الحلقات والحروب بين فلسفة القوة ومنطق الإيمان.

الانتصار في عيون إسرائيلية

خلفيات وأسباب وتداعيات انتصار المقاومة في الحرب الإسرائيلية على لبنان تموز - يوليو ٢٠٠٦ م

أ. محمد تيسير الخطيب*

مقدمة:

حظيت الحرب الإسرائيلية الأخيرة ضد لبنان، صيف العام ٢٠٠٦م، بما لم تحظ به حرب أخرى خاضتها جيوش العدو الإسرائيلي منذ نشأة الكيان عام ١٩٤٨م. فقد تميزت هذه الحرب عن غيرها بأن مسرح العمليات العسكرية للحرب طال عمق التجمعات الصهيونية داخل فلسطين المحتلة، حيث استهدفت مدينة حيفا الساحلية، ثالث أكبر المدن الصهيونية من حيث التجمع السكاني، والمركز الصناعي والاقتصادي الأول في الكيان، بعشرات الصواريخ حتى اليوم الأخير من الحرب. وكانت مدن كثيرة أخرى مهددة بالقصف، بما في ذلك عاصمة الكيان نفسه في تل أبيب. وكذلك فقد انتهت هذه الحرب بطريقة مختلفة عما انتهت إليه الحروب كافة التي خاضتها إسرائيل: فشل عسكري إسرائيلي على المستويات كافة، إخفاق ميداني، تخبط في الخطط والاستراتيجيات، انهيار للروح المعنوية والنفسية، هزيمة إعلامية. والأهم من ذلك: عدم القدرة على فرض إملاءات من أي نوع كان على الطرف الآخر، الذي كان هنا حزب الله. وقد عبّرت هذه الهزيمة عن نفسها بالسرعة القياسية لانسحاب قوات العدو الصهيوني من الأراضي اللبنانية بعد جريان وقف إطلاق النار، حيث انسحبت تلك القوات خلال أسبوعين.

على أن لهذه الحرب تداعيات من نوع آخر، عبّرت عن نفسها في مستويات مختلفة، جميعها استراتيجية، أولها وليس أهمها: فشل العقيدة القتالية الإسرائيلية، حيث أخفق

---

* باحث وكاتب فلسطيني.

سلاح الجو في تحقيق أي هدف يذكر خلال الحرب، ومُرِّغت أسطورة الميركافا في الأرض بعد الخسائر التي منيت بها في مختلف قرى الشريط الحدودي، وانكشف ضعف الهيكلية التنظيمية لوحدات الجيش الصهيوني البرية، بما فيها الوحدات النظامية والخاصة والاحتياط.

أما ثاني هذه التداعيات فجاء على مستوى السلطة السياسية في إسرائيل، حيث لا يزال إيهود أولمرت، قائد الحرب الفاشلة، على رأس حكومة الكيان الصهيوني رغم أنه وصل إلى أدنى مستوى في استطلاعات الرأي في العالم من حيث الشعبية، حيث انخفضت شعبيته إلى ما دون ٢٪. وهذا يدل بوضوح على مدى الإرباك على مستوى القيادة السياسية للأحزاب والقوى كافة. ويعني بالتالي عقم الطروحات السياسية الاستراتيجية كافة على مستوى قيادة الدولة.

وثالث هذه التداعيات يتمثل بمستقبل وجود الكيان نفسه. فإسرائيل، القائمة على أرض لشعب آخر وفي بيئة معادية، تعرف أن عليها الانتصار في جميع الحروب التي تخوضها. ذلك أن فشلاً عسكرياً واحداً، يعني بالضرورة ارتفاع أسهم إمكانية قيام طرف ما بالتجرؤ على مواجهة الكيان. فإذا كانت هزيمة إسرائيل في لبنان ٢٠٠٦ جاءت على يد مجموعة من المجاهدين في أصغر دولة محيطة بالكيان، فماذا لو أن دولاً بذاتها تجرأت على خوض التجربة ومواجهة الكيان الذي اتضح لذاته قبل الآخرين بأنه مكشوف، ولا سيما في ظل تورط الولايات المتحدة الأمركية، التي تشكّل غطاء عسكرياً واستراتيجياً للكيان، في حرب لا تنتهي في العراق وأفغانستان.

هذه المواضيع كافة والتداعيات ترددت أصداؤها في صحف العدو ولدى كتّاب الرأي فيه، وبالأخص المحللين الاستراتيجيين والعسكريين. وقد تناولت الكتابات الأسئلة كافة المتعلقة بحرب لبنان ٢٠٠٦، انطلاقاً من إعلان الحرب والتجهيز لها، مروراً بالأحداث الميدانية، وصولاً إلى تحليل نتائجها، وإعادة النظر في الاستراتيجيات المستخدمة. وعليه فإن هذا البحث يهدف إلى رصد هذه التساؤلات كافة في كتابات العدو على لسان محلليه واستراتيجييه كما وردت في الصحف اليومية بالدرجة الأولى.

ولضرورة الدراسة فقد انقسم هذا البحث إلى عناوين عدة، جاءت على النحو التالي: الاستعداد للحرب - بين الحرب الجوية والحرب البرية - مجزرة الميركافا - حرب

الاستخبارات - الحرب النفسية - نتائج الحرب - وأخيراً : الفشل الاستراتيجي والاستعداد للمستقبل.

وقد تم اعتماد الإكثار من الاستشهادات من مصادرها مع التعليق الموجز عليها أو التقديم لها بهدف تسليط الأضواء على أهمية وأبعاد النقاط الواردة. مع الالتزام ما أمكن بذكر المصادر والمراجع.

والله ولي التوفيق

الاستعداد للحرب:

كثيراً ما استعر الحديث حول سبب تفجير حرب صيف ٢٠٠٦ التي شنتها إسرائيل ضد لبنان. وقد أخذ تحديد الطرف المسؤول عن الحرب حيّزاً كبيراً في النقاشات السياسية والإعلامية حول السبب وراء اندلاع الحرب. غير أن الصحف والكتابات الإسرائيلية المختلفة لا تدع مجالاً للشك في أن إسرائيل كانت تحضّر لهذه الحرب منذ مدة غير قصيرة، وإنما كانت تنتظر لحظة الصفر لإطلاق العملية.

يؤكد مؤلفا كتاب «حرب الـ ٣٢ يوماً»، وهما جلبرت أشقر اللبناني الأصل، والإسرائيلي ميشيل وارشفسكي، أن الهجوم الإسرائيلي كان قد جرى عن سابق إصرار وتصميم. وأن القادة الإسرائيليين أنفسهم قد أشاروا بوضوح إلى أنهم كانوا قد صمّموا على القيام بالعملية منذ فترة طويلة وأنهم انتظروا الفرصة الملائمة سياسياً للقيام بها. وكان رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت قد صرّح لصحيفة «التايمز» اللندنية بقوله: «سمعت بعض الأصوات تقول: إنه ربما كان على إسرائيل أن تقوم بهجومها على لبنان خلال السنوات الخمس الماضية نظراً لما أقامه حزب الله من بنى (...). ولو كان شارون قد قام بأية عملية خلال تلك المدة، خاصة دون عمل استفزازي مثل الذي واجهته هذه المرة، فماذا كان سيكون رد فعل العالم»؟

وكانت صراحة الجنرال يوسي كوبرواسر، رئيس قسم الأبحاث في الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية حتى فترة وجيزة، أكبر عندما سأله أحد الصحافيين عما إذا لم ترتفع أصوات تطالب خلال السنوات الماضية بضرب حزب الله، فقال: «كلا، لم يطلب أحد، لأنه كان من الواضح استحالة ذلك. وللقيام بعمل كهذا كان ينبغي تبنّي طريقة لم يكن الأميركيون قادرين على تعبئة دعم دولي لها (...). وعندما ذهبت الولايات المتحدة إلى العراق من أجل تنفيذ مناورة وقائية لم تحصل على دعم دولي».

وكانت تصريحات شخصيات غير رسمية أكثر مباشرة مثل تصريح «رون بونداك»، مدير مركز «بيريز» للسلام والمفاوض السابق مع الفلسطينيين، عندما أكّد لصحيفة نيويورك تايمز قائلاً: «لقد أعطاهم (الإسرائيليين) حزب الله إمكانية كبيرة لفعل شيء كان الجيش قد تهيأ للقيام به أصلاً، مع خطط عملياتية مفصّلة في الخزائن». [١]

١- حرب الـ ٣٢ يوماً، جلبرت أشقر وميشيل وارشفسكي، استعراض د. محمد مخلوف، (تقرير خاص).

الحرب الجوية والحرب البرية:

صحيح أن حزب الله لم يسقط طائرات حربية مقاتلة خلال الحرب، ولم يستخدم أسلحة مضادات جوية مفاجئة كما هو الحال مع البارجة «ساعر» ودبابات الميركافا. ولكن الصحيح أيضاً أن الإنجاز العسكري الذي حققه حزب الله في هذه الحرب كان الأكبر. فالجيش الإسرائيلي يستند في معاركه إلى خطط حلف الناتو، ولا سيما الولايات المتحدة الأميركية، في خوض الحروب استناداً بالدرجة الأولى إلى سلاح الطائرات التي تشل العدو وتمزقه، وتفتح الطريق أمام الاجتياح البري السهل. وكانت القيادة الإسرائيلية متأكدة أنها تستطيع إنهاء الحرب خلال أيام قليلة بالاستناد إلى سلاح الجو. لكن المفاجأة الكبرى تمثلت في عجز هذا السلاح عن إحراز أي إنجاز عسكري يذكر، سوى قصف المدنيين الآمنين وارتكاب المجازر المتنقلة، وقصف الجسور. لم ينجح سلاح الجو في تحديد مواقع الصواريخ التي يطلقها حزب الله، الذي تجرأ على إطلاقها ليلاً خلال الأيام الأخيرة من الحرب. كما لم يتمكّن الطيران من تدمير وحدات القيادة والتحكم، ناهيك عن اغتيال قيادات وتدمير أهداف عسكرية أو لوجستية تابعة للحزب. للمرة الأولى في التاريخ، تحلق الطائرات العسكرية فوق سماء المعركة وهي أشبه بمن يبحث عن هدف.

على هذا الصعيد، كتب برغمان في «أن نظرية «التسلط الجوي» تبدو الآن «بدعة» كلفت الجيش ثمناً باهظاً ليس بالأرواح فحسب، إنما أيضاً بالأموال الهائلة التي صُرفت على سلاح الجو على حساب تدريب القوات البرية». وأضاف «أن التدريب العسكري (المناورات) الذي أجراه الجيش، قبل شهر من الحرب، وتناول سيناريو مطابقاً لما حصل فعلاً -اختطاف جنود- كان فاشلاً، خلافاً لما أعلنته قيادة المنطقة الشمالية، وأن ضباطاً كباراً حذروا من أن الاعتماد على الطيران الحربي لن يكفي وحده إلا أن تحذيراتهم لقيت آذاناً صماء».(١)

«إن الحرب التي تورطت فيها دولة (إسرائيل) وكبدتها أكثر من ١٥٠ من جنودها ومواطنيها، وعمليات الكوماندوز الفاشلة، «كشفت قصورين فادحين: أولهما انهيار مفهوم الهيمنة الجوية الذي وضعه قبل سنوات قادة سلاح الطيران وتبنته القيادة العسكرية، ويقوم على أنه يمكن حسم أي معركة جواً مع الاستعانة بقوة برية صغيرة. والثاني فشل

١- يديعوت احرونوت، ١٩- ٨- ٢٠٠٦.

استخباراتي ذريع سيُكتب الكثير عنه بنسبة أكبر مما كتب عن الإخفاق في حرب تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣». وكتب برغمان في «يديعوت أحرونوت» (نشرت الترجمة مع التدخل على موقع فلسطين اليوم /٢٠٠٦/٨/٢٤): «إن نظرية «الهيمنة الجوية» تبدو الآن «بدعة» كلفت الجيش ثمناً باهظاً ليس بالأرواح فحسب إنما أيضاً بالأموال الهائلة التي صُرفت على سلاح الجو على حساب تدريب القوات البرية . وأضاف إن التدريب العسكري (المناورات) الذي أجراه جيش الاحتلال، قبل شهر من الحرب، وتناول سيناريو مطابقاً لما حصل فعلاً (اختطاف جنود) كان فاشلاً، خلافاً لما أعلنته قيادة المنطقة الشمالية، وأن ضباطاً كباراً حذروا من أن الاعتماد على الطيران الحربي لن يكفي وحده إلا أن تحذيراتهم لقيت آذاناً صماء. وتناول الكاتب سلسلة الاخفاقات التي مني بها الجيش في الحرب، خصوصاً في عمليات الإنزال الكثيرة التي نفذها وأخفى معظمها. وقال: إن قيادة الجيش وعلى رغم رؤيتها الفشل في العمليات الجوية لم تر وجوب استخلاص العبر، بل أتاحت للطيران الحربي مواصلة محاولاته لحسم الحرب من دون جدوى. وكرّس برغمان حيّزاً واسعاً من تقريره ليتناول ما وصفه بـ «العمى الاستخباراتي»، وكتب أن «الاستخبارات الإسرائيلية فشلت في اختراق حزب الله فشلاً ذريعاً على الرغم أن مئات من عناصرها عملت في هذا الاتجاه».

من جهة أخرى يرى مؤلفا «حرب الـ ٣٣ يوماً» أن قيادة الجيش الإسرائيلي التي كانت موكولة للمرّة الأولى في تاريخها لضابط طيار، اعتمدت على التفوق الكامل للطيران وأهملت إعداد الجيش البري. لكن، وكما تعلّمت الولايات المتحدة على حسابها ودفعت ثمنه، فإنه لا يمكن إخضاع شعب وكسر مقاومته بواسطة الطيران فقط، وإنه لا مفر من دخول القوات البرية في مرحلة أو في أخرى من الحرب.

وكما كان الأمر بالنسبة لنظرائهم الأميركيين، تبدّى أن الوحدات المدرّعة وجنود المشاة الإسرائيليين لم يكونوا قد تحضّروا لخوض حرب ضد وحدات من المقاتلين جيدي التدريب والتسليح، بل إنهم كانوا عاجزين تماماً عن تحقيق ولو هدف واحد من الأهداف العملياتية التي كانوا قد حددوها.

وهذا يقودنا إلى تبيّن سبب آخر لتدهور فعالية الجيش الإسرائيلي، وهي أنه خلال أكثر من خمس سنوات لم يخض جنوده أي «حرب» سوى ضد المدنيين حيث قمعوا النساء

والأطفال، وهاجموا أهدافاً مدنية في الضفة الغربية وقطاع غزة في مواجهة سكان عزّل أو ضد مقاتلين قد تدرّبوا قليلاً ولا يملكون تسليحاً جيداً.

لقد أصرّ الجيش الإسرائيلي على تسمية «حرب» لذلك القمع البوليسي الكبير. وكان المناضلون المعادون للاستعمار قد تحدّوا خلال مظاهراتهم ضد الاحتلال الجنود وسخروا منهم فيما يخص خلطهم بين قمع وحيد الجانب وحرب.

كانوا يقولون لهم: «في اليوم الذي سيكون فيه في مواجهتكم خصوم مسلّحون ومدرّبون، لن تعرفوا ماذا ستفعلون!». وهذا تحديداً ما حصل في لبنان، فالجنود الإسرائيليون الذين كانوا قد تعودوا على القيام بعمليات وحيدة الجانب وجدوا أنفسهم حائرين أمام مقاتلين أشدّاء ومدربين.(١)

مجزرة الميركافا:

تعتبر دبابة الميركافا فخر الصناعة العسكرية الإسرائيلية. وقد قدمتها الدعاية الصهيونية على أنها الدبابة التي لا تقهر في الميدان، وأنها أفضل ما وصلت إليه تكنولوجيا الدبابات على الإطلاق، ليس داخل الكيان فحسب، بل أيضاً على مستوى العالم، بما في ذلك الصناعات الغربية. على أن العالم بأسره شاهد على شاشات التلفاز كيف أن هذه الدبابات كانت تحترق بالعشرات على امتداد قرى الشريط الحدودي. وكانت مفاجأة الميركافا أشد تأثيراً على القيادة الصهيونية من مفاجأة تدمير البارجة الحربية «ساعر»، الأحدث على مستوى العالم.

وقد كتب المحلّل العسكري الإسرائيلي عمير رفورت عن خطورة الصواريخ التي استخدمها رجال حزب الله ضد دبابات الميركافا بعد انقضاء نحو ثلاثة اسابيع من الحرب تحت عنوان «مفاجأة المضادات» قائلاً: «كلما اتسع نطاق العمليات الحربية البرية في جنوب لبنان يصبح أوضح لدينا أكثر فأكثر أن أخطر الأخطار التي تحيط بالجيش الإسرائيلي هي تلك الصواريخ المضادة للدروع التي يستخدمها مقاتلو حزب الله ... فهذه الصواريخ هي التي تسببت بمعظم الإصابات التي تكبّدها الجيش وتشكّل خطراً عظيماً على جنود المدرّعات وعلى الجنود الراجلين أيضاً ..» وحول الكميات التي بحوزة حزب الله من هذه الصواريخ أوضح رفورت: «تفيد تقارير الجيش أن حزب الله خزّن مثل هذه

١- حرب الـ ٣٣ يوماً. مصدر سابق.

الصواريخ في كل مكان وفي كل قرية وفي كل مغارة انتظاراً لليوم الذي تبدأ فيه قوات الجيش الإسرائيلي العمليات البرية... والحديث ليس عن مجرّد صواريخ قديمة من طراز ساغر أو تاو وإنما عن صواريخ روسية متطورة جداً مثل «ماتيس» و «كورنيت» أو الـ «ار.بي.جي-٩٢» وهذه الصواريخ بيعت لإيران وسوريا ...».(١)

وتحت عنوان «الرعب يخترق الدروع» أعدّت صحيفة يديعوت أحرونوت في ٢٠٠٦/٨/٨ تقريراً عسكرياً حول الصواريخ المضادة للدروع جاء فيه: «الآن وهم في قلب المعركة يشعر جنود المدرّعات بالرعب.. والمخاوف الكبيرة هي من تلك الصواريخ التي لم يروا مثلها حتى الآن...تلك الصواريخ التي تحوّل الدبابات إلى مصيدة للموت ...». وقال كاتب التقرير: «إن أحد الجنود اعترف بأن هذه الصواريخ مرعبة ...».

وقد نقل المحلّل العسكري الاستراتيجي الإسرائيلي المعروف «زئيف شيف» الحديث الدائر في رئاسة الأركان عن الصواريخ المضادة للدروع قائلاً: «استخدم مقاتلو حزب الله سبعة أنواع قذائف صاروخية، منها أربعة أنواع، من الأكثر تطوراً في العالم، وجميعها روسية الصنع، بيعت إلى سوريا. للقذائف الحديثة قدرة اختراق فولاذ بسمك ٧٠ سم حتى ١,٢ م . وبعد الاختراق ينفجر رأس ثانٍ داخل الدبابة». ويوضح: «أصيبت ٤٦ دبابة و١٤ مدرعة بتلك القذائف المضادة للدروع. وقد اخترقت تلك الصواريخ ١٥ دبابة و٥ مدرعات أخرى. واستطاع حزب الله في كمين واحد في وادي السلوقي من إصابة ١١ دبابة، اخترقت تلك القذائف الصاروخية ٣ منها، وفي اثنتين قتل ٧ جنود».

حرب الاستخبارات:

لم تهتم الصحافة الإسرائيلية بأي جانب من الحرب قدر اهتمامها بالجانب الاستخباراتي فيها. هذا الاهتمام هو انعكاس للصورة الإسرائيلية عن قدرة استخباراتها العسكرية على تحقيق انجازات كبيرة وضخمة خلال سنوات طويلة من عمر الكيان. غير أن فشل الحرب الأخيرة ضد لبنان أثار موجة عنيفة جداً من الانتقادات ضد أجهزة الاستخبارات إلى درجة تم فيها تحميل هذه الأجهزة المسؤولية الأكبر في فشل الحرب بكاملها. بل ويعترف قسم كبير من المحللين الاستراتيجيين أن حزب الله لم ينجح فقط في تضليل الاستخبارات الإسرائيلية وإنما تفوق عليها في هذا الميدان من حيث جمع معلومات

١- معاريف، ٦ / ٨ / ٢٠٠٦.

حساسة عن قدرات الجيش الإسرائيلي من جهة، ورصد وتفكيك خلايا الاستخبارات العسكرية من ناحية ثانية.

فقد قال رون بن يشاي، كبير المحلّلين الاستراتيجيين في «يديعوت أحرونوت» : «هناك الكثير من التهور في الادعاءات التي تسود في إسرائيل، والتي تُرجع الفشل في تحقيق أهداف القتال البري إلى القصورات والإخفاقات في تفعيل الجيش من قبل المستوى السياسي والقيادة العليا للجيش، لكون هذا الإدعاء يستخف بقدرات وتفوق الخصم!!»...«ليس الأمر كذلك. وبرأيي فإن وقف إطلاق النار منع وقوع هزيمة أكبر بكثير في القتال البري». ويثبت بن يشاي هنا حقيقة كبيرة أخرى تتعلق بسياق هذه الدراسة حينما يقول: «كانت المعلومات التي جمعها مقاتلو حزب الله أفضل بكثير من تلك التي كانت لدى الجيش، وذلك لأن جمع المعلومات اعتمد على الرؤية المباشرة والنواظير على الأرض وعلى بعد لا يزيد عن عشرات الأمتار عن الجيش، في حين أن معلومات الجيش كانت تأتي من طائرات الاستطلاع (بدون طيار) ووسائل متطورة أخرى، لم تنجح في الزمن الحقيقي في معاينة مطلقي الصواريخ والخلايا التي تنتقل من خندق إلى آخر. كما اهتمت كل خلية بجمع المعلومات في الساحة التي تعمل فيها، سواء من أجل إطلاق دقيق أو من أجل محاربة الجنود في داخل القرية. وفي المقابل دخل الجيش إلى القرى وتجول فيها يخبط خبط عشواء، وذلك لأن الجيش لم يقم بجمع معلومات من ساحة القتال بشكل منهجي...»[١].

هذا الفشل الاستخباراتي عبّر عن نفسه في الخلاف الذي دار بين قيادة الأركان وقيادة الاستخبارات. فقد كشفت صحيفة «هآرتس» العبرية النقاب مبكراً عن «أن هناك خلافات سياسية- أمنية بين رئيس الموساد الاسرائيلي مئير دغان وبين رئيس جهاز الاستخبارات الاسرائيلي عاموس يدلين حول «ماهية الضربة التي تلقاها حزب الله حتى الآن»» [٢].

واعترفت مصادر أمنية إسرائيلية «أن جهاز الأمن الخاص لحزب الله استطاع تفكيك أخطر شبكات التجسس التابعة للموساد الصهيوني والتي عملت في بيروت والجنوب اللبناني» وقالت المصادر في تصريحات لأحد المواقع الإعلامية الإسرائيلية «إن عملاء الموساد الذين ألقي القبض عليهم في بيروت هم الأخطر في منطقة الشرق الأوسط والأكثر

١- يديعوت احرونوت، ٢٢- ٨- ٢٠٠٦.

٢- هآرتس، ٢٨- ٧- ٢٠٠٦.

تدريباً على أحدث الأجهزة الإلكترونية وأن مهمتهم كانت تحديد الأماكن والمخابئ السرية والشقق البديلة التي يستخدمها زعماء الحزب ووضع علامات الكترومغناطيسية وفوسفورية على الأماكن التي يجب أن يستهدفها القصف الصهيوني إضافة إلى زرع أجهزة التنصت في أماكن متعددة في الضاحية الجنوبية/التقرير نقلا عن فلسطين اليوم ٢٠٠٦/٩/٢ ». وأوضحت المصادر «أن الخلية الثانية تتكون من ٢٠ شخصاً عملت في الجنوب اللبناني وعملت خلال الحرب على إمداد دولة الاحتلال بالمعلومات كافة حول الأنفاق والمواقع التابعة للحزب، وأن قائدها هو قبطان بحري لبناني جرى تجنيده وتهريبه من إيطاليا إلى دولة الاحتلال بعد أن ألقت السلطات الإيطالية القبض عليه بتهمة الاتجار بالمخدرات». وأشارت المصادر إلى «أن الإعلان والتسريب الصهيوني حول العمليات الاستخبارية لحزب الله جاء بعد تيقن دولة الاحتلال من كشف الشبكتين وقطع الاتصال معهما وفي محاولة أيضاً لإيصال رسالة للجمهور الإسرائيلي بأن أجهزة الأمن الإسرائيلية نجحت في اختراق حزب الله».

من ناحية ثانية، نشرت صحيفة معاريف معلومات حول كراسات إرشاد يستخدمها مقاتلو حزب الله في لبنان، تقول معاريف: إن جنوداً من الجيش الإسرائيلي أحضروها من أحد المواقع التابعة لحزب الله في الجنوب اللبناني. وتشمل تلك الكراسات معلومات مفصلة عن الجيش الإسرائيلي وعن كل وحداته وطرق التعرف عليها من خلال رموزها. وجاء في الكراسة معلومات عن وحدات الجيش الراجلة ومنها بعض الوحدات التي تعتبر سرية كمييتار وموران، ومعلومات عن وحدات مختارة في الوحدات الهندسية من ضمنها وحدة تفكيك الألغام. وقد خصصت الكراسة فصلاً كاملاً عن سلاح الجو الإسرائيلي وتاريخه وتطور وحداته، وفي تفاصيل عن أنواع الطائرات التي استخدمها في السابق والطائرات التي يستخدمها الآن. وتشمل المعلومات أسماء الوحدات الجوية ومن ضمنها الوحدات الجديدة مثل «تسارعا» ومعلومات عن وحدات خاصة كـ «شلداغ» والوحدة المضادة للطائرات المجوقلة، وتشمل كذلك علامات ورموز تعريف وتمييز قائد الوحدة والطيارين. ويشمل الكراس أيضاً معلومات عن الطائرات بدون طيار. ويشمل الكراس وصفاً ومعلومات وافية عن وحدات مثل جوالة القيادة العامة «المتكال»، كتب عنها أنها وحدة النخبة وهي الوحدة الوحيدة التي يسمح لجنودها بالتجول دون بزات عسكرية. وجاءت في الكراس معلومات عن وحدات سرية جداً تتبع للمخابرات العسكرية «أمان».

ويعرض الكراس رموز وإشارات تمييز كل وحدة ووحدة، وجاء في الكراس أن أمان لديه وحدة طائرات بدون طيار بهدف جمع المعلومات. وقد خصص الكراس فصلاً عن السلاح البري، مع وصف ومعلومات عن ألويته كافة، ومكان مركز القيادة، وفي أي قطاع يعمل كل لواء، ويشير الكراس إلى تقدم وتطور لواء الناحل في السنوات الأخيرة. وردت في الكراس معلومات وافية حول مسيرة الانضمام للألوية الراجلة ومسار تقدم المجند والفترة التي يحتاجها، وفي أي الدورات عليه أن يشارك وفي أي القواعد العسكرية تقام مع ذكر أسماء تلك القواعد. ويتناول فصل كامل أنواع الأسلحة التي يستخدمها الجيش الإسرائيلي، والأسلحة المتاحة للقوات الراجلة وللوحدات المختارة ووحدات النخبة، من أبسط الأسلحة حتى الأسلحة الخاصة المتطورة. وتشير المعلومات إلى معرفة دقيقة عن النظام والتسلسل في وحدات المدرعات، وعن أماكن القواعد وأسماء الأفواج ورموز الوحدات المختلفة. وصرح ضابط كبير في الجيش الاسرائيلي لمعاريف في أعقاب ذلك «لقد وصلت إلينا معلومات استخباراتية كثيرة، ونعمل على دراستها، توجد كراسات فيها معلومات تقلقنا، لأسفي الشديد، وقد أشعلت المعلومات التي وصلت إلينا الأضواء الحمراء»[١].

الإخفاق الاستخباراتي لم تنجح في معالجته الخيارات السياسية المتخذة على مستوى الحكومة الأمنية المصغرة. فقد قال أحد أركانها، بنيامين بن أليعيزر، وزير أمن سابق، ووزير البنى التحتية خلال الحرب، وعضو في الطاقم الأمني- السياسي المصغر في تصريح لإذاعة الجيش بعد ٢٥ يوماً من العدوان الإسرائيلي على لبنان: «إن إسرائيل ذهلت من عدم قدرة الجيش على إخضاع حزب الله بسرعة وسلاسة وبشكل قاطع». وأضاف بن أليعيزر «لم يعتقد أي واحد في الحكومة أن ذلك سيستمر كل هذا الوقت، وأن يكون لحزب الله نفَس طويل بهذا الشكل. في الحقيقة كنا نعرف عن كمية السلاح الكبيرة التي بيد حزب الله، ولكننا اعتقدنا أن ضربة لبيروت ستحل المشكلة».

وقد عدد الخبير الصهيوني في الشؤون الاستراتيجية رونن برغمان سلسلة الإخفاقات التي منيت بها الاستخبارات الإسرائيلية سواء في الإعداد للحرب أو أثناءها، قائلاً: إن «عدم النجاح في اختراق مركز صنع القرار في حزب الله انعكس جلياً في النتائج التي تمخضت الحرب عنها». وأشار إلى أن بداية الفشل الاستخباراتي كانت مطلع العام ألفين

١- معاريف، ٢٤- ٨ -٢٠٠٦.

حين مني الجيش بـ «إحباط ويأس» بعد فشل عملية كبيرة استهدفت الحصول على معلومات عن تحصينات «حزب الله»، لكنه لم يشر إلى طبيعتها. ومنذ ذلك الوقت «عملت الاستخبارات العسكرية في عتمة لم تر فيها شيئاً»، وجعل «العمى الاستخباراتي» من الجنود الصهاينة «بطأ في ميدان رماية عناصر حزب الله». وعدّد الكاتب ما وصفها بـ «الثقوب السوداء» في عمل الاستخبارات الصهيونية في لبنان ومنها:

- فشل الاستخبارات في التوقع المسبق للهجوم الذي شنه «حزب الله» وتسلل وحدة كوماندوز إلى الأراضي (الإسرائيلية) لأسر الجنديين.

- الاستخبارات لا تزال عاجزة حتى اليوم عن توفير معلومات أكيدة عن مصير الأسيرين.

- الاستخبارات لم توفر للجيش معلومات كافية عن منظومة الصواريخ المضادة للمدرعات التي في حوزة «حزب الله»، بما في ذلك عددها وأنواعها.

- لم توفر الاستخبارات معلومات أيضاً عن وسائل قتالية متطورة لدى «حزب الله» مثل الصاروخ الذي قصف البارجة.

- عدم توفير معلومات استخباراتية عن المنظومة المتطورة التي بناها «حزب الله» للقتال داخل القرى وعدم تزويد القوات البرية معلومات كافية عن تحرك مقاتليه.

- فشل الاستخبارات في تزويد وحدات النخبة العسكرية بمعلومات دقيقة قبل عمليات الإنزال في بعلبك وصور التي فشلت جراء معلومات غير صحيحة زودتها الاستخبارات لوحدات النخبة.

- الفشل في تحقيق اختراق جدي لمركز صنع القرار في «حزب الله» في الضاحية الجنوبية لبيروت.

- عجز الاستخبارات، حتى الآن، عن الرد على السؤال الأهم وهو: أين يقيم (الأمين العام لـ «حزب الله») حسن نصر الله.

وقد فتح الفشل الذريع الذي منيت به الاستخبارات النار عليها من كل الجهات، ولم يتوقف على حرب لبنان، بل إلى إجراء «جردة حساب» معها تعود إلى سنوات خلت. فقد سلط مؤلفا كتاب «حرب الـ ٣٣ يوماً» الضوء على مجموعة الإخفاقات التي منيت بها الاستخبارات خلال الأعوام الماضية:

«إن الكلمة ـ المفتاح لهذه الحرب يحدّدها المؤلفان في «المفاجأة». مفاجأة الحكومة

الإسرائيلية من قدرة حزب الله على الرد وفعالية منظومته الدفاعية على الحدود. كما فوجئت بعدد الصواريخ والمقذوفات الأخرى التي تستطيع إصابة شمال إسرائيل، وفوجئت بالسلاح المضاد للمدرعات القادر على إنهاء أسطورة دبابة «ميركافا ـ ٤ » التي قيل عنها إنها أسطورة لا يمكن تدميرها. وقد فوجئت خاصة من المستوى العالي لفعالية وتعبئة مقاتلي حزب الله. بكلمة واحدة، لقد فوجئت بكل ما يميّز بين انتصار واضح وهزيمة محتملة.

وينقل المؤلفان عن مسؤول الاستخبارات العسكرية الجنرال يوسي «كوبرواسر» قوله لأحد الصحافيين: «**إنني لم أتفاجأ أبداً**»، وأضاف: «**هذا بالضبط حزب الله الذي أعرفه**». لكنه لم ينجح في إقناع الصحافي الذي وجّه له السؤال التالي: «إذن لماذا يعتري الجمهور إحساس قوي أن القيادات السياسية والعسكرية قد فوجئت وهي مكشوفة العورة».

ويعلق المؤلفان على ذلك بالقول إن المشكلة ليست معرفة إذا كان جهاز الاستخبارات الإسرائيلية «أمان» والـ «موساد» يمتلكان أو لا يمتلكان معلومات دقيقة عن حزب الله، وإنما هي تتعلق تحديداً بكفاءتهما السياسية على تحليلها وخاصة على استخلاص النتائج الصحيحة منها.

ويضيفان: لكن لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي تتعرّض فيها الاستخبارات الإسرائيلية للمفاجأة. لقد فوجئت عام ١٩٧٣ بالهجوم الواسع الذي قامت به الجيوش المصرية والسورية؛ وفوجئت أيضاً عام ١٩٨٢ بمدى مقاومة القوات اللبنانية ـ الفلسطينية ضد العدوان الإسرائيلي وبتعقيد المسرح السياسي اللبناني الذي تورطت فيه مخططات شارون؛ وفوجئت الاستخبارات الإسرائيلية بالانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٨٧، ثم فوجئت برفض الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات الانصياع لإرادة إيهود باراك في كامب ديفيد عام ٢٠٠٠؛ ثم فوجئت بفوز منظمة حماس في الانتخابات التشريعية بفلسطين عام٢٠٠٦. ملخص القول هو إن قائمة «المفاجآت» طويلة أيضاً.

ويرجع المؤلفان سوء التقدير هذا الى أزمة الثقافة الإسرائيلية في نظرتها إلى نفسها ونظرتها إلى الآخر، كما هو الحال مع أي مستعمر يرى أن الطرف الآخر لا يستحق مجرد التفكير فيه لكونه من الرعاع.

الحرب النفسية:

تحتل الحرب النفسية والإعلامية حيّزاً مهماً في إدارة المعارك الميدانية . وتولي القيادات العسكرية أهمية كبيرة لهذا النوع من الحروب أثناء العمليات على اعتبار أنها تهدف إلى تعزيز معنويات الأفراد والشعب من جهة، وتحطيم إرادة الخصم ومعنوياته من جهة أخرى. وهو الأمر الذي يقود في نهاية المطاف إلى إحداث تغيير جوهري في منحى الحرب في ساحة القتال.

في حرب لبنان ٢٠٠٦، لم تخسر إسرائيل الحرب النفسية والإعلامية فحسب، بل جاء التعبير عن خسارة هذه الحرب على أعلى المستويات . فقد أطلت وزيرة الخارجية الاسرائيلية «تسيفي ليبني» على العالم بتصريح بالغ الأهمية قالت فيه «ليس هناك أي جيش في العالم بقدرته نزع سلاح حزب الله بالوسائل العسكرية فقط» (١).

ولم يقتصر الإحباط على المستوى السياسي، بل تعداه إلى المستوى العسكري الذي من المفترض به أن يظهر أكثر صلابة أمام وسائل الإعلام، ويمنح شعبه الأمل بالنصر. غير أن ما حصل خلاف ذلك. فقد قال رئيس أركان الجيش الإسرائيلي في مقابلة منحها للقناة الإسرائيلية العاشرة مساء السبت ٢٠٠٦/٨/١٢ «لو قمنا بهجوم بري على لبنان في الأيام الأولى، كنا سنجد أنفسنا مطرودين وخائبين. لأنّه كان علينا أن نبني أيضاً الحملة البرية». وأضاف «إنه لا يخشى لجان التحقيق» و«أن هناك الكثير مما يجب فحصه كيف وصلنا خلال ست سنوات إلى هذا الواقع. وكيف وصلت ميزانية الأمن إلى وضعية لا توفر وسائل الحماية الضرورية لإسرائيل». وحول العملية العسكرية البرية قال حلوتس: «كنا في لبنان على البر عن طريق عملية كبرى. وبقينا هناك ١٨ عامًا. وكل من يسأل لماذا لم ندخل برياً فنحن بحاجة إلى إعطاء إجابة يجب فحص كل جوانبها. وما هو الثمن». وتابع: «أنا قلت منذ البداية إننا لا نملك إجابات لصواريخ الكاتيوشا قصيرة المدى». واعترف: «لم نتوصل إلى إنجازات بما يتعلق بالكاتيوشا قصيرة المدى. لأن هذا يحمل الكثير من الإشكاليات».

وقد طال الإحباط كتاب الرأي في الصحف اليومية. فالكاتب آري شفيط كتب قبل أسبوع من وقف الأعمال الحربية في هآرتس قائلاً : «تخالف حرب لبنان الثانية كل سابقاتها. في حرب لبنان الثانية يوجد خطر أن تُهزم إسرائيل. إذا لم تنجح العملية البرية

---

١ - نقلاً عن صحيفة معاريف، ١٣- ٨- ٢٠٠٦.

الكبيرة التي بادر إليها أيهود أولمرت بتأخر كبير، نجاحاً حسناً، فإن الواقع الذي قد نصحو عليه في نهاية الحرب هو واقع أولى الهزائم الإسرائيلية» ... وأضاف: «ليست الهزيمة كارثة. وليست نهاية الأمر... ولكن من أجل منع حتى هزيمة إسرائيلية محدودة يجب أن نعرّف الوضع تعريفاً دقيقا» وأردف: «في البدء يجب أن نحدد المشكلة الشديدة الإلحاح: فشلت إسرائيل في المراحل الثلاث الأولى من حرب ٢٠٠٦. فشل الهجوم الجوي، وفشل الهجوم البري المحدود وفشلت أيام الإحجام والارتباك بعد بنت جبيل. ونتاج ذلك أن أصبحت إسرائيل تُرى عاجزة بإزاء منظمة ضمن دولة تضربها مرة تلو أخرى من غير أن تخضع. إسرائيل دولة يحيط بها الأعداء بالفعل والأعداء الكامنون. قوة هؤلاء الأعداء تزيد على قوة حزب الله بأضعاف مضاعفة. اذا لم تكن إسرائيل قادرة على الدفاع عن سيادتها وعن مواطنيها في وجه حزب الله لمدة أسابيع طويلة، فإن الانطباع الذي ينشأ هو أنها أصبحت دولة لا يمكن الدفاع عنها»[١].

أثر الحرب النفسية وصل إلى الجمهور الإسرائيلي نفسه. يوسي كلاين هاليفي من مركز شاليم للأبحاث ومقره القدس الذي يقول: «إنه من أشد أنصار أولمرت قال: إن «أولمرت بدأ هذه الحرب بتأييد شعبي مطلق تقريباً... وهو ينهي هذه الحرب وخلفه أمة منهكة وجريحة تشعر أنها بلا قيادة». ورغم التأييد الذي أبداه حلفاء أولمرت فإن الإسرائيليين أبعد ما يكونون عن الاقتناع بأن الحرب انتهت بالنصر».

وقد حفلت الصحف الإسرائيلية بشهادات لجنود تصور حالة الإحباط النفسي والهزيمة المعنوية في الميدان. وفيما يلي العناوين الرئيسية للاعترافات الإسرائيلية كما احتلت مانشيتات الصحف العبرية ليوم الجمعة ٢٠٠٦/٧/٢٨ .

وأحد الجنود قال: «لم نكن نتوقع أنهم يقاتلون بشراسة، إنهم يتفوقون علينا في أرضهم».

جندي آخر، واسمه مايكل سيدورنكوا، ٢١ سنة، قال: «إنهم ليسوا جنوداً عاديين إنهم مقاتلو عصابات، إنهم أذكياء وستستغرق هذه الحرب حتى نهاية الصيف حتى نتمكن من هزيمتهم».

وأضاف جندي ثالث: «إن مقاتلي حزب الله أظهروا قدرات قتالية كبيرة».

١- هآرتس، آري شفيط، ٨ / ٨ / ٢٠٠٦.

حالة الانهيار هذه تجاوزت الجنود العاديين وصولاً إلى القيادة العسكرية. فقد كتب المراسل العسكري لـ «هآرتس»، عاموس هارئيل، أن الحكومة الإسرائيلية تجاهلت تحذيرات الجيش حيال الوضع عند الحدود الإسرائيلية - اللبنانية قبل الحرب الذي وصفه الجيش بأنه «غير محتمل». وقال: إن «النتيجة السائدة (في أوساط قيادة الجيش الإسرائيلي) من هذه الإخفاقات هي أن حزب الله لا يذل إسرائيل فحسب بل وينتصر».

على أن ثمة سابقة سجلتها إسرائيل في الحرب النفسية لم تشهدها أي من الحروب الحديثة، وهي أن جمهورها يثق بخطاب أعدائه أكثر من ثقته بقياداته السياسية والعسكرية. وقد بيّنت دراسة إسرائيلية عالجت الحرب الإعلامية النفسية المعنوية بين «إسرائيل» وحزب الله «أن الجمهور الإسرائيلي انتظر بفارغ الصبر خطابات الأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله، بسبب صدقيتها أساساً وأن الجمهور يمنح نصر الله علامة أفضل بالمقارنة مع الناطقين باللغة العبرية. وفيما يلي النص نقلاً عن موقع عرب ٤٨ على الانترنت ٢٠٠٦/٩/٤». فبحسب أقوال معد الدراسة د. ليفل من جامعة بن غوريون: «وصلنا إلى وضع جنوني.. حالة نفسية لا تخطر ببال أحد؛ فبدلاً من أن ينتظر الجمهور الإسرائيلي ناطقاً قومياً يوضح له ماذا يحصل في كل يوم، ويقلص الفوضى ويرتسم كصادق، فقد حصل ما لم يحصل من قبل.. الجمهور لجأ إلى القائد الذي نحاربه، وجلس بفارغ الصبر ينتظر خطاباته».

وقد جاء في استطلاع آخر أثار جدلاً داخل الرأي العام الإسرائيلي أجراه د.شاؤول كمحي من كلية علم النفس في جامعة تل حي والبروفيسور يوحنان اشيل من جامعة حيفا «أن حسن نصر الله هزم أولمرت وفق المعايير كافة ..إذ عرض نصرالله كأيديولوجي وصاحب رؤية ويعمل وفق تخطيط بعيد المدى .. وقد حصل نصرالله على ٥,٥ نقطة مقابل ٣,٩ فقط حصل عليها أولمرت «ويضيف الباحثان الإسرائيليان «أنه رغم كونه عدواً صعباً إلا أن الإسرائيليين وجدوه أنسب من أولمرت لموقع القيادة خلال الحرب..[١]».

وقد بين الباحث اليساري الإسرائيلي المعروف ميرون بنفنستي، وهو مستشار سابق لرئيس بلدية القدس تيدي كوليك، أهمية الحرب النفسية في الواقع الصهيوني، فكتب محللاً مضامين الحرب قائلاً: الآن أصبح واضحاً أن هدف الحرب هو - كم هو أصيل هذا

١- نقلاً عن يديعوت أحرونوت، ٨ / ٩ / ٢٠٠٦.

القول - إحراز النصر! وليس مهما في الواقع مغزى هذا الانتصار في المصطلحات الحقيقية مثل وقف إطلاق الكاتيوشا أو التسوية الأمنية. المهم فقط هو إشعار الناس في إسرائيل بأننا قد «أريناهم من نكون»!. ويقول:«الشعور بالانتصار هو مسألة ذاتية إسرائيلية داخلية تماماً مثل «القدرة الردعية»[1].

نتائج المعركة:

تعددت النتائج التي أسفرت عنها حرب إسرائيل ضد لبنان صيف عام ٢٠٠٦ على المستويات كافة. فقد طالت هذه النتائج المستويات العسكرية بأشكالها كافة، والمستوى السياسي، والمستوى الاستراتيجي.

على المستوى العسكري، كُشف النقاب عن تقرير ديبلوماسي أميركي تسربت بعض عناوينه وتفاصيله إلى هيئات ديبلوماسية، حيث نقل الديبلوماسيون في لبنان عن زملائهم المعتمدين في «تل أبيب» أن قيادة أركان الجيش الإسرائيلي قدمت معلومات لحكومتها حول الخسائر البشرية والآلية التي تكبدها الجيش الإسرائيلي خلال المواجهات مع حزب الله في لبنان. وتشير أرقام التقرير إلى أن الإسرائيليين خسروا منذ ١٢ تموز إلى ٧ آب ٣٤٣ جندياً قتيلاً و٦١٧ جريحاً من مختلف الألوية المدرعة والمشاة والميكانيكية في خطوط الحرب أو في الخطوط الخلفية حيث تساقطت الصواريخ على مواقع عسكرية متعددة بدءاً من مستوطنات الشمال حتى وسط فلسطين المحتلة (حيفا، العفولة، الخضيرة إلى طبريا وعكا). ويقول التقرير الذي يتداوله الديبلوماسيون في لبنان أن عدد دبابات «الميركافا» المحترقة في لبنان وفي المواقع العسكرية المستهدفة بلغ ١١٨ دبابة محترقة، و٤٦ دبابة معطوبة أو مصابة إصابات بالغة تتطلّب عملاً كبيراً لإعادة تأهيلها. فيما جرى إحراق ٩٦ ناقلة جند وسيارة جيب وجرافة عسكرية. ويتابع التقرير أن القوات الإسرائيلية على جبهة القتال استنفدت نسبة ٩٠٪ من ذخائرها ما اضطر قيادة الأركان في الجيش الإسرائيلي لفتح مخازنها المقفلة منذ عشرات السنين لاستعمال الذخائر من صواريخ وقنابل وقطع مدفعية واستقدام دبابات وناقلات جند إضافية مع الإشارة إلى أن العدد الحقيقي للجنود المشاركين في الحرب مع لبنان بين المشاركين والمنتشرين والمتجمعين في منطقة الشمال يقدر بـ ٤٠ ألف جندي من مختلف الألوية والقطاعات بينهم خمسة عشر ألفاً من جنود الاحتياط.

١- هآرتس، ٩ / ٨ / ٢٠٠٦.

أما على مستوى الصناعة العسكرية، ولا سيما فيما يتعلق بدبابة الميركافا، فقد قررت قيادة جيش الاحتلال إغلاق وحدات إنتاج دبابة «ميركافا» خلال الأربع سنوات المقبلة، معللة ذلك بالفشل الذي منيت به الدبابة في الحرب على لبنان. وتشير أوساط ناقمة داخل جيش الاحتلال على قيادتها إلى أنه «لم تنجح بسالة المقاومة الفلسطينية واللبنانية في تحطيم مقولة (الجيش الذي لا يقهر) فحسب، وإنما دفعت بتداعيات لا تزال تتفاعل بعد انتهاء الحرب على لبنان. ولعل آخر هذه التفاعلات وربما أهمها، مساهمة (حزب الله) في حسم النقاش الدائر في إسرائيل بشأن وقف إنتاج الديناصور العسكري الضخم دبابة ميركافا، وإنهاء صلاحيتها ووضعها إلى جانب سيارة الكرتون (سوسيتا) الإسرائيلية المنقرضة». وبحسب صحيفة «غلوبوس» الاقتصادية الإسرائيلية فإن «جيش الاحتلال قرر إغلاق خط إنتاج دبابة (ميركافا) خلال ٤ سنوات، والذي يعتبر أحد أكثر المشاريع العسكرية كلفة في تاريخ الصناعة الأمنية».

وطالت نتائج الحرب على المستوى العسكري كبار الضباط وقيادة الأركان، فكتب المحلّل العسكري الاستراتيجي زئيف شيف يؤكد: «إن استقالة الجنرال أودي أدام قائد المنطقة الشمالية في الجيش الإسرائيلي تفيد بأن مرحلة التفكك في القيادة العليا للجيش (الإسرائيلي) والقيادة الشمالية قد بدأت» وبحسب شيف ف «إن هذه ليست استقالة تعني الاعتراف بالفشل في الحرب، وليست هذه استقالة تنبع من معنى الاعتراف بالمسؤولية الشخصية، بل هي استقالة بسبب إساءة، واستعراض ضد محاولة لإلقاء المسؤولية عليه، وأنها ليست من مسؤوليته، ولكن المعنى من ذلك، أنه قبل أن تبدأ لجنة تحقيق برئاسة القاضي فينوغراد أعمالها، بدأ الجيش يشهد حرب جنرالات»[1]. وعلى صعيد آخر، تحدثت صحيفة معاريف عن: «أن رئيس الأركان دان حالوتس اجتمع مع ضباط الألوية العسكرية والاحتياط التي شاركت في الحرب، في قاعدة تسريفين، للتباحث مع طاقم القيادة العامة وضباط الثلاثة ألوية. وقد نقلت الصحيفة عن أحد الضباط قوله:«إن الجلسة كانت متوترة، رغم المحاولات لإزالة التوتر. الجو كان صعباً من جانب ممثلي الجيش وأيضاً من جانب ضباط الاحتياط». وقد وجه قادة الألوية في الاحتياط انتقادات لاذعة لسلاح الجو. ووفق أقوال أحد الضباط، فإن سلاح الجو «منقطع عن الجيش، ويتصرف كجيش داخل جيش». وشرح: «لا يمكن الشرح بشكل آخر، حقيقة، أن قائد سلاح

١- هآرتس، ١٤- ٩- ٢٠٠٦.

الجو هو الممثل الوحيد عن سلاح الجو، ولا يوجد في القاعة أي قائد وحدة أو طيارين أخذوا أدواراً في الحرب كي يقولوا ما لديهم». وقال ضابط آخر: «هذه استمرارية للمهانة في معارك جنوب لبنان»[١].

كما وأوردت الصحيفة في عددها، أن مجموعة من جنرالات الاحتياط أعدوا رسالة إلى رئيس هيئة الأركان دان حالوتس يدعونه فيها للاستقالة، ونقل على لسان أحدهم: «لم نستطع أن نرى ما يحصل وأن نقف جانباً ونصمت. قلنا ما علينا أن نقوله وحينما رأينا أنه لا يكفي قررنا إعداد رسالة وتقديمها إلى رئيس هيئة الأركان. لا يمكن الاستمرار بهذا الشكل، عليه أن يستقيل. لا يوجد طريق آخر. فالجيش يجب أن يخطو في طريق جديدة».

أما على المستوى السياسي، فقد عبرت الهزيمة التي لحقت بالجيش الصهيوني عن نفسها من خلال أزمة القيادة، فكتب هابر، وهو معلق رئيس في يومية يديعوت أحرونوت «إنّ الأزمة الكبيرة التي تجد دولة الاحتلال نفسها في مواجهتها الآن هي أزمة القيادة، فلقد انتهى القادة في إسرائيل، وإذا ما تم تبديل المبتدئين (إيهود أولمرت رئيس الوزراء وعامير بيرتس وزير الدفاع وتسيبي ليفني وزيرة الخارجية)، فبمن سيتم استبدالهم؟». وحذّر هابر من أنه «ليس هناك شخص واحد من الساسة أو من قادة الجيش أو من الأكاديميين يحلم به مواطنو إسرائيل ويتطلعون لزعامته عليهم». وأضاف هابر قوله «كلما تتضح نتيجة الحرب أكثر فأكثر؛ يتبيّن كم أنها بالغة القسوة، فلا شيء، لا شيء على الإطلاق، في المجالين العسكري والمدني، كان جاهزًا للحرب وعمل كما يجب في وقت المعارك»[٢].

وقد أطلقت الهزيمة التي مني بها جيش الاحتلال سلسلة من التداعيات أتاحت للمحللين والسياسيين فتح النار على جميع الجبهات، ولا سيما على القيادة العسكرية، وهيكلية مؤسسة الجيش وإنجازاتها وعقيدتها القتالية. وفي هذا السياق، قدم المحلل أليكس فيشمان في يديعوت أحرونوت تحليلاً عسكرياً يعتبر الأهم في سياق التعليقات، إذ كتب تحت عنوان «لماذا لم ننتصر في الحرب...؟» يقول:

١- معاريف، ٣١- ٨- ٢٠٠٦.

٢- يديعوت احرونوت، ١٦- ٨- ٢٠٠٦.

١- القيـــادة

في الجيش يعترفون اليوم وباستقامة، أنه لم يكن يوماً مستوى سياسياً سخياً كما هي الحال مع أولمرت – بيرتس. في الثاني عشر من تموز، عندما طرحت قيادة الجيش خطة الهجوم الجوي ذُهلت من حقيقة قيام المستوى السياسي بالمصادقة عليها.

في قيادة الجيش الإسرائيلي وقيادة المنطقة الشمالية يدعون اليوم أن عقب أخيل لتدحرج الحرب هو حقيقة أن الجيش الإسرائيلي لم يطبق خطته الميدانية التي تحدثت عن خطوة برية واسعة واحدة حتى الليطاني. ولكن بسبب اضطرارات سياسية تحرك بطريقة السلامي واحتك مع العدو فوق ملعب كان فيه الطرف الآخر يتميز عليه.

وستكون هذه إحدى القضايا المركزية التي ستتحقق منها أي لجنة تحقيق ستتشكل: لماذا لم يُعط ضوء أخضر كامل للعملية العسكرية الواسعة، ولماذا تأخر استدعاء الاحتياط. قائد المنطقة الشمالية يقول اليوم إن التعداد الكامل للقوات البرية التي وضعت رهن إشارته لم يكتمل إلا في الواحد والثلاثين من الشهر، وليس فور بدء الحرب، الذي كان من شأنه لو حصل أن يُمكنه من إعداد الأفراد وإدخالهم خلال أسبوعين في عملية قتالية منظمة.

٢- قيـــادة المنطقـــة الشماليـــة

وتعترف قيادة المنطقة الشمالية الآن أن معركة مارون الراس كانت «خللاً». وحدة استطلاع أُرسلت للقيام بعملية مراقبة واستكشاف في أحد المواقع، كجزء من جمع المعلومات للحرب ضد القواعد الصاروخية. أحدهم اختار إدخال هذه الوحدة بجانب «محمية طبيعية» – وهو موقع عسكري مغلق لحزب الله خارج منطقة مأهولة تنتشر فيه منظومة من المخازن والصواريخ. هذا القرار الخاطىء لأحد القادة الكبار في الميدان أدى إلى قرار خاطىء آخر بادخال وحدة إيغوز في وضح النهار من أجل إدخال القوة التي أصيبت. المجابهة الأولى مع العدو انتهت بعدد كبير من الإصابات.

٣- الاستخبـــارات:

إحدى المفاجآت الكبرى في الحرب لم تكن نوع الوسائل القتالية التي يمتلكها حزب الله، وإنما كميتها. في الاستخبارات عرفوا أن لدى حزب الله صواريخ مضادة للدبابات من طراز متطور، ولكنهم فوجئوا من كمية الصواريخ التي أُطلقت. كما فوجئوا أيضاً من عدد

الكاتيوشا التي أُطلقت. أيضاً تقنية القتال التي طورها حزب الله في جنوب لبنان تظهر في الكتب، إلا أن قيادة المنطقة الشمالية احتاجت فترة زمنية معينة إلى أن أدركت أن منطق القتال في كل خلية ميدانية هو منطق فرقة كوماندو: العمليات تتم في منطقة صغيرة ولكن في كل مكان توجد يد موجهة ومُدبرة، في موازاة كل المعركة في جنوب لبنان.

سلاحا الجو والمدفعية عملا بصورة مكثفة. المدفعية وحدها أطلقت ١٢٠ ألف قذيفة خلال العملية. ولكن بعد كل هذا الضجيج بقي العدو في الجنوب منتصباً على قدميه. ما الذي عرفناه حول قدراته الدفاعية؟ هل كانت الاستخبارات قادرة على توفير أهداف للمدفعية تعطي تأثيراً صحيحاً وأن لا يكون إطلاق النار عمومياً غير مركّز؟ والسؤال الأكبر: لماذا بقي العدو في مكانه رغم الهجمات المكثفة؟ صمود حزب الله لم يكن فقط قضية ردع إسرائيلي محطم. هذه أيضاً مشكلة استخبارات غير ممركزة بدرجة تُمكن المدفعية والقوات الجوية من ضرب الأهداف التي تُلحق الضرر التراكمي الصحيح بصفوف العدو.

٤- الجاهزية:

ليس سراً أنه بعد سنوات من الأعمال البوليسية في المناطق قد أصبحت القوات المقاتلة أقل تدريباً في هذا النوع من القتال... كما ظهرت فجوة أخرى، وهذه المرة في صفوف سلاح المشاة. المسألة تتعلق بقدراتهم الجسدية. المقاتلون ساروا مع عتاد ثقيل جداً ولم يستجيبوا لمطلب أخذ كمية مياه فقط لـ ٤٨ ساعة على الظهر. بعض الوحدات قامت بسكب المياه، وبعد ذلك أصيبت بالجفاف والعطش، كما كانت هناك كمية غير قليلة من انخفاض القدرات الجسدية وقدرة التحمل.

نظرية القتال في السيطرة على قرى جنوب لبنان لا تشبه تلك المطبقة في المناطق. عندما تحدث الجيش عن احتلال قرية، فهو قصد في الواقع السيطرة على مبانٍ مطلة في أطراف القرية ووضع كمائن واختفاء. في جنوب لبنان هذا ليس كافياً بدرجة كافية، لأن الخصم مختلف. في المعابر إلى القرى مثلاً، توقف رتل الدبابات نتيجة لإطلاق الصواريخ المضادة للدبابات. أغلبية إطلاق النار تمت من القرية التي كانت قد احتُلت.

الجيش لم يكن يمتلك كمية كافية من المجنزرات الثقيلة حتى يتمكن من إدخال قوات المشاة إلى القتال في موازاة الدبابات. في هذه الحرب جرى إخلاء دبابات الميركافا وإخراج

القذائف منها بسبب تعطل طابورها. هذا الحل كان صحيحاً، ولكنه حل جزئي وغير مخطط.

٥- الاحتياط:

التصور الذي كان سائداً طوال سنوات عن إمكانية إنجاز المهمات القتالية من دون استدعاء الاحتياط، وأن الحروب الكبرى قد انتهت، وبذلك لا حاجة للاحتياط، أعطى آثاره في نهاية المطاف. وبالفعل، خطة عمل الجيش لعام ٢٠٠٢ قلصت تعداد هذا الجيش بـ ١٣ في المائة. القوات البرية، وخصوصاً الاحتياط، قُلصت بـ ٢٥ في المائة. منذ ذلك الحين مرت أربع سنوات، ولم يتدرب جنود الاحتياط بصورة منتظمة. الاحتياط عانى أيضاً من نقص في العتاد، ومن مشاكل لوجستية غير مبررة، الأمر الذي يعود مرة أخرى إلى سلم الأولويات الخاطىء. اليوم يدعون في قيادة المنطقة الشمالية أن عتاد الاحتياط كان وفق المعايير التي حددها الجيش(١).

هذا على المستوى العسكري ورئاسة الوزراء، أما على مستوى الإنجاز السياسي للمعركة، فقد اتفقت التحليلات على أن المعركة لم تحقق أياً من أهدافها السياسية. فقد جاء في كتاب «حرب ٣٣ يوماً» لجلبرت أشقر وميشيل وارشفسكي، والأخير من الكتاب الإسرائيليين المناهضين للحرب: «على ضوء الهدف الرئيسي للهجوم الإسرائيلي وللوسائل الثلاث التي تمّ اعتمادها كان ذلك الهجوم فشلاً كاملاً وواضحاً. فالجنود الإسرائيليون المحتجزون لدى حزب الله والذين كان أسرهم الحجة الرئيسية التي تمّ التذرع بها للقيام بالهجوم لم يتم إطلاق سراحهم. وحزب الله لم يتم تدميره بل استطاع المحافظة على القسم الأساسي من بنيته السياسية ومن قوته العسكرية. وكان قد استطاع أن يطلق صواريخه على شمال إسرائيل حتى صبيحة يوم وقف إطلاق النار ١٤ أغسطس. ولم يتم قطعه عن جماهيره بل استطاع أن يحظى بالدعم لدى الطوائف الأخرى. ناهيك عن المكانة الدولية التي أعطتها هذه الحرب له خاصة في المنطقة العربية وبقية العالم الإسلامي. وكي تكتمل اللوحة، أدّى ذلك كله إلى تغير في موازين القوى في لبنان في اتجاه معاكس تماماً لما كانت واشنطن وإسرائيل تتمناه. ذلك أن حزب الله قد خرج أقوى وأصلب عوداً بعد المعركة مما هو الأمر بالنسبة لخصومه اللبنانيين، المعلنين أو غير المعلنين، من أصدقاء الولايات المتحدة الأميركية»(٢).

١- يديعوت احرونوت، ٢٤- ٨ -٢٠٠٦.

٢- حرب ٣٣ يوماً، جلبرت أشقر وميشيل وارشفسكي، استعراض د. محمد مخلوف. (تقرير خاص).

ويطرح الكاتبان مجموعة من الأسئلة على القيادة الإسرائيلية أن تواجهها بعد وقف العمليات العسكرية، والاستعداد لمرحلة ما بعد الحرب، وهي المرحلة التي يطلقان عليها تسمية استئناف أو «متابعة الحرب بوسائل أخرى» في لبنان. ويستعرض المؤلفان على هذا الصعيد أربعة أسئلة رئيسية طرحت نفسها عبر تسلسل زمني. السؤال الأول يخص تشكيلة ومهمات قوات الأمم المتحدة الجديدة. فإسرائيل رفضت مشاركة قوات من بلدان عربية أو إسلامية لا تقيم علاقات دبلوماسية معها.

ويخصّ السؤال الثاني مسألة نزع سلاح حزب الله في مناطق انتشار الجيش اللبناني وقوات الأمم المتحدة المعززة. إن أقصى ما قبل به هذا الحزب هو «تخبئة» أسلحته جنوب الليطاني، أي عدم إظهارها ووضعها في مستودعات سرية. كما فرض حزب الله، من أجل تسليم أسلحته، عدة شروط ابتداء من انسحاب إسرائيل من مزارع شبعا ووصولاً إلى تشكيل جيش لبناني قادر ومصمم على حماية السيادة اللبنانية في مواجهة إسرائيل.

أما السؤال الثالث فيتعلق بما يسميه المؤلفان «معركة إعادة الإعمار» حيث بدأ حزب الله كمنافس قوي بدعم من إيران وبميزة علاقاته الوثيقة مع الجماهير اللبنانيين من الشيعة. ويتعلق السؤال الرابع بمصير الحكومة اللبنانية.

وينتهي المؤلفان إلى نتيجة مثيرة جداً للاهتمام كخلاصة لدراستهما عن حرب الـ ٣٣ يوماً. فقد نقلا عن «شارل كروتامر»، المحافظ الجديد القريب جداً من ديك شيني، كتابته في الواشنطن بوست: «يوجد نقاش حاد في الولايات المتحدة حول ما إذا كانت إسرائيل في عالم ما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ هي ورقة رابحة للولايات المتحدة أم هي عبء عليها»[١].

الفشل الاستراتيجي والاستعداد للمستقبل:

الفشل الاستراتيجي للحرب على لبنان أجبر القيادة الإسرائيلية على إعادة النظر في كافة المستويات الاستراتيجية، وارتفعت أصوات تدعو الى ضرورة التفكير في وضع استراتيجيات جديدة مختلفة تأخذ في الحسبان نتائج الحرب وآثارها. فدعا د. أوفير عبري، عضو في معهد الفلسفة الاستراتيجية الجديدة في مركز السلام في القدس، في مقالة له إلى أن تتبنى «إسرائيل» استراتيجية جديدة إذ يقول: «الجدل العام حول نتائج وعِبر الحرب اللبنانية تغطي وتدفع إلى الخلف الموضوع الأكثر أهمية: لا توجد لاسرائيل

١- المصدر السابق.

استراتيجية سياسية – عسكرية. بالمصطلح الاستراتيجي لا توجد نية للتحدث من ناحية أدبية تامة، لأن الحق عندنا لمثل هذا الوصف ليس للجميع، يشبه بذلك ما يتوجه إليه البعض في صيغ عديدة ويفهمونه على أنه القيادة الميدانية في الحرب فقط. الاستراتيجية القومية تنشغل عادة بتحديد وفحص جميع المصالح، وبتحديد جدول الأفضليات فيما بينها وانتقاء الطرق الأسلم لتقديم واحدة على الأخرى». ويستخلص الكاتب من ضمن ما يستخلص من عبر إسرائيلية قائلاً: «إن الخروج أحادي الجانب من لبنان، والتغاضي الكلي عن تسلح حزب الله وتحرشاته بإسرائيل، والانسحاب، ومن ثم الانطواء، والحرب اللبنانية التي انتهت مؤخراً، كلها تدل على فشلنا الاستراتيجي وتثبت أن استراتيجيتنا خاطئة. وهذه كلها محاولات باتت تثير الشفقة على العديد من الحكومات التي باتت لا حول لها وبلا استراتيجية وتقوم فقط بمناورات تكتيكية بسيطة. وحول طريقة اتخاذ القرارات الاستراتيجية لدى حكومة باراك فقد كُتب الشيء الكثير. وحتى قبل الانفصال لم يتم أي بحث استراتيجي كامل. والدخول إلى لبنان في حرب لم تكن معروفة الهدف والغاية بصورة محددة ولا مدروسة تلتها أيضاً دون تفكير»(١).

أما «اسحق بن اسرائيل» فكتب يقول: «انقضى فصل الحرب وتوجد حاجة إلى البدء بالعمل لإعادة بناء الجيش. ...». وأضاف :«إذن ما الذي كان عندنا؟ في البدء يجب أن نبدأ بما لم يكن: لم تكن إدارة صحيحة لإجراءات الحرب. فقد الجيش الإسرائيلي في غضون السنين بعض جرأته «ونسي» كيف يقومون بإجراءات مداورة بقوى برية كبيرة. صبغ النظر إلى الحرب بألوان الوهن: إجراءات حذرة وبطيئة ومترددة، ليست فاعلة بإزاء منظمة مثل حزب الله، تعمل في إطار عسكري وهي مسلحة ومدربة تدريباً حسناً. لم تكن عملية برية لإبعاد أكبر قدر من تهديد صواريخ الكاتيوشا عن الحدود الشمالية، ولم تكن أية عملية عسكرية «غير عادية» كتلك التي أذاعت للجيش الإسرائيلي صيتاً عالمياً في الماضي (مثل عبور قناة السويس في حرب يوم الغفران، والهبوط المظلي في المتلا في عملية سيناء أو احتلال منطقة أم كتف في حرب يوم الغفران)». ويضيف متسائلاً: «كيف نقَوم ذلك....؟» ويجيب: أولاً بتغيير التفكير العسكري المتصل بمكانة الجيش البري ومهمته. إن الحاجة إلى إنجاز حسم سريع (والامتناع من حرب استنزاف متصلة) يجب أن يعود ليقود التفكير العسكري. هذه عملية صعبة لكنها ممكنة. وثانياً، بإعادة مجد قوى الاحتياط إلى

١- يديعوت احرونوت، ٢٤- ٨ -٢٠٠٦.

ما كان. فقد عرف الجيش الإسرائيلي دائماً أنه في ساعة الامتحان سيحتاج إلى قوى الاحتياط. يجب إدخال مضمون في هذه المقالة: تدريبات، ومعدات وتدريبات بعد ذلك[١].

لم تقتصر دعوات إعادة النظر في الاستراتيجيات على كتاب الصحف، بل تجاوزتها إلى رأس الهرم في القيادة الإسرائيلية. فقد اعتبر نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي وقتها، شيمون بيريز، والذي أصبح رئيساً لكيان إسرائيل، في مقالة نشرتها صحيفة الغارديان البريطانية «أن على إسرائيل استخلاص الدروس من الحرب في لبنان وإعادة النظر في مقاربتها للمسائل العسكرية». وكتب بيريز «اختبرنا في لبنان شكلاً جديداً من أشكال القتال». وأضاف «إن الإرهابيين موجودون مثل الطفيليات في بلدان ليست بلدانهم ويتحولون جيشاً في داخل الجيش، مع حرية ارتداء الزي العسكري أو نزعه كما يحلو لهم». وأشار بيريز إلى أن «الأسلحة الموجودة لدى بلد مثل اسرائيل لم تصنع لحروب هذه هي طبيعتها... والبلاد أيضاً ليست مستعدة لهذا النوع من النزاعات». وقال:«إن على إسرائيل التركيز على التكنولوجيا الجديدة وخصوصاً «الإنسان الآلي المسير عن بعد الذي يعمل في ساحة المعركة»، مع الاحتفاظ بقواتها الدفاعية التقليدية لمواجهة هجوم محتمل من جيش كلاسيكي[٢].

وفي مقالة له في هآرتس يتساءل بيريز: ما هي العِبر المستوجبة من هذه التغيرات بالنسبة للمستقبل؟ ليجيب قائلاً: «يتوجب أن ندرك أنه لا يوجد سلاح ردعي خالد، الردع يتغير مع التغيرات التي تحدث في أرض المعركة... على إسرائيل أن تمتلك أسلحة ملائمة من صواريخ وسفن وطائرات ومدرعات ومظليين استعداداً لصد الهجمات من قبل الجيوش التقليدية. ولكن عليها في نفس الوقت أن تُعد ردعاً استراتيجياً من أسلحة وتركيبة هيكلية ملائمة لهجمات التنظيمات الإرهابية المسلحة بالصواريخ والعتاد الحديث؛ والفصائل الإرهابية المزودة بوسائل اتصال حديثة وصواريخ مضادة للدبابات وللطائرات وللسفن». ويبشر بيريز الإسرائيليين ويهود العالم بتطوير منظومة جديدة من الأسلحة الرادعة مؤكداً: «منذ اليوم يمكننا أن نقول: إنه في إسرائيل مجموعة من العلماء المتازين قادرة على إنشاء منظومة أسلحة ووسائل دفاعية حديثة وجديدة /نانو تكنولوجي/، الأمر الذي يُمكّن الجيش من الإصابة الفردية للعدو، وتوفير حماية شخصية لمن يدافع عن

١- يديعوت احرونوت، ٣- ٩- ٢٠٠٦.

٢- الغارديان، ٥- ٩ - ٢٠٠٦.

نفسه». ويستحضر بيريز دوره في بناء القنبلة النووية قائلاً: «في السابق كان لي الحق بإدخال أجهزة سلاح جديدة للجيش الإسرائيلي، الأمر الذي مكن إسرائيل من اكتساب قدرة ردعية ما زالت باقية حتى اليوم، أي تلك القدرة التي صمدت طوال خمسين عاماً، وأنا على قناعة أنه بالإمكان القيام بذلك مرة أخرى وللمدى الأبعد». وعن التكنولوجيا الإسرائيلية يتحدث بيريز مشيراً : «أن الثورة التكنولوجية في ذلك الحين/ أي في الخمسينات/ تمت بمبادرة وزارة الدفاع، وشكّلت أساس التكنولوجيا الراقية الإسرائيلية التي نشهدها اليوم. أبناء الجيل الجديد من التكنولوجيا الأمنية اليوم يستطيعون وضع أساس يكون ملموساً في مجال الحياة المدنية أيضاً من صحة ومواصلات واتصالات وجودة بيئة وزراعة ومياه وطاقة»[١].

غير أن القيادتين العسكرية والسياسية لا تبدوان أنهما بصدد استخلاص العبر الصحيحة من الحرب، بل حددتا الخلل على ما يبدو في أسباب تكنولوجية بحتة. فقد نقلت الصحافة الإسرائيلية عن مدقق معهد التخنيون في حيفا البروفيسور إيهود كينان «إن الحديث يدور عن انطلاقة تكنولوجية، إن هناك أموراً لا تزال سرية، ولكننا نختبر طرقاً أصيلة للصراع مع مادة متفجرة جداً وغير عادية يتم إنتاجها في مختبرات المنظمات الإرهابية الفلسطينية».

وما يؤكد هذا الاتجاه قول المحلل العسكري أمنون برزلاي في مقالة له في هآرتس:«يتبادل البروفيسور كينان المعلومات الموجودة لديه مع المنظمة الأميركية العليا للتكنولوجيا الأمنية التي تضم حوالي ثمانين منظمة مختصة بشؤون الأمن، ومن بينها CIA و FBI ومنظمة أمن الطيران وهيئة الكحول والتبغ...وفي هذه الأيام تعد المنظمة العليا مناقصة للشركات الأميركية لإنتاج نانو طائرة بدون طيار وبدون محرك بحجم ٦٥ ملم وتطير على مبدأ حبة الطلع، وبألياف مماثلة من التيتانيوم بوزن ١,٠ ملغم... ولهذه الطائرة وظيفة تحسسية وتطير إلى ارتفاع مائة متر، وهي وفق النموذج الذي طوره البروفسور كينان والذي سيكون من الممكن بواسطته الكشف عن المواد المتفجرة»[٢].

وبعد الحرب، أكدت صحيفة جيروزاليم بوست الإسرائيلية «أن وزارة الحرب الصهيونية طلبت من شركة «لوكهيد مارتن» الأميركية للصناعات العسكرية إجراء

١- هآرتس، ٣١- ٨- ٢٠٠٦.

٢- هآرتس، ١١- ٤- ٢٠٠٤.

الاختبارات والتعديلات اللازمة على مدفع «سكاي شيلد» للدفاع الجوي لاعتراض صواريخ الكاتيوشا القصيرة المدى التي تعتقد أن حزب الله ما زال يمتلك منها ترسانة تقدر بعشرة آلاف صاروخ». ..وأوضحت الصحيفة «أن وحدة نظام «سكاي شيلد» «أو درع السماء» تشمل مدفعين سريعي الإطلاق من عيار ٣٥ ملليمتراً وجهاز توجيه ورماية لإطلاق سيل من القذائف تنفجر في الهواء، حيث تطلق الواحدة منها ١٥٢ قذيفة صغيرة تتحول إلى ما يشبه مظلة أو شبكة يدخلها الصاروخ المعادي فتخترق هيكله وتفجره قبل أن يصل إلى هدفه، لافتة إلى أن الاختبارات على النظام ستبدأ في غضون أسابيع»(١).

وفي السياق نفسه، كشفت صحيفة يديعوت أحرونوت عن خطة جديدة لجهاز الأمن العام الاسرائيلي تقضي بتجنيد عناصر من رجال التكنولوجيا «الهايتيك» المؤهلين وذوي التجربة لتطوير برامج جديدة من أجل إفشال العمليات الاستشهادية التي تنفذها المقاومة الفلسطينية في قلب الدولة العبرية. وبحسب الخطة فإن الحديث يدور عن «عملية تجنيد خاصة لعدد مقلص ونوعي جداً من عناصر تطوير هذه البرامج، من الذين يتمكنون من أخذ جزء من عملية التحدي التنفيذية لإفشال العمليات التفجيرية». ونقلت يديعوت أحرونوت عن أحد المسؤولين في جهاز «الشاباك» قوله بأن عناصر «الهايتيك» لن ينشغلوا بوظائف الإدارة وجمع المعلومات، وانما بعمليات تنفيذية في الحرب الدائرة ضد العمليات التفجيرية». وأوضح المسؤول الصهيوني أن جهاز الشاباك يبحث عن أشخاص يقومون بتطوير برامج ولهم باع طويل في التجارب السابقة في العمل في أجهزة مماثلة وبتطوير برامج خاصة بالمراسلات الإلكترونية «وكلتا العمليتين هي من الأكثر طلباً في هذه الأيام في سوق العمل الفردي، وكذلك داخل الجيش. ولكي يخفف جهاز الشاباك عن الأشخاص الذين توجه إليهم بصورة خاصة لتجنيدهم لهذه المهمة، والذين أطلق عليهم «مقاتلو الهايتيك»، فإنه توجه إليهم بعنوان بريد الكتروني خاص». وقالت صحيفة يديعوت أيضاً إنه ابتداءً من تاريخه فإن خريجي الوحدات التكنولوجية في الجيش الإسرائيلي سيتلقون رسائل شخصية من رئيس جهاز «الشاباك»، يوفال ديسكن، يطلب فيها منهم الانضمام لـ «التحديات التكنولوجية والعملية لجهاز الأمن العام»(٢).

هذا على المستوى العسكري، أما على المستوى السياسي، فينقل كتاب «حرب الـ ٣٣

١- جيروزاليم بوست، ٥- ٩- ٢٠٠٦.

٢- يديعوت احرونوت، ٥- ٩- ٢٠٠٦.

يوماً» عن المعلّق العسكري الإسرائيلي «افراهام تال» قوله عمّا يفكر به الاستراتيجيون للحرب المقبلة:

«إن حرباً تنتهي دون غالب ومغلوب ودون توقيع أي اتفاق بين المتقاتلين، يُفترض أن تلتهب من جديد عاجلاً أو آجلاً. وفي الحرب بين إسرائيل وإيران، بواسطة حزب الله، لم يحقق فيها أي طرف هدفه الاستراتيجي. لذلك استطاع رئيس الوزراء أن يقول للكنيست إنه من الضروري التحقق من أن الأمور ستكون أفضل في المرّة القادمة».

لكن كيف يتم التحقق؟ ينطلق المؤلف من ضرورة افتراض أن المواجهة القادمة ستتم خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً. ويتم في هذا الإطار تحديد مدة عامين بعد المواجهة السابقة، والتصرف على جميع المستويات وكأنها قادمة لا شك في ذلك. وهناك احتمال بأن تكون أوسع وأخطر، أي حرباً شاملة تشترك فيها الجيوش النظامية بما في ذلك جيش قوة إقليمية».

العدو الاستراتيجي لإسرائيل يراه «تال» في إيران، وبالتالي ينبغي التحضير للدخول في «حرب شاملة» مع هذه «القوة الإقليمية». ومثل هذه الفكرة أخذ بها «زئيف شيف» المحلل العسكري في صحيفة «هآرتس» حيث استنتج أنه من المطلوب أولاً عقد اتفاقية سلام مع سوريا.

يقول: «توجد إسرائيل، من وجهة نظر استراتيجية، في وضع تناقض غريب. فمن جهة تكرّر القول انها للمرّة الأولى منذ حرب ١٩٤٨ تواجه تهديداً لبقائها، إنه تهديد إيران التي تطور أسلحة نووية وخاضعة لنظام متشدد كان رئيسه قد طالب بإزالة إسرائيل من الوجود. ومن جهة أخرى، تتابع إسرائيل اعتبار المعركة مع الفلسطينيين هي جبهتها الرئيسية. إن مثل هذا التناقض يتحدّى أي منطق كان.

يقول المؤلف: «إننا بحاجة لثورة استراتيجية . وعلينا أن نقرر أن الجبهة الأولى والرئيسية هي معركة الوقاية من التهديد. والمصلحة الاستراتيجية لإسرائيل هي إخراج سوريا من المحور الإيراني. وليس هناك أية وسيلة أفضل لذلك من السلام مع سوريا من أجل إيجاد حاجز بين إسرائيل وإيران. ينبغي تأمل ذلك».

لكن بعض المحافظين الأميركيين الجدد وجزءاً من البنية الأمنية الإسرائيلية لا

ينظرون بعين الرضا لتوقيع سلام مع سوريا، وإنما يرون بالأحرى أنه ينبغي أولاً شن الحرب عليها. هذا يعني أن جميع القادة الإسرائيليين يتفقون على ضرورة التحضير للحرب القادمة، لكنهم لم يصلوا بعد إلى اتفاق حول هدفها وهل هو سوريا أم إيران؟ أو سوريا ثم إيران؟

ويخلص المؤلفان إلى نتيجة مفادها: تنبغي الإشارة إلى أن هناك من يحلمون بحرب ضد إيران وسوريا دفعة واحدة، ومن يطالبون بحرب جديدة ضد حزب الله. إن مدة عامين ليست كثيرة لترميم جميع أشكال الخلل البنيوية التي كشفت عنها المغامرة الأخيرة في لبنان، وبعد عقدين من عدم الكفاءة العامة، لكن واشنطن، من جهة، ورغبة الثأر لدى القيادة العسكرية، من جهة أخرى، لا تمنحان الحكومة وقتاً أكثر ولا تمنحان الجيش إمكانية تعزيز آلته الحربية[1].

الحرب المقبلة:

انطلاقاً من العقلية التي تقود الكيان الصهيوني، يبدو أنه من الأهمية بمكان إيلاء كلام المعلق العسكري افراهام تال أهمية خاصة: «إن حرباً تنتهي دون غالب ومغلوب ودون توقيع أي اتفاق بين المتقاتلين، يُفترض أن تلتهب من جديد عاجلاً أو آجلاً. وفي الحرب بين إسرائيل وإيران، بواسطة حزب الله، لم يحقق فيها أي طرف هدفه الاستراتيجي. لذلك استطاع رئيس الوزراء أن يقول للكنيست إنه من الضروري التحقق من أن الأمور ستكون أفضل في المرّة القادمة».

١- حرب الـ ٣٣ يوماً، مصدر سابق.

عوامـل الانتـصـار في حـرب تمـوز ٢٠٠٦م

دور القيادة والثقة بها في تحقيق الإنجاز الميداني

أ. محمد رعد*

أفترض في البداية أنني لست في معرض تقديم بحث أكاديمي حول القيادة ودورها في صنع الانتصار، ولذلك شرعت في تناول الموضوع من زاوية تجربة عايشتها بشغف وسنحت لي الظروف أن أكون في موقع المطلع على كثير من الحيثيات والتفاصيل، وأحببت أن أقدمها شهادة حيّة أقصد بها وجه الله سبحانه وأطلب عفوه ورضاه، وأسجل للتاريخ ما يمكن اعتباره قراءة شخصية للمقاومة وقيادتها وتجربتها التي يكتب عنها الخارج من موقع التقاطي تحليلي في حين يزهد الداخل في تقديم الوقائع والمعطيات من موقع المعاين والممارس.

كثيراً ما يتناول الباحثون عوامل الانتصار الموضوعية والضرورية لأي طرف من أطراف المواجهة العسكرية بالعرض والتقويم والمطابقة من أجل استخلاص القواعد وتسطير نظريات جديدة في ما بات يسمى بالعلم العسكري واختصاصاته.

وينطلق معظم هؤلاء في دراساتهم من قراءة واقعية دقيقة للحروب والمواجهات، وميادينها وظروفها، وطبيعة أطراف النزاع ووضعية كل منهم وتحالفاتهم واستراتيجياتهم وإمكاناتهم الذاتية واللوجستية، ليخلصوا إلى معرفة الأسباب والعوامل التي وفّرت الانتصار لهذا الفريق أو ذاك، أو أدت إلى هزيمة أو فشل الفريق المقابل.

نحن لسنا هنا في سبيل عرض ما توصّل إليه علم الحروب من قواعد وأصول وضوابط

* نائب في البرلمان اللبناني، رئيس كتلة الوفاء للمقاومة.

ومقدمات وتكتيكات قتالية مختلفة، ولا عرض أهمية الجغرافيا أو العتاد الحربي المتطور أو التأهيل والإعداد المتواصلين للعنصر البشري وما إلى ذلك من مفردات ومستلزمات.

لكننا قبل أن نختصر مداخلتنا عن دور القيادة والثقة بها في تحقيق الإنجاز الميداني كعامل أساس من عوامل انتصار المقاومة على الحرب العدوانية الصهيونية في تموز العام ٢٠٠٦ م، نودّ أن نشير إلى أهمية الخلفية العقائدية أو الثقافية التي ترفد كل طرف من أطراف المعارك والمواجهات بمستوى معين من المعنويات والمشاعر النفسية التي تسهم إسهاماً بيّناً في التأثير على وقائع ومجريات ونتائج المواجهات. لا بل إن الروح المعنوية تشكل في أحيان كثيرة معادلاً موضوعياً لتفوّق الخصم على مستوى التسلح والتقنية.

وإذا كانت الحروب العسكرية ترجمة ميدانية لحرب الإرادات، فإن من يملك الإرادة الأقوى هو من تتوفر لديه دائماً الاستعدادات الأوّلية لصنع الانتصار والتي تشكل بنية تحتية لكل الإمكانات والأولويات اللازمة لتحقيق أهداف المواجهة.

وفي ظل انعدام التوازن بين المقاومة الإسلامية في لبنان والعدو الصهيوني في مجال التسلح والدعم التقني واللوجستي، تنبهت المقاومة إلى المخزون الإيماني التعبوي لعنصرها البشري، وهو مخزون استراتيجي هائل لا يمكن أن يتوفر للعدو مثيل له، فدأبت على استثماره لتحقق معادلاً نوعياً في ميزان القوى، خصوصاً حين أدركت أن نقطة الضعف الأساسية تكمن في ضحالة مثل هذا المخزون لدى العنصر البشري الصهيوني.

ولقد نجحت المقاومة حين عوّضت عن بعض نقاط الضعف لديها بعوامل قوة لا يستطيع العدو مجاراتها فيها، والتي من أهمها الروحية العالية المحفزة للمقاومين، والقيادة الفذة الموثوقة التي لعبت دوراً نموذجياً كان له الإسهام الكبير في تحقيق الإنجاز الميداني.

وإذا دققنا النظر في روحية المقاومين وزخم هديرها المعنوي، لأدركنا أن منظومة القيم والمعتقدات التي آمن بها المقاومون هي السبب الذي يفسّر ثباتهم وطمأنينتهم وانضباطهم وشجاعتهم وثقتهم بالنصر الذي سيتحقق على أيديهم بإذن الله تعالى.

ولا غرابة في ذلك، فإن من يوقِن بأن لهذا العالم خالقًا مطلقاً مدبراً قادراً وعادلاً قد أبدع الكون والحياة، وسخّر كل ما فيهما للإنسان الذي أوكل الله إليه مهمة خلافته في الأرض ليعمرها استناداً إلى مجموعة من السنن والنظم وفي ضوء مجموعة من القيم التي

فطره عليها وأودع فيه القدرة على صقلها والتزامها وتنميتها ليحقق سعادته في الدنيا والآخرة، وأن الحياة الدنيا هي دار امتحان وبلاء، وأن فرحها يسير وعمرها قصير وأن الآخرة هي دار الثواب والخلود، وأنه كلما جسّد الإنسان في حياته الدنيا القيم الإلهية كلما ازداد قرباً من مصدر الخلق وواهب القدرة والحياة الذي وعد بنصر من ينصره وينتصر لقيمه، وهو لا يخلف وعده لأن الخلف بالوعد نقص، والخالق كامل مطلق يستحيل عليه النقص وبيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير.

إن من يوقن بكل ذلك، يتخفف من أثقال الدنيا ومتاعها ويندفع بكل وجوده للتقرب إلى الله عز وجل ويستمدّ منه العون والثقة لإنجاز تكليفه وتحمّل الشدائد واقتحام الصعاب، وصولاً إلى إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، وكلاهما فوز كبير.

وإن المقاوم المجاهد الذي يسلك طريق القرب إلى الله ويرتقي بتكامله إلى مستوى يؤهله للاصطفاء والاجتباء من الله عز وجل فيدخله في دائرة «عبادنا» و «جندنا» و«أوليائنا»، حتى إذا ما تشكلت هذه الدائرة من هذه النماذج الإنسانية كان حقاً على الله نصرهم، والتدخل المباشر أو غير المباشر إلى جانبهم...

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُون﴾[1]

﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً﴾[2]

﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾[3]

﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4]

في ضوء ما تقدّم فإننا لو تصوّرنا المقاومين من أهل هذا اليقين لوجدناهم عشاقاً للجهاد في سبيل الله (الإنسان والوطن)، واعين لمهماتهم، يملكون قلوباً مطمئنة وعقولاً منفتحة ونفوساً زاهدة، متخففين من أثقال الطمع والخوف وحب المال والسلطة، مطيعين لمن سبقهم من قادتهم في مدارج الكمال الإنساني، محبين لشعبهم مضحّين من

١- سورة الصافات، الآيات ١٧١-١٧٣ .

٢- سورة الإسراء آية ٥ .

١- سورة الكهف، آية ٦٥ .

١- سورة يونس، آية ٦٢ .

أجله،أصحاب همم عالية متواضعين لا يغترّون بما لديهم ولا يأسون على ما فاتهم، ولوجدناهم حقيقة أنهم رجال الله.. عنوانهم ينبيك عن مضمونهم، ولأضفنا إلى يقيننا النظري بالإمداد والعون الإلهي، وقائع ملموسة ومشاهدات حيّة ماثلة أمامنا تفسّر لنا بوضوح تام معنى قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(١)

وقوله تعالى: **﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾**(٢)

إن الإشارة إلى عامل الإمداد الغيبي وشروطه وأهميته في تحقيق انتصار المقاومين المجاهدين، أمرٌ ضروري في مقدمة هذا البحث لسببين أساسيين:

أولاً: لأن الموضوعية في تناول الانتصار تقتضي الكشف عن كل الأسباب والعوامل التي يرى الدارس تأثيرها وإسهامها فيه.. وإن تهميش العامل الغيبي الفاعل هو إنكارٌ مكابر يتساوى مع الادعاء المفرط بأن التواكل على الغيب وحده يغنيك عن توفير الإمكانات والاستعدادات الضرورية لتحقيق الانتصار.

ثانياً: لأن آفة التبعية الثقافية والانبهار بمنهجية التحليل المادي التي يضخّها في أمتنا رجالات ووسائل القوى المسيطرة والمعادية، عبر الإعلام والثقافة والتعبئة والحياة اليومية بشكل مكثف ومدروس، تحول عادة دون تظهير المنهجية الواقعية في التحليل، والتي تعبّر عن الشخصية الثقافية والحضارية المميزة لإنساننا المشرقي.

الآن عَوْدٌ على بدء، ما هو دور القيادة والثقة بها في إنجاز الانتصار في حرب تموز من العام ٢٠٠٦ م؟.

بديهي أن القيادة كونها تمثّل رأس الهرم الذي يمتلك ناصية التوجيه والقرار والمتابعة، كما تمتلك النفوذ وصلاحية التحريك للطاقات والإمكانات وإن اختلفت ضوابطها ومستوياتها بين جماعة وأخرى وبين حركة أو تنظيم وآخر، فإن دورها له بالغ التأثير في المسيرة التي تقودها وفي نوعية الخطوات وطبيعة المنهجية التي تعتمدها،كما في مستوى النتائج التي تنجم عن إدارتها.

١- سورة العنكبوت، آية ٦٩ .

٢- سورة الانفال، آية ١٧ .

وبقدر ما تتوافر للقيادة مواصفات شخصية مميزة ومؤهلات متعددة،بقدر ما يكون دورها وتأثيرها أكثر دينامية وإنتاجية ونجاحاً وبقدر ما يكون الالتفاف أو الإجماع الناتجان عن ثقة الأفراد أو الناس بتلك القيادة،بقدر ما يسهّل عليها الإدارة ويسرّع التنفيذ لقراراتها وإجراءاتها ويوفر الحماسة وروح المبادرة لديهم.

وإذا كانت الثقة بغير المعصوم لا تُمنح إلا بصورة تدريجية، فإنها تترسّخ وتتعزّز بفعل المواكبة والمعايشة لصدقيّة القيادة وتراكم التجارب الناجحة لها أو معها، والتأكد من إخلاصها وحرصها على خدمة أهداف المسيرة.. ذلك أن الثقة هي نتيجة تفاعل صادق ومتبادل بين القيادة وما تمتلكه من مواصفات ومؤهلات وصدقيّة وإخلاص في الأداء والممارسة، وبين القاعدة أو الجمهور وما يختزنانه من وعي وانضباطية ومتابعة ومسؤولية في ممارسة التقويم والنقد والنصح انطلاقاً من موقع الشراكة الفعلية لتحقيق التكامل في الأدوار.

ولا مبالغة في القول إن هذه المعادلة التكاملية في تحمّل المسؤولية ضمن مسيرة المقاومة، هي عامل أساس من عوامل إحراز التقدم والنجاح والنمو الظاهر فيها.

ولو أردنا مقاربة الدور القيادي لسيد المقاومة سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيد حسن نصر الله دام حفظه، لما أمكننا ذلك دون معرفة شخصيته المميزة ومؤهلاته ومنهجية إدارته، وهي جميعها من مكوّنات ومقوّمات الثقة التي استطاع أن يحظى بها من المقاومين وجمهورهم، لا بل حتى من غالبية اللبنانيين وفعاليات وشعوب عالمنا العربي والإسلامي المهتمين بمتابعة عمل المقاومة الإسلامية في لبنان.

فالسيد نصر الله شخصية قيادية مميزة ونادرة في لبنان والمنطقة العربية والإسلامية. ففضلاً عن كونه مخلصاً في إيمانه والتزامه وانتمائه الديني وعالماً متفقهاً مجداً في طلب المستجدّ من الأبحاث والدراسات والمعارف، ونبيهاً فطناً يحسن الانتقاء والاستفادة مما يقع بين يديه، منهجياً في عقله وتفكيره، عملياً في تخطيطه وبرمجة أولوياته واهتماماته، مبدعاً في إيجاد البدائل، حريصاً على التشاور مع إخوانه وأصحاب الاختصاص، ملمّاً بالتفاصيل المملّة في شؤون إدارته كافة، وينعم بذاكرة حادة وبحضور ذهن متوقد وديناميكي. فإنه يتمتع «بكاريزما» قيادية جاذبة، يحترم الآخر ويبدي تواضعاً إلاّ مع من يستشعر منه العلوّ والاستخفاف بالناس، منطقي سلس متدفق في الحديث، وبليغ

يتحرى باهتمام سبل الإقناع للآخرين، وبحسب المقام له نبرة ومقال، لا يخفي تحسّسه ممن لا يقيم وزناً للمقدسات أو ينتهك المحرمات، صبور على تحمّل الأذى الشخصي، مرن في تعاطيه مع غير المعادين، كثير التأمل عند اتخاذ القرار، حازم بعد اتخاذه.. يمقت الكذابين ومن يغدر أو ينكث بالعهود.. يشفق لحال الضعفاء والبخلاء والجبناء، ويحنو على المستضعفين، ولديه شغف في إحقاق الحق حيث أمكن ونصرة المظلومين والمقهورين، يحب المجاهدين وينشغل لهم باله، يتفقد أحوال إخوانه وأحوال الجرحى وعوائلهم وعوائل الشهداء والأسرى، ويغضب للتقاعس في خدمتهم. وبالرغم من هدوئه الغالب فإن ما يثير انفعاله الشخصي هو وقوع مخالفة أو سلوك مشين يخدش صدقية مسيرة المقاومة وسمعتها، خصوصاً إذا ما صدر ذلك عن مسؤول يفترض أنه نموذج وقدوة.

ولا أجد من الضروري أو المناسب أن أتحدث أنا عن عالَم تعبُّدِه وحبه لله ولرسوله وللقرآن الكريم وللأئمة المعصومين وللولي الفقيه، فهذا شأن يستخلصه المؤمنون عموماً مما يسمعونه أو يعرفونه عنه وهو خصوصية، أحسب أن المواصفات العملية لشخصيته هي نتاجها وثمرتها، وأن ما أكرمه الله به حين اختار ابنه هادي شهيداً ليلحق سماحته مع أسرته بقافلة النور المبارك لعوائل الشهداء الميامين، ويمنّ عليه بثقة المؤمنين والمجاهدين والمؤيدين، كل ذلك يكشف فعل صدقيته وتأثيرها السحري فيهم.

أما عن إدارته للأزمات فهو المستنفر دائماً بيقظة ودراية وهدوء أعصاب، ينكب على تشخيص المعضلة، يدرس أسبابها يقرأ ساحتها جيداً، يتابع التقارير المفصّلة حولها،يكلف فرقاً مساعدة في مجالات مختلفة لتحضير الموقف والبدائل، يناقش الخلاصة، يشاور إخوانه في القيادة، يدلي بدلوه الراجح لاتخاذ القرار ثم يتابع تنفيذه بعد تهيئة القنوات المعنية بالتنفيذ ويواصل مواكبته إلى حين تحقق الهدف أو حدوث تطورات مفصلية تستدعي تشاوراً جديداً.

أما عن المقاومة، فهي بالنسبة إليه التزام ودين وتكليف شرعي وإنساني ووطني، وليست مهنة ولا هواية ولا غاية، بل هي طريق وعر وشاق لا يستعذبها إلا رجال امتحن الله قلوبهم بالإيمان، ليحقق على أيديهم وبدمائهم وأرواحهم نصراً وعزاً ومجداً وكرامة وتحريراً وتحرراً للإنسان والوطن والأمة، وانتصاراً لقيم الحق والعدل والخير والفضيلة والتحسس بالمسؤولية تجاه المستضعفين والمظلومين والمضطهدين.

ولذا فإن المقاومة في مواجهة الاحتلال وتهديداته هي الهم الدائم والشغل الشاغل للسيد، لها الأولوية ولخدمتها تنتظم كل الجهود في السياسة والأمن والتنظيم والعلاقات والثقافة والإعلام والتعبئة والإمكانات، لأن انتصارها هو الرافعة لكل هذه الجهود ولإمكان تطويرها وتعزيزها وتعديلها لما يخدم بناء الدولة القوية القادرة والعادلة والمطَمْئِنة، وهَزْمَها هو إطاحة بكل آمال بناء هذه الدولة.

وقناعته أن لبنان المتنوع الطوائف والمذاهب والاتجاهات والتيارات،لا تحميه التدخلات الخارجية ولا الصداقات المصلحية مع الدول القوية الطامعة بنسج علاقات استيعاب أو استتباع أو ارتهان، والتي يغريها ضعفنا لفرض الشروط والإملاءات.

المقاومة عنده هي الأساس المتين لحفظ السيادة والاستقلال ونسج العلاقات مع الآخرين على قاعدة الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة .. وهي إلى جانب الجيش اللبناني وباحتضان شامل من اللبنانيين يشكلان ضمانة الاستقرار للبلاد والمواجهة للاعتداءات والتهديدات الصهيونية الفعلية والمحتملة.

وبناء عليه، فإن صياغة أية إستراتيجية سليمة للدفاع الوطني يجب أن تبنى على هذا الأساس. ولا علاقة لأحدٍ من الخارج في صياغة استراتيجيتنا الوطنية هذه.

وإلى أن يتحقق ذلك، فإن سلاح المقاومة وجهوزية المقاومة سيبقيان الرادع المعبّر عن إرادة اللبنانيين في التحرير للأرض والتحرر من عقد التهديد والتهويل والابتزاز. وسيغدو حفظ المقاومة وسلاحها أمانة الشهداء في أعناق المجاهدين، ووصية سيد شهداء المقاومة السيد عباس الموسوي رضوان الله عليه.

أما العدو الصهيوني، فتعرفه قيادة المقاومة جيداً وتعرف الكثير الكثير من نقاط ضعفه كما تعرف أيضاً نقاط قوته دون مبالغة أو استخفاف.

قيادة المقاومة تعرف بنية العدو وطبيعته العدوانية ودوره الوظيفي وأهدافه الإستراتيجية وتلاحق تكتيكاته وأساليبه، وتعرف تفاصيل مكوّنات مجتمعه وتشكيلاته الأمنية والعسكرية، وقدراته وإمكاناته في السياسة والاقتصاد والإعلام والعلاقات الدبلوماسية، ونوعية قياداته في المجالات المختلفة، ومنهجيته في التخطيط والبرمجة، كما تعرف طموحاته وتطلعاته ورهاناته، وتأخذ كل هذه الأمور وغيرها بعين الاعتبار في

مواجهتها وتصديها لاحتلاله وتهديداته ومشاريعه.

وهذه المعرفة الشاملة لساحة العدو، تمتلكها وتتابعها قيادة المقاومة درساً وتقويماً وإعداداً لخطط المواجهة والبدائل المفترضة.. ولولا هذه المعرفة الواسعة، لما نجحت المقاومة في ردع العدوان وإسقاط أهدافه المباشرة والبعيدة المدى في حرب تموز عام ٢٠٠٦ الفائت.

إن مجموعة الاستعدادات النفسية واللوجستية، وبدائل الحالات الطارئة إبان حرب تموز،على المستويات التنظيمية والاجتماعية التي تهيأت لاستيعاب وتنظيم النازحين وإيوائهم وتأمين إقامتهم المؤقتة مع لوازم واحتياجات هذه الإقامة، وعلى المستويات الإعلامية وبدائل البث والتجهيز المعدّة لتلفزيون المنار وإذاعة النور، وحماية أمن القيادات وأماكنهم وتحركاتهم طوال الحرب، وتأمين انتقال العتاد والأسلحة والذخائر إلى محاور الصمود والمواجهة بانتظام ودون انقطاع، والتجهيز العسكري الكامل والشامل، بدءاً من الخطط وغرف العمليات المتعددة، وتأمين التواصل الخاص بين كل المحاور والمجموعات وغرف العمليات،والتخزين والتدريب والتمويه وما ظهر من قدرات وأسلحة فاجأت العدو أثناء الحرب،إضافة إلى متابعة التطورات السياسية والاتصالات والتعبئة الإعلامية والسياسية، كل هذه الأمور وغيرها الكثير يكشف عن بعد نظر قيادة المقاومة وجدّيتها وحرصها. وكان الأمين العام السيد حسن نصر الله يمثّل هذه القيادة، وإلى جانبه كان أخوة قياديون يتواصل ويتشاور ويقرر معهم،ثم يتصدى لقيادة كل شؤون المقاومة عبر سلسلة متواصلة من القنوات المتخصصة، تنفيذاً وتنسيقاً ومتابعةً وإشرافاً وتوجيهاً، لحظة بلحظة وساعة فساعة. ولك أن تتخيل حينذاك المستوى الرفيع واللائق والمؤهل فكرياً وسياسياً وإدارياً ونفسياً وفقهياً ومعرفياً لمثل هذه القيادة التي تحظى بثقة المجاهدين والناس،ويراهن على دورها الجميع لتحقيق الانتصار ضد العدو الصهيوني وداعميه الدوليين.

ومن خلال جولة سريعة حصريّة على إطلالات سيد المقاومة خلال تلك الحرب، وعلى الخطاب السياسي الذي أطلقه آنذاك، نستخلص أهمية هذه المعرفة بالعدو،كما نستخلص الحنكة والمهارة والمتابعة الدقيقة والإلمام الواسع لقائد المقاومة بمجريات المواجهة، ووضعية المقاومين ووضعية الصهاينة وقيادتهم،وحال الناس في لبنان وطريقة مخاطبتهم والإعراب عن الاهتمام بهم، كذلك حال الصهاينة داخل الكيان وطريقة

التعاطي معهم وطبيعة الرسائل الموجهة إليهم.

وإن المتتبع للخطاب الإعلامي والسياسي للسيد نصر الله أثناء حرب تموز، وللمنسوب الصدقية التي يتعاطى بها مع الجمهور ومع العدو، وللشفافية والوضوح في الحديث عن المعطيات الميدانية، وللثقة البالغة بالنصر الذي سيتحقق للمقاومة، وللمواقف الجريئة والحازمة التي أطلقها وللتوازن النفسي والتحكّم بساحة الصراع، واللذين ظهرا منه في أصعب لحظات المواجهة، وللحنكة والدراية الواسعة في مخاطبة الصهاينة. والمتتبع كذلك لردود الفعل السريعة من مختلف الاتجاهات المؤيدة أو المعادية، يدرك حجم فعالية وتأثير وأهميّة الدور القيادي لسماحته في إنجاز الانتصار.

في ختام البحث ثبّتُّ نماذج من ذلك الخطاب موثّقة ومصنفة تحت عناوين ليتأمل فيها المهتم وليقف على الأبعاد والمفاعيل التي أنشاها ذلك الخطاب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نصوص موثقة من خطاب السيد نصر الله السياسي والإعلامي أثناء حرب تموز العام ٢٠٠٦ م

١ ـ الطريقة الوحيدة لتحرير الأسرى والمعتقلين هي أَسر جنود صهاينة:

«لا مجتمع دولي يحرر أسرى ومعتقلين، ولا مؤسسات دولية ولا مؤسسات إقليمية ولا حكومات ولا أنظمة، مع احترامنا لها، ولا مفاوضات سياسية بيد خالية.. الخيار الطبيعي هو هذه الطريقة، والذي عنده طريق آخر لاسترداد الأسرى وإطلاق سراحهم من السجون الإسرائيلية، فليتفضل ويدلنا عليه، وإذا عنده طريق آخر، فلماذا لم يشتغل عليه منذ عشرين سنة إلى اليوم؟.

الذي قمنا به اليوم هو حقنا الطبيعي، ولن أدخل في نقاش فلسفي ولا قانوني ولا سياسي، فهذه هي الطريقة الوحيدة المتاحة»[1].

٢ ـ المعرفة الواعية للظروف والترسيم الواضح للموقف:

«أنا أعرف حساسية الموقف لبنانياً وإسرائيلياً وفلسطينياً وعربياً ودولياً، وأعرف بالضبط نحن على أي نقطة أو أي موقع موجودون، نحن هدفنا مما جرى صباحاً هو أسر جنود إسرائيليين لنبادل بهم. نحن لا نريد التصعيد في الجنوب وهذه ليست نيتنا، لا نريد أخذ لبنان ولا المنطقة إلى حرب، وقد حصل اتصال معنا من قوات الطوارئ الدولية التي

---

١ - المؤتمر الصحافي لسماحة الأمين العام السيد حسن نصر الله حول علمية الوعد الصادق بتاريخ ١٢-٧-٢٠٠٦. نصّه الكامل في كتاب الانحدار و الاندحار ـ لمؤلفه محمود قبيسي، الجزء الثاني، ص ٧١٧. إصدار مؤسسة العروة الوثقى.

أبلغتنا أن هناك مسعى لوقف إطلاق النار، فهل انتم جاهزون؟ قلنا لهم: لا مشكلة لدينا. أنا لا أطلب وقف إطلاق نار، لكن أي جهة تدخل في مسعى لوقف إطلاق النار نحن لا مشكلة لدينا، لأننا لا نملك نيّة التصعيد،ولكن إذا كان العدو الإسرائيلي يريد التصعيد ويفكر على طريقته بأنه سيُدفِّع لبنان أثماناً، فنحن جاهزون للمواجهة وإلى أبعد ما يمكن أن يتصور هذا العدو ومن خلفه.

وأنا لا أحتاج إلى أن أهدد، لأنه يمكن أن الذي يهدد كثيراً يكون لا ينوي أن يعمل كثيراً، وأنتم تعرفون حزب الله وصدقيته.

الأسرى يرجعون بتفاوض غير مباشر مع تبادل، العالم يريد المواجهة نحن جاهزون للمواجهة إلى أبعد حد.. وإذا اختاروا المواجهة فعليهم أن يتوقعوا المفاجآت.

رسالتي إلى الداخل في لبنان أن الوقت ليس وقت مزايدات أو مناقشات وجدل. أنا لا أطلب من أحد دعماً أو مساندة، لكن أريد أن ألفت نظر اللبنانيين، سواء أكانوا رسميين أم غير رسميين، أن لا يتصرف أحد بطريقة تشجع العدو على لبنان، وألا يتحدث أحد بلغة ويتصرف بطريقة تُشكلان غطاء للعدوان الإسرائيلي على لبنان.

الحكومة اللبنانية معنية بأن تتصرف بمسؤولية وطنية وهي معنية بالحفاظ على البلد، وجزء من المحافظة على البلد ألاَّ نجعل لبنان مكشوفاً أمام العدوان الإسرائيلي»(١).

٣ـ الحق القانوني المشروع دولياً:

«عندما تكون هناك أرض محتلة، بإمكانكم العودة إلى المداخلة القانونية للبروفسور الراحل إدمون نعيم، وهي واضحة وتقول: لو أن شبراً واحداً محتل، فيحق لنا القيام بعمليات في تل أبيب وذلك وفق القانون الدولي، نحن لا نقوم بعمليات في تل أبيب، نحن نمارس حقنا القانوني بحسب القانون الدولي.. إنهم يحتجزون أسرى لبنانيين وهم يقولون عنهم إنهم أسرى حرب وهذا حقنا القانوني بأن نقوم بعمل يؤدي إلى التبادل»(٢).

٤ ـ الجهوزية والحزم والثقة:

«إذا أردتم حرباً مفتوحة نحن ذاهبون إلى الحرب المفتوحة ومستعدون لها، حرباً على

١- المصدر نفسه، ضمن نص المؤتمر الصحافي نفسه.

٢- المصدر نفسه، ضمن نص المؤتمر الصحافي نفسه.

كل صعيد، إلى حيفا، وصدقوني إلى ما بعد حيفا، وإلى ما بعد ما بعد حيفا. الذي سيدفع الثمن لسنا وحدنا، لن تدمر بيوتنا وحدنا، لن يقتل أطفالنا وحدنا لن يشرد شعبنا وحده، هذا الزمن انتهى، وبالتالي عليكم أيضاً أن تتحملوا مسؤولية ما قامت به حكومتكم، وما أقدمت عليه هذه الحكومة. من الآن وصاعداً أنتم أردتم حرباً مفتوحة فلتكن حرباً مفتوحة، حكومتكم أرادت تغيير اللعبة فلتتغير إذن قواعد اللعبة. أنتم لا تعرفون اليوم من تقاتلون، أنتم تقاتلون أبناء محمد وعلي والحسن الحسين وأهل بيت رسول الله وصحابة رسول الله، أنتم تقاتلون قوماً يملكون إيماناً لا يملكه أحد على وجه الكرة الأرضية، وأنتم اخترتم الحرب المفتوحة مع قوم يعتزون بتاريخهم وحضارتهم وثقافتهم، وأيضاً يملكون القدرة المادية والإمكانات والخبرة والعقل والهدوء والحلم والعزم والثبات والشجاعة، والأيام المقبلة بيننا وبينكم إن شاء الله» (١).

٥- رهاننا على الله وعلى أبنائنا وليس على الحكام العرب:

«نحن في حزب الله مغامرون، نعم ولكننا مغامرون منذ عام ١٩٨٢، قلتم عنا وقال العالم إننا مجانين وأثبتنا أننا العقلاء، أما من هم المجانين فهذا شأن آخر، لا أريد أن أدخل في سجال مع أحد، أقول لهم راهنوا على عقلكم وسنراهن على مغامرتنا والله ناصرنا وهو مُعيننا، لم نراهن في يوم من الأيام عليكم، راهنا على الله وعلى شعبنا وعلى قلوبنا وعلى سواعدنا وعلى أبنائنا، ونحن اليوم نقوم بنفس الرهان، والنصر آت آت آت إن شاء الله»(٢).

٦- الاهتمام بالناس وسط الحرب، والأولوية للخروج منتصرين:

«أقول للناس الطيبين الصامدين، بتأييدكم واحتضانكم وبمحبتكم وبصبركم وبصمودكم سننتصر، ونحن فقط نتمنى الشفاء للجرحى وطول العمر للأحياء وأن يكونوا في سلامة وعافية، أما ما يهدم وما يدمّر فنحن عازمون على أن نكون جدّيين في إعادة الإعمار، ولدينا أصدقاء جديّون أيضاً في هذا المجال ولديهم قدرة كبيرة جداً على مساعدتنا بمال طاهر نقي وشريف وبلا شروط سياسية. لا قلق على إعادة إعمار بلدنا،

١- الرسالة الأولى للسيد حسن نصر الله بعد العدوان الصهيوني، والتي أعلن فيها تدمير البارجة الحربية قبالة بيروت ١٤-٧- ٢٠٠٦، النص الكامل في المصدر السابق، ص ٧٢٩.

٢- المصدر نفسه، ص ٧٣٣.

فالمهم أن نصمد الآن وأن نخرج من هذه المعركة منتصرين»[1].

٧- الحضور الدائم لمواكبة تطورات الحرب ووضع الرأي العام في الصورة الحقيقية لها:

«أستطيع في هذه اللحظة أن أؤكد ومن دون مبالغات ولا حرب نفسية وإنما وقائع، أن البنية القيادية للحزب لم تصب بأي أذى بعد الغارة العنيفة جداً على الضاحية الجنوبية. هم تحدثوا عن ٢٢ طناً من المتفجرات وعدد من الطائرات نفذت الغارة، وتحدثوا عن قيامهم بإنجاز أنهم قتلوا قادة من حزب الله وعدداً كبيراً من أفراد المقاومة، وهذا لم يكن صحيحاً. وأستطيع أن أؤكد أن كل الكلام الإسرائيلي عن أنهم ضربوا ٥٠ ٪ من قدرتنا الصاروخية ومن مستودعاتنا ليس صحيحاً، وهم لم يتمكنوا حتى هذه اللحظة من ضرب أي شيء على هذا الصعيد. وأستطيع أن أؤكد أولاً أن حزب الله صمد، واستطاع أن يستوعب الضربة ثانياً، وثالثاً أن ينتقل إلى مرحلة المبادرة، ورابعاً أن يقدم بعض المفاجآت التي وعد بها وما زال هناك عدد آخر من المفاجآت نحتفظ بها لأنفسنا للمرحلة المقبلة، وحزب الله لا يزال على المستوى الميداني يدير المعركة بهدوء وبتأن وبترو، وأنتم تشاهدون هذا الأمر من دون تهديدات دون طائل ومن دون خطاب عشوائي. ونحن نتابع الأمور بدقة وهدوء، ونحسب للزمان وللمكان وللعدد وللإمكانات وللقتال وللنقطة وللجبهة وكل تفصيل على المستوى العسكري كل حساب» [2].

٨- الثبات على الموقف والإصرار مع التحدّي:

«لو جاء الكون كله لن يستطيع أن يستعيد الجنديين الإسرائيليين إلا بتفاوض غير مباشر وتبادل الأسرى» [3].

١- من كلمة متلفزة للسيد حسن نصر الله أدلى بها مساء ١٦-٠٧-٢٠٠٦ من على شاشة المنار، نصّها الكامل في المصدر السابق، ص ٧٣٩.

٢- من حديث للسيد نصر الله إلى قناة الجزيرة لقطع دابر الإشاعات بعد الغارة على مجمع سيد الأوصياء في برج البراجنة، التي شُنّت ليل ١٩-٠٧- ٢٠٠٦. بث الحديث عند الواحدة فجر يوم ٢١-٠٧-٢٠٠٦. النص الكامل للحديث في المصدر السابق، ص ٧٤٢.

٣- نفس النصّ في المصدر نفسه، ص ٧٤٣.

٩ـ التصعيد يقابله تصعيد
وقصف عاصمتنا يقابله قصف عاصمة كيانكم:

«لا أريد أن أترك أي مجال للتحليل طالما أن العدو يقول إنه يدرس كيف يأخذ الأمور إلى نهايتها، فليسمع مني اليوم كلاماً واضحاً جداً: إذا قصفتم عاصمتنا سنقصف عاصمة كيانكم الغاصب، إذا قصفتم بيروت فالمقاومة الإسلامية ستقصف مدينة تل أبيب وهي قادرة على ذلك بعون الله تعالى ومشيئته»[١].

١٠ـ في خطابه الواثق إلى الناس:

«هل هناك قول يفي بعض حقكم ومقاومتكم. أقول لكم أنا وإخواني: فداؤكم أرواحنا ودماؤنا، وأنفسنا فداء لدموعكم وجراحكم وصمودكم وشموخكم. أيها الأحبة: ستعودون إلى الديار، هاماتكم مرفوعة أعزاء كما كنتم وكما أنتم وكما ستبقون. ليس عندنا سوى الوعد بالنصر الذي تحبّون، والقول لكم جزاكم الله خيراً في الدنيا وفي الآخرة، يا أشرف الناس وأكرم الناس وأطهر الناس»[٢].

١١ـ أما للمجاهدين:

«أنتم أصالة تاريخ هذه الأمة وأنتم خلاصة روحها، أنتم حضارتها وثقافتها وقيمها وعشقها وعرفانها، أنتم عنوان رجولتها، أنتم خلود الأرز في قممنا وتواضع سنابل القمح في حقولنا، أنتم الشموخ كجبال لبنان الشامخة، العاتية على العاتي والعالية على المستعلي، أنتم بعد الله الأمل والرهان.. كنتم وما زلتم وستبقون الأمل والرهان. أقبّل رؤوسكم التي أعلت كل رأس، وأقبّل أياديكم القابضة على الزناد يرمي بها الله تعالى قتلة أنبيائه وعباده والمفسدين في الأرض، وأقبّل أقدامكم المنغرسة في الأرض فلا ترتجف ولا تزول من مقامها ولو زالت الجبال. يا إخواني، يا من أعرتم لله جماجمكم ونظرتم إلى أقصى القوم، جوابي لكم هو شكر لكم إذ قبلتموني واحداً منكم وأخاً لكم، لأنكم أنتم القادة وأنتم السادة، وأنتم تاج الرؤوس ومفخرة الأمة، ورجال الله الذين بهم ننتصر»[٣].

١- «الانحدار والاندحار» ص، ٧٨٢. السيد نصر الله بعد ٢٣ يوماً على العدوان.

٢- المصدر نفسه، ص ٧٧٠.

٣- المصدر نفسه، ص ٧٧١.

١٢- إلى شعوب العالمين العربي والإسلامي:

«لست في صدد لا مناشدة، ولا توجيه نداء، ولا توجيه أي طلب، فأنتم الشعوب العربية والإسلامية معنيون بأن تتخذوا موقفاً من أجل آخرتكم إن كنتم تؤمنون بالآخرة، ومن أجل دنياكم ومصيركم وكرامتكم وعزتكم ومستقبلكم ومستقبل أولادكم وأحفادكم. يعني المشهد الآن إذا قدّر في هذه المواجهة لا سمح الله، أن تتمكن إسرائيل من الحاق الهزيمة بالمقاومة في فلسطين، أو بالمقاومة في لبنان، فإن العالم العربي،حكومات وشعوباً، سيغرق في ذلّ أبدي ولن يكون أمامه أي مخرج، وسوف يزداد علو الصهاينة ومن ورائهم أسيادهم الأميركيون، على الحكومات العربية والشعوب العربية».

«اليوم الأمة العربية والأمة الإسلامية أمام فرصة تاريخية للتوحد وللخروج من مشروع التفتيت والحروب المذهبية والأهلية التي تدفع أميركا شعوب المنطقة إليها، ولانجاز انتصار تاريخي كبير على العدو الصهيوني، ونحن نحاول أن نقدم نموذجاً في الصمود، والتصدي والصبر والقدرة والشجاعة وإمكانية إلحاق الهزيمة في العدو» [١].

أين أنتم أيتها الشعوب العربية الإسلامية وماذا وكيف ستتصرفون؟ هذا شأنكم.

١٣- إلى الصهاينة:

«أقول لكم ستكتشفون سريعاً كم أن حكومتكم الجديدة وقيادتكم الجديدة حمقاء وغبية ولا تعرف تقدير الأمور وليست لديها أية تجربة على هذا الصعيد.

أنتم أيها الصهاينة تقولون في استطلاع الرأي أنكم تصدقونني أكثر ممّا تصدقون مسؤوليكم، وهذه المرة أدعوكم جيداً لأن تسمعوني وأن تصدقوني. اليوم نحن صبرنا بالرغم من الاعتداء الذي حصل ليلاً على الضاحية الجنوبية، وتراكم الاعتداء على كل قرية وحي وشارع وبيت في لبنان، لا فرق بين الضاحية الجنوبية ومدينة بيروت وأي بيت في جنوب لبنان أو البقاع أو الشمال أو جبل لبنان أو زاوية من زوايا لبنان. هذه المعادلة انتهت» [٢].

١- المصدر نفسه، ص ٧٤٠ و ٧٤١.

٢- المصدر نفسه، ص ٧٣١ و ٧٣٢.

انتصار المقاومة فى تموز ٢٠٠٦م هو انتصار لثقافة المقاومة فى مواجهة الثقافة الصهيونية

د. السيد نجم *

إن ما تحقق من انتصار حقيقى وعلى أرض الواقع اللبنانى بفضل «المقاومة» عبَّر عن نفسه بالعديد من الملامح. لن نتوقف أمام حجم التسليح وتنظيم الدولة فى مقابل تنظيم آخر يعتبر أقل تسليحاً، ولا تقف خلفه مؤسسات دولة بكاملها.. ولن نتوقف أمام أسلوب البطش العمدي الذي أدارت به القوى العدوانية معاركها فى مقابل الأسلوب الدفاعي بالدرجة الأولى الذي مارسته المقاومة الإسلامية.. ولن نلتفت إلى عدد القتلى وحجم الخسائر المادية هنا أو هناك لبيان الحد الحاسم فى الانتصار الذي تحقق.. كما لن نتوقف مع نتائج لجنة التحقيق الإسرائيلية، والآثار المباشرة على سياسيين ورجال دولة للعدو الصهيوني.

فقط سوف نقرأ معطيات العدو الصهيوني الفكرية، وكيف أنها بدأت تتهاوى فى بعض ثوابتها، وزلزلتها. ولأن الثقافات تتشكل مع الأجيال المتعاقبة، فإنها أيضاً تتهاوى مع الأجيال التالية، وهذا هو حال الثقافات فى حياة أي مجموعة إنسانية.. وهو بالضبط ما نتوقعه مستقبلاً.

زلزلة النظرية الصهيونية..

للنظرية الصهيونية وفكرها، جذور تضرب في البعد الديني والتاريخي والواقع المعاش حتى العصر الحديث، أي التجربة الروحية الدينية، والحياتية المعاشة لجماعة اليهود في العالم. فقد أجمع البحث في أصول «الصهيونية» على أن لها جذورها الدينية التوراتية،

* أمين اتحاد كتاب الانترنت العرب (قاص- روائى).

وعرقية شوفينية (لجماعة اليهود في أوروبا تحديداً)، ثم النزعة الاستعلائية الاستعمارية التي توافقت مع مناخ دولي عام يزكّيها.

المصدر الديني، لا يمكن إغفاله أولاً، وإن كانت من تحفظات (عربية) لسوء الفهم (ربما)، فقد نجح الحاخامات في وضع التفسير اليهودي المتفق عليه بينهم، من جعل خصوصية دعوة الله إليهم، بداية لنزعة عنصرية شوفينية عدائية للآخر. فكانت الدعوة إلى الانعزال عن (الجوييم) أو (الأمم) الأخرى.. فلا يكون الإنسان إنساناً إلا من الرحم اليهودي، وأي رحم آخر (غير يهودي) يعد من الزنا.

ففي سفر التثنية (إصحاح٧): «إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض، مبارك يكون فوق جميع الشعوب، لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك».. وأيضاً «أمامك هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبك، فلا تستبق منها نسمة ما».

وفى سفر الخروج (إصحاح١٩): «وأنتم تكونون أمة مقدّسة».. وقد تم تعريف أبناء هذه الأمة منذ بدء الخليقة تعريفاً دقيقاً لا يترك مجالاً للتشكيك في تسلسلها. فتولى سفر التكوين هذه المهمة، من أصول أبرهام الأب التقليدي لـ «إسرائيل»، وانحداره من «آدم»، ثم مباشرة من الابن البكر.. بالتالي الشعب الاسرائيلي هو صفوة البشرية.

ويمكن التقاط بعض من النصوص المباشرة من التوراة:

«سيبيد أمماً عديدة ويبقى هو «الشعب اليهودي».. «سوف يجعله يهوه مستعلياً على جميع القبائل (الشعوب) على الأرض.».. «سوف يجعله يهوه رأساً لا ذنباً. ويظل نجمه في صعود فلا ينحط أبداً.».. «سوف يتخذه يهوه لنفسه شعباً مقدّساً كما حلف له.».. «وسوف ترى كل الشعوب ذلك فتخاف منه.».. «وسوف يعطيه يهوه الأرض التي حلف لآبائه أن يعطيها لهم.»

كما جاء في «التلمود»: أن جماعة «إسرائيل» يشبهون حبة الزيتون، لأن الزيتون لا يمكن خلطه بمواد أخرى.. و«كل اليهود مقّسون كل اليهود أمراء.. لم تخلق الدنيا إلا لجماعة «إسرائيل».»

فكانت التفسيرات الحاخامية، أن الاختيار الإلهى لهذا الشعب هو: علامة على التفوق،

أو هو تكليف ديني، أو هو سر من الأسرار الإلهية التي لا يستغني عنها الناس.. بالتالي باتت النزعة الصهيونية عنصرية وتدعو إليها حتى غرقت فيها.

المصدر الثاني، هو مصدر أوروبي، ويعرف بالمصدر العلماني البحت. فقد راجت الأفكار العلمانية خلال القرن التاسع عشر. هناك الفكر العرقي الذي يتسم بالعنصرية، الذي يرى في البشر جميعاً مادة، والاختلاط بينهم مادي الهوية، كامنة في المادة الخصائص العرقية والتشريحية، وبالتالي يمكن قياس تقدم الشعوب بالمعايير المادية، أي يمكن بمتابعة التباين العرقي في لون العين والشعر وحجم الرأس..الخ، علامات للتمييز بين الشعوب. أصبح الرأي فيما بعد أن الجنس الأبيض أرقى أجناس الأرض، وبالتالي الأوروبي أفضلهم.

فلما كانت الدعوة «الآرية» في المانيا، بأن الجنس الآري أرقى الأجناس، وكذلك الدعوة في انجلترا بأن الأنجلوسكسون أرقاها..وهكذا، وعلى الأجناس الأخرى الابتعاد عن أوروبا.

استفادت الصهيونية على جانبي الدعوة الأوروبية.. أولاً بأن طالبت الدعوة الصهيونية لمساعدة اليهود على ترك أوروبا، ثم بدعمهم على ما يتخذونه لطرد عرب فلسطين من باب نفس الدعوة العنصرية ومنطقها. كما كانت مقولة «داروين» العلمية.. القائلة بأن البقاء للأصلح والأقوى وهو ما يحكم قانون التطور دعوة خفية استغلتها الصهيونية لدعم دعواتها باستخدام العنف مع العرب الفلسطينيين. بالتالي أصبح «العنف» في شرعهم مشروعاً، وأساساً عملياً للحياة.

ثم كان المصدر الثالث للصهيونية مرتبطاً بأوروبا أيضاً.. فقد بدأت مظاهر الاستعلاء والاستعمار معاً على الأوروبيين، مع بدايات الكشوفات الجغرافية، وحتى القرن التاسع عشر زادت النعرة وراجت الأعمال الاستعمارية والممارسات التي تتسم بالعنف والقوة. وهو ما زكى النزعة الاستعلائية في اليهود (أصلاً) وروّجت لها الصهيونية، باستخدام العنف، واستباحة الأرض الفلسطينية. وهو ما توافق مع الفكر والمزاج الأوروبي، من باب نقل اليهود من أوروبا، ثم نقل حضارتهم وتفوقهم إلى المنطقة وبواسطة مركز موثوق فيه في تلك المنطقة من العالم. قال «هرتزل» في كتابه «الأرض القديمة الجديدة»:

«إن اليهود لن يفعلوا شيئاً للأرض القديمة الجديدة (فلسطين) سوى نقلهم المؤسسات

المتحضرة إليها».

أخيراً تبقى تلك المصادر الأولى للفكر أو النظرية الصهيونية، رهناً برجال الفكر وأهل التنظير، ولا تعبّر عن أهميتها أو خطورة تأثيرها إلا من خلال الفعل اليومي والحياتي للصهيوني، وبالعموم «الاسرائيلي» على أرض الواقع. لذا يلزم التوقف قليلاً مع الشخصية الإسرائيلية التي هي درجة أقرب للتأمّل مع الواقع الحياتي، ولقراءة الإبداع الأدبي لمجموعة الشعراء والكتاب الإسرائيلين.

«الشخصية الإسرائيلية».. في التلمود:

«كما أن العالم لا يمكن أن يعيش بلا هواء، فإنه لا يمكن أن يعيش بدون إسرائيل».

(التلمود البابلي، عبوده زاره، ١٠ب- تعنيت، ٣ب- مدراش يلقوط على سفر زكريا ١٩٦٩).

تلك المقولة تثير من الأسئلة أكثر مما تجيب. ربما الإجابة الوحيدة: اليهود يعتقدون أن العالم عاجز عن تجاوز مشاكله وتوفير احتياجاته الضرورية وغير الضرورية، بدون الاستعانة باليهود.

أما ما تثيره من أسئلة، فهي كثيرة ومتعددة، منها ما يلحق بالبحث في البناء النفسي لليهودي، وفي جانب آخر التركيبة التراثية والتاريخية، وفى جانب ثالث، وهو الهام: هل مازال اليهود الآن، ويهود إسرائيل تحديداً، على قناعة بتلك المقولة أو الدلالة المباشرة؟

ولو كان الأمر عقائدياً وتوجد قناعة.. فإلى أي درجة، وكيف يمكن تفسير تلك القناعة مع النظر إلى الواقع السياسي والاقتصادي، بل والحياتي الآن؟!! ماذا يقول الأدب العبري الحديث؟ وكيف يرى الإسرائيلي «الآخر»؟ وماذا عن الآخر العربي تحديداً وسمات التعامل معه داخل ذاك الإبداع الذي تغلبه رؤية قومية/ إيديولوجية/ فكرية/ تاريخية، مسبقة؟؟

الصدمة الأولى التي يلاقيها الباحث، أنه أمام شخصية لها خصوصيتها (الشخصية الإسرائيلية)، سواء على ملامحها الخارجية، أو في أغوار تجاعيدها الداخلية. تزكيها الأساطير والتراث البعيد المليء بالتجاعيد والمقولات الشفونية.. وحتى العادات والتقاليد والمأثورات الشعبية التي قد تبدو حديثة نسبيا، فهي رافد من جذور أسطورية وتراثية.

«إسرائيل» في التوراة هو سيدنا يعقوب، أثناء هجرته من أصهاره بالعراق إلى أرض «كنعان/فلسطين».. خاض في جدول صغير في منطقة الأردن اسمها «اليبوق»، هناك صارع

أحدهم، حتى طلع الفجر عليهما.. «فقال: اطلقنى فقد طلع الفجر، فقال له: ما اسمك؟ قال: يعقوب، فقال لن يدعى اسمك يعقوب من بعد بل إسرائيل» (التكوين٢٤-٣٢ وما بعدها).

قيل في تفسير الرجل الذي قابل يعقوب إنه «ملاك» من السماء، أو «عفريت أو جن»، ومنهم من فسّره بأنه رجل مصارع وقوي. وقد قدر ليعقوب أن يكون شيخ عشيرة في بني إسرائيل.

ما سبق يشير إلى البناء الأسطورى التراثي في جزئية أولى، تبدو أكثر تعقيداً في جوانب أخرى (يمكن الإشارة هنا إلى شخصية شمشون الأسطورية)، وهو ما يكشف بداية عن الرؤية المعجزة أو الخيالية أو الأسطورية للأجداد.

وفى اللغة السامية القديمة، «إسرائيل» تعنى «قوة الله» (تتكون من لفظتين ساميتين قديمتين هما «إسر» أي «القوة» أو «الغلبة» و لفظة «أل» أي «الإله، الله») تلاحظ أن «تيودور هرتزل» زعيم الصهيونية، ورئيس مؤتمر «بال» بسويسرا عام ١٨٩٧م.. أطلق اسم «الدولة اليهودية»، بينما المحتوى أطلق على فلسطين «أرض إسرائيل» لا أرض اليهود. وفي عام ١٩٤٨م أطلقت دولة إسرائيل، وليس دولة اليهود، وقد أرجع البعض السبب في ذلك إلى ثلاثة أسباب:

١- إيجاد تناسق بين اسم الدولة والاسم العبري لفلسطين (وهو أرض إسرائيل).

٢- تفضيل صفة العنصرية (إسرائيل) على الصفة الدينية (اليهودية).

٣- عدم التذكير بالإقليم الصغير بجنوب فلسطين، وهو ما يشير إلى المطامع التوسعية الاستعمارية التي تجلت فيما بعد.

قد يبدو الملمح المباشر والقريب للشخصية الإسرائيلية فى الأدب العبري، هو عقدة الانفصال والغربة عن البشر.. سواء بالارتماء في أحضان ذكريات دينية وأساطير، أو بالعيش في وحدات سكنية/اجتماعية منفصلة .. حتى بات الانفصال والانعزال سبباً ونتيجة معاً في واقع الجماعات اليهودية في المجتمعات المختلفة.

شاع لقب «اليهودي» أيام الرومان واليونان منذ القرن الرابع قبل الميلاد وحتى الآن. واليهود هم سبط «يهوذا» أحد أبناء يعقوب، الذي استقر بإقليم بجنوب فلسطين، وسمى هذا الإقليم «يهوذا». ومنذ ذلك التاريخ ارتبطت تلك الطائفة بصفات قديمة وما زالت

توسم بها! (اليهود أبناء طائفة متمردة، منطوية، متعصبة، متهمة بصلب المسيح).. إلى جانب صفات أخرى رصدتها الأدبيات الأوروبية، منها أن اليهودي جشع، يحب المال دون سواه، يتصف بالقسوة، مع عدم التدقيق في تنظيف جسمه وملابسه. وربما لهذا التراث السيء لمصطلح اليهودي، فضلوا «الإسرائيلي» لقباً وأسماً لدولتهم الوليدة.

أما الملمح الثاني في الشخصية الإسرائيلية، فهو «التعصّب».. التعصّب العنصري، فهم أصحاب أسطورة تخصهم بأنهم من أنقى الأعراف والأنساب. ثم التعصب الديني، باعتبار اليهودية تخصهم وحدهم، لأنهم شعب الله المختار. وقد تلاحظ دلالة عنصرية في أغلب الكتابات اليهودية، وهما وصف شعبهم بـ«الشعب الأزلي»، «الشعب الأبدي».. وهو تطاول على الرب (سبحانه) وإن كان من مدخل المجاز اللغوي (وهو مما يدخل فى المناهج الدراسية هناك). مع ذلك فالكثير من الدراسات الموثوق بها تؤكّد أن اليهودي ليس من الجماعات البشرية النقية، كما يدّعي أصحاب الرأي عندهم . قال «أوجين بيتار» السويسري: إن جميع اليهود في نظر علماء الأنثروبولوجيا، على الرغم من كل ما يدّعيه اليهود المنضوون تحت الفكرة العنصرية، بعيدون عن الانتماء إلى جنس «اليهود». وقال المفكر «رينان» الفرنسي: «لا توجد سحنة يهودية، بل هناك عدة سحنات يهودية».

ربما الملمح الثالث في الشخصية، هو «فكرة الصراع في تكوين الشخصية اليهودية». تبدأ فكرة الصراع بقصة صراع يعقوب مع الرجل الغامض عند النهر، ثم صراعات كثيرة ومتنوعة لشخصيات قد لا تكون مقدّسة.. مثل «يوشع بن نون» الذي أراد بعد موسى أن يدخل مدينة «أريحا»، وأمر بالنفخ في الأبواق، وتحقق له ما أراد لمجرد أنه أراد ثم مزق سكان المدينة تمزيقاً. (يشوع ٦ ٢٠، ٢١).

ومثل «شمشون» الذي قاتل الأسد بدون سلاح، ومزقه تمزيقًا، وفسخه نصفين.(قضاة١٤).

وهناك قصة صراع «داوود» ضد العملاق الفلسطيني «جالوت».. وقد صرعه. تستقر فكرة الصراع في وجدان اليهود، وقد اصطبغت بالعنصرية، وما استتبعها من مظاهر الانعزال الاجتماعي.. لتصبح سمة ومشكلة يهودية.

مع ما سبق، الاستعلاء على الشعوب الأخرى، وأنهم شعب الله المختار.. وكذا ما كانوا عليه من «شتات»، فالتاريخ اليهودي حتى المعاصر منه، لا يخلو من التعبير عن معاناة

الشتات بين أرجاء العالم، أو حتى داخل القطر الواحد. وما حارة اليهود في كل البلدان الموجودين فيها سوى تعبير عن العزلة والشتات... فكانت اللاسامية، أو أنتيسيميتيزم أو معاداة السامية أو نبذ اليهود في المجتمع، محاولة للتصدي ووسيلة (ابتدعها اليهود) للهجوم على الآخرين الذين يشكون أنهم الأعداء، أو لمجرد الظن. وهو ما يبرز الجانب النفسي في الشخصية اليهودية الإسرائيلية. فالشخصية الإسرائيلية تعاني من عقدة الشعور بالاضطهاد.

قد يقال: إن ما تم طرحه من ثوابت الملامح الثقافية للعدو، وقد انتصر بها وحقق ما حققه منذ أن كانت إسرائيل فكرة ثم قراراً وهجرات منتظمة حتى إعلان دولتهم، ثم ما تحقق لهم فى بعض معاركهم مع العرب حتى كانت الصدمة التي هي «ثقافية» فى جوهرها بعد معركة تموز/يوليو٢٠٠٦م؟

الحقيقة أن العدو الصهيوني لم يتعامل بثقافته وحدها، فى مواجهة ثقافة أخرى، التي حققت معها إدارة المقاومة/الإسلامية/ اللبنانية ما حققته.. سواء كان تعبيراً عن البعد العقائدي والتراثي في مقابل المثل في ثقافة العدو.. (بالإضافة إلى البعد الموضوعي التفاعلي على الأرض أثناء المعارك).

عن البعد العقائدي للمقاومة اللبنانية.. هناك محوران، الأول في عمق الإيمان بأن الإسلام دين يدعو للسلام بداية. إذ ينظر الإسلام إلى الحياة بشمولها من أجل التقدّم. إن المتأمل للفظ «الإسلام» يكتشف من الوهلة الأولى أنها مأخوذة من مادة «السلام»، وسبحانه تعالى اسمه «السلام»، وتحية المسلم للمسلم هي «السلام». يقول رسول الله(ص): «السلام قبل الكلام».. «إن الله جعل السلام تحية لأمتنا وأمانا لأهل ذمتنا» ومن دعوته لنا أنه فى ميدان الحرب والقتال، إذا أجرى المقاتل كلمة السلام، وجب الكف عن قتاله. يقول تعالى:

﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنا﴾[١].. **﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾**[٢].

﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً* إِلاَ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾[٣].

١- سورة النساء، آية ٩٤.

٢- سورة يونس، آية ٢٥.

٣- سورة الواقعة، آية ٢٥- ٢٦.

كما تعدى مفهوم «السلام» من التوجه العام إلى منهج إسلامي فى عدة مناحي حياة الناس بعامّة. فكانت الدعوة إلى الدين بالعقل والاقناع (بالسلام) ولا إكراه فى الدين.. فيما يقول تعالى:

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(١).

إن الراصد لجوهر «الإسلام» من حيث علاقة المسلمين بعضهم ببعض، يرصد «السلام» جوهراً لا يحيد عنه حتى فى حالة الحروب التى تعد استثناء .. ماذا عن الجماعات الأخرى، والعلاقة بينها وبين المسلمين. يقول الله تعالى:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾(٢).

أما علاقة المسلمين بغيرهم، فهى علاقة تعارف وتعاون وبر وعدل، يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٣).

﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٤).

للإسلام منهجه المتكامل كي يعم السلام عملياً بين أفراد المجتمع والشعوب، وهو ما وضح فى كفالة الإسلام لحقوق المسلم عموماً، ومنها:

- **حق الحياة..** فلكل فرد حق صيانة نفسه، وحماية ذاته، وأنكر الاعتداء فقال تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾(٥).

- **حق صيانة المال..** فكما عصم الإسلام النفس، عصم المال.. فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾(٦).

١- سورة البقرة، آية ٢٥٦.

٢- سورة الحجرات، آية ٩.

٣- سورة الحجرات، آية ١٣.

٤- سورة الممتحنة، آية ٨.

٥- سورة المائدة، آية ٣٢.

٦- سورة النساء، آية ٢٩.

-حق العرض.. فلا يحل انتهاك العرض حتى ولو بكلمة نابية، يقول تعالى:

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [1] .

- حق الحرية.. المتمثلة في حرية المأوى وحق التعلم وإبداء الرأي وغيره، وفي ذلك المعنى يقول تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ* إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [2].

إن كانت القاعدة في الإسلام هى «السلام» حتى يعم الخير ويسعد الفرد والمجتمع، إلا أنه لم يغفل الجهاد من أجل الدعوة ورد العدوان.. من أجل الدفاع عن النفس والمال والعرض والأرض.

هكذا يبدو المحور العقائدي الثاني، إن المقاومة الإسلامية ترتكز على فهم دلالات العدوان، فهماً إسلامياً إيجابياً «العدوان». فكما تدار الثوابت الثقافية على فهم إسلامي للسلام، تدار على فهم إسلامي للعدوان.

فالعدوان هو ظاهرة التعبير عن الصراع.. الصراع الداخلي (بين المرء ودواخله) والصراع الخارجي (بين الأفراد والجماعات والدول).. في مواجهة تتسم بالعنف. غالباً يتبدى الصراع الداخلي على شكل معضلات نفسية ومشكلات تصل ذروتها بالانتحار. أما الصراع الخارجي فيعبّر عن نفسه بالمشاجرات بين الأفراد والجماعات، والمعارك بين الدول. وقد نال موضوع «العدوان» جانباً من أحكام القرآن الكريم، أشار إلى صوره ودوافعه في العديد من السور والآيات:

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [3].

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [4].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ

١- سورة الهمزة، آية ١.

٢- سورة المائدة، آية ٣٣-٣٤.

٣- سورة البقرة، آية ٣٦.

٤- سورة طه، آية ١٢٣.

فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

وللعدوان صور متعددة في القرآن غير القتل:

- **العدوان اللفظي «بالسب».. ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾**[2].

- **العدوان بالتهكم والسخرية.. ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾**[3].

- **العدوان بالشماتة.. ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء﴾**[4].

- **العدوان بالغيرة (المضمرة).. ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾**[5].

وهناك صور أخرى .. مثل العدوان بالبغضاء وبالكراهية، مع صور العدوان على النفس.. سواء الصريح أو المضمر. والأخير يتوافق مع مفهوم «العداوة» أو hostility أو العدائية.. أي الرغبة في الإيذاء ربما تصل إلى درجة من الإيذاء البدني.. وهو ما أشار إليه «زيلمان» في كتاباته حول العدوان وإدارة العدوان حيث يفسّر لنا مقولة في الحرب: إن الصراع وحده لا يكفي لإشعال الحروب، لأنه (أي الصراع) تابع لإرادة وإدارة سياسية تسبقه .. أي أن الحرب تلي فكرة الحرب. وهو وحده ما يبرز أهمية وجود عقيدة قتالية عند الجيوش المتحاربة.

لقد بان للباحثين صعوبة في تقديم تعريف واحد للعدوان. ربما يرجع ذلك إلى تعدد المفاهيم حول وظيفة العدوان.. منها ما هو بغيض كريه، ومنها ما هو واجب ومشروع، بل وتحث عليه الأديان والقيم العليا.. مثل الحفاظ على العرض والشرف.

١- سورة البقرة، آية ٣٠.

٢- سورة الممتحنة، آية ٢.

٣- سورة البقرة، آية ٢١٢.

٤- سورة الأعراف، آية ١٥٠.

٥- سورة يوسف، آية ٨.

عموما هناك العديد من محاولات التعريف:

١ - التعريف اللغـــوي..

مادة «عدا» في المعجم الوسيط: عدا عدواناً بفتح (العين والدال) جرى. وعدا عدواناً (بفتح العين وفتح الواو) تجاوز الحد. وهو ما يعني أن الحد الفاصل بين العدوان كتقدّم والعدوان كاعتداء هو تجاوز الحد (أي أنه فرق كمي).

أما aggression في المعجم الإنجليزي Webster's فتعني الإعداد للهجوم، والاعتداء على إحدى البلدان، وهي بذلك أقرب للمعنى المباشر المتداول للمفهوم العام.

٢ - التعريف النفسي..

(يجدر الإشارة إلى أننا سوف نتخير بعض التعريفات التي تلقي الضوء على الموضوع، دون التوقف عند غيرها - خصوصاً تلك الخاصة بأحوال سلوك الطفل).

..تعريفات تعرض للسلوك العدواني:

-يعد السلوك عدوانياً، إذا كانت نوايا المعتدي تبطن شراً وتقصده.. أو إذا كان السلوك هجومياً (جسمي أو نفسي) أو تدمير ممتلكات.. إذا كانت النتيجة مؤلمة على الآخر (نفسي أو مادي).

-تعريف (هيلموث)..انه ضرر أو محاولة الإضرار للآخر، أو أنه سلوك قتال يوجه مباشرة من إنسان ضد الآخرين.

-تعريف «انجلش انجلش».. هو أفعال عدوانية نحو الآخرين وما يشتمل عليه من عداء معنوي نحوهم ، وهو أيضاً محاولة لتخريب ممتلكات الآخر.

-تعريف «بارون».. إنه شكل من أشكال السلوك يوجه مباشرة، بهدف إلحاق الأذى والضرر بالكائنات الحية.

ويقسم العدوان من حيث الشكل إلى:

..عدوان ضد المجتمع anti-social aggression ويشمل الأفعال المؤذية التي يظلم بها الإنسان نفسه أو غيره. وتؤدي إلى إفساد المجتمع (اعتداء على النفس والمال والعرض والعقل والدين).

..عدوان يرعى المجتمع pro-social aggression ويشمل الأعمال المؤذية التي يجب

على الفرد النهوض بها، لرد ظلم (خاص/ مجتمعي) أو للدفاع عن النفس والوطن والدين.. وهو في معنى «فرض عين» مراعاة لقوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[1].

ربما يلزم الإشارة إلى بعض المصطلحات التي تتصل بـ«العدوان» ومرتبطة به. منها «العدائية (هي العدوان دون أن يصل الأذى بالمعتدى عليه) ومن الباحثين من سوى بين العدوان والعدائية. كما يوجد «الغضب»، «الغيرة»، «الحقد»، «التوتر»، «الإحباط». أما «الإرهاب» و«التطرف» فلهما وقفة قصيرة.

- ما الإرهاب؟

هو عملية متعمّدة من الإيذاء المادي الصريح، لإثارة حالة من الترويع والقهر للآخر.. تمارسها جماعات بهدف تحقيق هدف سياسي/أيديولوجي معين.

شاع مصطلح الإرهاب في العقدين أو الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، يمكن القول الآن: إن «الإرهاب» أصبح شكلاً من أشكال الحروب في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية(انتهت في ١٩٤٥م). مع بعض الإضافات على أرض الواقع.. حيث تلاحظ أن بعض الدول تمارس الإرهاب وليست جماعات صغيرة، كما أصبح الهدف منها ليس التأثير المؤقت المؤلم.. اقترب من مصطلح «الحرب» الصريحة. ولم يعد للإعلان عن جماعة ما أو هدف ما أو حتى لتحقيق ألم محدد ومحدود.. أتسع المفهوم الآن.

«الإرهاب» هو.. استخدام متعمّد للعنف أو التهديد بالعنف، من قبل جماعة ما أو دولة ما..من أجل تحقيق هدف/أهداف استراتيجية..أو حتى حالة من الرعب والتأثير المعنوي الذي يستتبع بمزيد من العنف.

«الإرهاب» هو.. نوع من أنواع العنف المتعمد، تدفعه دوافع سياسية، موجه نحو أهداف غير حربية، تمارسه جماعات أو عملاء سريون لإحدى الدول. (وهو تعريف وزارة الخارجية الأمريكية - في العقد التسعيني من القرن العشرين).

«الإرهاب» هو.. القتل العمد المنظم الذي يهدد الأبرياء ويلحق بهم الأذى، بهدف خلق حالة من الذعر من شأنها أن تعمل على تحقيق غايات سياسية، لكن المشكلة.. أنه أحياناً

١- سورة البقرة، آية ٢١٦.

ما توصف بعض العمليات الثورية من أجل التحرير والتغيير بصفة العمليات الإرهابية.. كما فعلت وسائل الإعلام الغربي مع العمليات الفدائية الفلسطينية (وما برّر به البعض العدوان الصهيوني على المقاومة اللبنانية فى تموز٢٠٠٦م). وكذلك اعتبرت حكومة «ريجان».. «الكونترا» في نيكاراجوا مقاتلين من أجل الحرية على العكس من الاتحاد السوفييتي (في حينه). وهو الأمر الذي يكشف البعد الأيديولوجي الكامن وراء مفاهيم وتعريفات وأشكال الإرهاب (تعريف الباحث الأمريكي «كوفيل» عام ١٩٩٠م).

-ما التطـرف؟

هو الهوس العقائدي fanaticism (قديماً كان يعنى الهوس الديني فقط، بات يعبر عن الهوس العقائدي كله) من خصائص السلوك الإرهابي. ثمة رابطة بين اتجاه المتطرف وسلوكه، وغالباً ينتهي المتطرف إلى حلول ترضى ذاته التي تتجه إلى التعصب المتطرف.

وهناك تداخل بالفعل بين المصطلحين «الإرهاب» و«التطرف»، لذا يلزم استيعاب بعض المصطلحات التي قد تكون السبب في هذا اللبس.. وهى:

..التصلب، وهى حالة من الاحتفاظ باتجاه أو رأى أو التمسك بأسلوب عمل على الرغم من أن الشواهد تؤكد أن هذا التمسك ليس صواباً.

..الجمود الفكري، وهى حالة العقل المغلق، ويقاوم التغيير، وغالباً ما تلحق به صفة المتعصب بالجامد فكرياً، سواء كان يمينياً أو يسارياً.

..التعصب، وهى حالة خاصة من التجمّد الفكري، بالإضافة إلى أن صاحبه يرفض كل الاتجاهات والجماعات الأخرى. أن محور ظاهرة التعصب هو العدوان وقابليته للتبرير والإسقاط والنقل.. والمتعصّب يشير دوماً إلى أن المجتمع يموج بمناخ عدواني.

هكذا بدت الثوابت الثقافية عند الطرفين، وبدت مع نتائج الحرب فى ظواهرها الأولية:

..فشل الثقافة الصهيونية فى إضافة عنصر فعال مع مجريات الأحداث على الأرض، حيث لم يتحقق الهدف الاستراتيجى والتكتيكي للمعارك.

..انتصار حقيقى وظاهر على أرض الواقع عند الطرف الآخر، ببقاء المقاومة (كياناً سياسياً وتشكيلاً عسكرياً).. وبما حققته من خسائر وتهديد حقيقى داخل العمق

الإسرائيلي (لأول مرة في تاريخ الحروب العربية/الإسرائلية).

نشير فى عجالة إلى فكرة الحرب العادلة التى ادعتها اسرائيل فى بداية المعارك، وقد فشلت كل ذرائعها أيضاً، ونالت من جوهر ثقافتهم الصهيونية.

في أسفار التوراة إقرار بشريعة الحرب والقتال . بدت على أبشع صور التدمير والتخريب والهلاك والسبي «..حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير، ويستعبد إلى يدك، فأضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة، كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب....» (سفر التثنية، الإصحاح العشرين، عدد١٠ وما بعده). في مواضع أخرى من التوراة.. أن الحرب بأمر الله تعالى، وكل ما يحدث فيها من صنعه هو.. وربما كانت الحرب عقاباً على العبريين من الرب» .«الحرب» إذن وسيلة، فلا محل لوصفها بالعدل أو بغيرها، ولكونها بالدرجة الأولى، أمر إلهي. توجد فكرة الحرب في المسيحية على عدة وجوه، ففي عهودها الأولى كانت صاحبة موقف رافض لفكرة الحرب أصلاً: «من ضرب بالسيف سيهلك أو يجن..». وتبدو فكرة المقاومة السلبية لها جذورها في الفهم القديم للحرب في المسيحية (كما تبدت في مقاومة المهاتما غاندي، ونظرة الكاتب تولوستوي الشمولية الإنسانية، وهو ما تبدى في أعماله الروائية).

ومع القديس «بولس» بدأت الدعوة لفكرة جديدة لاستعمال «القوة»، بعد أن زاد عدد المسيحيين، وارتفاع شأن الدين الجديد، في مواجهة «القوة» الإمبراطورية الضاغطة المستبدة. ثم جاء القديس «أوغسطين» فقال بمقولة ربانية: «لو أراد الله بأمر خاص، أن نقتل يصبح قتل الإنسان فضيلة». فهو لم يرفض الحرب، شريطة أن تكون تعبيراً عن المشيئة الإلهية. وكان القديس «توما الإكويني» صاحب المقولة التاريخية «الحرب العادلة»، ويمكن إبرازها على ثلاثة محددات:

الحرب.. بأمر من السلطة الدنيوية (الملك).

عدالة القضية.. الحرب من أجل قضية عادلة.

على أن يكون مقصد «المحارب» هو «الخير» قبل وأثناء الحرب.

وبقيت الكنيسة تردد في صلوات يوم الأحد لفترة طويلة، أن هناك طرفاً واحداً على

حق. والآن تردد الكنيسة أن الحرب يمكن أن تكون عادلة، وذلك بالإعداد الجيد للحرب حتى دون التأكد من عدالة القضية، بشرط الرجوع إلى أصحاب العقل الراجح للمشورة، وليرجحوا كفة هذه العدالة.

أما الإسلام فقد بدأ مع قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[1]، كذلك: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[2].. هذا ما كان في الفترة الأولى من الرسالة(المكية)، أما في الفترة الثانية (في المدينة)، فقد تقرّر القتال حين يطبق الأعداء:﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾[3].

وفي السنة الثانية من الهجرة تقرر الإذن بالحرب: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾[4]، وفرض القتال بشروطه المتعددة التي يمكن حصرها.. الحرب من أجل الدفاع عن العرض والأرض والمال والشرف.. ومن أجل الدعوة إلى الله. ولا يفوتنا أن لفظ الحرب لا يوجد في الإسلام، بل «الجهاد» وهى لفظة من الجهد والمشقة في ملاقاة العدو، ولا تعني الاعتداء والعدوان. كما قنّن الإسلام سلوك المجاهد.. الثبات في ملاقاة العدو، استخدام الحيلة والخداع، السماح بالفرار من التهلكة حفاظاً على النفس، والرحمة في الحرب أثناء المقاتلة وبعد أن ينصر المسلمون مع تنفيذ عقود الذمة وحسن معاملة الأسرى.

واضح أن الإسلام تعامل مع فكرة الحرب، على أنها شر لا بدّ منه وكره للمؤمنين. وإن لم تذكر كلمة «حرب عادلة»، إلا أنها عادلة في جوهرها (في الإسلام).. من حيث الأسباب، والممارسات، وبعد أن تضع أوزارها .

حتى كان الداهية السياسي الإيطالي «ميكافيللي»، وقد قال مقولته الشهيرة، مفادها أن كل حرب عادلة منذ أن تصبح ضرورية. وبه تحولت فكرة «العدالة» من الجانب الأخلاقي القيمي، إلى الجانب النفعي. وبذلك يمكن أن تكون الحرب وسيلة لأهداف غير عادلة، كما تكون غير عادلة في ممارستها، أو ممارسة الجنود .وهو بذلك وضع البذرة الأولى، لجعل الحروب من ضرورات الرأسمالية، حيث تساعد على تطور الصناعات كما

١- سورة الطور، آية ٤٨.
٢- سورة الحجر، آية ٨٥.
٣- سورة الحج، آية ٣٩ -٤٠.
٤- سورة البقرة، آية ٢١٦.

قال «أوجسنت كونت» الذي توجه بقوله مؤكداً أن النشاط الإنساني يهدف إلى الحرب أو استغلال الطبيعة للإنتاج. وقال هيجل: «الحرب مبتغى الأقوياء». كما قال «نيتشة»: «ينبغي أن تحب السلام لأنه سبيل لتجديد الحروب». واضح أن فكرة «الحرب العادلة» بالمعنى الأخلاقي أو المسيحي القديم - مقولة «توما الإكويني»- لم تخرج عن حيز جدران الكنيسة، لتبقى فكرة الحرب متداولة في الفكر الإنساني بين النافع والضار، أو من حيث إن الحرب وسيلة لتحقيق منفعة ما أم لا.. عند المفكرين. كما بقيت فكرة «الحرب»؟ بلا توصيف - في الإسلام مكتوبة على المسلمين، وهى كره لهم.

ثم تجاوز الإنسان فكرة كون الحرب عادلة أو غير عادلة ، إلى فكرة «ضد الحرب»، بفضل أفكار رجال القانون الدولي «القانون المضاد للحرب».. وهو ما أعطى لفكرة «حق الاسترداد» مشروعية «المقاتلة - الحرب» لمن وقع عليه غبن وظلم واحتلال. وهو ما أبرز مصطلح زالإرهابس وتوظيفه بدلالات مختلفة في يد الحكومات التي ما زالت تعتقد في جواز الحرب. سواء كانت عادلة أو غير ذلك.. لا يهم.

وأيضاً فشلت فكرة «الحرب العادلة» التى يتشدّق بها الكيان الصهيوني.

هكذا بدت نتائج حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦م، لكل ذي عقل يتفكر وعين ترى، سقوط جوهر الثقافة الصهيونية، وفى المقابل ثبوت ورسوخ جوهر الثقافة الاسلامية التى تزكي السلام وترفض العدوان وتدافع بمفهوم «الجهاد» عن الأرض والعرض والشرف والعقيدة. إنها إذن بداية النهاية لجوهر ثقافة عدوانية للصهيونية.. فلننتظر!!

انعكاسات حرب تموز ٢٠٠٦ على لبنان على الرأي العام الأميركي ودعم الكونغرس لإسرائيل

د. فرنكلين لامب*

تهدف هذه المقالة إلى دراسة نتائج حرب تموز على الرأي العام الأميركي وعلاقات الكونغرس باللوبي الصهيوني، انطلاقا من فرضية تأثير هذه الحرب على الطرفين.

لقد شهد الكونغرس الأميركي على مدى النصف قرن الماضي سيطرة متزايدة من قبل اللوبي الصهيوني، كما أسفر الأداء العسكري الإسرائيلي المتواضع عن خيبة أمل وحالة من الذعر في الكونغرس الأميركي. وقد دفعت هزيمة إسرائيل الواضحة خلال حرب تموز بأغلبية الكونغرس إلى تكثيف تبجيلها الرسمي للجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (ايباك) على وجه الخصوص واللوبي الإسرائيلي عامةً.

وسيتبع القادة في الكونغرس خطى اللجنة بشكل دقيق في الوقت الذي تقوم فيه هذه الأخيرة، بإعداد طلبات لتخصيص الأموال. تكمن المهمة الفورية في تعزيز المساعدات لإسرائيل: «من أجل استبدال المعدات العسكرية المستخدمة في محاربة الإرهاب خلال صيف ٢٠٠٦»، وذلك بحسب ما جاء على لسان أحد أعضاء الكونغرس شيلي بيركلي (ديمقراطية عن ولاية نيفادا) في حديث إلى المسؤولين الإسرائيليين خلال زيارتها الأخيرة إلى تل أبيب.

انعكست نتائج حرب تموز على الرأي العام الأميركي بشكل مختلف عن الكونغرس. فالأداء المتواضع لإسرائيل وقصفها العنيف الفعلي لجنوب لبنان وضواحي بيروت

* باحث أميركي.

الجنوبية، اللذان أعقبا الفشل الكارثي لإدارة بوش في العراق وأفغانستان، أدّيا إلى بروز دعوات متجددة من أجل تسوية النزاع الإسرائيلي الفلسطيني. وفي الواقع، ساهمت حرب تموز في ترسيخ الإدراك لدى شرائح الرأي العام وأقلية في الكونغرس أن إسرائيل لا تستطيع الاستمرار مطولاً، من دون عقاب، في استخدام الترسانة التي يزودها بها الأميركيون في سبيل السيطرة على المنطقة وتعزيز احتلالها الوحشي لفلسطين. وشرح أحد أعضاء الكونغرس جون كونيرز مؤخراً هذا الأمر على التلفزيون الأميركي قائلاً: «لقد وجد الرأي العام الأميركي أن الإمبراطور مجرّد من الملابس». وبدأ المزيد من الأميركيين يدركون أن قضايا العراق، وأفغانستان، ولبنان، وفلسطين مرتبطة بشكل مباشر بعضها ببعض؛ بحيث ما من سلام في المنطقة ولا مستقبل مع إسرائيل في ظل غياب تسوية عادلة للقضية الفلسطينية. ومن جهة أخرى، يستمر الكونغرس الأميركي المدرك تماماً لهذه التطورات في دعم إسرائيل بشكل كبير وشبه دائم.

السيطرة الإسرائيلية على الكونغرس الأميركي عقب حرب تموز:

الكونغـــرس كأرض محتلـــة إسرائيليـــاً

بحسب ما ورد على لسان المرشح للانتخابات الرئاسية الأميركية بات بوشانان خلال الحملة الرئاسية للعام ٢٠٠٤، «إن الكونغرس، على غرار فلسطين، أرض تحتلها إسرائيل. والأعضاء فيه يؤيدون كل ما تقوم به إسرائيل ضد جيرانها في الشرق الأوسط، والأميركيون يدفعون ثمن ذلك بطرق شتى». فقد تعاظم دور الكونغرس منذ حرب تموز وفشل إسرائيل الذريع في تحقيق مآربها وكذلك أدائها العسكري المتواضع. ما يشير إليه بوشانان هو النفوذ التي تمارسه أكثر من ٦٥ منظمة بشكل منتظم على أعضاء في الكونغرس، من أجل تأمين المنافع لإسرائيل، وغالباً على حساب الناخبين والمجتمعات التي تمثلها هذه الأعضاء.

إن قوة الضغط التي تعرف باللوبي الإسرائيلي والتي يقودها ١٢٥٠٠٠ عضو من لجنة إيباك ، وكذلك التي تتخطى ميزانيتها السنوية الـ٥٥ مليون دولار أميركي، تملي على الكونغرس كيفية التصويت على كل مبادرة تشريعية بحق إسرائيل، من خلال تبرعات للحملات ومحفزات أخرى.

السياســة أم المبــادئ؟

إن العديد من أعضاء الكونغرس هم عادةً أشخاص ينتخبون لمواقفهم حول مجموعة محددة من قضايا معظمها محلية. وغالباً ما يفتقرون إلى الخبرة في الديبلوماسية الدولية والسياسة الخارجية عند توليهم مناصبهم أمثال روي بلانت (جمهوري عن ولاية مونتانا)، ولاين إيفانز (ديمقراطي عن ولاية إلينوي)، وفيل (الذي قال «السياسة الخارجية ليست اختصاصي») إنغليش (جمهوري عن ولاية بنسلفانيا) وجيم رامستاد. إن هؤلاء الأعضاء يحبون عملهم، ويدركون أنه أفضل عمل قد يحظون به يوماً، وبشكل رئيس يذعنون للسياسات أكثر من المبادئ . فقد شرح أعضاء الكونغرس المتقاعدون هذه الظاهرة، وكيف أنه ثمة إلزام لتحويل الأنظار عن تأثير الخيانة على سمعة أميركا في العالم وكيف أن الأعضاء الناشطين يعتبرونه ثمناً بخساً يدفعونه مقابل الأمان الذي توفره هذه الوظيفة والمعاش السخي الذي يفوق الـ ١٠٠٠٠٠ دولار أميركي في السنة حتّى في حال تولي المنصب لفترة واحدة.

ومن ناحية أخرى، غالباً ما يخشى هؤلاء الأعضاء لدى وصولهم إلى مقر الكونغرس أن تنضب صناديق حملتهم، وأن ينافسهم غرماء مدعومون مالياً على مناصبهم، ما لم ينفذوا طلبات لجنة الشوون العامة الأميركية الإسرائيلية واللوبي الإسرائيلي. ويقول م. ج. روزنبيرغ الذي عمل لحساب هذه اللجنة كمدير العلاقات في الكونغرس على مدى أربعة أعوام في بداية الثمانينات شارحاً السبب:

«لقد عملت في الكونغرس قرابة العشرين عاماً. فالانتقادات التي توجه إلى لجنة الشوون العامة الأميركية الإسرائيلية، والتحديات في بعض القرارات كفيلة بشكل أساس لتوقع موظفاً في المتاعب. لا أعتقد أن باستطاعتهم هزم عضو في الكونغرس، ليس حتى في نيويورك، ولكن بالنسبة إلى الموظفين، والمراسلين، وأشخاص مثلي يعملون في منظمات يهودية، فسيسعون إلى التسبب بطردهم أو قطع الطرق نهائياً أمام ترقيتهم. فهم يطلقون التهديدات ويؤمنون قطعاً بأنهم أكثر أهمية من أعضاء الكونغرس».

وبتاريخ ٣ كانون الأول ٢٠٠٦، أفصح السيناتور الأميركي السابق جايمس أبو رزق عن بعض آرائه:

«أؤكد لكم من منطلق خبرتي الشخصية أن الدعم الذي تحظى به إسرائيل في

الكونغرس على الأقل قائم كلياً على خوف سياسي؛ أي خوف الذين لا يمتثلون لأوامر إسرائيل من الانهزام. وأستطيع أن أؤكد لكم أيضاً أن قلةً في الكونغرس، على الأقل خلال الفترة التي عملت فيها هناك، يستطيعون التأثير على إسرائيل، أو على قوة الضغط التابعة لها. وقد استمعت إلى العديد من الأحاديث في دورات المياه حيث عبر أعضاء في مجلس الشيوخ عن مشاعرهم المريرة حول كيفية قيام اللوبي بإرغامهم على التفكير عكس مبادئهم. وفي أحاديث خاصة، كان يعبّر البعض عن كرههم لإسرائيل ومعارضتهم لخطط اللوبي، ولكن أحداً منهم لم يرغب في المخاطرة بمعاداة إسرائيل من خلال الإفصاح عن مشاعره علناً».

ويكمل أبو رزق حديثه قائلاً: «إن اللوبي واضح تماماً في جهوده لقمع أيّ عضو في الكونغرس ينشق عن السياسة الداعمة كلياً لإسرائيل، ما قد يؤدي بالتالي إلى وقف المخصصات المالية السنوية. وحتّى الصوت الواحد تتم مهاجمته، كما حصل معي، بحيث إنه إذا تكتم الكونغرس عن المسألة، لن يبقى للصحافة من تقتبس عنه، ما يؤدي بالتالي إلى إسكات الصحافة هي أيضاً. وسرعان ما تتم السيطرة على أي صحفي أو محرر يخرج عن المسار المحدد له من خلال ممارسة ضغوطات اقتصادية منظمة ضد الصحيفة المتلبسة بالخطيئة».

الحكـم بواسطـة الإيمـان لا الوقـائع

يمنح بعض الأعضاء ممن هو راغب وممن هو رافض أصواتهم إلى إيباك واللوبي الإسرائيلي؛ لأنهم يؤمنون بأن النبوءة الواردة في التوراة تتحدث بشكل أفضل من الديبلوماسية الخارجية عما سيحصل في الشرق الأوسط . وبالنسبة إلى المسيحيين الإنجيليين المتطرفين، فهم يؤمنون بأن عليهم تسليح إسرائيل كوسيلة من أجل تعجيل يوم القيامة وسفر الرؤية ويوم الميعاد، ما جعلهم يكتسبون لقب «الجهاديين الأصوليين المسيحيين». إن هذه المجموعة التي تتضمن طوم ديلاي (جمهوري عن ولاية تكساس) والجمهوري عن ولاية إنديانا، مارك ساودر الذي قال: «أعرّف عن نفسي بشكل أساسي بأنني مسيحي إنجيلي»، تظهر من خلال بياناتها العلنية، معبرةً عن رأيها في التسجيلات ومواقع الإنترنت الذي يرحب بالاحتلال الوحشي والتوتر العام المتنامي نتيجة تسليح الولايات المتحدة لإسرائيل. والحجة التي تتذرع بها هي بكل بساطة أنه لو قدر أن يحصل دمار إقليمي نتيجة صراع آخر في الشرق الأوسط على سبيل المثال، لنقل في لبنان أو إيران،

أو حتى تبادل نووي، يمكن عندئذ القول إن الله أراد ذلك من أجل التبشير باقتراب عودة المسيح وقدوم يوم الحساب.

وبشكل يدعو للسخرية، فإن العديد من هؤلاء الأعضاء الذين يتبعون تعليمات إيباك واللوبي الإسرائيلي لا يحبون اليهود أكثر مما يفعل الفلسطينيون، والعرب، والمسلمون، والمسيحيون المتقدمون. فهم واثقون في إيمانهم أنه عند يوم الفصل سيرتد اليهود إلى المسيحية، أو يتم تخليصهم فيذهبون إلى الجنة، أو يحترقون في نار جهنم الأبدية. فهم يتطلعون إلى النتيجة النهائية بقلة تبصر؛ إذ إن العديد من أعضاء الكونغرس المتحالفين مع إيباك يحسبون حساب الأيام القادمة. لذا فهم يقومون بعملية تبادل يمنحون خلالها أصواتهم في مسائل تتعلق بالشرق الأوسط التي لا تؤثر بشكل كبير على دائرتهم وناخبيهم بحسب رأيهم في مقابل الحصول على دعم اللوبي الإسرائيلي في مبادرات النقل، والتعليم، والعناية الصحية التي تهم البلاد والتي تستقطب المزيد من التبرعات للحملات من قبل لجان العمل السياسية المحلية.

وبحسب أحد الأعضاء العاملين ضمن فريق طوم لانتوس العضو الديمقراطي عن ولاية كاليفورنيا، فإن أعضاءً ينتمون إلى ولايات كنيويورك، ونيوجيرسي، وفلوريدا، وبنسلفانيا، وكاليفورنيا، بحسب دائرتهم، قد يكونون اطلعوا على الحقيقية السياسية التالية وتناقلوها فيما بينهم:

«إن الناخبين اليهود يهتمون كثيراً لأمر إسرائيل. ففي دائرتي، يقوم حوالي ٧٠ منهم بالتصويت. ولا يبدو أن أحداً في دائرتي يبالي بالشرق الأوسط أو بقيام أميركا بمنح إسرائيل قنابل عنقودية، ولا أنا أيضاً. أما قوة الضغط التابعة لحقوق العرب والفلسطينيين والمسلمين وحقوق الإنسان فهي لا تتمتع بنفوذ كبير في دائرتي . وقد انتفعت حملتي الانتخابية من المنتدى الانتخابي الذي أقامه أحد الكيانات الأساسية في الكونغرس وهو المعروف بـ «مهمة الدفاع المتطور» أو برنامج تطوير القيادة السياسية، وأطلعت مكتبنا على بعض الحقائق الانتخابية الثابتة ومن ضمنها:

إن الناخبين اليهود الأميركيين يشكلون ٢٪ فحسب من الناخبين المحتملين. ولكن حوالى الـ٧٠ منهم يعمدون إلى التصويت. ووفقاً لمعلومات هاميلتون جوردان التي نقلها إلى رب عمله، الرئيس جيمي كارتر في العام ١٩٧٧، فمن ضمن ١٢٥ عضواً في مجلس المالية

الديمقراطي الوطني، ثمة أكثر من ٨٠ يهودياً. وفي العام الذي سبقه، كان أكثر من ٦٠ في المئة من المانحين الكبار للحزب الديمقراطي من اليهود. وخلال الحملة الرئاسية، بقيت الإحصاءات ذاتها على حالها؛ حيث إن حوالي ٧٠٪ من الأموال التي جمعها نيكسون في العام ١٩٧٢ تبرع بها مساهمون يهود. وكذلك ساهم المانحون اليهود في نحو ٧٥٪ من الأموال التي جمعت في حملة هامفري للعام ١٩٦٨. وتم جمع النسبة نفسها تقريباً في الانتخابات الرئاسية خلال الربع قرن الفائت. وفي العام ٢٠٠٤، صوت ٧٥ في المئة من اليهود الأميركيين لكيري.

ووفقاً لصحيفة واشنطن بوست، فإن المرشحين الرئاسيين الديمقراطيين «يعولون على الداعمين اليهود من أجل تزويدهم بنحو ٧٠ في المئة من الأموال».

وكشفت مجلة «ماذر جونز» مؤخراً أن سبعةً من أصل عشرة مساهمين رئيسيين في انتخابات العامين ٢٠٠٠ و٢٠٠٤ كانوا من اليهود، كذلك ١٢ من أصل ٢٠ مساهم رئيسي، و١٢٥ من أصل ٢٥٠. وقد تم تأمين معظم الأموال من قبل إيباك.

وتتضمن هذه المجموعة على سبيل المثال ستيني هوير (ديمقراطي عن ولاية ماري لاند)، وكينيث لوكاس (ديمقراطي عن ولاية كنتاكي)، ودونالد مانزولو (جمهوري عن ولاية الينوي)، وكريستوفر شايز (جمهوري عن ولاية كونيكتيكات) وطوماس راينولدز (جمهوري عن ولاية نيويورك). ومؤخراً في العام ٢٠٠٦، أشار أحد الموظفين العاملين مع هاير إلى أن هذا الأخير «يساند إيباك بشدة بحيث تظنه أحد العاملين لديها».

والعضو الوحيد ذو الإرادة الحديدية في هذه المجموعة هي الجمهورية جاين هارمان (ديمقراطية عن ولاية كاليفورنيا). فهي ولانتوس ملتزمان كلياً نحو إسرائيل. فقد قام هذا الأخير بزيارة إسرائيل ٦٣ مرةً وتم تعيينه من قبل الحكومة هناك من أجل تمثيل الدولة اليهودية في البلاد التي لا علاقات ديبلوماسية معها وحيث يمكن أن يسمح له بذلك.

في الواقع، كلفت إسرائيل كل من هارمان ولانتوس بمهام شاقة بما في ذلك محاولة إطلاق سراح جوناثن بولارد المدان بتهمة التجسس لصالح إسرائيل ونقض دعوى الحكومة الأميركية المقامة ضد الموظفين العاملين في إيباك كيث ويسمان وستيف روزن. وتشير التقارير الصادرة عن الكونغرس أن هارمان قد وعد بِحثّ الحكومة الفدرالية على

«التساهل مع ويسمان وروزن في مقابل الدعم الإسرائيلي للجنة المخابرات» بحسب صحيفة نيويورك تايمز. ويترقب كل من هارمان وروزن محاكمتهما بتهمة التجسس ونقل وثائق مسروقة من البنتاغون إلى عملاء الاستخبارات الإسرائيلية.

من جهة أخرى، قام اللوبي الإسرائيلي، الذي يعد أحد العملاء الإسرائيليين الأكثر تفانياً، بتعيينها في لجنة استخبارات مجلس النواب. ويتوقع أن تتولى منصب رئيسة مجلس النواب بعيد الانتخابات التي ستجري في ٧ تشرين الثاني وأن يسيطر الحزب الديمقراطي على الكونغرس. مع ذلك، حصلت بعض الصدامات بين هارمان وبيلوسي حين رفض هذا الأخير بصفته المتحدث باسم مجلس النواب تعيين هارمان كرئيسة. وهكذا، كانت إيباك مستاءة من القتال الصاخب بين هارمان وبيلوسي؛ لأنها كانت تعول على كليهما.

مضافا إلى ذلك، وقعت هارمان في متاعب مع مكتب التحقيق الفدرالي. فقد نقلت مجلة تايم في عددها الصادر في ٢٠ تشرين الثاني ٢٠٠٦ أن مكتب التحقيق الفدرالي والنواب العامين التابعين لوزارة العدل بصدد التقصي، عما إذا قامت هارمان وإيباك بخرق القانون في مخطط إسرائيلي لإعادة تعيين هارمان بصفتها ديمقراطية رئيسية في لجنة استخبارات مجلس النواب، والذي سيسمح لها بممارسة المزيد من الاستخبارات لصالح إسرائيل.

يود المحققون الفدراليون التأكد من صحة الادعاءات التي تفيد أن عملاء إسرائيل مارسوا ضغوطاً على رئيسة مجلس النواب الديمقراطية نانسي بيلوسي التي هي الأخرى عميلة معادية للعرب تابعة لإيباك (ونقلاً عن بيلوسي قولها في الموقع الإلكتروني التابع لإيباك: «إن العلاقة الخاصة التي تربط الولايات المتحدة وإسرائيل هي وثيقة جداً بسبب ولاء إيباك لتلك الشراكة»). لطالما كانت إسرائيل قادرة على تعيين عملائها في مناصب ذات نفوذ في الكونغرس، غير أن الدعوى المتعلقة بإيباك وروزن وويسمان، قد لقنت الحكومة الفدرالية درساً أكبر مما توقعته. ومن المتوقع أن يتم الاستماع إلى هذه القضية في المحكمة الفدرالية الأميركية في بداية العام ٢٠٠٧.

كما يتوقع هؤلاء الأعضاء، بعد أن أعلنوا ولاءهم لإيباك، أن يتلقوا مكاسب وافرة من اللوبي الإسرائيلي. فعلى سبيل المثال، أنفقت مؤسسة التربية الأميركية الإسرائيلية، وهي كيان تابع لإيباك لا يتوخى الربح ومعفىً من الضرائب بين تموز ٢٠٠٥ وتموز ٢٠٠٦ مبلغاً

وقدره ٥٨٣١٣١ دولاراً أميركياً على رحلات السفر. إذ تقوم برعاية ٦٢ رحلة للأعضاء وأقاربهم وموظفيهم إلى إسرائيل. ويمثل هذا العدد ثلث رحلات الكونغرس إلى العالم بأسره. ويدفع اللوبي الإسرائيلي قرابة الـ ٨٠٠٠ دولار للشخص الواحد في رحلة لمدة أسبوع. ويعد بعض الموالين الذين يسافرون على متن هذه الرحلات المجانية الأكثر عداءً للعرب، والمسلمين في الكونغرس بمن فيهم العضو الجمهوري تشيلي بيركلي (ديمقراطية عن ولاية نيويورك) التي سافرت في نهاية الأسبوع من ٢٠ إلى ٣٠ آب «للقاء مسؤولين حكوميين خلال الأزمة الإسرائيلية اللبنانية». وقد طمأنت بيركلي الإسرائيليين، بحسب ما ذكرت صحيفة جيروزاليم بوست أن إسرائيل ستحصل على المزيد من القنابل العنقودية الأميركية وسيعوض الكونغرس عليها مبلغ الـ٨ مليارات دولار التي أجبرها الإرهابيون على إنفاقها في لبنان».

من جهة أخرى، قام الديمقراطيان عن ولاية نيويورك، جيري نادلر وأنطوني واينر، اللذان يكنان العداء الواضح للعرب برحلة مولّها مجلس علاقات المجتمع اليهودي (٦٤٨٠دولاراً أميركياً لكل منهما)، في «مهمة لتقصي الحقائق بخصوص دفاع إسرائيل عن نفسها في وجه حزب الله». ولكن لم تتضح الحقائق التي توصلوا إليها. وسيقوم كل من وايتر ونادلر بتزويد إسرائيل بالمزيد من الأموال والأسلحة عندما يتعين على الكونغرس اتخاذ الإجراءات بهذا الخصوص، كما سيدعمان أي هجوم أميركي على إيران وسوريا إذا ما سنحت الفرصة.

ويعجل هؤلاء الأعضاء الذين ينتمون إلى مجموعة الموالين لإيباك في اعتماد الاتهام غير المقبول بـ «معاداة السامية» من أجل إسكات فيض الانتقادات ضد سوء استخدام إسرائيل للاسلحة الأميركية، أو أولئك الذين يجرأون على ذكر أنشطة اللوبي الإسرائيلي أو إيباك غير الأخلاقية في الكونغرس، أو في كافة أنحاء أميركا. فقد اتهم كلاهما الرئيس الأسبق كارتر بالمعاداة للسامية بسبب كتابه «فلسطين: السلام لا التمييز»، وذلك على الرغم من أن كارتر كان راعي اتفاق كامب دايفد الذي منح إسرائيل حوالي ٣٠ سنة من السلام مع مصر.

في الواقع، يدين جميع الأميركيين للرئيس السابق جيمي كارتر قيامه بالإفصاح عن حقائق ضرورية طمرت لوقت طويل. فقد خرق كتابه الرائع حاجز الصمت وتخطى

المحظور الذي يمنع انتقاد سياسة إسرائيل التمييزية تجاه الفلسطينيين في الولايات المتحدة. إن قبول أعضاء الكونغرس الواضح لسياسات الصهاينة العنيفة تسبب عداءً شاملاً ضدنا. إذ هاجم أصدقاء إسرائيل كارتر، الذي عمل بلا كلل من أجل السلام في الشرق الأوسط، متهمين إياه أيضاً بمعاداة السامية.

في الواقع، من السيئ حمل العداء للسامية، غير أن استغلال هذا المصطلح من أجل كبح الانتقادات الشرعية لنظام آخر يعتمد القمع العنصري، ومن أجل إخفاء بريق رجل ذي مبادئ هو أمر غير مقبول. فلم يعد يعتبر انتقاد سياسات الحكومة الإسرائيلية الذي يستخدم كمادة دسمة في الصحف الإسرائيلية معادياً للسامية بقدر ما يعتبر انتقاد بوش معادياً للأميركيين.

فكلمة أبرتهايد (التمييز العنصري) ترمز بشكل كامل إلى النظام السابق في جنوب أفريقيا، ولكنها تمثل أيضاً كل نظام حكم قائم على القمع المنهجي والسيطرة من قبل مجموعة عرقية واحدة على أخرى. أما مصطلح كارتر فلا ينطبق سوى على سيطرة إسرائيل على الأراضي الفلسطينية المحتلة حيث أنشأت أكثر من ٢٠٠ مستعمرة يهودية فحسب وشبكة من الطرقات والخدمات الأخرى من أجل دعمهم. وإن هذه المستعمرات مخالفة للقانون الدولي وحقوق المالكين الفلسطينيين. ويعتبر كارتر أن «الجشع تجاه الأرض»، لا العنصرية، يغذي عملية إنشاء المستعمرات الإسرائيلية. فهو محق من ناحية واحدة فقط؛ إذ إن إسرائيل تستولي على أراضي الفلسطينيين ومياههم لصالح اليهود. وقد تم تحويل الموارد، بقوة سلاح الاحتلال، من مجموعة مستضعفة أي المسيحيين والمسلمين الفلسطينيين، إلى مجموعة أخرى أكثر تفضيلاً أي اليهود. تلك هي بكل بساطة العنصرية بحد ذاتها.

علاوةً على ذلك، ثمة أدلة وافرة تثبت أن إسرائيل تعتمد التمييز ضد الفلسطينيين في الأماكن الأخرى. فـ «العرب الإسرائيليون» الذين يبلغ عددهم حوالي ١,٤ مليون مواطن مسيحي ومسلم فلسطيني يعيشون في إسرائيل، يصوتون خلال الانتخابات. بيد أنهم أقلية تابعة ومهمشة. فكأن نجمة داوود الموجودة على العلم الإسرائيلي تقول للفلسطينيين: «أنتم لا تنتمون إلى هذه الأرض». ويمنح قانون العودة في إسرائيل حقوق المواطنية الفورية إلى اليهود في أي مكان في العالم، في حين أن هذه الحقوق محظرة على ٧٥٠٠٠٠ لاجئ

فلسطيني أُجبروا أو هربوا من منازلهم في العام ١٩٤٨؛ خوفا على أرواحهم. كما أن قانون إسرائيل الأساسي المتعلق بكرامة الإنسان وحريته قد أقام الدولة على أساس أنها «دولة يهودية ديمقراطية» وذلك على الرغم من أن ٢٤ في المئة من السكان ليسوا يهوداً.

ويتضمن المركز القانوني لحماية حقوق الأقلية العربية في إسرائيل، «عدالة»، ٢٠ قانوناً يمنح علنياً الأفضلية لليهود على غير اليهود. وبحسب ما أشار إليه البروفيسور جورج بيشارات في كلية الحقوق في جامعة كاليفورنيا، فإن الحكومة الصهيونية تفضل اليهود على الفلسطينيين عند تخصيص الموارد. فالأطفال الفلسطينيون في إسرائيل يتلقون تعليمهم في مدارس «منفصلة وغير متساوية» لا تحصل سوى على جزء من الأموال التي تمنح إلى المدارس اليهودية، وذلك بحسب منظمة مراقبة حقوق الإنسان. حتى أن العديد من القرى الفلسطينية، وبعضها الذي سبق قيام الدولة الصهيونية، ليس معترفاً بها من قبل الحكومة، ولا تظهر على الخرائط، وبالتالي لا تتلقى مياهاً جارية أو كهرباء ولا يوجد فيها طرقات.

ومنذ العام ١٩٤٨، تم بناء مجمعات سكنية جديدة بأرقام قياسية لليهود، من دون أن يحق للفلسطينيين بأي منها، ما سبب لهم اكتظاظاً سكانياً حاداً. ونادراً ما يتم إدانة التعصب ضد العرب في الخطابات الرسمية الإسرائيلية؛ حيث ينظر إلى الفلسطينيين دوماً «كخطر ديموغرافي». وفي بحث قام به الأكاديمي الإسرائيلي دانيال بارتال في ١٢٤ نصاً معتمدة في منهاج المدارس الإسرائيلية، تبين أن النصوص جميعها تصور العرب على أنهم متخلفون، وعنيفون وغير أخلاقيين. وقد كشف أحد الإحصاءات التي أجريت في العام ٢٠٠٦ أن ثلثي اليهود الإسرائيليين يرفضون العيش مع عربي في المبنى ذاته، وأن نصفهم تقريباً لا يسمحون للفلسطيني بالدخول إلى منزلهم، و٤٠ منهم يودون أن تشجع الحكومة المواطنين الفلسطينيين على الهجرة . وفي آذار الماضي، منح الناخبون الإسرائيليون ١١ مقعداً نيابياً لصالح حزب «إسرائيل بيتنا» الذي يؤيد ترسيم الحدود الإسرائيلية من أجل طرد ٥٠٠٠٠٠ مواطن فلسطيني متواجد في هذه الأراضي حالياً.

يقول البعض إن المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل يتمتعون بوضع معيشي أفضل من أولئك الذين يعيشون في البلدان العربية المحيطة. وعلى نحو مثير للسخرية، قام الأفارقة الجنوبيون البيض بادعاءات مشابهة من أجل الدفاع عن نظام الأبارتهايد الخاص بهم،

كما هو واضح في كتب مثل «كانتري أوف ماي سكال» للكاتب أنتجي كروغ . فأصبح الأميركيون مدركين لثمن دعمنا غير المشروط لإسرائيل. نحن بحاجة ماسة إلى الخوض في نقاش صريح من أجل وضع سياسات تشرف قيمنا، وتعزز مصالحنا، وترسي سلاماً عادلاً ودائماً في الشرق الأوسط.

يقال إن الأمر يتطلب رئيساً سابقاً محصناً ضد الضغوطات التي تمارس خلال الانتخابات من أجل إرشادهم إلى السياسة الصحيحة.

من الضروري في الوقت الراهن إطالة أمد النقاش. هل تتطابق المثل الصهيونية فعلياً مع الديمقراطية؟ هل يمكن لدولة أقيمت في محيط متعدد الأعراق أن تكون «يهودية» و«ديمقراطية» في آن معاً؟ أليس من المجحف بحق السكان الفلسطينيين الأصليين الإبقاء على سيطرة اليهود في إسرائيل؟ ألا تساهم مساعدتنا غير المشروطة في تمكين إسرائيل من مواصلة انتهاك حقوق الفلسطينيين من دون أي عقاب، وتعزيز العدائية الإقليمية وإقصاء السلام؟ ألم يحن الوقت لتعيش إسرائيل تبعاً لقوانين الديمقراطية والتي تتضمن حقوقاً متساوية بين الجميع؟ إن الرئيس كارتر شجاع وعادل وهو يضمن أن تلقى هذه الوقائع تجاوباً عادلاً كما يراها هو.

ونذكر من المجموعة عضواً آخراً وهو إيليوت أنغل (ديمقراطي عن ولاية نيويورك) الذي اتهم كاتبي مقالة حديثة حول اللوبي الإسرائيلي، جون ميرشايمر وستيف والت، بكونهما معاديين للسامية، ووصف مقالتهما بـ «الترهات القديمة ذاتها المعادية للصهيونية والسامية». يعرف ألن ديرشوفيتز، مستشار بعض أعضاء الكونغرس وكذلك إيباك بكتاباته المؤيدة لإسرائيل . وقد توقف عن استخدام مصطلح «معاداة السامية» عند إطلاقه الاتهامات عكس ما كان يفعل غالباً، وذلك بحسب انتقاداته لأنه يدرك أن هذا المصطلح أصبح قديماً وفقد بعضاً من قوته. لذا بدأ ديرشوفيتز باللجوء إلى افتراءات كاتهام ميرشايمر ووالت على سبيل المثال بالحصول على الدعم المادي من مجموعات من النازيين الجدد. إن التهمة عبثية ولكن ديرشوفيتز المختل مستعد لمهاجمة من يجرؤ على توجيه انتقادات لإسرائيل عبر الكلام من خلال إطلاق الاتهامات هستيرياً. ومؤخراً، قام ديرشوفيتز بهجوم شخصي ويغيض ضد نعوم شومسكي، ونورمان فينكلشتاين، والرئيس السابق كارتر وغيرهم.

لكل من ديرشوفيتز والحكومة الإسرائيلية تاريخ طويل في محاولة ربط الانتقادات الموجهة إلى إسرائيل بشخص هيتلر. ففي العام ١٩٨٢، كتب رئيس الوزراء بيجن إلى الرئيس ريغن بأنه شعر وهو يجتاح لبنان ويقصف بيروت كما لو أنه يهاجم برلين للإطاحة بهيتلر (مشبهاً عرفات بهيتلر). وقد استخدم شارون التشبيه نفسه مجدداً في العام ١٩٨٩ في واشنطن خلال اجتماع في وزارة الخارجية حيث قال إن «عرفات عدو مثله مثل هيتلر». وخلال البضع سنوات الأخيرة ولا سيما خلال حرب تموز، شددت الحكومة الإسرائيلية على اعتبار حسن نصر الله كهيتلر. وحالياً، ينظر اللوبي إلى الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد وكأنه هيتلر. وعندما سئل أحد الموظفين في إيباك عن هذا الأمر أفاد أنه تشبيه يسهل على الشعب فهمه من مصطلح «معاداة السامية»، بما أن بعض الناخبين الأميركيين قد يدركون أن ٩٠ من الساميين هم في الواقع من العرب».

وتقوم إيباك بإعلام الأعضاء في الكونغرس بضرورة الشرح لناخبيهم بأن الإسرائيليين يشبهون إلى حد كبير الأميركيين. وقال أحد الموظفين في إيباك شارحاً: «أبلغ الإعلام وناخبيك أن الإسرائيليين يشبهوننا». هذا وقال أحد الموظفين الذي يعمل لدى النائب فيرجيل غود (جمهوري عن ولاية فيرجينيا) في ٢٢ كانون الثاني ٢٠٠٦ «يعد رئيسي واحداً من بعض الأعضاء الذين لا يحبون الأجانب وهم يمنحون أصواتهم إلى إيباك لأن الإسرائيليين يشبهوننا أكثر من غيرهم». وقد أخبر غود الذي ينتقد بعنف العرب والمسلمين ويحمل العداء لهم ناخبيه في رسالة حررها في ٩ كانون الثاني ٢٠٠٦ «أخشى أن يزداد عدد المسلمين في الولايات المتحدة خلال القرن المقبل، إن لم نتبن سياسات صارمة بخصوص الهجرة التي أراها ضرورية من أجل الحفاظ عل القيم والمعتقدات المتعارف عليها في الولايات المتحدة الأميركية ولمنع استنفاذ مواردنا». وغالباً ما يدعي غود أن «المسلمين، على غرار السود، يعيشون في رفاهية من دون أن يعملوا». والواقع أن المسلمين في أميركا والعالم بأجمعه هم أقل من يطالب بالرفاهية أو يحصل عليها. فثقفاتهم وتاريخم يشهدان على عملهم بكد من أجل الاهتمام بعائلاتهم.

ومن الأمثلة الأخرى، نذكر العضو عن ولاية كولورادو «طوم تانكريدو» الذي يعتقد بأنه يتعين على الولايات المتحدة بناء جدار على طول حدودها، وترحيل أعداد ضخمة من العمال المهاجرين، بل وشن حرب أميركية أخرى تقوم هذه المرة على «صدام الحضارات» بين المسيحيين وغير المسيحيين، المسلمين على وجه الخصوص.

وفي كانون الثاني ٢٠٠٦، أشار تانكريدو في رفضه لالتزام معين في ميامي إلى أنها «تنتمي إلى العالم الثالث». فهو يؤيد إقامة جدار عنصري في إسرائيل الذي يطلق عليه الرئيس السابق كارتر والعديد من المراقبين اسم حاجز «الأمن» الإسرائيلي حيث يمتد حوالي ٨٨ منه داخل الخط الأخضر الذي حدد في العام ١٩٦٧ في عمق الأراضي الفلسطينية. ويقول أحد موظفيه إن تانكريدو كان يتطلع إلى بناء جدار أكثر ارتفاعاً من الجدار الإسرائيلي؛ أي يتجاوز علوه الـ٢٥ قدماً من أجل ضمان عدم تسلل الأجانب إلى الولايات المتحدة . فالأعضاء أمثال تانكريدو تنتابهم الهواجس في مسألة التعددية الثقافية، والإسلام، والمكسيكيين، وغير المسيحيين عموماً. كما لا يحبذون اليهود ولكن بما أن إسرائيل تعمد إلى قمع العرب وتميل إلى «التشبه بنا»، بحسب ما أورد أمام ناخبيه، لذا يصوت تانكريدو لصالح إيباك بخصوص تزويد بإسرائيل السلاح. فضلاً عن ذلك، يؤيد تانكريدو اجتياح العراق وغالباً ما كان يصرح عن دعمه لإيباك في دفعها لتغيير «نظام الحكم» من خلال غزو إيران أو قصفها.

وثمة أعضاء في الكونغرس ممن يتبنون العقيدة الصهيونية. وهؤلاء الأعضاء هم صهاينة مخلصون وملتزمون بإقامة إسرائيل الكبرى التي تمتد عبر الشرق الأوسط وبناءً على رغبتهم بأن يعيش اليهود في فلسطين. ويرى بعض المراقبين في الكونغرس بمن في ذلك مجلس المصلحة الوطنية أن الصهاينة المسيحيين يتمتعون بنفوذ أكبر من الصهاينة اليهود. فالصهاينة المسيحيون أمثال جون هاغي أمطروا البيت الأبيض بأكثر من ١٠٠٠٠٠ بريد إلكتروني مدافعين بذلك عن الهجوم الشرس الذي شنته إسرائيل في العام ٢٠٠٠ من أجل إعادة اجتياح الضفة الغربية. وقد أجبر بوش شارون على الانسحاب ولكن هذا الأخير تجاهله. وإن إسرائيل تعزو إلى المنظمات المسيحية الأصولية كالتحالف المسيحي مهمة إجبار بوش على التراجع. وقد ورد على لسان جيرشون سولومون في حديث له لصحيفة لوس أنجلوس تايمز في العام ٢٠٠٦ «أنا ممتن لجميع الملائكة المسيحيين الرائعين الذين يودون مساعدتنا». جيرشون هو المتحدث باسم مؤسسة معبد القدس وهي عبارة عن مجموعة تخطط لهدم مسجد قبة الصخرة الذي يعد عتبة المسلمين المقدسة من أجل بناء معبد يهودي تدعي أنه دمر من قبل الرومان في العام ٧٠ بعد الميلاد. وأضاف قائلاً: «يعد المسيحيون اليوم أفضل قوة ضغط تعمل لصالح إسرائيل في الولايات المتحدة. وعندما يشيد المعبد الثاني سيزول الإسلام عن وجه الأرض».

بم يؤمن الصهاينة المسيحيون في الكونغرس أمثال ديلاي وساودر؟

- تفسير حرفي لكتب التوراة.
- الإيمان بأن اليهود هم شعب الله المختار.
- الإيمان بأن المسيحيين لن يدخلوا الجنة إلا عندما يسيطر اليهود على الأرض المقدسة.
- تأكيد أن الله قد أعطى الحق لليهود وعززهم (بالأسلحة الأميركية) من أجل امتلاك أرض الشرق الأوسط؛
- القدس هي عاصمتهم الخاصة؛
- إعادة بناء معبد اليهود قبل ظهور المسيح مهما كلف الأمر؛
- العرب والمسلمون هم أعداء الله وأعداء شعبه المختار؛

سوف يفنى العالم قريباً جداً في المعركة الفاصلة، إلا أن المسيحيين الذين يساندون اليهود سوف يفرون. أما المسيحيون المتشددون الآخرون فهم يعتقدون بأن اليهود سوف يهتدون إلى الدين المسيحي عندما ينفخ في الصور وسوف يكون مصيرهم الجنة إلى جانب يسوع وليس الهلاك في نار جهنم.

ويتأثر عدد كبير من الصهاينة المسيحيين بالمدرب السابق لكرة القدم في جامعة كولورادو والمشارك في تأسيس حركة المحافظين على «وعد السلم» الإنجيلي، «بيل ماكارتني»، إذ يدعمون برنامج الطريق للقدس الذي يشجع اليهود على الاهتداء إلى المسيحية. ويفيد ماكارتني من دنفر، كولورادو مؤخراً، «إن هدفنا الوحيد هو استعجال الأيام الأخيرة. وإذا كان إعطاء السلاح لإسرائيل عاملاً مساعداً، فهذا رائع! فلا يهمني ما إذا كانوا يستطيعون القضاء على العرب باستخدام السلاح النووي. وتقول التوراة إن اليهود سوف يشعرون بالغيرة حين يجدون المؤمنين اليهود والمسيحيين متحدين مع بعضهم البعض- فاليهود يريدون أن يكونوا جزءاً من هذا. مما يدل على أن المسيح سوف يقوم من جديد.... أما اليهود والآخرين الذين لا يؤمنون بالمسيح فسوف يهلكون».

سياسياً، تستجمع الصهيونية المسيحية قوتها في الولايات المتحدة وتعمل على تشكيل التحالفات التي تعطي طابعاً متطرفاً أكثر فأكثر للسياسة الأميركية تجاه الشرق الأوسط. وقد أظهرت الاستفتاءات التي أجراها مؤخراً مجلس المصلحة الوطنية الذي يقع مقره في

واشنطن ؟ دي سي، بأن ٣١ في المئة من الأميركيين الذين تمّ استفتاؤهم بعشوائية يؤمنون بشدة أو بطريقة ما، بالأفكار الناتجة عن الصهيونية المسيحية.

وتظهر استفتاءات أخرى أجراها مؤخراً تلفزيون سي إن إن ومجلة التايم، آراء مشابهة، فعلى سبيل المثال، يعتقد ٥٣ في المئة من الأميركيين بأن الله قد وهب اليهود أرض إسرائيل، ويعتقد ٥٩ في المئة من الجمهور الأميركي بأن النبوءات الموجودة في سفر الرؤيا سوف تتحقق. ويرى «المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل»، وهي جماعة تدعمها إيباك، بأن الأميركيين يعتقدون بشدة بأن الله قد وضع أهدافاً سياسية خارجية. وقد أشار مجلس المصلحة الوطنية إلى أن ما يدعو للسخرية في التحالف القائم بين الصهيونية المسيحية والصهيونية اليهودية هو أن إحدى هذه المعتقدات تشجع على تدمير الأخرى بالكامل... إن المسيحيين المتحدين من أجل إسرائيل هم جماعة وُجدت من أجل إسرائيل لا الإسرائيليين، وإذا أراد أحدهم التعمق ولو قليلاً في المسيحية الصهيونية فسيكتشف كم هي معادية للسامية.

ويتملق اللوبي الصهيوني مع هذه الجماعات البسيطة نوعاً ما، لتشجيع استمرار احتلال فلسطين، ولتجريد السكان المسيحيين والمسلمين الأصليين للأرض المقدسة من إنسانيتهم، وللادعاء بأن اليهود لديهم حقوق سامية، وكذلك فإن الذين يأتون من أوروبا ليس لديهم الحق في المطالبة بفلسطين.

ما زال يطلق على بعض أعضاء الكونغرس لقب «الصهيونيين المتطرفين»؛ إذ إنهم يعملون على إضفاء عامل العنصرية، كما إن هؤلاء الأعضاء كأنتوني وينر، واليوت كوهين، وغاري أكرمان، وجيرولد نادلر، وإليوت أنجل، واريك كانتور، وروبرت واكسلر، وجاين هارمن، ونانسي بيلوسي، وطوم لانتوس (كاليفورنيا)، وإيلينا روس ليتينان، وغيرهم ينظرون نظرة سلبية جداً إلى العرب والمسلمين، وغالباً ما تنم هذه النظرة عن الكره تجاههم. وقد بدت رئيسة مجلس النواب المعينة مؤخراً، نانسي بيلوسي (ديمقراطية عن ولاية كاليفورنيا)، كأنها محرضة بوضوح من خلال رضوخها لإيباك بمجرد عنصريتها تجاه العرب. وقد صوتت بيلوسي والأعضاء الآنفي الذكر في ديسمبر٢٠٠٦ لأحد أكثر القوانين الجزائية الجماعية المنحازة والمتطرفة التي سنها الكونغرس الأميركي على الإطلاق. فالقرار ٤٦٨١ يتضمن بنوداً كاملة من العقوبات الاقتصادية والدبلوماسية ضد الفلسطينيين لانتخابهم أكثرية تنتمي إلى حماس في المجلس التشريعي الفلسطيني. وقد

وضع الأعضاء الآنفي الذكر القانون بالطريقة التي ترغب بها إيباك والتي تصب في معاقبة الفلسطينيين كافة. وبعد إصدار القانون في ٨ ديسمبر، ٢٠٠٦، كرر أنتوني وينر (ديمقراطي عن ولاية نيويورك) طلبه الذي يقضي بأن تلغي الولايات المتحدة بعثة منظمة التحرير الفلسطينية إلى الأمم المتحدة، ومن ثم انتقد الكتاب الجديد للرئيس الأسبق جيمي كارتر المذكور أنفاً.

في ٢٢ كانون الثاني ٢٠٠٦، أي قبل يوم واحد من إبطال مشروع القانون العنصري هذا، قام جورج و. بوش بالمصادقة عليه تحت الرقم ٤٦٨١. وهكذا أصبح أكثر القوانين معاداة للمسلمين والعرب وتحول في ما بعد إلى قانون الولايات المتحدة التاريخي الذي سيعزل أميركا عن بقية العالم وعن المبادىء التي قامت عليها. والسؤال المطروح اليوم: من هم الأميركيون الوطنيون الفعليون ومن هم الإرهابيون؟

وغالبا ما يعتبر هؤلاء الأعضاء أن الفلسطينيين والعرب والمسلمين يشكلون خطراً ديموغرافيا بالنسبة لإسرائيل ولرخائها؛ إذا ما حصلوا على حق التصويت.

فهؤلاء الأعضاء يصوتون لصالح تقديم ما تطلبه إسرائيل من أسلحة بما فيه المزيد من القنابل العنقودية. وغالباً ما يسعون لزيادة كمية السلاح التي يود البيت الأبيض إرسالها. ويطمح هؤلاء الأعضاء إلى الحصول على أرض لإسرائيل من دون أن يعانوا من مسألة الزيادة الديموغرافية، أي زيادة أعداد أخرى من الفلسطينيين أوغير اليهود في أرض إسرائيل. فهم يبحثون عن أراض أخرى لإسرائيل خالية من السكان العرب المسلمين والمسيحيين من خلال مواصلة ادعائهم العنصري والكاذب الذي كانوا يتداولونه قديما عن الرأيين المتناقضين حول «أرض بلا شعب»، فالأول أسطورة العلاقات العامة التي استخدمت خلال السنوات التي تأسست فيها إسرائيل والتي تحكي عن أن إسرائيل كانت أرضاً بلا شعب إلا أنه في الواقع كان يعيش فيها مئات الآلاف من الفلسطينيين باعتبارها أرض أسلافهم، في حين أن الإسرائيليين الجدد جاؤوا إلى فلسطين من مناطق غالباً ما كانت بعيدة جداً كأوروبا الشرقية والغربية على سبيل المثال.

هؤلاء الأعضاء كانوا يطمحون خلال الفترة التي أدت إلى إقامة دولة إسرائيل في أرض فلسطين إلى شراء كل ممتلكات الفلسطينيين بواسطة الضرائب التي يدفعها الأميركيون من أجل إعطاء الأرض إلى اليهود. ولكن عندما أدركوا أنه من غير الممكن شراء ممتلكات

الفلسطينيين فضلوا طردهم من أرضهم التاريخية عبر اللجوء إلى الأسلحة الأميركية إذا تطلب الأمر ذلك. فهم يفضلون فيما بينهم ترحيل الفلسطينيين بأعداد كبيرة ولكن بما أن هذا الحل ما زال غير مرغوب فيه ألبتة فهم يعملون مع إيباك والحكومة الإسرائيلية للضغط على الفلسطينيين بأي طريقة كانت لجعلهم يستسلمون ويرحلون.

إيباك: المصدر الرئيسي للتشريعات المعادية للفلسطينيين والعرب والمسلمين

خلال العقدين الأخيرين، قامت إيباك فعلياً بتنظيم كافة مبادرات الكونغرس المؤيدة لإسرائيل والمعادية للفلسطينيين والعرب والمسلمين، واضعة مسودتها الأولية بعد أن حاولت كسب التأييد من جميع الأعضاء. ومن بين هذه المبادرات نذكر التالي:

- القرار ١١٤٣ الذي رعاه النائب «وينر» عن ولاية نيويورك ويقضي بالتوقف عن مد الفلسطينيين بكافة المساعدات الأميركية.

- القرار ٦٠٤ الذي رعاه «وينر» أيضاً ويهدف إلى عدم إعطاء جوازات السفر لمواطني المملكة العربية السعودية.

- القرار ٥٧٥ الذي رعاه النائب كانتور عن ولاية فيرجينيا ويقضي بعدم تمثيل حماس في الهيئة التشريعية الفلسطينية.

- القرار ٤٢٨ الذي يدعو الأمم المتحدة إلى الكف عن انتقادها الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين.

- القرار ١٤٤ الصادر عن الكونغرس والذي يدين الهجمات التي يقوم بها الفلسطينيون ضد المواطنين الأميركيين، إلا أنه يعتّم على قتل الإسرائيليين للأميركيين بمن فيهم رفاييل كوري، وعلى قتل قوات الدفاع الإسرائيلية للصحفيين الغربيين والمتطوعين الذين يقدمون العون للفلسطينيين.

- القرار ٥٤ الذي رعاه روس لتينان يعتبر نقد الأمم المتحدة لإسرائيل معاداة السامية.

- القرار ٣٩٢ الذي قدمه طوم ديلاي (ولاية تكساس) تحت عنوان «التضامن مع إسرائيل» من دون أن يشير إلى الاحتلال الوحشي للأرض الفلسطينية والى الأزمة الإنسانية التي تنتج عنه.

- المضايقات المتكررة التي يمارسها طوم لانتوس (كاليفورنيا) على الأمم المتحدة واتهامه منظمة الأونروا بدعمها الإرهاب.

- طلب إليوت أنجل (ولاية نيويورك) من الولايات المتحدة إعادة النظر في علاقاتها مع المملكة العربية السعودية بسبب «الأعمال التي تقوم بها ضد مصالحنا».

- الإدانات الدائمة والمتحيزة التي تعلنها إيلينا روس ليتينان ضد الإرهاب الفلسطيني في الوقت الذي تصفح فيه عن الانتهاكات الإسرائيلية الوحشية لحقوق الإنسان.

- القرار ١٦٧ الذي يدعو الولايات المتحدة إلى الاعتراف بالقدس كعاصمة لإسرائيل وبالتالي الحكم مسبقاً على أنها قضية أساسية لصالح إسرائيل يجب أن يتم التشاور بخصوصها بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

- القرار ٥٦ الذي يدين الشعب الفلسطيني بسبب الانتخابات الرئاسية التي جرت في ٩ كانون الثاني ٢٠٠٥ في الوقت الذي يمتنع فيه عن ذكر الاحتلال الإسرائيلي.

- القرار ٢٠٣٦ الذي رعاه وينر (عن ولاية نيويورك) والذي حاول من خلاله حث الولايات المتحدة على عدم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية.

- القرار ٢٧٣٠ الذي يدعو وكالتي غاليليه ونيجيف إلى تطوير الطاقة الإسرائيلية الأميركية لإعادة توطين ما يزيد عن ستين ألف من أصل ٣٥٠,٠٠٠ مستعمر غير شرعي في الضفة الغربية، الأمر الذي سوف يكلف الولايات المتحدة الملايين لا بل المليارات.

- القرار ١٤٩ الصادر عن الكونغرس والذي يعترف بالذكرى السنوية لتأسيس دولة إسرائيل، إلا أنه ينكر ما نتج عنها من تدمير للمجتمع الفلسطيني.

- القرار ٢٧٩ الذي يدين الجمعية البريطانية للأساتذة الجامعيين لمقاطعتها الجامعات الإسرائيلية التي يقع حرمها في مستوطنات غير شرعية والتي تحجز حرية أساتذتها بمنعهم من التكلم عن الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الإنسان.

- القرار ٤٦٨١ الذي صدر عن مجلس النواب في ٢٣ أيار ٢٠٠٦ والذي يجرد الشعب الفلسطيني من كل شيء باستثناء الأوكسيجين الذي يتنفسه. هذا القانون العنصري يحد من المساعدات الإنسانية ويمنع ممارسة الدبلوماسية الفلسطينية الرسمية في الولايات المتحدة، وينتقد الأمم المتحدة لمساندتها الفلسطينيين في حقوقهم الإنسانية، ويحرم الفلسطينيين من إمكامنية حصولهم على المساعدة من قبل المؤسسات المالية الدولية.

عندما بدأت إسرائيل بإسقاط كم هائل من القنابل على لبنان في ١٢ تموز ٢٠٠٦، سارع أكثرية أعضاء الكونغرس إلى دعم الأعمال التي تقوم بها إسرائيل. وعلى الفور تم طرح تسعة قرارات في مجلس النواب ومجلس الشيوخ، ثلاثة منها تمت المصادقة عليها.

القراران الأولان تمّ تقديمهما في ٨ تموز؛ أي قبل أقل من أسبوع على بدء إسرائيل بقصفها المدنيين في لبنان. وقد قدم النائب جون بونر (الجمهوري عن ولاية أوهايو) بالاشتراك مع شخصين القرار ٩٢١ في مجلس النواب. كما قدم عضو مجلس الشيوخ بيل فريست (الجمهوري عن ولاية تينيسي) القرار رقم ٥٣٤ في مجلس الشيوخ بالاشتراك مع ٦١ آخرين. وقد دعم الاثنان «حق إسرائيل بالدفاع عن نفسها» وأدانا حزب الله وسوريا وإيران وحماس بشدة. لم تنتقد أي من هذه القرارات إسرائيل بالرغم من أن القرار ٥٣٤، المتحيز نوعاً ما، قد حثّ جميع الأطراف على حماية أرواح المدنيين البريئين والبنية التحتية. ويسلم القرار ٩٢١، باتخاذه صورة الصلاح، بالتزام إسرائيل بالسعي إلى تجنب المدنيين كما ويرحب بالجهود الإسرائيلية الاستثنائية التي تقوم بها لتفادي اصابة المدنيين».

أما القرار الثالث، فقد قُدم وأُقرّ في ٣ آب مبيناً حالة من التكافؤ. وقد قدمه عضو في مجلس الشيوخ كريستوفر دود (ديمقراطي عن ولاية كونيكتيكات) بالاشتراك مع الأعضاء لنكولن شافي (جمهوري عن ولاية رود ايلاند) وراس فنغولد (ديمقراطي عن ولاية ويسكنسن) وديان فينشتاين (ديمقراطي عن ولاية كاليفورنيا) وكارل لفين وديبي ستابنو (ديمقراطي عن ولاية ميسوري(وجون سنونو)جمهوري عن ولاية نيو هامشاير). ويدعو هذا القرار الولايات المتحدة والمجتمع الدولي إلى اتخاذ كافة الإجراءات لوقف القتال، وضمان رجوع الجنديين الإسرائيليين الأسيرين سالمين، واستبدال قوات حزب الله بالجيش اللبناني، وإقامة قوة عسكرية دولية في جنوب لبنان. وفي الوقت الذي يتبع فيه أيضاً تعليمات إيباك للتاكيد على أن إسرائيل تملك الحق بالدفاع عن نفسها، فهو يدعو الولايات المتحدة أيضاً إلى العمل دائماً من أجل السلام في الشرق الأوسط. بالإضافة إلى ذلك فهو ينص على ضرورة أن تكف كل من سوريا وإيران عن إمداد حزب الله بالسلاح ودعمه وأن تسعيا إلى استخدام نفوذهما من أجل نزع سلاحه.

ويبعث اللوبي الإسرائيلي التابع للكونغرس بانتظام رسائل إلى الرئيس بوش ليكفل المصالح الإسرائيلية. وقد بعث كل من الممثلين إيلينا روس ليتينان (جمهوري عن ولاية فلوريدا)، وإليوت أنجل (ديمقراطي عن ولاية نيويورك) بالإضافة إلى ١١٢ نائباً آخراً بكتاب إلى جورج و. بوش يحثونه على فرض أقصى العقوبات ضد سوريا، وهو ما تمت المطالبة به في سنة ٢٠٠٣ بموجب قانون محاسبة سوريا. بالإضاقة إلى ذلك، بعث النائبان

ألتون غاليغلي (جمهوري عن ولاية كاليفورنيا)، وروبرت واكسلر (ديمقراطي عن ولاية فلوريدا) و٢٠٧ نواب آخرون بكتاب إلى خافيير سولانا، المسؤول عن السياسة الخارجية في الاتحاد الاوروبي، يصنفون فيها حزب الله على أنه منظمة إرهابية. وفي مجلس الشيوخ، أرسل العضوان بيل نيلسون (ديمقراطي عن ولاية فلوريدا) وغوردن سميث (جمهوري عن ولاية أوريغون) بالمشاركة مع ٦٨ عضواً آخرين بكتاب مشابه إلى سولانا.

وفي نيسان ٢٠٠٦ تم الكشف عن إحدى الخطط التي تستخدمها إيباك من قبل أحد الموظفين في مكتب العضو في الكونغرس بيتي ماكولوم (ديمقراطية عن ولاية فينوسوتا). وقد أعلم مدير الموظفين في مكتب ماكولوم من قبل ممثل عن إيباك إنه كان عليها أن تمتثل للأوامر لا أن تدعم الإرهاب، الأمر الذي سيكلفها غاليا. في الواقع، طلبت إيباك منها التصويت لصالح قمع السلطة الفلسطينية من خلال تأييد القرار ٤٦٨١ في أول ذلك الشهر والذي نص على وقف المساعدات للسلطة الفلسطينية بسبب فوز حماس في الانتخابات. وقد يكون أحد أكثر الإجراءات تطرفاً ضد الفلسطينيين والعرب والمسلمين التي اتخذت في مجلس النواب والتي لقيت معارضة البيت الأبيض.

ونظراً لسمعتها النزيهة، ولتناقض آرائها بشكل حاد مع زملائها من ضعاف الشخصية، منعت ماكولوم إيباك من التدخل في شؤون مكتبها إلى حين اعتذرت عن خططها المستأثرة والتي تحمل نوايا سيئة.

لا شك في أن ناخبيها يشعرون بالفخر حيال استقلاليتها الشجاعة على الرغم من العواقب الوخيمة المحتملة، وهو ما يجب أن يكون عليه جميع الأميركيين. فماكولوم تعتبر عنوان الشجاعة الأميركية. ومن الجهود الأخرى التي سعت إليها إيباك مؤخراً كان في الولايات المتحدة من خلال دفع العضو في الكونغرس كراولي (ديمقراطي عن ولاية نيويورك) إلى تقديم قرار يتهم السلطة الفلسطينية بالتمييز في تعاملها مع المسيحيين ومضايقتهم. وتدعي إيباك على موقعها الإلكتروني بأن مشروع القانون يتطرق إلى «التدمير المنهجي» للمجتمع المسيحي الفلسطيني من قبل السلطة الفلسطينية.

ومن ضمن المشاركين في وضع هذا القرار، نذكر روس-ليتنان، وبيركلي، وبينس، وساودر وتانكريدو. ويطلق مشروع القانون اتهامات شرسة لا أساس لها من الصحة ضد السلطة الفلسطينية تتمثل في تدنيس المواقع المسيحية المقدسة والإخضاع القسري

«للشريعة الإسلامية». كما تتهم السلطة بسجن المسيحيين الفلسطينيين عشوائياً، وهو أمر مخالف تماماً للواقع. فقد أعلن نائب مدير المالية في جامعة بيت لحم عن اعتقاده بوجود سياسة إسرائيلية متعمدة للتخلص من الأقلية المسيحية لأن انزعاجها يسبب إحراجاً سياسياً لإسرائيل أكبر مما تسببه معاناة المسلمين.

في العام ٢٠٠٦، شهد المسيحيون الفلسطينيون أسبوع آلام عصيب؛ حيث أفاد أساتذة في جامعة لبيت لحم أن العديد من الكليات أحبطت بسبب رفض الحكومة السماح بإقامة رحلات طلابية إلى بحر الجليل والقدس. وفي أنحاء الضفة الغربية، منع المسيحيون من السفر إلى القدس للاحتفال بأحد الشعانين. وعلى نحو مثير للاهتمام، تلقى كراولي رسالة من منظمة السلام الفلسطينية «بيت لحم المفتوحة». وتشير الرسالة إلى أن مسودة قرار كراولي وضعت من دون استشارة المسيحيين القابعين تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي وهي من شأنها تحويل أنظار الكونغرس عن الخطر الحقيقي الذي يهدد مجتمعنا. وجاء في الرسالة أيضاً بين الأعوام ٢٠٠٠ و٢٠٠٤، هاجرت ٣٥٧ عائلة مسيحية (أي ١٠ من السكان المسيحيين) من بيت لحم فحسب. وبالفعل، فإن هذه الهجرة الضخمة تهدد وجود المجتمع المسيحي الذي لطالما صان التقاليد المسيحية المقدسة منذ عصر المسيح. وجاءت هذه الهجرة بشكل أساسي نتيجة الخوف الذي فرضته التوغلات العسكرية الإسرائيلية المتكررة وتفاقمت جراء التدمير الاقتصادي في بيت لحم بسبب الحصار الإسرائيلي المفروض على المدينة.

ولعل الجدار الفاصل الذي أقامته إسرائيل يرمز بشكل كبير للقدر الذي يتشاركه الفلسطينيون المسلمون والمسيحيون. ويتألف جدار بيت لحم الذي يحيط بالمدينة من ألواح من الباطون يبلغ ارتفاعها ٢٥ قدماً وهو مزود بأبراج للقناصين ومواقع للمشاة للتحكم عن بعد. فقد تم تشييده على أرض يملكها الفلسطينيون ما أدى إلى خسارة معظم الأراضي الزراعية الخصبة والمزدهرة اقتصاديا في بيت لحم، بالإضافة إلى معالمنا التاريخية العظيمة. كما أنه فصل مدينتنا عن القدس، المدينة التي أقمنا معها على مر التاريخ علاقات اجتماعية وتجارية وعلاقات قرابة متكاملة. بالإضافة إلى ذلك، فقد أصاب هذا الجدار، الأبرشية المسيحية الوحيدة، بشظايا، مهدداً بذلك المجتمعين المسيحيين التابعين لكلا المدينتين. حينئذ، دعت لجنة بيت لحم المفتوحة الكونغرس إلى زيارتها ورؤية ما يجري بأنفسهم. إلا أن إيباك رأت أن زيارة كهذه مستبعدة. وقد كانت ردة فعل السيد

عفيف صافية، قائد بعثة منظمة التحرير الفلسطينية إلى واشنطن واضحة؛ إذ عبرت عن آراء العديد من أعضاء الكونغرس كما يلي:

«العالم يعرف من يضطهد مسيحيي الأرض المقدسة . فقد بدأ هذا الاضطهاد بالتطهير العرقي الذي شهده الفلسطينيون من قبل الإسرائيليين في العام ١٩٤٨ في مناطق كحيفا ويافا وليدا والرملة وغرب القدس. العالم يعرف من يبني جدار العار، جدار الفصل الذي شوه جنوب القدس ليقطع الاتصال مع المناطق المجاورة لها وينتهك كنيسة بيت لحم حيث، ولد المسيح، ما يؤدي إلى خنق المجتمع وشل الاقتصاد. العالم يعرف من يبني المستوطنات غير الشرعية بسرعة جنونية على الأرض المسلوبة، كمستوطنة جيلو القائمة على أرض مدينة بيت جالا المسيحية المصادرة، ومستوطنة حار حوما القائمة على أرض مدينة بيت ساحور المسيحية المصادرة، وغيرها».

إن أعضاء الكونغرس الذين يبررون بانسجام فيما بينهم دعم الكونغرس لإسرائيل ومدها بالسلاح من دون النظر بجدية إلى نتيجة هذا العمل على المصالح الوطنية الأميركية، يتقاسمون ميزتين:

الميزة الأولى: هي أنهم غير مطلعين على مثل هذه المسائل الأساسية ككيفية تجريد الفلسطينيين من أرضهم ومنازلهم وثقافتهم، بل ويجردونهم من هويتهم أيضا. وإنهم لا يعرفون الكثير حول لبنان والعدوان الإسرائيلي ضده.

والميزة الثانية: هي أن هذه المجموعة من أعضاء الكونغرس التي غالباً ما تلبي الأوامر دون تفكير، تبرر دعمها لإسرائيل وتزويدها بالسلاح؛ لأن «إسرائيل هي الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط»، وهذا ما يعبر عنه باستمرار قائد الأكثرية الديمقراطية الجديدة في مجلس النواب، ستيني هوير (الديمقراطي التابع لولاية ماريلاند)، أمام أكثر من ٢٠ لوبي إسرائيلي يخاطبهم سنويا. والأمر الذي لن تسمعه البتة من الكونغرس، هو أن إسرائيل ليست أقل ديمقراطية من لبنان وتركيا فحسب، بل إنها أقل ديمقراطية من فلسطين، سيما أن ديمقراطيتها تطبق على اليهود وتغفل الفلسطينيين (الذين يعيش نصفهم بين الأردن والمنطقة المحيطة بالبحر المتوسط)، فلا تُطبّق عليهم القوانين، وتحرمهم من الحرية الدينية ومن أبسط حقوقهم كتلقي العلم والحصول على

المياه وامتلاك منزل. يتلقى اليهود فقط كامل حقوقهم من الديمقراطية الإسرائيلية.

لا يتناغم مفهوم الدولة «الديمقراطية» مع العيش في ظل نظام عسكري قاهر. فالديمقراطية تعني أن يتمتع الجميع بقدر متساو من الحرية والحقوق. إلا أن هذا الأمر مخالف للواقع في إسرائيل بالنسبة إلى العرب، والعمال الأجانب، وغير اليهود. فالخدمات الاجتماعية، وتأمين السكن، والوظائف، وإصلاحات البنية التحتية، والحق في تلقي التعليم كلها موجهة لخدمة المناطق اليهودية كالقدس الغربية، وتل أبيب وذلك على حساب المناطق العربية كالناصرة.

وقال الرئيس السابق جيمي كارتر، خلال مناقشات حول كتابه المذكور آنفاً: «ثمة نظام تمييز عنصري (آبارتايد) في فلسطين حيث يحتل شعبان الأرض ذاتها، ولكن بشكل منفصل عن بعضهما البعض. فالإسرائيليون يسيطرون بشكل كامل ويمارسون العنف، ويحرمون الفلسطينيين من أبسط حقوقهم الإنسانية. ومع هذه السياسة المتبعة يصنف الفلسطينيون دوماً في الدرجة الثانية». وينقل كارتر عن أحد الاسرائيليين البارزين قوله: «أخشى أننا متجهون نحو حكومة شبيهة بتلك القائمة في جنوب إفريقيا يتواجد فيها مجتمع مزدوج من الحكام اليهود والعرب الخاضعين لهم الذين يتمتعون بحقوق بسيطة».

معظم الأعضاء يفتقر إلى الشروحات المقبولة التي تفسر الابتهال للجرائم الإسرائيلية بسلاح أميركي وتقديمه مصالح إسرائيل على مصالح أميركا. وقد ساهم نجاح عملهم في منع تفحص الكونغرس لتورط أميركا مع إسرائيل واستخدام الأخيرة للأسلحة الأميركية ضد لبنان وفلسطين والشرق الأوسط. إلا أن هذا النقاش تمت الدعوة إليه من قبل كارتر وتشومسكي وميرشايمر ووالت وكثر غيرهم.

أدت الانتخابات العاشرة بعد المئة للكونغرس التي جرت في السابع من تشرين الثاني ٢٠٠٦ إلى تعزيز سيطرة اللوبي الإسرائيلي على الكونغرس بانتخاب ٢٩ عضواً يهودياً في مجلس النواب و١٤ عضواً يهودياً في مجلس الشيوخ. وهي المرة الأولى التي يسجل فيها اليهود هذه النسبة.

نظراً للسيطرة الصهيونية الواسعة على الفرع الأساسي في الحكومة الأميركية التي تم ذكرها آنفاً، ينبغي القول: إن أداء إسرائيل المتواضع خلال حرب تموز إلى برنامج إيباك

/إسرائيل للكونغرس:

حتى قبل أن يؤدي أعضاء الكونغرس الجدد اليمين في الرابع من كانون الثاني٢٠٠٧، أبدت إيباك استعدادها لمنحهم دعوات لزيارة إسرائيل بصحبة عائلاتهم وتوجيه خطاهم. أما الأمور التي تتوقع إيباك من جميع أعضاء الكونغرس تنفيذها في الأشهر القادمة لدعم الأجندة الأساسية التالية لإيباك:

- تزويد إسرائيل في بداية العام ٢٠٠٧ بعتاد جديد بديل عن الذي خسرته في حرب تموز.

- الاستعداد لسن قانون جديد لتخصيص الأموال الضرورية التي تقدر بـ٢٠ مليار دولار أميركي، لاستبدال السلاح الجوي الإسرائيلي القديم بآخر حديث ومتطور.

- شحن ٥٠٠ قنبلة أميركية من نوع بانكر باستر بلو ١٠٩ الخارقة للتحصينات التحت أرضية إلى إسرائيل، وكميات إضافية من القنابل الخارقة للتحصينات من نوع جي بي يو ٢٨، و١٠٢ طائرة أف ١٦١ تم طلبها في العام ٢٠٠٤، و٢٠٠٠ قنبلة موجهة باللايزر، وصاروخ، وكميات من صواريخ الجو أرض من طراز آص-٥١ وغيرها من الأسلحة الثقيلة.

- مواجهة سوريا وإيران بشتى الوسائل المتوفرة، بما في ذلك المبادرات التشريعية من أجل احتواء المقاومة اللبنانية وتعطيل تأثيرها الإقليمي بعد انتصارها في حرب تموز.

- تهيئة الرأي العام الأميركي لضوء أخضر ستعطيه إدارة بوش لإسرائيل من أجل استخدام الأسلحة النووية التكتيكية ضد إيران، والترويج لفكرة أن الصواريخ الأميركية آص-٨٢ ذات الرؤوس النووية تخترق أكثر من ٧٠ قدما من الباطون من دون امتداد إشعاعاته خارج الهدف. ويبدو أن إسرائيل تعد لهجوم نووي. وبحسب ما أعلنته العضو في الكونغرس ستيني هوير (ديمقراطية عن ولاية ماري لاند) في السابع من كانون الثاني ٢٠٠٧، فإن الكونغرس سوف يدعم قيام إسرائيل بهجوم نووي إذا ما فشلت الخيارات الأخرى. وتحث إيباك الكونغرس على التعبير عن دعمه لإسرائيل لكونها راغبة بتقديم خدمة للشعب الأميركي من خلال التخلص من التهديد النووي الإيراني.

- دعم حملة عالمية لضمان تجريد حزب الله من سلاحه، والحصول على ملايين التواقيع التي تطلب من حماس وحزب الله إطلاق سراح الجنود الإسرائيليين الثلاثة المختطفين.

تطوير حملة إعلامية عامة في جميع الولايات وتمرير الحجة التالية للناخبين في دوائرهم: أصدر مجلس الأمن في الأمم المتحدة قراراً في شهر آب يدعو إلى وقف الأعمال العدائية في لبنان ويعيد التأكيد على قرارات سابقة تقضي بنزع سلاح حزب الله وحله. وإن قرار الأمم المتحدة رقم ١٧٠١ يمكنه فقط تقليص تهديد حزب الله لإسرائيل وتعزيز الاستقرار في لبنان إذا ما تم تطبيق أحكامه بالكامل. ويلعب الكونغرس الولايات المتحدة دوراً حيوياً في ضمان تطبيق البنود الحساسة في القرار.

يجدر بالكونغرس حث قوات اليونيفيل على اتخاذ كافة الإجراءات المناسبة بالتعاون مع الجيش اللبناني لمنع سوريا وإيران من إعادة تزويد حزب الله بالسلاح.

يجدر بالكونغرس الضغط على اليونيفيل لقطع الطريق أمام تهريب الأسلحة على طول الحدود مع سوريا وإبقاء مسألة نزع سلاح حزب الله بقدر المستطاع شأنا عاماً.

ينبغي على الكونغرس تذكير الشعب بأن إسرائيل تطبق واجباتها وفقاً للقرار ١٧٠١، وإن القرار ١٥٥٩ الصادر عن مجلس الأمن في أيلول ٢٠٠٤ يقضي بنزع سلاح حزب الله.

يجب على أعضاء الكونغرس التشديد في الإعلام وفي ولاياتهم على أن القوات الإسرائيلية، قد انسحبت بالكامل من كافة الأراضي التي سيطرت عليها خلال الحرب وأنها رفعت حصارها الجوي والبحري عن لبنان، بعد أن تولت القوات الدولية المسؤولية عن حزب الله.

من شأن هذه الإجراءات تهيئة الرأي العام الأميركي والكونغرس إلى إمكانية شن هجوم جوي من قبل إسرائيل على إيران قبل نهاية العام ٢٠٠٧. ويعمل اللوبي الإسرائيلي الأميركي على منع تسليح تلك القوة اللبنانية من جديد خوفاً من شن أي هجوم بالصواريخ على أراضيها ما إن تقوم هذه الأخيرة بتوجيه ضربة إلى إيران. وتتوقع مصادر في الكونغرس أن يقوم سلاح الجو الإسرائيلي على إيران وسوريا والمقاومة اللبنانية ما إن تتسلم الأسلحة الموعودة بها.

باختصار، من شأن انتصار المقاومة اللبنانية في العام ٢٠٠٦ التي قادها حزب الله إلى بذل الكونغرس جهوداً أكبر لدعم الأهداف الإسرائيلية على المستويين المادي والسياسي. وفي هذا الإطار، سيتجاهل أعضاء الكونغرس مصالح ناخبيهم ووطنهم المادية على المدى

البعيد عند استهدافهم حزب الله، وسوريا وايران.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أن تحليلات الرأي العام الحالية تظهر أن الهوة بين السياسة الأميركية والرأي العام الأميركي ستتسع أكثر فأكثر؛ إذ إن هذا الأخير بصدد تغيير وجهة نظره إزاء الشرق الأوسط ودعم التفاوض والارتباط الديبلوماسي مع تلك الدول التي يستهدفها اللوبي الإسرائيلي الأميركي حالياً.

المحور الثالث

مفهوم الشهادة والحياة من المنظور الديني والقيمي فيه

- معنى الحياة في الرؤية المسيحية — الأب جورج مسوح
- المقاومة والشهادة بين قيم الدين وقيم المواطنة — د. محمد سليم العوا
- مفهوم الشهادة والشهود في النص الديني — الشيخ مالك وهبي

معنى الحياة في الرؤية المسيحيّة

الأب جورج مسوح*

«**أنا الطريق والحقّ والحياة**»[1] يقول السيّد المسيح. والمسيحيّ يفهم هذا القول التزامًا محقّقًا في «الآن وهنا»، حيث يوجد ويتنفّس ويتحرّك.

أن يكون المسيح هو الطريق يعني أن ينهج المسيحيّ نهج معلّمه؛ أي الحبّ الأقصى إلى بذل الذات من أجل الآخر؛ إذ «إنّ العبد ليس أفضلَ من سيّده».

أن يكون المسيح هو الحقّ، يعني أن يعمل المسيحيّ ما بوسعه لأجل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل؛ حيث يرى ظلمًا أو عدوانًا أو قهرًا.

أن يكون المسيح هو الحياة، يعني أن يحيا المسيحيّ في حياته كما عاش المسيح، أن يقتدي بالتعاليم الأساسيّة التي خلّفها المسيح وراءه، وبالأحداث التي جرت معه والمذكورة في الأناجيل.

ويمكننا أن نجمل هذه الأمور الثلاثة: الطريق والحقّ والحياة بأمر واحد هو اتّخاذ المسيح مثالاً أعلى لدى المسيحيّ قابلاً للتطبيق في الحياة اليوميّة.

من هنا، نتناول موضوع هذه الورقة؛ أي معنى الحياة في الرؤية المسيحيّة. فالحسنُ في لاهوتنا المسيحيّ أنّنا نعتقد أن لا قيمة لأيّ عقيدة إيمانيّة إنْ لم تتمّ ترجمتها في حياة المسيحيّ وسلوكه. فليس للتجريد أو للتنظير بحدّ ذاتهما قيمةٌ، بل إنّ العقائد نحياها في يوميّاتنا وفي تفاصيل حياتنا كافّة. لذلك، لا معنى لعقيدة لا تكون راهنة، أو لعقيدة لا

---

* مدير مركز الدراسات المسيحيّة الإسلاميّة - جامعة البلمند.

١- يوحنا ١٤، ٦.

علاقة لها بحياة الناس «الآن وهنا»، أي في الزمان الحاضر والمكان حيث نوجد.

فلنأخذ بعض الأمثلة عن ارتباط اللاهوت العقائديّ في المسيحيّة بالسلوك المفترض أن يسلكه المسيحيّ المؤمن بالنظام اللاهوتيّ المسيحيّ.

تقوم العقيدة المسيحيّة على الإيمان بالثالوث الأقدس: الآب والابن والروح القدس، الإله الواحد. من هنا، كلامنا اللاهوتيّ على «التنوّع في الوحدة»، و«الوحدة في التنوّع» للدلالة على العلاقة القائمة بين الأقانيم الثلاثة. فالوحدة لا تلغي الخصوصيّة، كما أنّ التنوّع لا يعني الفردانيّة أو التفرّد، أو عدم العلائقيّة الخلاّقة. على مثال هذه الصورة الثالوثيّة ينبغي لنا أن ننظر إلى الآخر؛ أي على أساس أنّنا واحدٌ في المسيحيّة إنْ شئنا التخصيص، وواحدٌ في الإنسانيّة إنْ شئنا التعميم. ولكن أيضًا، وفي كلا الحالتين، متنوّعون ومؤمنون بالاختلاف، وبتميّز كلّ إنسان عن الآخر ومواهبه.

نأتي إلى عقيدة ثانية، هي عقيدة التجسّد؛ أي صيرورة المسيح إنسانًا. ونفهم التجسّد التزامًا مباشرًا من الإله بحياة الإنسان. لقد صار الإله إنسانًا كي يختبر الحياة الإنسانيّة، فيتألّم مع المتألّمين، ويفرح مع الفرحين. هكذا نجد المسيح رفيق المستضعَفين والمعذَّبين في الأرض، جاع معهم، وعطش معهم، ولم يكن له موضعٌ يُسند إليه رأسه. لذلك، ليست المسيحيّة، بناءً على هذه العقيدة، مجرّد حياة روحيّة نتقدّم فيها بالصلوات والأصوام فحسب، بل هي التزام ماديّ ومعنويّ بالإنسان القريب، لا القريب باللحم والدم والتناسل الطبيعيّ، بل الذي «صار قريبًا» بعد أن وقع بين أيدي اللصوص. القرابة، في هذا السياق، صيرورةٌ تتحقّق بالتزام العمل من أجل عالم أفضل يسوده السلام والعدل والمحبّة.

أمّا ذروة الحياة المسيحيّة فتتجلّى في أبهى صورها بالصليب، حيث وهب السيّد المسيح ذاته مجّانًا «من أجل حياة العالم». هكذا المسيحيّ ينبغي أن يحبّ أخاه الإنسان، إلى حدّ بذل الذات من أجل أن يحيا الآخر الموضوع في عهدته. وفي هذا يقول المسيح: **«مَن أراد أن يتبعَني فليكفُرْ بنفسه ويحملْ صليبه ويتبعْني. لأنّ مَن أراد أن يخلّص نفسه يهلكها، ومَن أهلك نفسه من أجلي ومن أجل الإنجيل يخلّصُها. فإنّه ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالمَ كلّه وخسر نفسه»**[1]. وفي هذا الصدد يقول المطران جورج خضر: **«المسيحيّ كمعلّمه محمولٌ على الصليب لا حامل صليب. ليس هو بصليبيّ»**[2].

٢- مرقس ٨، ٣٤-٣٦.

٢- المطران جورج خضر، الرجاء في زمن الحرب، دار النهار، بيروت، ١٩٨٧، ص ٣٠.

معنى الحياة المسيحيّة، إذًا، يكمن بالضرورة في ممارسة المسيحيّ لعقائده في حياته اليوميّة، فيحيا الثالوثَ «تنوّعًا ووحدةً»، والتجسّدَ «التزامًا معنويًّا ومادّيًّا»، والصليبَ «حبًّا وبذلاً بلا مقابل». ذلك يعني أنّ لا مكانَ في المسيحيّة للاّهوت المنقطع عن حياة الناس وواقعهم ومشاكلهم. والمسيح لم يأتِ بنظريّات فلسفيّة أو نظريّة، ولا بتعاليم تفوق العقل، بل قدّم نفسَه نموذجًا، فنفّذ على نفسه أولاً ما طلبه من أتباعه. حياتُه كانت الكلمة التي شاءها الله أن يقولها للناس، فيحيوا بها إلى الأبد.

ساوى المسيح نفسه بالمستضعَفين والمضطهَدين والمعذَّبين في الأرض، وقال إنّ الأساس الذي تقوم عليه الدينونة في اليوم الأخير ليس سوى المحبّة التي يكنّها الإنسان تجاه أخيه الإنسان. ويبقى القول بأنّ «الله محبّة» أو «الله رحيم» أو «الله قدّوس» عقيمًا، إنْ لم تنعكس هذه الحقائق في حياة الناس. العقيدة المعبَّر عنها في حياة المؤمنين والممارسَة تجاه الآخر هي العقيدة التي يصدّقها الناس.

اللافت في هذا المضمار ما ورد في إنجيل متّى حول معايير الدينونة، حيث يُسأل الناس المحشورون سؤالاً واحدًا على جوابه ينالون الخلاص «**ماذا فعلتَ بأخيك الإنسان؟**» ويعطي المسيح الجواب للناجين من النار المؤبّدة : «**لأنّي جعتُ فأطعمتموني، وعطشتُ فسقيتموني، وكنت غريبًا فآويتموني، وعريانًا فكسوتموني، ومريضًا فعدتموني، وسجينًا فجئتم إليّ**»، مؤكّدًا لمستمعيه: «**كلّما صنعتم شيئًا من ذلك لواحد من إخوتي هؤلاء الصغار، فلي قد صنعتموه**»[1].

أمّا خلاصة تعليم يسوع المسيح، فيسعنا القول إنّها «التطويبات التسع» التي افتتح بها بشارته السارّة في موعظته الشهيرة على الجبل. فهو يمنح الطوبى، أي الحياة الهنيئة والسعيدة، لـ «فقراء بالروح، والودعاء، والمحزونين، والجياع والعطاش إلى البرّ، والرحماء، وأطهار القلوب، والساعين إلى السلام، والمضطهَدين على البر». هل يجب علينا انتظار مجيء المسيح ثانيةً لكي تعمّ هذه الطوبى أم في مستطاعنا أن نجعلها حاضرةً في عالمنا اليوم؟

في الصلاة الوحيدة التي علّمها يسوع لتلاميذه، تلك التي يتلوها المؤمنون يوميًّا مرّات عدّة «**أبانا الذي في السموات**»، نجد دعوة إلى التزام شؤون الأرض وإحقاق العدالة

١- متى ٢٥، ٣١-٤٦.

والسلام لتحويل هذه الأرض إلى ملكوت سماويّ حقيقيّ. ففي هذه الصلاة يتوجّه المسيحيّ إلى ربّه قائلاً: «**ليأتِ ملكوتُك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض**». نحن نؤمن بأنّ الملكوت الإلهيّ قد بدأ، لكنّه سيُعلن بقوّة في اليوم الأخير عند المجيء الثاني للمسيح. إلاّ أنّ المسيحيّ لا ينتظر حلول هذا الملكوت بسلبيّة، بل عليه تحقيقه «الآن وهنا» من خلال التزامه تحقيق الخير والسلام والعدل وإعمار الأرض وعدم تشويهها.

أمّا تحقيق مشيئة الله في الكون، فقد أناط الله بالإنسان هذه المهمّة، ذلك أنّ تحقيق مشيئة الله في الكون يمرّ عبر إخضاع الإنسان مشيئته الشخصيّة لمشيئة الله، بحيث تتطابق هاتان المشيئتان. وهل مشيئة الله سوى تحقيق السلام والعدل والمحبّة؟ العالم يتحوّل أكثر فأكثر ملكوتًا كلّما انضم إنسانٌ جديد إلى الجهاد من أجل عالم أكثر عدلاً وسلامًا وحبًّا. التحدّي الحقيقيّ يكمن في قدرة الإنسان على عدم انتظار اليوم الأخير للعيش في السعادة، بل في جلب هذا الملكوت من اليوم الأخير إلى اليوم الحاضر. الطوبى ليست شأنًا مستقبليًّا مؤجّلاً إلى يوم غير معلوم، بل هي تشكّل تحدّيًا راهنًا في وجه الإنسان لتحقيقها في حياته اليوم، في العالم الذي يحيا فيه.

في اللاهوت المسيحيّ، «الآتي» يعني «الحاصل». وهذا ما يُطلق عليه «**تذوّق الخيرات الآتية**» التي يمنحها الله، بواسع رحمته، للمخلَّصين. يقول كاتب الرسالة إلى العبرانيّين إنّ «**المسيح جاء عظيم كهنة للخيرات المستقبَلة**»[1]، ويضيف أنّ هذه الخيرات هي خيرات الوطن السماويّ «**لذلك لا يستحيي الله أن يدعى إلههم، فقد أعدّ لهم مدينة**» يحيون فيها إلى الأبد. ويمكننا القول إنّ في السياق الإسلاميّ ما يماثل هذا الوعد؛ إذ يأمر الله المؤمنين في القرآن الكريم: ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾[2]. استباق الخيرات يعني العملَ معًا من أجل عالم أفضل تسود فيه القيم التي تعلي من شأن الإنسان. استباق الخيرات يعني جعلَ الله حاضرًا أكثر في عالمنا، سيّدًا عليه وعلينا. استباق الخيرات يعني أن يرثَ الله الأرض ومَن عليها اليوم قبل الغد.

ما الإنسان في النظرة المسيحيّة؟ هو المخلوق الوحيد الذي صنعه الله «**على صورته ومثاله**». وما الصورة والمثال، هنا، سوى الحرّيّة والعقل اللذان يتمتّع بهما الإنسان خلافًا لكلّ المخلوقات الأخرى. فيكون، تاليًا، كلّ اعتداء على حرّيّة الإنسان اعتداءً على صورة الله

١- الرسالة إلى العبرانيين ٩، ١١.

٢- سورة المائدة: الآية ٤٨.

فيه، اعتداءً على الله نفسه. لذلك لا تؤمن المسيحيّة بالجبريّة التي تجعل الإنسان مستسلمًا للقدر، وكأنّ الله مسؤول عن الظلم والقهر، ولا حيلة للإنسان في مواجهة الأحداث التي تعترضه. بل على العكس تمامًا، تؤمن المسيحيّة بالحرّيّة الكاملة للإنسان وبقدرته على الاختيار بحيث يكون مسؤولاً عن كلّ ما يقوم به.

لا ريب في أنّ المسيحيّة تدعو إلى مقاومة الشرّ في هذا العالم الحاضر، اتّخذ هذا الشرّ صورة عدوّ خارجيّ يعتدي على حياة الناس فيقتلهم ويهجّرهم من ديارهم ويستولي على خيراتهم، أم اتّخذ صورة داخليّة من ظلم نظام جائر، أو جشع شركات كبرى، أو احتكارات تمنع الناس من التمتّع بخيرات بلدها... فقد ورد في حكمة يشوع بن سيراخ: «**أيّ سلام يمكن أن يقوم بين الضبع والكلب؟ وأيّ سلام ممكن بين الغني والفقير؟ إنّ حمير الوحش إنّما هي طرائد الأسود في البرّيّة، هكذا الفقراء هم فريسة الأغنياء**». أمّا مارتن لوثر كينغ، قائد الحملة ضدّ التمييز العنصريّ في بلده، فيقول: «**هل ينبغي لنا أن نخلص إلى الاعتقاد بأنّ التمييز العنصريّ إنّما هو من إرادة الله، فيقودنا ذلك إلى الرضوخ للقهر؟ كلاّ بالتأكيد. لأنّ ذلك إنّما يكون تجديفًا ننسب به إلى الله ما يأتي من الشيطان. إنّ التعاون السلبيّ مع نظام ظالم يجعل المظلوم مساويًا للظالم من حيث الشرّ**».

صحيح أنّ المسيح دعا إلى محبّة الأعداء، بمعنى أنّ المسيح يقيم فرقًا بين الإنسان وأعماله. لقد كره المسيح الشرّ ولكنّه أحبّ الإنسان، الشرّير والصالح على حدّ سواء. من هنا، لا تقوم «محبّة الأعداء» على تجاهل العداوة أو على إنكارها، بل على اعتبار العدوّ إنسانًا قابلاً للتوبة، فتكون مقاومة المؤمن له مقاومةً للشرّ الذي فيه، ورجاءً في تحوّله إلى إنسان صالح يلتقي به في الإنسانيّة الواحدة. المحبّة، تاليًا، تفترض التصدّي للأشرار والظالمين والمعتدين حفاظًا على الحياة التي ائتمننا الله عليها. يقول أمبروسيوس أسقف ميلانو (القرن الرابع): «**إنّ الذي لا يصدّ الظلم الذي يهدّد أخاه، في حين أنّه قادر على ذلك، لا يقلّ ذنبًا عن الذي يقترف الظلم**». وكلّ مجاراة للظالم في موقفه العدوانيّ إنّما هي هزيمةٌ للمحبّة وإنكارٌ لقوّة ملكوت الله الفاعلة منذ الآن في الأرض وتخليدٌ لدوّامة الشرّ.

يبدو، من وجهة نظر مسيحيّة، أنّ النضال اللاعنفيّ هو الصيغة المثلى للمقاومة، ذلك أنّه يحقّق الانسجام بين الهدف (أي السلام والعدل والمحبّة) والوسائل، فيستبق تحقيقَ

الهدف عبر الوسائل عينها . مع ذلك، لا يجوز إضفاء صفة الإطلاق على النضال اللاعنفيّ؛ بحيث ينتفي مبدئيًّا وقطعيًّا كلّ سبيل عنفيّ للنضال. فالنضال اللاعنفيّ مهدَّدٌ من ناحيته بالتركيز على نوعيّة الوسائل بحيث تصبح هذه الوسائل بنظره غايةً بحدّ ذاتها، فاعلةً كانت أم غيرَ فاعلة، فيقع في طهريّة عاجزة يصدق فيها ما قيل عنها بأنّها، خوفًا من تلويث يديها، ارتضت أن تكون بلا يدين.

إنّ الخيار بين الأساليب العنفيّة أو اللاعنفيّة للنضال لا يمكن أن يقوم على مجرّد الموقف المبدئيّ، بل ينبغي أن يراعي ضرورات الواقع والسياق التاريخيّ. ينطبق هذا الأمر أكثر ما ينطبق على الاغتصاب الصهيونيّ لأرض فلسطين وأجزاء أخرى لبلدان الجوار، الذي ربّما كان بالإمكان أن يتمّ التصدّي الناجح له بالنضال اللاعنفيّ في بداياته. أمّا بعد أن رسّخ العدو الصهيونيّ أقدامه وعمّق جذور الحقد والكراهيّة وطرد أبناء الأرض، فقد أصبحت مقاومته بهذا الأسلوب اللاعنفيّ مستحيلة، فوجبت المقاومة المسلّحة.

معنى الحياة في المسيحيّة، كما قلنا، يكمن في المحبّة القصوى التي يشهد لها الإنسان في كلّ مفاصل حياته. والشهادة لها أوجه عدّة: بالقول وبالفكر وبالعمل، إنّما أيضًا بالدم المبذول من أجل الأحبّة. لذلك، حياة المسيحيّ مقاومة مستمرّة طالما هناك إنسان مقهور في حرّيّته أو في رزقه أو في طعام أولاده.

الشهادة
بين قيم الدين وقيم المواطنة

د. محمد سليم العوا*

«إننا نربّي أولادنا ليرتفعوا شهداء لا ليصبحوا قادة أو زعماء»

(السيد حسن نصر الله في تعليقه على

استشهاد ابنه السيد هادي تقبله الله تعالى)

١ ـ كلمات أربع:

يدور حديث هذه الورقة الموجز، وتجتمع المداخلات والمناقشات المتفقة معها والمعترضة عليها، حول أربع كلمات هي:

المقاومة؛ والشهادة؛ والدين؛ والمواطنة.

وبتحديد معاني هذه الكلمات يستقيم الحديث عنها، ويصح الجمع بينها، أو يتبين أنه جمع لا يجوز.

١-١- والمقاومة هي:

قيام الناس بعضهم لبعض في الحرب(١)، وقد استقر استعمالها الحديث في وصف الأعمال العسكرية، أو أنشطة الصمود والثبات التي يمارسها شعب معتدىً عليه، أو جماعات منه، ضد معتدٍ محتل، أو غازٍ يريد الاحتلال.

ولذلك يقال في الأدبيات السياسية المعاصرة: المقاومة الفلسطينية ويراد بها مقاومة

---

* الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين – رئيس جمعية مصر للثقافة والحوار.

١- المعجم الوسيط، الطبعة الثالثة، مجمع اللغة العربية المصري، القاهرة ١٩٨٥، مادة: (ق و م).

الصابرين والمرابطين من أهل فلسطين للعدو الصهيوني. والمقاومة اللبنانية ويراد بها من واجهوا العدوان الأمريكي في أوائل الثمانينات من القرن العشرين، والعدوان الصهيوني على لبنان في التسعينات من القرن العشرين ثم في السنة الماضية (٢٠٠٦). ويقال المقاومة الكويتية لمن حارب من أهل الكويت والمقيمين فيها الاحتلال العراقي للكويت في عهد صدام حسين. ويقال المقاومة الأفغانية ويراد بها جهاد الشعب الأفغاني ضد المحتل السوفييتي في الثلث الأخير من القرن العشرين ثم، منذ عام ٢٠٠١ حتى الآن، ضد الاحتلال الدولي بقيادة «حلف شمال الأطلسي» رسميًا والولايات المتحدة الأمريكية فعليًا. ويقال (المقاومة العراقية) لمن يقاتلون المحتل الأمريكي من أهل العراق منذ الغزو الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣ حتى الآن. ويقال المقاومة الصومالية لأهل الصومال الذين يجاهدون ضد الاحتلال الأثيوبي، المدعوم أمريكيًا، منذ شهور.

وهكذا كل مقاومة في استعمالنا العربي المعاصر هي موقف جهادي ضد محتلٍ أو غازٍ أو معتدٍ يريد الوطن أو أهله بسوء.

١-٢ - والشهادة هي:

الإخبار بالحق وبيانه، والقول الصادر عن علم[١].

والشهيد هو الذي ينال الشهادة بالموت في سبيل الله؛ لأن الملائكة تَشْهَدُهُ، أو لأن الله وملائكته شهود له بالجنة، أو لأنه حيٌّ عند ربه فكأنه يشاهد الأشياء والأحداث، أو لأنه يشهد ملكوت الله وملكه[٢] عند قتله وغيره لا يشهده إلا يوم القيامة. وقيل سمّي كذلك لقيامه بشهادة الحق في أمر الله حتى قُتِلَ[٣].

والأصل في الشهيد أنه يقتل مجاهدًا في سبيل الله؛ ثم اتُّسع فيه فشمل آخرين سماهم النبيّ (صلّى الله عليه وآله وسلم) شهداء.

ويفرق المحدّثون والفقهاء بين الشهيد الذي له حكم الشهداء في ثواب الآخرة وفي أحكام الدنيا، وهو الذي لا يُغسل ولا يُصلى عليه ويُدفن في ثيابه التي قُتِل فيها دون كفن؛ والشهيد الذي جاءت الأحاديث الصحيحة بتسميته شهيدًا وهو ليس ممن قُتل في الحرب؛

١- المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر، ط٢، بيروت ٢٠٠٢، مادة (الشهادة)؛ وأبو البقاء الكفوي، الكليات، وزارة الثقافة دمشق١٩٨١، جـ ٣ مادة (الشهادة) ص ٦١.

٢- المصدر السابق، ص ٦٠، والنووي على مسلم، جـ ٢ ص ١٦٤، ط المكتبة المصرية بالقاهرة (د.ت).

٣- لسان العرب، مادة: (ش هـ د).

وهذا له ثواب خاص في الآخرة، لا يلزم أن يكون كثواب شهيد الحرب، وهو بالرغم من تسميته شهيدًا يُغسَّل ويُكَفَّنُ ويُصلَّى عليه[1].

واستدل الفقهاء على ذلك بأن النبي (صلّى الله عليه وسلم) صلّى على امرأة ماتت في نفاسها وهي معدودة من الشهداء[2]، وصلى على سعد بن معاذ وهو شهيد[3]. وبأن المسلمين صلّوا على أميري المؤمنين عمر وعلي رضي الله عنهما وهما شهيدان[4].

والشهيد الذي نعنيه هنا هو المقتول في حرب العدو المصطلح على تسميتها «مقاومة». فهذا شهيد بغير جدال سواء أكان قتله في مواجهة عسكرية مباشرة مع الغازي أم المحتل، أم كان قتله نتيجة قيامه بعملية استشهادية يقدم فيها نفسه - غير ضانٍّ بها - دفاعًا عن دينه أو وطنه[5].

١-٣ - والديــن هــو:

ما يتدين به الإنسان من الإسلام وغيره، وقد أوردها القرآن في معانٍ متعددة تدل بوجه عام على علاقة طرفين يُعَظِّمُ أحدهما الآخر ويخضع له. وأهل الفقه يريدون بهذا الخضوع نوعًا خاصًا منه هو خضوع العبد لربه فيما أمر به ونهى عنه، وحرصه على صنع ما يحب الربُّ، سبحانه وتعالى، واجتناب ما يكره[6].

والدين بهذا الاعتبار علاقة بين العبد وربه تقتضي سلوكًا يتكرر بعضه: كأداء الصلاة، وإيتاء الزكاة، والتضرع بالدعاء؛ وبعضه لا يُطلب إلا مرة في العمر كأداء فريضة الحج؛ وبعضه يقع لبعض الناس دون بعض كطلب العلم، وقتال العدو، قال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾**[7]؛ فهؤلاء طلبة العلم، قوم

١- شرح النووي على صحيح مسلم، السابق. ويرى ابن حزم أن شهيد الحرب إن صُلي عليه فحسن وإن لم يصلَّ عليه فحسن، المحلى، المسألة رقم ٥٦٢ جـ٥ ص ١١٥ من طبعة المكتب التجاري، بيروت (د.ت).

٢- متفق عليه من حديث سمرة بن جندب، البخاري رقم (١٣٣١)، ط دار السلام، الرياض، ١٩٩٧؛ ومسلم رقم (٤٦٩)، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٩٩٨.

٣- متفق عليه من حديث أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، البخاري رقم (٣٦٤)؛ ومسلم رقم (١٧٦٩).

٤- ابن قدامة، المغني، ط عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٨٧، جـ ٣ ص ٤٧٦.

٥- انظر فصل «شعب عرف طريقه» في كتابنا: «شخصيات ومواقف عربية ومصرية»، دار المعرفة بيروت ٢٠٠٤؛ ومقالنا: عرائس فلسطين، صحيفة الأسبوع القاهرية، أكتوبر ٢٠٠٣.

٦- شيخنا العلامة محمد مصطفى شلبي، المدخل، دار التأليف بالقاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٥ (بتصرف طفيف واختصار).

٧- سورة التوبة: الآية١٢٢.

مخصصون لا يمكن أن يكونوا كل الناس ولا جمهرتهم.

وقال سبحانه: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً... الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾(١). فأولئك المجاهدون لا يتصوّر إلا أن يكونوا بعض الأمّة لا كلها.

والمقتول منهم في قتال في سبيل الله. ومنه قتال المقاومة للغازي أو المحتل. هو الشهيد بالمعنى الأصلي في الفقه الإسلامي.

١-٤- والمواطنة:

مشتقة من الوطن الذي هو منزل الإقامة أو موضع الميلاد(٢)؛ وهي مفاعلة بين الإنسان والمكان، وبين الإنسان ومجموعة من البشر يشاركونه الانتماء للمكان نفسه.

وهي في عصرنا الحاضر رابطة قانونية بين الفرد ودولةٍ ما تجعله عضوًا في الجماعة السياسية، وتكفل له حقوقًا وامتيازات وحماية لا ينالها غير المواطن، وذلك في مقابل ولائه للوطن وأدائه للواجبات التي يلزم بها قانون تلك الدولة المواطنين فيها(٣).

وهي في المعجم القانوني العربي: «التمتع بالحقوق السياسية كافة كحقّ الانتخاب وحقّ الترشيح للهيئات النيابية وحق تولي الوظائف العامة»(٤). وهذا التعريف منتقد لخلوه من النص على أداء الواجبات التي يلزم القانون المواطنين بأدائها مثل الإلزام بدفع الضرائب، وتأدية الخدمة العسكرية، والالتزام بالقوانين ونحو ذلك(٥).

وصحة هذا الانتقاد تبدو من كون المفاعلة لغة تقتضي حركة متبادلة بين الناس بعضهم وبعض، وبينهم وبين المكان الذي اتخذوه. أو وجدوه. وطنًا. فالحقوق والواجبات التي تترتب على المواطنة، والميزات والمراكز القانونية الناشئة عنها من جهة، متبادلة بين الوطن

١- سورة النساء: الآيتان ٧٤-٧٦.

٢- الكفوي، السابق، جـ٥ ص ٤٢ مادة (الوطن)؛ والمناوي، التوقيف، مادة (الوطن الأصلي).

3- Oxford Companion to Law, 1980;Black's Law Dictionary, 5th Ed.1979.p221.

٤- مجمع اللغة العربية، المعجم القانوني، القاهرة ١٩٩٩، ص ٧٤٣.

٥- محمد سليم العوّا، المواطنة في بلاد غير إسلامية وواجب المحافظة على الهوية، ورقة مقدمة إلى المؤتمر العالمي الأول للوسطية، الذي عقده المركز العالمي للوسطية بالكويت، لندن، مايو ٢٠٠٦.

وأهله من جهة أخرى؛ وتفصلها قوانين كل دولة بالنسبة لمواطنيها، والوثائق السياسية الدولية المعنية بحقوق الإنسان بالنسبة للمبادئ العامة المتفق عليها بين الأمم(١).

ولا تنتج المواطنة هذه الرابطة القانونية فحسب، ولكنها تثمر شعورًا فطريًا طبيعيًا في كل عصر ومكانٍ يملأ على الناس قلوبهم، ويجعلهم يفتقدون أوطانهم ويحنّون إليها فينشدون فيها الشعر وينشئونه، ويعلّمون أولادهم حب هذه الأوطان ووجوب بذل الغالي والنفيس في سبيل المحافظة عليها، إن كانوا مقيمين فيها، أو العودة إليها عندما يضطرون إلى الهجرة أو الاغتراب.

والثابت في صحيح السنّة والسيرة أن النبي (صلّى الله عليه وسلم) دعا لأصحابه أن يحبوا المدينة كما أحبوا مكة، وأنه لم ينكر عليهم شكواهم مما أصابهم بعد الهجرة من افتقاد الوطن ومعالمه ومياهه(٢).

وهذا الشعور الفطري - حب الوطن - دافع لا يُتخلّف عن بذل النفس والنفيس في سبيله أيّاً ما كان دين المواطنين المنتمين إليه. وبهذا البذل جاهد العرب، مسلمين ومسيحيين، الاستعمار الغربي منذ بدايات القرن العشرين حتى استطاعوا قبل نهايته أن يقيموا الدول العربية الحالية التي نشأت من كفاح أبنائها جميعًا كفاحًا جعل بقاء الاستعمار مستحيلا(٣).

وإذا كان الدين هو ما يخضع له الإنسان خضوع تدينٍ ومحبةٍ لله رب العالمين، وطاعةٍ لما أمر به في كتابه أو على لسان رسوله، واجتنابٍ لما نهى الله عنه أو نهى عنه الرسول؛ فإننا يجب أن نعرف موقف الدين من الشهادة.

والمسلم يكفيه في هذا أن يقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(٤). قال أهل التفسير إن معنى هذه الآية

١- شريف بسيوني، الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٣، المقدمة. وفي صدر المجلد الثاني من هذا المؤلف عدد من الوثائق الإسلامية المهمة في موضوعه.

٢- راجع: الأحاديث من ١٣٦٠ إلى ١٣٨٥ من صحيح مسلم وهي مروية عن أبي سعيد الخدري، وعن سهل بن حنيف، وعن أم المؤمنين عائشة، وعن عبد الله بن عمرو، وعن أبي هريرة. وعن أنس بن مالك، وعن زيد بن ثابت، وعن جابر بن عبد الله، وعن جابر بن سمرة رضي الله عنهم، وبعضها متفق عليه مثل حديث «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها؛ وبارك في صاعها ومدها».

٣- محمد سليم العوّا، للدين والوطن، دار نهضة مصر بالقاهرة، ٢٠٠٦، فصل: «المواطنة بين شرعية الفتح وشرعية التحرير» ص ٤٦ وما بعدها.

٤- سورة آل عمران: الآية ١٤٠.

أن الله يكرم بعض عباده بالشهادة في القتال في سبيله لما للشهادة من فضل عظيم يدل عليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

وقد بشر الله تعالى الطائعين لله ورسوله بأنهم: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً﴾[2]، والقرآن الكريم يقول عن الشهداء: ﴿... وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ...﴾[3].

والقرآن الكريم يبشر الشهداء بقول الله تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

فالدين يحض على الشهادة في سبيل الله ويبشر عليها بالثواب العظيم الذي يُجمع مستحقه يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ويجعله منذ قتله حيًا شاهدًا على ما يكون؛ وهي مكانة ليست لأحد إلا للشهيد.

والأحاديث النبوية تؤكد فضل الشهيد وأجره: فعن أنس بن مالك (رضي الله عنهما) أن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال: «ما من نفس تموت لها عند الله خير، يسرها أنها ترجع إلى الدنيا، ولا أن لها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل في الدنيا لما يرى من فضل الشهادة»[5].

وفي صحيح البخاري أن النبيّ (صلّى الله عليه وسلم) قال: «والذي نفسي بيده لوددت

١- سورة التوبة: الآية١١١. وانظر: القرطبي، أحكام القرآن، مصورة دار الكتب ج ٤ ص ٢١٧.

٢- سورة النساء: الآيتان ٦٩-٧٠.

٣- سورة الحديد: الآية ١٩. وانظر: المصدر نفسه، ج ١٧ ص ٢٥٣ حيث يروي عن ابن عباس ومقاتل أن الشهداء هنا هم شهداء المؤمنين.

٤- سورة آل عمران: الآيتان ١٦٩-١٧٠.

٥- متفق عليه من حديث أنس بن مالك، البخاري (٥٩٧٢) ومسلم (٧٧٨١)، واللفظ في المتن لمسلم.

أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل»[1]، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة في المصادر كلها.

فقيم الدين تعلي من شأن الشهادة إعلاءً لا يجعل أعظم منها مطلبًا لمن يرجو وجه الله ويطمع في رحمته ومرضاته.

والمواطنة بما هي، على ما شرحناه آنفًا، مفاعلة بين الناس والوطن، توجب للوطن حقوقًا على مواطنيه، تضم صوتها إلى صوت القيم الدينية في الإعلاء من شأن الشهادة. ويتأكد هذا عندما يكون القتال الواجب قتال مقاومة الغازي أو المحتل. ويستوي في هذا السبيل أن يكون المواطن مسلمًا أم غير مسلم؛ إذ الجماعة الوطنية بمكوناتها كافة مسؤولة عن حماية الوطن، والدفاع عنه، ومقاومة عدوه ماديًا ومعنويًا بكل ما تستطيعه من الوسائل. وعندما يبلغ المقاوم درجة التضحية بنفسه في سبيل وطنه فإنه يبلغ الدرجة التي يستحقها الشهيد عندما يموت في سبيل الله.

والأوطان تحفظ لشهدائها حقوقهم المادية والمعنوية.

٧-١- **فأما الحقوق المادية، فأهمّها** وجوب أن يُخْلَفوا في أهليهم وأولادهم بخير. وفي الحديث الصحيح أن من جهز غازيًا أو خلفه في أهله بخير فقد غزا[2]. وهذه البشارة لأفراد تنطبق كذلك ـ وربما انطبقت من باب أولى ـ على الدول والجماعات، لأن ما تستطيعه هذه الدول والجماعات من أداء هذه الحقوق المادية أضعاف ما يستطيعه الأفراد، وما تأخذه من حقوقها ـ كالضرائب والزكوات والصدقات والخُمس وغيرها ـ يوجب عليها رد الدين لمن ضحى في سبيل الوطن بحياته لأن قاعدة) الغرم بالغنم(قاعدة عامة مطّردة لا يجوز أن تتخلّف.

٧-٢- **وأما الحقوق المعنوية فأهمها** أن يُحفظ للشهيد في سبيل الوطن، الذي قضى وهو يقاوم الغازي أو المحتل، ولأهله وأولاده من بعده، حُسْنُ الذكر وموفور الكرامة، وأن يبقى بصالح سيرته رمزًا للأجيال المتوالية تحيا به في النفوس الرغبة في فداء الأوطان، وتقوم بتذكره والتذكير به القدوة الصالحة لأن تقلد وتكرر.

والحمد لله رب العالمين

١- صحيح البخاري عن أبي هريرة رقم (٦٣) ورقم (٧٩٧٢).

٢- متفق عليه من حديث زيد بن خالد الجهني، البخاري (٣٤٨٢) ومسلم (٥٩٨١).

مفهـــوم الشّهـــادة والشّهـــود في النّــصّ الدينـــيّ الإسلامـــيّ

الشيخ مالك وهبـي*

اسمحوا لي في البداية أن أوجّه تحية تقدير لمعهد المعارف الحكمية ودار الهادي على هذا الجهد المشكور، في إطار السعي لإحياء ذكر المقاومة، وتركيز مفاهيمها، ودفع الشُّبَهِ عنها، فإنه عمل يندرج أيضاً في إطار العمل المقاوم. وتحية إلى الشهداء الذين أعطوا لمفهوم الشهادة والشهود بعداً وجدانياً، ومعرفياً مشهوداً، أغنى عن البيان، فالفاتحة لأرواحهم المباركة.

البحث يدور حول مفهوم الشهادة والشهود في النص الديني، والمقصود النص الديني الإسلامي، ولم تسنح الفرصة للبحث عن المفهوم في النص الديني العام، إلا أن البحث وإن لاحظ النص الديني الإسلامي إلا أنه نص ينسجم مع كل الأديان، بل ينسجم مع القيم الإنسانية، وبالتالي فإن نتائج البحث لا تختص بالدين الإسلامي.

والشهادة كمفردة لغوية، يرد استعمالها في موارد عديدة، فقد ورد استعمالها في موارد المنازعات، فيستدعى الشهود للشهادة أمام القاضي، وفي هذا المورد يرد لفظ شهادة التحمل، وتعني ما شهده الشاهد حساً كعقد بيع، أو شهد آثاره التي لا تنفك عنه كالعدالة التي لا تدرك إلا بآثارها، وشهادة الأداء، وهي أداء ما شاهده. كما تستعمل في مورد الإشارة إلى المحسوسات، فيقال له عالم الشهادة في مقابل عالم الغيب. وتستعمل في مورد القتل في سبيل الله تعالى، فيقال لهذا القتل شهادة، وفي مورد يعبر عن بعض المقامات هي

---

* باحث في الفكر الإسلامي.

مقام الشهداء، وهو مقام الشهادة على الأعمال.

وهذه المفردة بكل اشتقاقاتها، لا تصح إلا في حال كان هناك حضور مع المشاهدة إما بالبصر أو البصيرة، فالشهادة لا تكون إلا عن شهود وحضور، مهما كان مورد استعمالها، فإنه لم يدّعِ أحد أن لفظ الشهادة مشترك لفظي بين موارد استعمالاته، بل هو من المشترك المعنوي، حسب الاصطلاحات اللغوية.

ولا يهمنا هنا تتبع استعمالات الشهادة؛ لأن البحث يختص بجانب معين منها، وهو شهادة القتل في سبيل الله تعالى، وهو يستدعي البحث عن جانب آخر منها، هو شهادة الأعمال في محاولة للربط بينهما، إن أمكن. وشهادة الأعمال هي على نحوين، شهادة على الأعمال، وشهادة بالأعمال، ليكون العمل بنفسه شهادة. والموت في سبيل الله قتلاً، عمل يشكل شهادة لمن مات في هذا السبيل، فهو إذن من شهادة الأعمال. وإذا كان العمل هو موجب صدق الشهادة عليه، أمكن أن تتحقق الشهادة بأي عمل آخر. إلا أن اختصاص الموت في سبيل الله تعالى بمصطلح الشهادة، ليس ذلك ألا لمزيد مزية فيه عن سائر الأعمال. فإن كل عمل آخر يكون مع بقاء النفس حية في هذه الحياة، وهي حياة تخضع لابتلاءات جمة، وهذا يعني أن العمل لم يحسم أمره بانتظار عاقبة العامل، فإن العاقبة للمتقين، وهذا يعني أن الشهادة ما زالت معلقة على العاقبة، بينما الموت في سبيل الله، يشكل الشهادة التامة؛ إذ لم تعد معلقة على شيء. وهي الشهادة بأن الشهيد قد بلغ من العلم والكمالات مرتبة لم يعد ثمة كمال بعدها، وهو ما يدل عليه الحديث المروي عن رسول الله (ص) «**فوق كل ذي بر بر حتى يقتل الرجل في سبيل الله، فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه بر**»[1]. وروي عنه (ص) أيضاً أنه قال: «**أشرف الموت قتل الشهادة**»[2]. ولذا أيضا كانت الشهادة ماحية لكل الذنوب إلا الدَّين، فقد روي عن (ص) أنه قال: «**الشهادة تكفّر كل شيئ إلا الدَّين**»[3]. ومن هنا كان اللفظ المتداول «شهيد» بدل «شاهد»، للدلالة على المبالغة في الشهادة.

وعندما نعتبر وصف الشهيد بالشهيد ينبع من كونه أدى شهادته على حاله من خلال فعله، فإن هذا يقتضي قهراً أن لا يكون العمل بظاهره هو تمام المناط، بل تكون النية

١- الكليني: الكافي، تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتاب الإسلامي، قم، ط٤ ، ١٣٦٥ هـ .ق، ج٢ ، ص٣٤٨ .

٢- ري، شهري: ميزان الحكمة، دار الحديث، قم، ط. د.ت، ج٢ ، ص١٥١٢ .

٣- م.ن، ج٢ ، ص١٥١٤ .

والدوافع والوعي التام بحاله أموراً دخيلة في وصف الفعل بالشهادة . ونقصد بالنية والدوافع أن يكون الموت واقعاً في سبيل الله تعالى، بكل القيم التي يشملها هذا السبيل. ونعني بالوعي التام، أن لا يكون الموت عن يأس. وهذا في الحقيقة دخيل في الدوافع والنية، وقد ورد في صحيح مسلم قصة رجل كان يقاتل قتال الأبطال مع المسلمين ضد الكافرين فجرح جروحاً عظيمة حتى ظُنَّ أنه مات، فقيل فلان شهيد، فقال الرسول (ص): «فلان في النار»، ولما اطّلع عليه بعض المسلمين تبيَّن أنه لم يمت ورآه يقتل نفسه برمح أو سيف، ثم قال (ص): «إن الله قد ينصر هذا الدين بالرجل الفاجر»[١].

كان لا بد من الإشارة إلى وعي الشهيد لما يقوم به، ذلك أن ثمة من يريد الادعاء بأن من يكون مشروع استشهاد، يعيش حالة يغسل فيها دماغه، وينعزل عن مجتمعه، ويعيش فقط في حلم الهدف الذي يسعى إليه، فيصير كمن نُوِّم مغناطيسياً ليقوم بذلك العمل، وهو ظن ينطلق من عدم تعقل مثل هكذا جرأة مع وعي تام للحياة الدنيا، ومن عدم تعقل أهداف كبرى يمكن للإنسان أن يتجاوز لأجلها كل ما يظنه ذلك البعض هو هدف أكبر في الحياة الدنيا، في أضعف نظرة الحياة وعدم الإيمان بأي حياة أخرى وراءها. ومن هنا نقرأ للإمام الخميني كلمات معبرة تحكي لغز الشهادة والعمليات الاستشهادية، فيقول: «ما أشد غفلة عبيد الدنيا الأغبياء الذين يبحثون عن معنى الشهادة في صحف الطبيعة ويفتشون عن أوصافها في الأناشيد والملاحم والأشعار ويجندون فن التخيل وكتاب التعقل لكشفها. هيهات وأنى لهم ذلك فلا حل لهذا اللغز إلا بالعشق»[٢]. وتركيزنا على الوعي التام والنية والدوافع؛ لأن ثمة من يسعى إلى إيجاد لبس تجاه العمليات الاستشهادية، وهي ليست إلا جعل النفس في معرض الاستشهاد، من خلال سلوك سبيل الدفاع والمقاومة، وهو مسعى يشترك فيه أفراد أو جماعات أو أنظمة تحسب نفسها على الإسلام وتدعي الإيمان به. والانتحار في الإسلام محرم باتفاق علماء الإسلام، بل هو محرم في كل الأديان، وهو عبارة عن إنهاء الحياة في سياق غير مشروع، بخلاف الاستشهاد فهو انتهاء حياة في سياق مشروع. والآيات التي نهت عن قتل النفس، كقوله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما، ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا**﴾[٣]، إنما هي في مقام بيان الحكم من حيث هو قتل نفس عدوانا وظلما؛ أي بغير

١-المصدر السابق.

٢- الكلمات القصار، من إصدارات الوحدة الثقافية في حزب الله ص ٧٥.

٣- سورة النساء الآيتان ٢٩ ـ ٣٠.

حق، أما النهي عن تعريض النفس للقتل في سياق مشروع هو سياق المقاومة والدفاع، فإنه غير مشمول بهذه الآية، ولا بآية النهي عن إلقاء النفس في التهلكة، في قوله تعالى: **﴿وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا ان الله يحب المحسنين﴾**[1]؛ لأن هذا إلغاء لمشروعية المقاومة والجهاد، فإن الجهاد مبني على تعريض النفس للموت، فكيف ينهى عنه وهو يشرع الجهاد، ويحرض عليه، حتى عده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، الباب الذي فتحه الله تعالى لخاصة أوليائه. مع أن آية التهلكة واردة في سياق الدعوة إلى الجهاد، والإنفاق في سبيل الله تعالى، ولا يعقل أن تكون الآية ناقضة لموردها، لذا قيل إن التهلكة في تلك الآية يراد بها النهي عن ترك الإنفاق، لأن في تركه تضعيفاً للجهاد، وبالتالي إلقاء للنفس في التهلكة الدنيوية، فإن من تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشملة البلاء وديث (ذُل) بالصغار والقماءة (الهوان) وضُرب على قلبه بالأسداد (الحجب) وأُديل (أخذ) الحق منه بتضييع الجهاد وسيم الخسف (المشقة الشديدة) ومُنع النصف[2]. والكلام في هذه الآية طويل، لا نريد الاستغراق فيه.

لا نريد هنا أن نثبت مشروعية المقاومة والجهاد، بما يعنيه ذلك من تعريض النفس للموت، أو القيام بعمليات استشهادية، فإن ذلك لا يحتاج إلى دليل أساساً؛ لأنه من البديهيات الإنسانية، شرط أن تقع في سياقها الصحيح وضوابطها المعتبرة، وأهمها الوعي بالتكليف الشرعي، وصدق مورده.

ولما كانت الشهادة تعبر عن أعلى كمال يمكن أن يصل إليه الإنسان كانت دائماً مرغوبة لطلابها، وطلب الموت مكروه إلا في الشهادة فإنه مرغوب محبوب، ولا يعني هذا إلا طلب التوفيق لكي يقع الموت في سبيل الله؛ إذ ليست الشهادة هي إنهاء الحياة كيفما كان، وفي أي طريق، وقد رغب بها كل الأنبياء والأولياء الصالحين، حتى روي عن رسول الله (ص) أنه قال: «**والذي نفسي بيده... لوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل**»[3]. وقد قال أمير المؤمنين (ع) يوم ضربه ابن ملجم: «**فزتُ ورب الكعبة**»[4]. وقد كان يحرض الناس على القتال فيقول لهم: «أيها الناس إن الموت لا يفوته المقيم، ولا

١- سورة البقرة الآية ١٩٥.

٢- نهج البلاغة شرح محمد عبده طباعة دار الهدى الوطنية ج ١ ص ٦٨. ورواه مع اختلاف يسير في الألفاظ الكليني في الكافي ج ٥ ص ٤ .

٣- البخاري، محمد بن اسماعيل: صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت، ج ٨ ، ص ١٢٨ .

٤- م.ن، ج ٣ ، ص٢٠٤ .

يعجزه الهارب، ليس عن الموت محيد ولا محيص، من لم يقتل مات، إن أفضل الموت القتل، والذي نفس علي بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موتة واحدة على الفراش»[١]. وعنه (ص): «ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وأن له ما على الأرض من شئ، غير الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع فيُقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة»[٢].

لذا كنا طلاب شهادة، ولن يطلبها إلا من يملك روحيتها، وشروطها، وتوفيق الله تعالى لنيلها. ومع أن الشهادة وسيلة لا غاية في حد ذاتها، لكنها الوسيلة التي اختلطت بالغاية حتى لا تكاد تتميز عنها، وهي الكرامة التي يعد كل مؤمن نفسه بها، ويتشوق إليها.

لقد أشرنا إلى أن من أبعاد تسمية الشهيد بالشهيد أن فعله شهد على حاله، إلا أن هذا بعد فردي يرتبط بالشهيد نفسه، وهو بهذا البعد يكون منتصرا؛ لأنه نال المقام الرفيع عند الله تعالى: **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾**[٣]، وفي آية أخرى: **﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾**[٤]، وليس المقصود بهذه الحياة بقاء ذكره في الدنيا، فهذا مناف لكونهم أحياء عند ربهم، ومناف لقوله تعالى: **﴿ولكن لا تشعرون﴾**، لذا كانت الشهادة عند الشهيد طلب حياة هي أسمى من هذه الحياة، وليست إنهاء حياة، إلا إذا فهمنا الدنيا على أنها دار لا دار بعدها. ولا تنحصر أبعاد الشهادة في شخص الشهيد، إذ إن لها أبعاداً أخرى استحق لأجلها هذا الوصف، تبين لنا الحكمة والدقة في استخدام لفظ الشهادة للتعبير عن الشهيد، بل لأجلها غدت هذه الكلمة تعبر عن الكرامة والسمو في نظر الأُمم وحياة الشعوب، على اختلاف أديانها ومذاهبها في الحياة، فهي أرقى حالات الإيثار، ولذا كانت أعلى برّ وتسمو على كل بر بكل أبعاده الاجتماعية، ولذا فإن معيار الشهادة وقيمتها لا ينبعان فقط من جانبها الديني، بل تنبع أيضاً من الجانب الإنساني العام، لذا كنا نحترم ونقدر كل من يقتل في سبيل قضية محقة، ولو كان على غير ديننا، بل لن يكون من البعيد أن يكون المقتول في سبيل قضية محقة شهيداً عند الله تعالى، إذا كان صادقاً في نيته ودوافعه؛ لأنه في الحقيقة يكون قد قضى في سبيل الله، وكثيرا ما يعذر الله تعالى عباده

١- المجلسي: بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢ ، ١٩٨٣ ، ج٣٢ ، ص٦١ .

٢- ري شهري: ميزان الحكمة، م.س، ج٢ ، ص ١٥١٥ .

٣- سورة آل عمران، الآية ١٦٩ .

٤- سورة البقرة، الآية ١٥٤ .

على عدم اهتدائهم للدين الصحيح، فإن عدم إدراك الدين الحق شيء، والحكم ببطلان كل عمل وعدم إعطائه قيمة شيء آخر، فإن رحمة الله تعالى واسعة تسع كل العباد، حتى في جهلهم الذي يعذرون فيه.

يفهم من خطبة أمير المؤمنين (ع) في الجهاد، التي قدمنا بعض فقراتها، أن حياة الأمة لا تكون إلا بالقدرة على مواجهة الظلم والظالمين، ومقاومة المعتدين الذين يريدون السوء بالشعوب، وأن الأمة التي تترك الجهاد والمقاومة ستصاب بالموت. وإذا كان الجهاد هو مبعث حياة الأمم، فإن الشهادة هي وقودها. فكما أن الشهادة طموح حياة أرقى في نفس الشهيد، هي أيضا طموح حياة للمجتمعات التي يستشهد الشهيد لأجلها، وحياة القيم التي يستشهد الشهيد في سبيلها.

لقد كان ملفتاً نزول قوله تعالى: **﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم.قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾**[١]، في أُحُد، والملفت فيها قوله تعالى: **﴿ويتخذ منكم شهداء﴾** كتفريع على تداول الأيام بين الناس، بما يعنيه من ابتلاءات تمر على الأمم والشعوب. والشهادة هنا هي شهادة القتل، لكن الاتخاذ يراد به بعد عميق من أبعاد الشهادة، وهو البعد الاجتماعي العام، وهو المقام الأسمى من المقام المتداول عادة في الشهداء، وهو شهادة الأعمال، أي الشهادة على الأمة أو لها، فإن الشهيد إن كان غريباً عن الأمة، كانت شهادته أمام الله تعالى والإنسانية عليها وضدها، وضد كل من يقف عائقاً في وجه مشروعه، يستشهد به الله تعالى يوم القيامة، وتستشهد به سائر الأمم في نضالها، والالتفات إلى ضعفها وخذلانها. وإذا كانت الأمة منسجمة مع الشهيد، كانت الشهادة لها بأنها الأمة الحية. وقد ذكر المفسرون في تفسير الآية أن معنى ويتخذ منكم شهداء: ويتخذ منكم شهداء على الناس بما يكون منهم من العصيان، لما لكم فيه من التعظيم، والتبجيل[٢]. وقد فسر الشيخ المفيد الشهادة بقوله: «إن الشهادة منزلة يستحقها من صبر على نصرة دين الله تعالى صبراً قاده إلى سفك دمه وخروج نفسه دون الوهن منه في طاعته تعالى، وهي التي يكون صاحبها يوم القيامة من شهداء الله وأمنائه وممن ارتفع قدره عند الله وعظم محله حتى صار صدّيقاً عند الله مقبول القول لاحقاً

١- سورة البقرة الأيتان ١٣٩- ١٤٠.

٢- التبيان - الشيخ الطوسي - ج ٢ - ص ٦٠١ - ٦٠٢، نقلا عن بعض المفسرين.

بشهادته الحجج من شهداء الله حاضرا مقام الشاهدين على أممهم من أنبياء الله - صلوات الله عليهم - قال الله عز وجل: ﴿ **وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾[1]. وهذا الاتخاذ يجعل الشهداء في مقام هو من مقامات الأنبياء والأولياء، مقام الشهادة على الأعمال، وهو مقام ذو رتب مختلفة، وهي شهادة لا تنفع معها الوسائل الحسية العادية، وإنما تحتاج إلى بصيرة نافذة تمكّن من معرفة حقائق الأعمال، فالأنبياء شهداء في الدنيا والآخرة، بينما من الشهداء من يصير كذلك بموته، وقد تكرر ذكر شهادة الأعمال في القرآن في مواضع عديدة، قال تعالى: ﴿**وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيء بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾[3]، وهذا الجعل لا يعني إلا أنه مطلوب منكم أن تكونوا كذلك، فهو جعل تشريعي وليس جعلا تكوينياً لذا لم يكن مشمولاً بكل الأمة، فإن فيها من لا يصلح للشهادة على فلس، والشهيد هو من استحق هذا الوصف فعلاً بأرقى ما يكون. فأمة الشهداء هي أمة الوسط الذي يدل على الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، لا إفراط ولا تفريط، ﴿**ومن يطع الله والرسول فاؤلئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا**﴾[4].

إن هذا البعد الاجتماعي العام، الذي يشهد للأمة أو عليها، له ارتباط وثيق بإطلاق وصف الشهيد على الشهيد. وإن ربط الشهادة بما يسمى بثقافة الموت، لا يصح إلا استناداً إلى تفسير مضلّل للشهادة، واعتبارها مجرد طريقة موت، وتخلّص من الحياة، واعتبار أن الحياة مهما كانت دنيئة، ومهما كانت ذليلة هي حياة تستحق أن يحياها الإنسان، ولا شيء يستحق أن يموت الإنسان من أجله. وهذا خلل بنيوي في شخصية صاحب ذلك الربط.

أمة الشهادة أمة منتجة، غير مستهلكة، فهي كما تستغني عن الغير في دفاعها عن نفسها، كذلك تكون مستغنية عن الغير في تأمين احتياجاتها. تعمقت فينا روح الاستسلام، بمقدار ما صرنا مستهلكين صرنا متأثرين بالغير. والعلاقة متبادلة، فالاستسلام يولد المزيد من التلقي واستهلاك ما عند الغير، وانتظار أن تأتينا حاجتنا من الغير حتى

١- أوائل المقالات - الشيخ المفيد - ص ١١٤ -٥١١

٢- الزمر - ٦٩.

٣- البقرة ١٤٣.

٤- النساء - ٦٩.

نحققها، كما أن الاستهلاك وانتظار الآخرين ليحققوا لنا ما نحتاج يرسخ روحية الاستسلام. هي نفسها العلاقة بين حبّ الدنيا، والخوف من الموت ولو في سبيل الله.

إن امتلاك روحية الاستشهاد، هو ملاك قابلية الأمة للفيض الإلهيّ، وتكريمها بالنصر. وهذه الروحية لا تختص بمن يُقتل، بل هي في الأساس في الأحياء، لذا فإن من الشهداء من هم أحياء في الدنيا، ينتظرون، لم يبدلوا، هم سر جريان البركات الإلهية في هذه الأمّة، فعن رسول الله (ص): «كم ممن أصابه السلاح ليس بشهيد ولا حميد، وكم ممن قد مات على فراشه حتف أنفه عند الله صديق شهيد»[١]. وعنه (ص): «من جرح في سبيل الله جاء يوم القيامة ريحه كريح المسك ولونه لون الزعفران، عليه طابع الشهداء، ومن سأل الله الشهادة مخلصاً أعطاه الله أجر شهيد وإن مات على فراشه»[٢]. وإن أمّة تحمل في جنباتها روحية الاستشهاد هي قطعاً أمّة منتصرة. لهذا لا حاجة لكي نسأل من يجزم بالنصر، من أين لك هذا، يكفي أن تنظروا في أبناء هذا المجتمع وبناته، لكي تعرفوا من أين له هذا الجزم، فمقام الشهادة مقام النصر والحياة، لذا لن يفقه معناه إلا من خبر النصر والحياة، وآمن بالقيم وحق الشعوب بالعزة والكرامة. نسأله تعالى أن يختم لنا بالشهادة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١- الري شهري: ميزان الحكمة، دار الحديث، ط١ ، ج٢ ، ص ١٥١٦ .

٢- م.ن، ج٢ ، ص ١٥١٦ .

المحور الرابع

الصراع بين نمط المقاومة الحضاري ونمط ثقافة العنف الإرهابي

- المقاومة والإرهاب التكفيري — د. فتحي يكن
- المقاومة وسطوة العنف الحضاري الغربي — د. ألستر كرووك
- إنتاج النمط وأدلجة التنميط — د. حسين سلامة
- المقاومة ما بعد انتهاء الحرب الباردة — أ. منير شفيق

الجهـــــاد والإرهــــاب التكفـــيـــري

د. فتحـي يكـن❖

توطئة:

يعيش العالم - وبخاصة بعد أحداث ١١ أيلول - هاجس الإرهاب والإرهابيين في ما يشبه التصورات الخيالية الأسطورية.

لقد تبارت المؤسسات العالمية المختلفة، السياسية والعسكرية والقضائية والأمنية والثقافية والإعلامية، في أعقاب الحادي عشر من أيلول، في تحديد معنى الإرهاب، بل خُصصت جوائز لمن يقدم بحثاً عن الإرهاب يضفي به الشرعية على حروب الإبادة التي تشنها الولايات المتحدة الأميركية وحلفاؤها بذريعة محاربة الإرهاب الذي حددوا له طعماً واحداً ولوناً واحداً وجنسية وهوية واحدة، وهو ما سمي زوراً وبهتاناً: الإرهاب الأصولي أو الإسلامي، حتى لو كان دفاعاً عن النفس والعرض والأرض. وفي وقت ترتكب فيه الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل أبشع المجازر بحق المسلمين في فلسطين والعراق وأفغانستان من غير رقيب ولا حسيب.

من هنا، كان لا بد من تبيان وجهة النظر الإسلامية من قضية الإرهاب، حتى لا تتمكن عولمة المفاهيم من غزو عقولنا وثقافاتنا وأجيالنا، فنصبح لها أسرى كما أصبحنا أسرى مأكوت الماكدونالد، والبيتزاهات، والهامبرغر، والبيبسي كولا، والمالبورو، وغيرها من المنتجات الأميركية المستوردة.

❖ رئيس جبهة العمل الإسلامي في لبنان.

معنى الإرهاب:

الإرهاب لغة يعني الترويع والتخويف، سواء كان ذلك نفسياً أو حسياً. وهو عرفاً القيام بأعمال من شأنها إلقاء الرعب، وإشاعة الذعر لدى فرد أو جماعة أو دولة، وهو شرعا بحسب مقاصده ومبرراته، وهو على حالات وأنواع مختلفة:

- فهنالك الإرهاب المذموم الذي يمارس ضد الأبرياء والآمنين من خلال الاعتداء عليهم ظلماً وعدواناً ومن غير ذنب ارتكبوه، أو فعل اجترحوه.

- وهنالك إرهاب محمود يمكن أن يمارس لردع المعتدين، والدفاع عن المظلومين، وصيانة حقوقهم وحفظ دمائهم وأعراضهم وأوطانهم، ومثاله: دفاع المظلوم والضعيف عن نفسه، المقاومة لتحرير أرض مغتصبة، حركات التحرر من الهيمنة في العالم، حركات الاستقلال من الاستعمار.

فالإسلام في الحالة الأولى لا يجيز بحال [الإرهاب العدواني] ولو بحق غير المسلمين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[1] إنما يجيز الإسلام [الإرهاب الدفاعي] لرد العدوان وتأديب المعتدين والنيل من الظالمين، ومن هنا، يقول الله تعالى: ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾[2] ويقول:﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ**﴾[3].

الأسباب العامة للتطرف والعنف:

كثيرة هي الأسباب والأغراض التي تقف وراء ظواهر العنف والتطرف التي تمارس على الساحة الإسلامية، والتي باتت تُعرف بظاهرة الإرهاب، والتي غدت ذريعة بيد أعداء الإسلام لتمرير مشاريعهم، وتحقيق أغراضهم، فضلاً عن أثرها الكبير في تشويه صورة الإسلام، وتعطيل الدعوة إليه، وإجهاض الصحوة الإسلامية المعاصرة، بعد أن شع نورها وعظم أثرها في العالمين:﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ**

١- سورة الممتحنة: الآية ٨.

٢- سورة البقرة: الآية ١٩٤.

٣- سورة الأنفال: الآية ٦٠.

﴿نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

وكنت أتمنى لو أن الساحة الإسلامية، ومرجعياتها ومؤسساتها، ومجامع فقهها، بادرت إلى وضع دراسة علمية، حول هذه الظاهرة التي اهتمت بها الدول الكبرى وشكلت لها لجاناً مختصة بحثا عن خلفياتها، واستكشافاً لأسبابها!

وهكذا بقيت الظاهرة من غير دراسة تأصيلية معمقة، وبالتالي بقيت بدون حل جذري، وعرضة لردات فعل لا تتعدى الاستهجان والاستنكار، أو لغة التهديد والوعيد - من مواقع الحكم والحكومات - لمن يقومون بها أو يقفون وراءها!

والحقيقة أن ظاهرة العنف والتطرف لا يمكن معالجتها من خلال لغة الحديد والنار وحدها؛ لأن آخر الدواء الكي وليس أوله، والتهديد بالويل والثبور وعظائم الأمور لا يفيد شيئاً إن لم يزد الأمر تعقيداً والنار اشتعالاً؛ لأن أصحاب هذا النهج هم في الأساس متطرفون ومغالون، وبالتالي فإن العنف لا ينفع معهم ولا يفلح في كبح جماحهم بحال.

١- الخلفيـات الخَلقيـة

وأقول إن ظاهرة العنف والغلو والتطرف ليست جديدة في واقع حياة الناس حتى المسلمين منهم وفي العصور الإسلامية الأولى..

فالناس في أصل تخلقهم وتكوينهم يختلفون ويتباينون، فهذا حاد المزاج وذاك بارد وهادئ، وهذا عنيف متطرف وآخر معتدل، والآخر مسالم وغيره عدواني. ولو لم يكن الأمر كذلك لما كان هنالك من مبرر للتحذيرات النبوية المتكررة لأصحاب هذا النهج من عواقب هذا الداء.

فمن تحذيراته عليه الصلاة والسلام قوله : «ألا هلك المتنطعون» والمتنطعون هم الغلاة.. وقوله: «إن المنبَتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»، وعنه صلى الله عليه وسلم، أنه ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أوسطهما.

ومما يذكر في هذا المجال أن أصحاب هذا المزاج يعرفون أنفسهم ويشعرون بشدتهم وقسوتهم وغلوهم. فالفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، الذي طالما بادر

١- سورة براءة، الآية ٢٣ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بمواقف حادة إزاء المخالفين والشاذين؛ حيث كان يردد قولته المشهورة: «دعني أقطع عنقه يا رسول الله» كان من دعائه بعد أن ولي الخلافة قوله: «اللهم إني شديد فألني لأهل طاعتك.. اللهم إني شحيح فسخني»، وهو الذي أبى أن يهاجر كما هاجر بقية المسلمين متخفياً، فأتى قريشاً في مجلسها وقال: «من أراد أن تثكله أمه، أو ييتم ولده، أو ترمل امرأته، فليلقني وراء هذا التل»

٢- الخلفيـات الاكتسابيــة

وتأتي الأسباب والخلفيات الاكتسابية في الدرجة الأولى بعد الخلفية التكوينية الخلقية.

فالإنسان يتأثر بما حوله وبمن حوله.. يتأثر بالبيئة والمعشر ويتأثر بما يقرأ وبما يسمع ويشاهد.. وهو لذلك مسؤول عن الاختيار والاستحسان والاستنساب، وعن اختيار ما هو مفيد وصحيح منهما؛ إذ ليس كل شيء سواء.

فالذي يعاشر المتطرفين يصبح منهم، وفي الحديث: «قل لي من تعاشر أقل لك من أنت». والذي يلقّن الأفكار والثقافات المتطرفة لا يمكن إلا أن يناله نصيب منها.. فالإنسان ابن بيئته وثقافته.

ولقد دلت التجارب على أن معظم الغلاة الذين درجوا على التكفير والتبديع هم ممن تربوا على فكر انعزالي، ولم ينخرطوا في مؤسسات المجتمع الأهلي، وعاشوا في بيئات أحادية الانتماء دون أن يكون لهم أدنى احتكاك أو تجربة مع البيئات المتعددة ثقافياً ومذهبياً وسياسياً وغير ذلك من أشكال التعدد.

القطبية من خلفيات الغلو:

لقد كان للفكر الذي طرحه الشهيد سيد قطب الأثر الأكبر في دفع الحركة الإسلامية باتجاه النهج الاصطفائي في الستينيات، فالحركة في تلك الفترة كانت في مواجهة محنةٍ عاتية قادتُها يساقون إلى المشانق، وشبابها يرسفون في الأغلال، حيث تمتلئ بهم السجون والمعتقلات؛ كل ذلك كان قائمًا دون أدنى استنكار من خاصةٍ أو عامة، بل إن السلطة تمكنت من تعبئة الجماهير ضد الحركة.

في هذا المناخ بالذات ولد الفكر الاصطفائي لدى سيد قطب كتعبير وجداني عن الظلامات التي تعاني منها الحركة، وكإشارةٍ إلى عدم جدوى «الكم» في عملية التغيير

الإسلامي، وإلى ضرورة الاهتمام بالنوع.

ومن هنا، توالدت التيارات والاجتهادات القطبية والجهادية والتكفيرية ... إلخ، وتباينت وتعددت المذاهب الحركية المتطرفة سلبًا وإيجاباً، فهذا فريقٌ يدعو إلى عدم التعايش مع المجتمع «الجاهلي» وإلى مقاطعته، وآخر يدعو إلى العزلة المكانية أو العزلة الشعورية ويعتبر أن عملية التربية لا تكون ناجحة ما لم تمارس بعيداً عن هذا المجتمع وآثاره وضغوطه الفكرية والنفسية.

الوهابية من خلفيات الغلو:

والمدرسة السلفية تتحمل - هي الأخرى - مساحة كبيرة من المسؤولية التي أدت إلى تشكيل ظاهرة التطرف والغلو والعنف. وهذه الظاهرة في النهج السلفي لا تحتاج إلى دليل يقدم بين يدي هذا البحث؛ حيث يمكن العودة إلى ذلك عبر العديد من كتب ومؤلفات هذه المدرسة نفسها.

أثر مرحلة «الغربة» و «المحنة» في أجيال الصحوة:

ثم إنه لا بد من الإشارة إلى الآثار التي خلفتها المناهج التربوية - في مرحلة المحنة- على الأجيال الإسلامية التي تكونت على «أدبيات الغربة والمحنة» ردحا طويلاً من الزمن، والتي أسهمت إلى حد في نشوء تنظيمات وحركات وجماعات عنيفة ومتطرفة على امتداد الساحة الإسلامية.

لقد مرت مرحلة طويلة من الزمن ومناهج التكوين تركز على حتمية الغربة في حياة العاملين، كما على حتمية المحنة:

- ففي مطالع مقررات الحفظ القرآني، كان مطلوباً حفظ سورة (أصحاب الأخدود)
- ومن مبتديات مقررات الحفظ النبوي، كان يتصدر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»، وقوله: «سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فنصحه فقتله»، وقوله: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم».

ومما يلفت في منهج النبوة - وأكثرنا عنها غافلون - دعوته إلى التيسير لا إلى التعسير.. أحيانا يكون ذلك بشكل مباشر كقوله صلى الله عليه وسلم: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا

تنفرو»، وأحيانا أخرى بشكل غير مباشر كقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»، وقوله: «سددوا وقاربوا»

٣ الظلـم الاجتماعـي والسيـاسي والأمنـي

ومن الخلفيات المساعدة على نشوء ظاهرة العنف والتطرف، الشعور بالظلم في الواقع المعاش، وبالتالي عدم توفر أجواء من الحرية تسمح لصاحب الرأي أن يعبر عن رأيه، أو يؤدي ما ائتمن عليه من فروض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو يقوم بواجب الحسبة والدعوة إلى الله!

وقد يكون الأمر قبل ذلك كذلك، بسبب عدم تطبيق شرع الله والحكم بما أنزل الله، فيرى البعض أنفسهم حينذاك مدفوعين ومندفعين لإبداء سخطهم وإظهار امتعاضهم وإعلان استنكارهم، فإن لقوا آذاناً صاغية خفّت غلواؤهم، وسكن غضبهم، وإن وجدوا غير ذلك، تعاظمت نقمتهم، وباتوا من الانفجار قاب قوسين أو أدنى!

- فعندما ينقلب جمال عبد الناصر على الإخوان المسلمين، ويحكم بالإعدام على قادة الحركة من أمثال المجتهد الكبير الشهيد عبد القادر عودة، والقائد العالم المجاهد الشيخ محمد فرغلي.

- وعندما يعلق سيد قطب المستشار الفكري للثورة المصرية وعدد كبير من إخوانه بحبل المشنقة، وهم الفئة الأهلية الوحيدة التي أيدت الثورة. بشهادة أنور السادات في كتابه «يا ولدي هذا عمك جمال»، بل إن الضابط الكبير عبد المنعم عبد الرؤوف الذي اقتحم قصر عابدين وأشرف على ترحيل الملك فاروق من مصر، هو من الإخوان المسلمين- فكيف سيكون بالتالي أثر كل ذلك على رجال الحركة وشبابها؟

وأحياناً أخرى يكون الظلم اقتصادياً معيشياً، فيدفع إلى «ثورة جائعين أو «ثورة محرومين» كما حدث في لبنان، وأدى إلى فتن عمياء وحرب ضروس أكلت الأخضر واليابس! ولقد لفت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خطورة الظلم هذه فقال: «عجبت لأناس.. لا يخرجون بالسيوف»، «كاد الفقر أن يكون كفرا»

٤- القهـر العالمـي والتسلط الخارجـي

ومن الخلفيات ذات الصلة المباشرة بنشوء ظواهر العنف والتطرف في هذا العصر،

ممارسة الدول الكبرى والقوى العظمى لأبشع أنواع النهب والقمع والإرهاب بحق المسلمين عموماً وبحق دول العالم الثالث خصوصاً.

فما جرى بحق الخلافة العثمانية والشيشان وكشمير ودول البلقان وغيرها، وما جرى في أفغانستان والعراق، وما يجري في فلسطين اليوم من حروب إبادة، من شأنه أن يفعل فعله في المسلمين، ويؤجج مشاعر الغضب ضد أعدائهم، وبالتالي يدفعهم للتعبير عن استنكارهم بشكل أو بآخر، ومنه ممارسة الإرهاب ضدهم.

كيف لا يكون ذلك وهم مطالبون به على لسان نبيهم صلوات ربي وسلامه عليه بقوله: **«من بات ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»**

وكيف لا يكون ذلك وهم تربوا على أدبيات الإسلام، ومنها قول شاعرهم:

إن نفسا ترتضي الإسلام دينا ... ثم ترضى بعده أن تستكينا
أو ترى الإسلام في أرض مهينا ... ثم تهوى العيش نفس لن تكونا
في عداد المسلمين العظماء

٥- اختراق الأجزة الأمنية والاستخباراتية للساحة الإسلامية

ومن خلفيات نشوء ظاهرة العنف والتطرف على الساحة الإسلامية العبثيات التي تمارسها أجهزة المخابرات القطرية والإقليمية والعالمية، من خلال تجنيد عناصر واستغلال أخرى للقيام بأعمال من شأنها وضع الإسلاميين في قفص الاتهام، وتشويه صورتهم وصورة الإسلام لدى الرأي العام.

إن العديد من الحوادث التي وقعت في الجزائر ومصر وغيرهما وكانت تحسب على الإسلاميين هي من فعل بعض أجهزة المخابرات، بشهادة العديد من الدراسات والوثائق والكتب والدوريات ذات الصلة المباشرة بهذه القضايا.

ومعظم هذه الاختراقات كانت تتم من خلال استغلال الحاجة إلى المال وشراء الذمم، كما من خلال التخلف الذهني والفكري، وعدم الوعي لدى فريق من اقتحموا ساحات العمل الإسلامي من غير سابق إعداد، ومن غير رقابة.

٦- إخفاق التجارب الإسلامية الوسطية في تحقيق أهدافها:

ومن الخلفيات التي أسهمت إلى حد كبير في نشأة التيار العنفي، فشل النهج الوسطي

الذي تعتمده بعض الحركات الإسلامية المعاصرة في تحقيق التغيير الإسلامي المنشود بالرغم من مرور أكثر من نصف قرن على نشأة بعضها.

٧- فقدان المرجعية الموحدة المرشدة للصحوة:

إن غياب المرجعية الإسلامية العالمية الراشدة الفاعلة، جعل الساحة الإسلامية مستباحة، بل جعلها حقلاً للتجارب العبثية. من هنا، فإن أول خطوة على طريق معالجة ظاهرة الغلو والعنف والتطرف هي إيجاد المرجعية التي تمتلك ناصية الاجتهاد والفتوى، مصداقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**يَرِثُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَحْرِيفَ الْغَالِينَ**».

٨- عدم وحدة المشروع الإسلامي:

ومن الأسباب المساعدة على نشوء ظاهرة الغلو والتطرف عدم وجود مشروع إسلامي عالمي مؤصل، يشكّل خياراً ملزماً لكل العاملين على الساحة الإسلامية، ما جعل الساحة الإسلامية مليئة بالمشاريع المتناقضة، وغير المتكاملة، والهوائية والعبثية.

العنف الثقافي الغربي والمقاومة الإسلامية

د. ألستر كرووك*

سوف تحلل هذه المقالة العنف الثقافي الغربي في سياق المقاومة التي تشنها الحركات الإسلامية ضد هيمنة الهوية الغربية لفرض إنشاء نظام عالمي جديد. كما أنها تحاول إثبات أن الإسلاميين لا يسعون لتدمير الغرب - فالحرب ليست حرب تدمير بقدر ما هي حرب هويات. وهي بجوهرها شكل جديد من أشكال «الحرب» - حرب غير متناسقة تتصاعد في عالم سريع الزوال.

المقاومة مسلحة - لا لأجل إلحاق الهزيمة العسكرية - بل لكي تتحدى حق الغرب المزعوم في وضع قواعد اللعبة. والغرب يستنكر هذا العنف، لكنه لا يعترف بعنفه الواضح في سلوكه وفي بنية الدولة العلمانية التي تشرّع عنف الدولة «البناء».

بالطبع هناك عدد من المنظمات الإسلامية التي تنتهج المقاومة المسلحة، وهذا بالنسبة للغرب ما يشعل القلق العميق المستتر: فالغربيون على المستوى الفكري يمكن أن يفهموا أن الأصولية الإسلامية هي تسييس لعدم رضا المسلمين عن النظام العالمي الحالي، لكن استخدام العنف من قبل جهة خارجة عن إطار الدولة، ومن قبل حركة إسلامية بشكل خاص، يشكّل على ما يبدو تهديداً لمشاعر الغربيين.

بالنسبة للغربيين، يهدّد استخدام العنف بالانجرار إلى الفوضى، ويثير مشاعر اللاعقلانية الفوضوية المدمرة؛ إذ يستحضر مشاهد الثورة الفرنسية حيث أدى عنف

* مؤسّس منتدى حلّ النزاعات Comflicts Forum.

الثوار إلى إحراق الثوار أنفسهم. كما أنه يزعزع ثقة الأوروبيين التي تشكّلت منذ أن انتهت «الخلافة المسيحية» عام ١٦٤٢م. عندما انقسمت أوروبا إلى دول قومية منفصلة، وفصلت الكنيسة عن الدولة، وأصبح الدين، نظرياً، مقتصراً على الميدان الشخصي فقط.

بالنسبة للأوروبيين كانت هذه لحظة محورية مثلت نهاية حرب دينية وأهلية طويلة أهلكت قسماً كبيراً من الأوروبيين. ونشأ مفهوم الدولة العلمانية التي يعتبرها الغرب حجر الزاوية لعصر التنوير المتمثل بالعقلانية، وانتشار العلمانية وتقدم العلم.

لكننا ننسى في ظل حداثتنا أن العنف كان خلاقاً بقدر ما كان هداماً، فالدول الغربية ترعرعت على العنف، وكان احتكار الدولة للعنف السبب الذي أدى إلى نشوء الحضارة الغربية. وبالتالي، كانت علاقة الغرب بالعنف على الدوام ملتبسة جداً.

سيطرت ذهنية التنوير على الفكر الأوروبي على مدى الـ ٣٠٠ عام الماضية؛ حيث أُعطيت فكرة الدولة القومية منزلة خاصة جداً، إذ قدمت مصدر السيادة والسلطة واحتكارها لاستخدام العنف، على شكل القوى الأمنية الداخلية أو العسكرية كمحك لمفهوم بناء الدولة الغربي: «رئيس واحد، سلطة واحدة، سلاح واحد».

لا أحد في الغرب تقريباً، يشك في شرعية الدولة القومية بسلطتها الأحادية؛ إذ إنها خدمت الغرب بشكل جيد، فقد وضعت حداً للفوضى الأهلية، وثبتت الأمن البيئي الذي تأسس عليه ازدهار رأسمال السوق الحرة.

رأى بعض السياسيين أن الديمقراطية الليبرالية العلمانية لا تزوّد بأفضل إطار للحكم فحسب، بل من خلال العلمانية يمكن إفساح المجال للتعددية؛ فهي تؤمّن حماية أفضل للحقوق المدنية، وتمنح الأفراد مزيداً من الحرية.

كما يرى هؤلاء أن هذا العلاج يقدم أيضاً - لو تم تبنيه عالمياً- سبيلاً للتعايش السلمي بناء على أن «الديمقراطيات الناضجة لا يحارب بعضها بعضا».

بالطبع هذا ليس صحياً تماماً، فالديمقراطيات تتحارب. غير أن أيديولوجية الدولة القومية خدمت الغرب جيداً خصوصاً بالنسبة لمصالحها الاستعمارية: فمفهوم «الرئيس الواحد، والسلطة الواحدة والسلاح الواحد» كان أداة مثالية للحفاظ على الهدوء في المستعمرات، خصوصاً عندما أخذ الغرب على عاتقه تنصيب رؤساء وسلطات وقوات

مسلحة موالية له.

لقد رسخ الاستقرار والسوق الحرة ظروف السلام في أوروبا وسمح بازدهار الأسواق، لكن المقاولين الاستعماريين في البلدان الأخرى - النتيجة الطبيعية للسلام في الداخل- كانوا مصدراً لعدم الاستقرار والعداوة.

لا نزال في القبضة المحكمة للإيمان القوي بهذا النظام من الحكم، ونتيجته الطبيعية أن الحداثة شرطه الوحيد وهي ممدوحة في كل مكان ودائماً.

لقد سمح هذا الاعتقاد للبروفسور فوكوياما اقتراح أنه: «يمكن أن لا يكون ما نشهده مجرد مرور مرحلة معينة من مراحل تاريخ ما بعد الحرب، بل نهاية للتاريخ؛ أي نقطة نهاية التطور الأيديولوجي الإنساني وانتشار الديمقراطية الليبرالية الغربية كشكل نهائي من أشكال الحكم البشري.»[1] يشير هذا الكلام إلى أن المجتمعات كلما تطورت كلما تشابهت وفي نفس الوقت تصبح «أفضل».

كان المثل الأعلى للدولة القومية: أن أصبحت القومية صرحاً رمزياً من النوع المتعالي. «الأمة خالدة لا تتجزأ، لا تُرى رغم شمولها، لا أصل لها ولا نهاية، تستحق كل ما لدينا من حب، بل كل كياننا. وهي أيضاً مثل الله، وجودها مسألة إيمان جمعي. لا يمكن وجود أمة إلا إذا كنا مؤمنين أنها موجودة؟»[2] يقول Slovoj Zizek «ملء الفضاء الفارغ بالخير الأعلى يحدد المفهوم العصري للأمة»[3].

ويؤكد البروفوسور Gray[4] في وصفه لهذه المواقف أن الأفكار الحداثية الغربية كانت نتيجة للتفكير الوضعي الذي يرى أن ارتكاز المجتمعات على العلم يؤدي بها- لأن تصبح متشابهة. فقد تغلب العلم واستخدام التكنولوجيا على أسوأ أشكال الخوف، وأنه من خلال هذا التقدم سوف تزول كل مخاطر الفقر والحرب. وقد يؤدي ذلك إلى التقاء القيم الأخلاقية. هذه باختصار هي دعائم ما يسمى «القيم العالمية»-.

وهي أيضاً - كما يبين البروفوسور غراي (قيم ما بعد المسيحية)، والتي تعود جذورها

1- Francis Fukuyama, "The End of History"_ 1989.

2-Terry Eagleton, Holy Terror, 2005, p94.

3- Slovoj Zizek, Tarrying with the negative, 2003, p222.

4- Professor Gray "Al Qaeda and What it means to be modern", 2003.

إلى الرؤية المسيحية عن الطريق الواحد إلى الخلاص المفتوح للجميع. حتى العلمانية الظاهرة هي انعكاس للتفكير المسيحي: «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

في حثه على «الحداثة» في العالم الإسلامي، يرى الغرب هذا الأمر كـ«قيمة حيادية»، أُهمل ما لها من جذور مسيحية وقدمت كقيمة حيادية حميدة تمثل تراكم الخبرة الغربية. طبعاً لا يجد المسلمون صعوبة في التعرف على البرنامج المسيحي في كل هذا.

نحن نرى أن الدولة القومية تمثل الإطار الوحيد للاستخدام الشرعي للعنف «رئيس واحد؛ سلطة واحدة وسلاح واحد»؛ لذلك يرى الغرب أن أي استخدام للقوة خارج شرعية الدولة يشكّل تهديداً ليس لسلطة معينة فحسب- سواء أكانت تلك السلطة سلطة استعمارية جديدة تخدم مصالح الغرب أم لا -، بل كتهديد لرهاننا على استقرارنا الإستراتيجي - المتمثّل في الدولة القومية.

لقد أحدث ظهور الحركات الإسلامية العسكرية التي ترفض الغرب كنموذج يحتذى به قلقاً شديداً وعائقا أمام صرح التنوير الغربي والنظام والأمان، والأكثر أهمية ما تشكّله هذه الحركات من خطر على اعتقادنا بشرعية استعمال القوة.

كما أن المقاومة الإسلامية تتعارض مع ما يدّعي الغرب من تمثيله العقلانية والتنوير؛ حيث ترى المقاومة الإسلامية أن في جذور ما يسميه الغرب عقلاً يكمن جشع لا عقلانية الطمع والاستغلال والقوة، وهذه أمور لا يمكن تبريرها عقلياً؛ لأنها تمثل جموح رغبات الإنسان وغرائزه. كما تؤدي هذه العقلانية المزعومة في الدفاع عن ذاتها إلى انتشار عنف لا يمكن السيطرة عليه. وتؤكد الجماعات المقاومة في رفضها للسياسة الغربية - لعبة الغرب- أننا نكشف عن العنف الموجود في جذور مدنيتنا المفترضة[1].

كما تهدد هذه المقاومة النظام الاقتصادي الغربي الذي يعتمد جداً على فتح مستمر لأسواق جديدة لإنعاش المنشآت الصناعية الأميركية التي تصاب بالجمود. وكذلك تهدد شبكة الحكومات الموالية للغرب والصديقة التي تتعاون في فتح اقتصادها للاستثمارات والمصالح الغربية. لكن الأكثر أهمية أنها تشيد بظلالها التي تؤدي إلى مخاوف شديدة. إنها انتفاضة المظلومين الذين اعتقدنا أن هويتهم وثقافتهم قد أزيلت بفعل الحداثة.

1- Terry Eagleton, Holy Terror, 2005, p55.

يعبّر تركيزنا على شرعية عنف الدولة ووسم غيره من الأعمال الحربية بالشيطنة واللاشرعية والإرهاب عن شيء من فقدان الذاكرة التاريخية؛ لكن الدفاع عن هذا الانقسام الثنائي بين العنف الذي تمارسه بُنى الدولة ومن يمثلها - وحمده ووصفه بالشرعية - والعنف الذي تمارسه المقاومة المسلحة وتصويره كأنه غرق في الفوضى والظلام يحول دون فهم رؤية الغرب لكيفية فهم المسلمين لعنفهم حيث تختلف تجربتهم للدولة كثيراً عن تجربتنا.

لا يوجد عند الدولة شيء من الجمعيات الخيرية التي نربطها بالتنوير. أما بالنسبة للمسلمين، فقد كان ترسيم الحدود القومية حديثاً وقد تم بعد إنهاء الخلافة ؟ رمز الحضارة والتماسك الإسلامي- وقد فُرضت هذه الحدود مصادفة وبدون اهتمام بالثقافة أو بالجغرافيا القبلية، كما لم يكن هناك جمعيات خيرية، أما «التنوير» فقد كان قليل الحضور، إذ كان رمزاً للقمع والاستعمار.

عندما يدرس الغرب حركات إسلامية مسلحة مثل حزب الله أو حماس، يطلب أولاً من هذه الحركات أن ترفض العنف وتلقي سلاحها وتنتهج سياسة براغماتية - باختصار إذعان ومساومة. بمعنى آخر، يطلب من حماس أن تعترف بلا شرعية عنفها، في حين أن العنف الغربي ضدها، بما في ذلك اغتيال قادتها واختطاف نوابها، يبدو شرعياً ومحموداً، لأنه يصدر عن «شرعية» الدولة الديمقراطية. لم تعد المسألة ما إذا كان العمل بذاته شرعياً، إذ تصرّ العالمية الغربية على أن الدول القومية «تمارس الدفاع عن النفس»؛ في حين أن دفاع الناس عن أنفسهم من دون دولة قومية يسمى «إرهاباً».

ليست المسألة أن الدول الغربية تمقت العنف الذي يمارسه المسلمون. إذ لا مشكلة عند الغربيين في استخدام العنف عندما يخدم مصالحهم - العراق، أفغانستان، والآن لبنان، تشهد على ذلك، وببساطة نحن لا نرى أن تدخلاتنا «عنف».

يرى المسلمون بوضوح أن الغرب يستعمل قدراته العسكرية المسيطرة عندما يشاء، كما يلحظ المسلمون أنه عندما يجد الغرب نفسه في وضع حرج، كما في الحرب الأوروبية الأخيرة، لا مشكلة لديه في قتل المدنيين وهذا ما يشهد عليه إحراق المدن الخشبية في اليابان وتدمير القاذفات البريطانية للمدن الألمانية وقتل ٨٠٠٠٠ مدني في ليلة واحدة.

غير أن العنف الغربي راهناً يكون عادة مقنّعاً بشرعية الأمم المتحدة ليكتسب شرعيته منها ليبدو بنّاءً. في المقابل يُنظر للعنف الإسلامي على أنه إجرامي ومدمر ومعبّر عن الإفلاس الفكري من خلال الهجمات على المدنيين، وهذا يشكّل عقوبة كبرى، لها بالغ الضرر على جمهوره.

إن الإدانة الغربية للعنف موجّهة ضد الحركات التي لا تنضوي ولا تستطيع أن تنضوي، تحت بنية الدولة التي تعطي الشرعية لاستخدام العنف؛ حيث نختار غالباً أن نتغاضى عن أفعال الذين يقودون الأدوات القمعية التي تستعمل العنف الذي لا يشرع إلا بالشرعية التي وضعتها السلطة الدستورية للدولة، وهي شرعية مشكوك فيها على المستوى الأخلاقي.

باختصار، فإن الالتجاء إلى «الطبيعة الديمقراطية» للدولة القومية التي تمارس العنف ببنيتها تتسع لتلفيق التشكيك في نفس العمل العنفي. فأخلاقية العمل بذاته ليست مورداً للتشكيك، والكيان الذي ارتكب العنف لا يحاسب إذا كان صادراً عن حكم ديمقراطي يتعارض مع حركات المعارضة.

هذا جزء من إرثنا الغربي الذي يجد أن صراعنا الوطني معقول وعاديّ، لكنه يجد أن لجوء المعارضين للعنف الداخلي أو لجوء من احتلت أرضه إلى العنف، يشكّل تشويشاً عميقاً لما نتمتع به من نظام. وهذا يرسخ التأكيد الذي نسمعه باستمرار أنه لا يوجد تكافؤ أخلاقي بين العنف الذي تمارسه الدولة الديمقراطية مثل إسرائيل، والعنف الذي تمارسه حركة مثل حماس.

إن مؤسساتنا لنشر العنف محاطة بهوياتنا القومية - حيث تصبح الجيوش رموزاً للاعتزاز والوحدة الوطنية - وتبجّل كحامية للأمن الغربي. وأصبح منهجنا لفرض العنف بنيوياً صورياً وغير متشخّص ولا يمكن أن يُفرض على قناعاتنا.

مشاهدو التلفزيون في الغرب محميون من رؤية صور الجثث الحقيقية والإصابات التي يمكن أن تعكّر صفوهم. فنحن لا نرى سوى ألعاب الكومبيوتر كالشاشات الحمراء التي تعرض رموزاً رقمية للأشجار التي تتحول في النهاية إلى أشكال غريبة - منزل في غابة مقطعة الأشجار - قبل أن نرى انبعاث الضوء المفاجئ، ثم يقول لنا المعلق إن بعض الكائنات «الشريرة» قد مزّقته. يبدو الأمر أكثر ذكاء؛ على الأقل هذا ما يبدو أن محطات

التلفزة تشير إليه من خلال تكرارها المثير للصور.

الاعتقاد بالشرعية متماسك إلى حد كاف لصرف النظر عن قتل المدنيين الأبرياء عندما يكون من يقوم بهذا الفعل منتمياً إلى الدولة القومية الغربية. فبعد أن دمرت القوات الأميركية مدينة الفلوجة العراقية عام ٢٠٠٤ وقتلت عدداً لا يمكن إحصاؤه من المدنيين، لم يكن ثمة من تحمّل المسؤولية أو حوسب على هذا الفعل. فرجال البحرية الأميركية كانوا يتلقون الأوامر، وكان قادتهم يستجيبون لفهمهم للتهديد، وكانت القيادة المنتخبة ديمقراطياً ترسل رسالة للإرهابيين. لقد كانت الأمور تسير على ما يرام، فلم يكن هناك عنف على الإطلاق، ما حصل هو أن الأنظمة كانت ببساطة تفعل ما وُجدت لأجل أن تفعله.

ليس مفاجئا أن لا تقبل الجماعات الإسلامية وجهة نظر عن العنف سطحية وأحادية يفرضها الغرب: فهم لا يقبلون بشرعية هذا العنف الغربي في المحافظة على النظام العالمي، في حين تعتبر مقاومة فرض الهوية الغربية على العالم إرهاباً يجب أن يتوقف بشكل كامل قبل البدء بأي تفاوض. فالحرب على الإرهاب تساوي بنظرهم الحرب على «الآخر».

المقصود ضمناً من هذا الشرط هو أن الحركات الإسلامية مثل حماس، يجب أن ترضخ للموقف الغربي. إن شرطنا المسبق الثابت للبدء حتى بالكلام هو الالتزام بما نشترطه. فنحن نؤكد أن العنف - استخدام القوة المسلحة - يجب أن يبقى في أيد شرعية - مهما كانت فاقدة للمصداقية. بالنسبة للإسلاميين فإن الاعتراف بما نطرحه يساوي الإذعان للنظام العالمي الجديد السائد. فحماس ترفض المحاولات الغربية لفرض شروط إقامة دولة فلسطينية على أسس يرون أنها ظالمة؛ إذ ترى حماس وغيرها من المنظمات الإسلامية أن طلب اللعب على أساس القواعد الغربية فقط نوع من ممارسة للسلطة لـ «ترويضهم» وإخضاعهم للهيمنة الغربية. فالإذعان يُفقد الحركة سلطتها وشرعيتها؛ لأن التسوية ليست خياراً . لذلك هناك حاجة لبقاء السلاح في وجه الغرب والعدوان الإسرائيلي.

عنف الاحتلال ليس موجهاً فقط ليبقي المحتل على مسافة من الاحترام، بل يسعى لقمع روحية الممانعة. فإذا قاوم الشباب، يطلق الجنود النار عليهم ويقتلونهم؛ أما إذا استسلموا

وأذلوا أنفسهم، فإنهم يفقدون إنسانيتهم ويشعرون بالذل والهوان، كما أن الرموز التي تشكّل مقاماتهم تتحطم. فهؤلاء الشبان غاضبون وخطرون، يشعرون بكراهية عظيمة ورغبة بالانتقام بدأت تتنامى لدرجة أنهم أصبحوا قادرين على القتل.

قد يصبح من يضطهده المحتل مضطهِداً للآخرين - حتى في نفس مجتمعه - بالضبط كما حصل في المجتمعات الغربية؛ حيث إن الذين تعرضوا للإذلال والظلم مارسوا الظلم والاضطهاد على الآخرين. يصف علماء النفس هذا التدهور في السلوك الاجتماعي بأنه محاولة دون وعيية sub-conscious لحماية الشخصية المظطربة بسبب التعذيب أو الخوف من الزوال والتدمير.

قد يغضب هؤلاء الشبان ويقومون بأعمال عدوانية لغايات سياسية، وقد لا يحصل مثل هذا الأمر. إن الحركات مثل حزب الله أدركت، منذ زمن، الحاجة لتحويل مشاعر الغضب إلى مقاومة شعبية، كما أدركت الحاجة لضبط وتوجيه هذه المشاعر التي يمكن أن تكون مدمرة، وتحويلها إلى تماسك اجتماعي بنّاء ومرونة اجتماعية، بدل تركها من دون رقابة مما يؤدي إلى فوضى عنيفة.

خلصت إحدى الدراسات الإنثروبولوجية على شبان في مخيم بلاطة (في مدينة نابلس بالضفة الغربية) عام ١٩٧٧ أن البطولة من خلال المشاركة بالانتفاضة كانت طريقة للشبان ليبرهنوا عن رجولتهم ويثبتوا وجودهم في المجتمع. فقد عبر الأكبر سناً والأهل عن شعورهم بالذنب لعدم قدرتهم على حماية أولادهم من الاحتلال، ورفض الشبان أن يروا أنهم ضحايا، فاكتسبوا احترام مجتمعهم ودعمه من خلال مشاركتهم في الانتفاضة(١).

لو لم يتم تأسيس المقاومة وبرنامج ضبط لهذه المشاعر في اتجاه متماسك سياسياً واجتماعياً، كان يمكن أن يصبح هؤلاء الشبان المعزولين خطرين بما يكفي لفقدان السيطرة عليهم. وقد يصبحون بالنسبة لبعض من يدور في فلكهم نموذج «القوة» الذي يحتذى به. وقد يتحلل المجتمع تحت تأثير السلوك العنفي ويتفكك وتُفقد السيطرة عليه.

غالباً يشار إلى التآكل الاجتماعي كدليل على «تخلف» الشعوب أو على العودة إلى الانقسام القبلي. وبالطبع، لا يمكن على الإطلاق أن يُشار إلى العنف الذي يمارسه

1- J Collins, Occupied by Memory: The Intifada Generation and the Palestinian State of Emergency, 2004.

المستعمر «الصافي النية» الذي يريد أن يساعد الشعوب على بناء «مجتمع أفضل» على أنه مصدر لهذه الحتمية، إما مقاومة منظمة أو تحلل اجتماعي . باختصار إن العنف المفروض، مهما حاول الغرب أن يصور أنه شرعي، فهو يؤدي إلى لا استقرار وغضب عام، وفي جميع الأحوال لا يسهّل انتشار «الحياة المتحضرة».

أضفنا، بادعاء أن استخدام القوة العسكرية الساحقة ضد الذين يقاومون هيمنتنا هو الطريقة الوحيدة لضمان أمننا، واستقرار العالم، حيلة استشراقية جديدة كي يكون تسويغنا للمسألة ناجحاً: ينبغي أن تكونوا أغنياء وحضاريين مثلنا. لقد غذّت الطريقة التي أطرت فيها الولايات المتحدة استخدامها للقوة العسكرية في أعقاب الحرب الباردة- بوصفها حرباً ضد الشر - حافز استعمال العنف.

ما تحقق لم يجعل العالم أكثر أمناً، على العكس، فقد حوّلْنا الحرب من شر ضروري إلى ضرورة إيديولوجية، حرب على «الشر». وبجعل عنفنا ضرورة أيديولوجية أعمينا أنفسنا أيضاً، فنحن نمتعض إذا طُلب منا رؤية كيف ينظر الآخرون إلى عنفنا - «عنفنا» «أي عنف-»... عندما يكون عنفنا موجهاً فقط للقضاء على «الشر».

يصرّ السياسيون في الغرب على أن الدولة القومية وحدها التي تتشكّل على نموذج المؤسسات الأوروبية والأميركية - رئيس واحد، سلطة واحدة، بندقية واحدة - يمكن أن توفّر لنا الأمن الحقيقي -، لأن قادتنا يقولون لنا باستمرار: إن احتمال تورط الأنظمة الديمقراطية في الحرب أقل. مع ذلك فقد شهدنا في القرن الماضي من العنف والحروب والصراع الاستعماري والثورات والقتل أكثر مما شهدنا في السابق. في نفس الوقت، إن التلميح باشتراط أن يكون الآخرون مثلنا ليكون العالم أكثر أمنا يشير إلى أننا لا نرى نصيبنا في خلق وتحفيز العنف الذي يحيط بنا.

كان منظرو السياسة في القرن التاسع عشر يفهمون تأسيس الدولة القومية - على النموذج الغربي - على أنه يتطلب احتكاراً كاملاً لوسائل العنف، ومركزتها وانضواءها في بنية الدولة. وكما قللت العلمانية من دور الدين هكذا أصبح التسلح الإجباري للجيش في بعض الدول مصدراً للاحترام وشكلاً من أشكال العبادة العلمانية التي تجسد المثل القومية كوسيلة لتعبئة وتوحيد الشبان كمواطنين وكمؤيدين للفكر القومي.

كان على القبضة الحديدية للدولة أن تسدّد ضربات مميتة للأعداء الخارجيين للأمة؛ لكن وبنفس القدر كان هناك عنف قسري لقمع أي معارضة داخلية. وكانت الدولة القومية من بدايتها تقوم على التمييز العنصري والثقافي، فقد كانت العنصرية في القرن التاسع عشر في جوهرها بيولوجية لكن بعد انقضاء الفترة الاستعمارية «حلت الدلائل الاجتماعية والثقافية محل الفروقات البيولوجية (كمبرر للعنصرية) كممثل رئيس للخوف وللكره العنصري»(١).

وقد عُزّزت العنصرية عن طريق التوسع الاستعماري - عبر نشر وترسيخ مهمتنا الثقافية والحضارية في وسط من العنصرية - «بالنظر إلى السياق الاستعماري المباشر، من الواضح أن ما يقسم هذا العالم هو أولاً وأخيراً العرق والنوع الذي ينتمي إليه. فبالمستعمرات تكون البنية التحتية الاقتصادية بنية فوقية أيضاً. السبب هو النتيجة: فأنت غني لأنك أبيض، وأنت أبيض لأنك غني... فرض الأجنبي نفسه من خلال استخدام المدفع والآلة. رغم نجاح هدوئه بقي المستعمر دائماً غريباً.. والفئة الحاكمة هي، أولاً وأخيراً، الغريب الآتي من مكان آخر مختلف عن السكان الأصليين «الآخرين»(٢).

جادل محمود ممداني أن تاريخ الدولة «يمكن أن يُقرأ كتاريخ للعرق، الذي جمع قصة نوعين من ضحايا الحداثة الأوروبية: ضحايا بناء الدولة الداخليين، وضحايا التوسع الاستعماري الخارجيين»(٣). فتركيا خير شاهد على ضحايا بناء الدولة، حيث محا أتاتورك ثقافات الأقليات في الأناضول عندما أرغمهم على الانصهار في هوية قومية جديدة ليكونوا أتراكاً. لكن عواقب بناء الدولة بالإرغام، على هذا الشكل، ما زالت إلى الآن تؤثر على تركيا كثيراً، كما حصل في بلدان الشرق الأوسط خلال القرن التاسع عشر؛ حيث أدى بناء الدولة بطريقة تخدم مصالح الاستعمار إلى عدم استقرار متجدد.

فُهمت فكرة مهمة الغرب في نشر الحضارة وفرض قيمنا وتحديد الحداثة كما نريد في القرن الماضي، كأنها تطور على الطريقة الداروينية في الانتخاب الطبيعي، وفي القضاء الحتمي على العناصر الدنيا؛ إذ كانت الإمبريالية ترى كأنها تؤدّي خدمة للحضارة من خلال القضاء على الأعراق ذات المستوى الأدنى. أشار محمود ممداني إلى أنه مع بداية

1- Michael Hardt and Antonio Negri, Empire, 200, p. 209.

2- Franz Fanon, Wretched of the Earth, 1961, p. 5.

3- Mahmood Mamdani, Good Muslim, Bad Muslim, 2004, p 5 & .

القرن العشرين كان التمييز بين الحروب الحضارية والحروب الاستعمارية عادة أوروبية. فقوانين الحرب تطبق على الحروب بين الدول المتحضرة، بينما قوانين الطبيعة هي التي تطبق على الحروب الاستعمارية، وكان القضاء على الأعراق الدنيا يُرى كضرورة بيولوجية[1]. وقد عبّر اللورد زالسبيري رئيس الوزراء البريطاني عام ١٨٩٨ عن ذلك في خطاب له أنه «لا يمكننا تقسيم أمم العالم إلا إلى أموات وأحياء».

كان تاريخ الاستعمار تاريخ رغبة المستعمرين المحليين في مساعدة عملية التطور الداروينية في القضاء على الأعراق ذات المستويات الأدنى، خصوصاً عند إمكان احتلال أرضهم واستيطانها. لقد عبرت حنا إرندت باختصار في دراستها للهولوكوست عن وقائع قتل المستعمرين الأوروبيين للمواطنين الأصليين: منذ القرن الخامس عشر تستولي أوروبا على المستعمرات، بقتل المواطنين الأصليين وسلب أرضهم.

كان النموذج الكلاسيكي في تاسمانيا، جزيرة في أوستراليا، حيث وصل المستعمرون الأوروبيون عام ١٨٠٣؛ فقد حصلت المجزرة الأولى بحق المواطنين الأصليين عام ١٨٠٤، ومات المواطن الأخير عام ١٨٦٩. والمصير نفسه لاقى المور في نيوزيلاندا والهريرو على يد الألمان في جنوب غرب إفريقيا الذين كانوا أول من تعرض في القرن العشرين للتجارب الطبية التي مارسها الأوروبيون ليبرهنوا على تفوق الإنسان الأبيض[2].

غير أن المثل الأكثر وضوحاً كان المستعمرون الذين وصلوا إلى مستعمرة العالم الجديد أميركا فارين من الفقر ومن انحطاط أوروبا والذين كان هدفهم تكوين مجتمع إلهي واعتقدوا أن أميركاهم اختيار إلهي وأن مجتمع المستوطنين الذي بنوه سينتج القيادة الأخلاقية التي ستكون نوراً للعالم.

الحقيقة المختلفة - بالنسبة «للأميركيين الآخرين» - عن هذه المهمة الحضارية كانت أقل لطفاً: الإبادة الجماعية الأولى في التاريخ الحديث - التي تتمثّل بقتل الغالبية الساحقة من الأميركيين الأصليين - سجلت على يد المستعمرين بالعنف العسكري، إلى جانب الأوبئة التي أتت من أوروبا. لقد استولى المستوطنون على أرضهم في هذه المهمة الحضارية ومحوا حضارتهم. وهذا مثل نموذجاً رأيناه من قبل عن المظلومين الذين يظلمون غيرهم. فقد

1- Mahmood Mamdani, Good Muslim, Bad Muslim, 2004, p 7.

2- Ibid., p 6 & 8.

طرد بعض الأميركيين المستعمرين الأوائل من بلادهم على يد المستعمرين الانكليز. ولا تزال بعض الأعمال الفنية الصغيرة التي تمثل ثقافة الأميركيين الأصليين موجودة في متاحف الولايات المتحدة وهي تمثل ذكرى طريفة لمجتمع متخلف «تخطته الحداثة».

إن هذه الأحداث - التي تُسرد في رواية التاريخ الأميركي بصورة رومنطيقية- تركت ذكرى قوية جداً للمهمة الحضارية الأميركية التي تتجذر في الاستيطان الأجنبي ونشر القوة العسكرية العظمى لسحق وإخضاع الشعوب الضعيفة.

هناك عودة لصورة راعي البقر الخير الذي غنم الغرب بمسدسه الذي قاتل به الهنود الأشرار (الأميركيين الأصليين) الذين كانوا يهاجمون الرجل الأبيض، والتي تظهر في اللاوعي، وفي السياق العالمي للغرب المتحضر، بقيادة شرطي العالم الأميركي لمواجهة المسلمين «الأشرار».

لقد تركت سيكولوجيا الروايات التاريخية الأميركية - بكل ما فيها من محو كامل لتاريخ وثقافة الأميركيين الأصليين - عند الولايات المتحدة بقايا مقارنة بين الأعراق «العصرية» والشعوب «المتخلفة».

فأصول قواتها المسلحة في مساعدة برنامج المستوطنين وفي مواجهة المقاومة «البدائية» التي شنها الأميركيون الأصليون خلال احتكارها القوة العسكرية المتطورة والساحقة - البندقية- تركت وصمة على أخلاقيات القوة المسلحة الأميركية تتمثل باستخدام القوة العسكرية الساحقة. كذلك كان لامتلاك المسدس - كرمز شخصي لتلك المرويات القديمة وكفارض للثقافة الأميركية بالقوة - تأثيره على تشكيل الذهنية السياسية الأميركية.

أما في سياق الصراع الراهن، بالطبع، لقد تخلى الغرب إلى حد كبير عن استعمار الأرض بواسطة المستعمرين البيض لصالح استعمال الوكلاء البيض كعملاء استعماريين، حيث يحصل تغيير في النظام أو حيث يتم الإعداد لذلك. إنهم القادة المسلمون «المعتدلون» الذين يفرط الغرب بالثناء عليهم ويمدهم بالعتاد والسلاح والميلشيات.

لكننا الآن في مرحلة جديدة من محاولة المهام الحضارية تشكيل الطابع الأمني والديمقراطية العلمانية. وهذا استعمار مهما كان شكله. إنها محاولة لاستخدام السيطرة السياسية والعسكرية لفرض نموذجنا على النظام العالمي، محاولة من خلال تشكيل لغة

وهوية المجموعة الدولية المتطورة، لاستخدامهم كأدوات للتأكيد أن المناقشات المستقبلية داخل المجموعة الدولية تُدار بشروط حداثتنا، وكما تقتضي رؤيتنا المؤسساتية. هذا بالطبع سيوفر فرصة للولايات المتحدة الأميركية. وبالطبع، تواجه الولايات المتحدة وأوروبا كذلك مقاومة إسلامية منظمة من أجل طبع مستقبلهم العالمي بطابع النموذج الغربي.

يرى الغرب أن هذه المقاومة الثورية للمحاولات الغربية التي تشكل المستقبل العالمي للمسلمين غير عقلانية. فالحساسيات الغربية تغضب وتثور لرؤية العنف الذي يبدو للغرب بلا شعور ولا يؤدي إلى أي تقدم، بل إلى انزلاق وتدهور المجتمع المدني. وهو يلامس مخاوفنا المكبوتة من موروث حكايات قبائل المتوحشين المجانين الذين يعتدون على النساء والرجال البيض المتحضرين الذين لا حول لهم، بلا سبب غير أحكامهم البدائية المسبقة تجاه الذين يحاولون مساعدتهم في «بناء مجتمع أفضل». يُقرأ العنف الذي تمارسه المنظمات غير الشرعية - أي المنظمات التي لا تنضوي تحت جناح الدولة الديمقراطية الغربية - إما كدليل على مقاومة مشروع التحديث، وبالتالي كدليل على عائق يوضع في طريق الحداثة؛ أو كنتيجة لدين لم يتعال كبعد منفصل بحيث يكون خاضعاً للقوى الاقتصادية والسياسية بوصفها محركات طبيعية للتاريخ. يُفسّر العنف الذي يمارسه المسلمون على أنه تشويه منحرف للإسلام؛ أو كنموذج لكيفية إمكان إبعاد الاعتقاد الديني المفرط عن العقلانية والمواقف المتحضرة أو ببساطة أن يكون «شراً».

يشغل التخلف و «الشر» فضاء التاريخ الذي لا يتصل بالتاريخ الأوروبي العصري. فكلا المظهرين - التخلف الثقافي والحماس الديني اللاعقلاني - يشكلان معاً بالنسبة للغربيين اتهام المسلمين بـ«حب الموت» - إشارة إلى العمليات الانتحارية- التي بالنسبة لكثيرين تبرهن أن المسلمين لا يقدّرون الحياة البشرية بما في ذلك حياتهم هم- وهذا يدل على نبض بدائي.

أجاب أمين عام حزب الله حسن نصر الله عن هذا النعت بقوله إن العيش تحت نير الظلم والإذلال والعبودية ليس «حياة». وناقش أن عقدة النرجسية الغربية في «التمتع بالحياة وزخرفها» حرّف أولوياتهم بجعلهم هذه «الحياة» المتمركزة على الذات: أولوية مطلقة. وهذا بالنسبة لنصر الله ليس دليل حضارة، بل هو دليل ضعف.

يضع الغرب «الحياة» على رأس معايير الحضارة بالتحديد؛ لأنه ليس للغرب مثل أعلى

من «التمتع بالحياة». إلا أن نصر الله يؤكد ان هناك قيماً أعلى من الحياة يضحي الإنسان بحياته من أجلها، هذا يبدو تخلفاً للغربيين الذين يضعون «التمتع بالحياة» على رأس أولوياتهم. لكن إرادة التضحية الشخصية - يناقش نصر الله - هي صبغة أفضل لإنسانية الإنسان من التمسك بحياة العبودية في كل الظروف أملاً في مغفرة الله. في هذا، يردد نصر الله ما قاله هيغل في «فينومينولوجيا الروح» معتقداً أنه رغم أن الموت هو أكثر الأشياء رعباً (فإن) «حياة الروح ليست حياة تتقلص جرّاء الموت وتترك ذاتها بمنأى عن الاضمحلال، بل هي بالأحرى الحياة التي تتحمل الموت وتحافظ على ذاتها ضمنه»(١).

رد فرانتز فانون في سياق آخر، بطريقة مغلوطة، على الاحتجاج حول هذه اللاعقلانية الظاهرة في بعض أعمال العنف بموافقته على أن «المفردات الاستعمارية تطلق بشيء من العنجهية والعدائية والقلق مثل: تلك الجماهير المصابة بهستيريا؛ وجوههم الخالية من التعابير؛ هذا الوجود البدائي... يفتقد المستعمَر غالباً لوسائل الإعلام، ويلجا إلى الأحلام والتخيل والتمثيل وتجسيد المفردات التي تعبر عن ردة فعل على العنف ويسعون لتحقيق العدالة من خلال معاقبة أجسادهم ونفوسهم: «إن تقسيم العالم المستعمِر هو صورة واضحة في خيال كل مستعمَر. وإيقاع الاضطراب في العالم المستعمِر لا يُعدّ مواجهة عقلانية بين وجهات النظر، بل هو ادعاء متقد بالعاطفة من قبل المستعمَرين أن عالمهم مختلف بشكل أساسي(٢).

ما يلمح إليه فانون هو أن هناك كماً من العوامل العاطفية والنفسية - لا صلة لها بالمعتقد الديني أو بالتخلف الثقافي- تشكّل دافعا للعنف الذي قد يبدو «لا عقلانيا» من وجهة نظر سيكولوجيا الجماعة التي تعايشه . وهذه فاعلية بعيدة عن أي حسابات للحاجات السياسية للمقاومة المسلحة.

إن ضعضعة العالم الاستعماري والبرهنة على فراغ الادعاءات الغربية بشرعية عنفها، هي واحد من الأهداف الرئيسة لحركات المقاومة الإسلامية: تفكيك المشروع الغربي بوسائل بناء هوية بديلة وإعادة كتابة التاريخ ورفض الانصياع للغة الغرب والمقاومة المسلحة. سوف تستمر هذه المقاومة حتى يقبل الغرب القوي جداً أنه سيضطر للتسليم بنظام عالمي جديد تتصوره أكثر عدلاً للآخرين بما فيهم المسلمون.

1- G W F Hegel, Phenomenology of Spirit, 1977.

2- Frantz Fanon; The Wretched of the Earth, 1961, in the foreword by Homi BhabHa, pxx.

هذا هو التحول المثالي الذي يحاول الإسلاميون تحقيقه: فقط في عملية مقاومة الخيارات المتعجرفة والاستقطابية التي يفرضها الغرب على عملائه يمكن التغلب أخيراً على الثنائية الاستعمارية التقسيمية للذهنية الغربية.

ليس هناك إمكانية لبناء مجتمع دولي - دع النظام العالمي الجديد وشأنه - من تصور مسبق غربي للانقسام بين التحضر والتخلف.

إن إيديولوجيا الأنواع المنفصلة التي تقسمه الجبهة التي تفصل «نحن» الشعوب المتحضّرة عن «الباقين» هي الحكم المسبق اللاواعي والمغمور للإرسالية الغربية التي يأمل المسلمون بتحطيمه، من خلال رفض الاعتراف أو التعامل مع ما تشترطه؛ أو السخرية من خلال تبني العنوان القائم على الحكم المسبق كوسام شرف، بدل كونه نوعاً من الازدراء الغربي.

رأى محمود ممداني أن ردود الأميركيين على نهاية الحرب الباردة كانت سبباً رئيسياً لهذه القطبية المانوية ذات الثنائية الحادة بين الخير والشر. كما أن الطريقة التي انتشرت فيها القوات العسكرية الاميركية تفسر إلى حد كبير رد غالبية المسلمين العسكري.

يشير ممداني إلى أنه وعقب الهزيمة في فيتنام واجهت الولايات المتحدة معارضة لأي تدخل عسكري عبر الحدود، سواء أكان هذا التدخل في الداخل أم في الخارج. لكن في نفس العام الذي انتهت فيه الحرب الفيتنامية، انتهت الإمبراطورية البرتغالية. بهذا انتقل مركز جاذبية الحرب الباردة من جنوب شرق آسيا إلى جنوب أفريقيا، حيث أصبحت المستعمرات البرتغالية السابقة في موزمبيق وانغولا بؤرة تنافس الحرب الباردة.

ولعدم قدرتها على التدخل المباشر بسبب معارضة الرأي العام الأميركي لأي تدخل عسكري خارج الحدود، بحثت الولايات المتحدة عن وكلاء لخوض صراع الحرب الباردة، من رينامو في موزمبيق إلى يونيتا في أنغولا، وصولاً إلى الكونترا وأخيراً إلى حركات المقاومة الأفغانية، سهّلت الولايات المتحدة إنشاء حركات التحرر المسلحة. وقد ناقش ممداني أن إدارة بوش ردت على ما حصل في ١١ ايلول بتقليد تكتيكات هذه الحركات، كما عكست القوات الخاصة الأميركية تكتيكات «إرهاب» نفس الجماعات التي ولدت على يديها.

غير أن الميزة الثانية للحرب بالوكالة التي ساهمت بتشكيل الصراع أكثر من أي ميزة

أخرى كانت أن جعل رونالد ريغان هذه الحروب التي بالوكالة ذات صفة أيديولوجية مرتكزة على أفكار دينية. فقد تبنى ريغان الحرب الباردة كحرب ضد «الشر» لكي يعبئ جمهوره الانتخابي من الأميركيين التبشيريين؛ وليعطيها تماسكاً قومياً، ولكي يقضي على الشك الداخلي من خلال عرضه للصراع بلغة الخير والشر الصارمة.

قد تكون صياغة الحرب بهذا الشكل سهّلت تعبئة بعض الجماهير الداخلية في الولايات المتحدة الاميركية، لكن أيضاً كان لها نتائج بعيدة المدى؛ إذ ليس بالإمكان التفكير بالتعايش مع الشر، ولا يمكنك تحويل الشر إلى خير؛ كما لا يمكنك التفاوض أو التكيف مع الشر، يمكنك فقط القضاء عليه. مع هذا النوع من الأدلجة لا تعود الحرب شراً لا بدّ منه، بل تصبح حاجة إلزامية وعلى الأميركيين خوض الحرب لكي يقضوا على الشر. أصبحت مسعى ممدوحاً.

عكس الشعور الأميركي تفكير الجهاديين المتطرفين: أيدت قلة من المسلمين الجهاد بوصفه واجباً عينياً على كل مسلم ، وبوصفه «العمود السادس المنسي» للإسلام. كما كان العمل العسكري في عقيدة ريغان ممدوحاً ومرحباً به. وفي رأي عبد الله عزام الشهير، العمل العسكري ممدوح ومرغوب به «حب الجهاد استحوذ على حياتي ونفسي ومشاعري وقلبي وأحاسيسي. فإذا كان الاستعداد للجهاد إرهاباً فنحن إرهابيون. وإذا كان الدفاع عن شرفنا تطرفاً فنحن متطرفون، وإذا كان الجهاد ضد أعدائنا أصولية، فنحن أصوليون»[١].

١- عبد الله عزام، الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض العين، ١٩٨٧.

إنتاج النمط ... وأدلجة التنميط

ـ عن صورة حزب الله في العقل الإسرائيلي ـ

د. حسين سلامة*

ـ تقديم

حمل العقل الإسرائيلي تمثلاته النمطية الخاصة به ـ والموروثة في كثير من الأحيان ـ عن العرب عموماً، وجيرانه الأقربين بشكل خاص، استناداً إلى مجموعة من المركبات المفاهيمية والمنظومات المعرفية التي تبلورت في سياق المسارات التاريخية للتركيب السوسيولوجي اليهودي ـ إبتداءً ـ والمتحوّل إسرائيلياً في وقت لاحق.

غير أن تلك المنظومة التي بناها العقل الإسرائيلي طرأ عليها العديد من التغيرات التي أدخلتها مجريات الصراع التي كانت فلسطين والدول المجاورة ميداناً لها، سواء في حالات الحرب أم في حالات السلم، والتي كان أهمها وأبرزها دخول «صورة حزب الله»، كحركة ممانعة ومقاومة، استطاعت أن تحجز مكانها في العقل الإسرائيلي الذي تجاوز كل الصور التي كان يختزنها عن العرب ـ سلباً أو إيجاباً ـ ليصنع تمثلاته الخاصة عن هذا «العنصر النمطي الجديد»، الذي اسمه حزب الله.

ولهذا فقد حازت هذه المجموعة ـ حزب الله ـ على اهتمامات الباحثين والدارسين، خصوصاً لدى المؤسسات الإسرائيلية، في محاولة منها لإعادة ترسيم حدود الصورة التي باتت تحتلها في العقل الإسرائيلي، وذلك بتأثير من عنصرين أساسيين:

❖ **أولهما**: طروء الصورة على الوعي الإسرائيلي دون أن يكون لها قبليات مسبوقة بها

❖ باحث في علم الاجتماع.

بخلاف ما هي عليه عموم صورة العرب (الأقربين والأبعدين) ... إذ إن الإسرائيلي لم يكن مسبوقاً بصورة خاصة ومستقلة عن هذه المجموعة ـ كتنظيم وحتى بنسبة معينة كانتماء طائفي ـ لأنها لم تكن موجودة أصلاً، وحينما وُجدت وتشكّلت، بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان، فقد احتاجت الوسائل الإعلامية الإسرائيلية بعضاً من الوقت الإضافي لتنتبه إلى وجوده، ولتُسلّم بقوة حضوره، فضلاً عن فعاليته والتأثيرات المتنامية لصورته داخل المجتمع الإسرائيلي.

❖ **العنصر الثاني**: هو قوة الصورة التي استطاع حزب الله أن يحفرها عميقاً في الوعي الإسرائيلي، خصوصاً أن تلك الصورة لم تكن خاضعة لاعتبارات السلم والحرب كما هو حال صور أخرى عن العرب الآخرين، ذلك أن حضورها كان يومياً، دائماً، ومستمراً، ولمدة طويلة استمرت على وتيرتها المرتفعة زهاء الخمسة عشرة عاماً (من العام ١٩٨٥ إلى العام ٢٠٠٠)، وبقيت مستمرة لاحقاً وإن بوتيرة منخفضة في الفترة التي تلت الانسحاب الإسرائيلي من لبنان، لتعود وترتفع مرة أخرى بعد حرب تموز من العام ٢٠٠٦.

بناء عليه، وانطلاقاً من الخصوصية التي تفرّدت بها صورة حزب الله عن غيرها من الصور العامة والمتعددة عن العرب، فإن عملية استخراج المفردات الخاصة بها، والمتمظهرة في الإعلام الإسرائيلي، استلزمت الوقوف عند مراحل تطور «مستوى حضور» تلك الصورة في الوعي الإسرائيلي، والتي يمكن تقسيمها إلى مرحلتين مفصليتين:

- **الأولى**: تستمر حتى عشية الثاني عشر من تموز ٢٠٠٦، أي عشية الحرب التي شنتها إسرائيل على لبنان، وهي مرحلة تمت دراستها بالتفصيل، وسيتم استعراض أهم النتائج التي توصلت إليها في سياق هذه الدراسة[1].

- **الثانية**: تبدأ من يوم الثاني عشر من تموز ٢٠٠٦، مباشرة بعد عملية الأسر التي نفذها حزب الله، وقامت إسرائيل ـ بذريعتها ـ بشن حرب مدمرة ضد لبنان، ولمدة ثلاثة وثلاثين يوماً ... وهي حقبة ـ لم تنته بعد مفاعيلها الانعكاسية على مستوى الوعي الإسرائيلي ـ تمّ فيها تقديم صورة جديدة لحزب الله، فيها بعض من عناصر الصورة القديمة، ولكنها احتوت على الكثير من المفردات الجديدة التي منحت تلك الصورة بُعداً

١ ـ للوقوف على تفاصيل صورة حزب الله كما قدّمتها وسائل الإعلام الإسرائيلية، يمكن الرجوع إلى كتاب: حسين سلامة، حزب الله في العقل الإسرائيلي، إصدار مركز باحث للدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.

آخر ... وهو ما سنحاول التوقف عنده بشيء من التفصيل في هذه الدراسة.

وعلى هذا فإن البحث عن صورة حزب الله كما تمثلتها النمطيات الحاضرة في الوعي الإسرائيلي سوف يتم من خلال التعرّض لثلاث قضايا رئيسية :

١ ـ العناصر المكوّنة لنمطيات «صورة الآخر» في العقل الإسرائيلي.

٢ ـ العناوين الرئيسية لـ «صورة حزب الله» كما تمثّلها العقل الإسرائيلي خلال الحقبة الأولى (عشية حرب تموز ٢٠٠٦).

٣ ـ تفاصيل الصورة التي تمثلها العقل الإسرائيلي عن حزب الله في الحقبة التي تلت حرب تموز ٢٠٠٦.

مع الإشارة إلى أن قراءة الخلفية الفكرية لـ «صورة حزب الله في العقل الإسرائيلي» ـ خلال هذا الدراسة ـ استندت، في تأسيساتها النظرية، إلى النص الذي أنتجه العقل اليهودي ـ في بداياته ـ والمتحول سوسيولوجياً إلى «عقل إسرائيلي» في مراحله اللاحقة، نظراً لما يشكله ذلك النص من إطار مرجعي، يعتبر الأصلح لفهم وإدراك الأدوات المعرفية التي بها قام العقل (اليهودي ـ الإسرائيلي) بتشكيل الصورة النمطية عن «الآخر» عموماً، وحزب الله خصوصاً، والتي بدورها تمظهرت بأشكال (وأنماط) متنوعة، بشكل متلائم مع الفجوات القائمة بين مجموع النصوص اليهودية وفقاً لتبعيتها الأيديولوجية والفكرية والثقافية.

ـ أولاً : عن «الآخر» و«صورة الآخر» في العقل الإسرائيلي:

تتعدى المعالجة المفاهيمية لعناصر «أدلجة التنميط» في «العقل الإسرائيلي» أطر القراءة التاريخية للمسار التطوري (سوسيولوجياً) للمجتمع «الإسرائيلي» ـ المتراكم يهودياً ـ إلى فهم الأدوات المعرفية التي استخدمها ـ أو خضع لها العقل اليهودي في عملية تشكيل «الفكرة النمطية» التي كونها عن الآخر ـ أي آخر ـ انطلاقاً من إدراكه الواعي ـ واللاواعي ـ لذاته.

ولأجل فهم الأدوات المعرفية تلك، كان لا بدّ من الدخول في مسارات «منهجية» تعمل على تحديد «الإطار المرجعي» الذي يجب العودة إليه لتفكيك رموز ومصطلحات «الفكر اليهودي» (الإسرائيلي لاحقاً)، بوصفه مجموعة الآراء والأفكار والاتجاهات التي عبّر بها «اليهود ـ الإسرائيليون» في مجالاتهم المتعددة (الثقافية، السياسية، والاجتماعية)، ومن

خلالها، عن اهتماماتهم ومشاغلهم، وأيضاً عن مثلهم الأخلاقية ومعتقداتهم الدينية والمذهبية، وكذلك عن نظرتهم إلى ذواتهم وإلى «الآخر» المغاير لهم، وذلك داخل الإطار اللغوي الخاص بهم ـ وتحديداً اللغة العبرية ـ بوصفها أحد القوالب الأساسية التي تشكَّل فيها الفكر اليهودي قديماً، والإسرائيلي حديثاً ...

لذلك فإن النص المنتج يهودياً ـ بشقيه الديني والصهيوني ـ وبأنواعه المتعددة (الديني، الأدبي، السياسي، الفكري) إنما يشكِّل أحد أهم الأطر المرجعية التي يمكن من خلالها تقديم الحقول الأيديولوجية والنظم المعرفية في الثقافة الإسرائيلية (اليهودية)، وتالياً جملة المفاهيم والفعاليات الذهنية التي تحكم رؤية الإنسان اليهودي (المتأسرل بعد قيام الدولة) إلى الإنسان «الآخر» ـ وبالأخص المجاور له ـ وإلى الأشياء، وطريقة تعامله معها في مجال بناء السلوك واكتساب المعرفة... مجال إنتاجها وإعادة إنتاجها...

وعلى هذا فإن العناصر المكوّنة لنمطيات «صورة الآخر» في العقل الإسرائيلي، يمكن الوصول إليها من خلال استكشاف الأشكال المتعددة للنص «اليهودي ـ الإسرائيلي»، وذلك وفق المرجعيات التالية:

١ ـ فمن داخل النص الديني اليهودي، الذي تميّز بقوة الحضور، وبالقدرة على التأثير في التصورات التي كونها «اليهودي» عن ذاته وعن الآخر، تمظهرت العديد من الصور التي قدمها النص التوراتي ومعه النص التلمودي، فبانت فيهما :

❖ صورة «الذات اليهودية»، المتفوقة والمتميزة والمصطفاة من قبل الرب «إلهها»، والمتقدمة على «الآخر» من الأغيار.

❖ معالم الاستعلاء في الذات اليهودية، وما تفترض هذه النظرة في نتائجها من استعباد للآخرين وتسخيرهم لخدمة تلك «الذات» والقيام على تلبية رغباتها وفقاً لما تراه من زاوية «ذاتها» المستعلية.

❖ إنعكاس تمثل اليهودي لـ «ذاته» بحالة من القطيعة المجتمعية تجاه «الآخر»، وميل تلك «الذات» نحو الرغبة الجامحة بالقتل والانتقام، إنطلاقاً من عدم قبولها بوجود «المقدس» خارج إطار ذاتها، ما جعلها غير قابلة لتقديس الحياة الإنسانية، اعتقاداً منها بعدم وجودها ـ أصلاً - لدى «الآخر»...

❖ منظومة متكاملة من المحرّمات والممنوعات التي تفصل بين اليهودي، والآخر

غير اليهودي، والتي تحكمها النظرة إلى «الآخر» المتدني في حقيقته النفسية والجسمانية، بوصفه شيئاً من الأشياء الموجودة في «المجال اليهودي»، الأمر الذي يحتم صوغ الأحكام الخاصة به، لتمكين «اليهودي» من التعامل معه.

٢ ـ هذا ما قدمه النص الديني اليهودي، من صور عن الذات وعن الآخر... أما النص الذي أنتجه الفكر الصهيوني فلم يشذ في أطره العامة عن مرجعيته الدينية المتداخلة بقوميته اليهودية، بينما جاء الاختلاف من داخل النص الصهيوني، حيث تفاوتت معالم الالتقاء والافتراق، بين «الذات» و«الآخر»، وفقاً للتفاوت الموجود بين الاتجاهات الصهيونية المختلفة، ووفقاً لطبيعة المرحلة التي كان فيها إنتاج النص الفكري، مضافاً إلى ذلك، الاختلاف الموجود بين النص الفكري، والأدبي، والسياسي.

❖ فعند الرواد الأوائل المفكرين الصهاينة ، بقي التركيز على تمجيد الذات اليهودية، وتعظيمها، ورفعها إلى الدرجات المتقدمة على كل البشر، في مقابل تهميش «الآخر» غير اليهودي، وتحطيم صورته، بدءاً من تشويه تلك الصورة، مروراً بتحقيره، وصولاً إلى نفيه وإلغائه.

❖ أما في الأدب العبري المعاصر، فقد تبلورت الصورة من خلال مجموعة أعمال أدبية نظرت إلى الآخر من منظور كونته مقولة تفرّد الأنا، وتفوقها في مواجهة الآخر، والأدباء العبريون، إذ يقدمون الآخر من هذه الزاوية، فإنهم من خلاله يرسمون ذواتهم التي لم تنفك مربوطة بمقولات الماضي اليهودي المتمركز حول محور الانتقائية والاستعلاء، والمنسحبة إلى الحاضر على شكل صدامات لا تنتهي مع الآخر...

❖ وفي مقابل ما شكّله الرواد الصهاينة، وأدباء اللغة العبرية، من صور عن الذات والآخر، كان للصفوة السياسية المعاصرة لقيام دولة إسرائيل «صورتها» التي عملت على إعادة إنتاجها بما يتوافق مع الجمع بين الأهداف الصهيونية، والواقع السياسي المستجد بقيام الدولة ... لذلك وجدنا أن تصور تلك الصفوة السياسية الإسرائيلية قد تغير بصورة أو بأخرى، عبر الزمن، تحت تأثير المشكلات المطروحة والاختلافات النوعية التي اتسمت بها مراحل الصراع، ولهذا كان من الطبيعي وجود بعض الفوارق في عقول تلك الصفوة، وإن كانت ـ الصورة ـ تبقى على توافقها في الأطر العامة، إلا أن الغوص في تفاصيلها ربما توصل إلى اكتشاف المتضادات فيما بلورته من قوالب نمطية في أذهان تلك الصفوة.

❖ وفي تفاصيل ما يتمثله قادة الدولة العبرية من صور عن الذات وعن الآخر، كما الحال عند بن غوريون مثلاً، تبقى «الذات» اليهودية المتعالية، التي ترى في تكوينها ما لا يمكن أن يكون في غيرها، هي الحاكمة على رؤية القادة الصهاينة... ولا يشذ عن ذلك ما قوليه قادة التيار الليبرالي (أمثال مناحيم بيغن) الذين تميزوا بالتعصب الشديد لقوميتهم اليهودية ونرجسيتهم الحادة في تمثل الذات، واجتماعهم على ازدراء وتحقير «الآخر»... على أن ذلك لا يلغي وجود بعض النماذج من القادة الصهاينة الذين حاولوا أن يصنعوا «صورة الآخر» على نسختين، واحدة غير عدائية، وأخرى منسجمة مع الإطار العام لما رسمته الصهيونية عن الآخر المعادي.

ـ ثانياً: العناوين الرئيسية لـ «صورة حزب الله»

كما تمثّلها العقل الإسرائيلي خلال الحقبة الأولى [عشية حرب تموز ٢٠٠٦].

١ـ لقد استطاعت «صورة حزب الله»، وبعد فترة وجيزة من اقتحامها للحيز «السوسيولوجي» الإسرائيلي ، أن تحجز «العناوين الرئيسية» في الوسائل الإعلامية الإسرائيلية (المرئية منها والمقروءة)، وفي العديد من الدراسات والأبحاث، بل وحتى في الجامعات «العبرية» أيضاً، لدرجة أنه صار أمراً مألوفاً أن يُشاهد في واجهات المكتبات مجلات أو كتب على غلافها إسم حزب الله، وصورة السيد حسن نصر الله، حتى أنه صار ضرورياً ـ كجزء من المواجهة ـ أن تعتمد العديد من المؤسسات الإعلامية ومراكز الدراسات على باحثين موصوفين بأنهم «مختصين في شؤون حزب الله».

٢ ـ أما من الناحية المفاهيمية فإن تلك الصورة قد دخلت «المخيال الإسرائيلي» من باب «الصورة النمطية» المتمثلة في «العقل اليهودي» عن العرب عموماً، ما جعل تلك الصورة تأتي في إطار «مقولب» بشكل مسبق، استناداً لما اختزنه «الوعي الإسرائيلي المعاصر» بفعل عمليات التشريب الفكري والثقافي التي خضع لها، خصوصاً في المراحل التي تلت قيام الدولة.

٣ ـ ولكن مع «التماس» المباشر، بين «المجتمع الإسرائيلي» من جهة، و«المقاومة» من جهة ثانية، والذي بدأت تجلياته تظهر في «الجنائز اليهودية» المتكررة التي أخذت وتيرتها بالتصاعد مع الأيام، أخذت الأسئلة بالازدحام في «العقل الإسرائيلي» بحثاً عن ذلك الذي بدأ يفرض حضوره في «الوعي الجمعي الإسرائيلي»، حتى صار «حزب الله» صاحب الحضور الأكبر في «الوعي»، وتلك «الذاكرة».

٤ ـ خضعت «آليات» تبلور «صورة حزب الله» في «العقل الإسرائيلي» لمجموعة من المحددات، كان أهمها: المحدد النفسي، الذي تأتّى عن حالات الخوف والقلق التي انتابت «المجتمع الإسرائيلي» من «فعل المقاومة»، وهو ما أدى بـ «العقل الجمعي الإسرائيليس إلى إنتاج مجموعة من «الصور النمطية» المتأثرة بالمحدد النفسي... أما المحدد الثاني، فهو المحدد الاجتماعي، والذي تمحور حول مستويات الشعور بالتهديد التي عاشها «المجتمع الإسرائيلي» في نظرته إلى حزب الله.

٥ ـ يلاحظ فيما تم تقديمه من صور عن «حزب الله» تأرجحها بين اتجاهي «السلب» و«الإيجاب»؛ بحيث كان الأصل ـ وفقاً للمصلحة السياسية والعسكرية ـ هو تقديم «حزب الله» بوصفه الجهة «الإرهابية المتوحشة» التي تقاتل «إسرائيل»، غير أن بعض «الاتجاهات الموضوعية» في الداخل الإسرائيلي ، استطاعت إدخال بعض «التعديلات» على تلك الصورة، ما جعلها أكثر إيجابية في «المتخيل العامّ» لدى «العقل الجمعي الإسرائيلي».

٦ ـ وكشكل من أشكال الموضوعية أيضاً ركّزت «النصوص العبرية» على الجانب الأيديولوجي في «صورة حزب الله»؛ حيث عمدت تلك النصوص إلى إبراز مفهوم «تدمير إسرائيل» الذي «يؤدلج» طبيعة المعركة التي يخوضها حزب الله ضد إسرائيل، وليس في المرحلة الآنية فقط، بل وعلى المدى المستقبلي أيضاً.

٧ ـ كما كان من المؤثرات الحادة على «الوعي الإسرائيلي» في تمثّله لـ «صورة حزب الله» قضية «الهزيمة»، وهي مسألة تلعب دوراً هاماً في بلورة وتنميط «صورة الذات» في مقابل «صورة الآخر»، نظراً لما استيقنه «الوعي الإسرائيلي» من أن الجيش الإسرائيلي «لا يُقهر»، فكان للهزيمة في لبنان ـ بفعل الإنسحاب الذي اضطر إليه الجيش الإسرائيلي في العام ٢٠٠٠ ـ دورها الأساس في إعادة إنتاج هذا المفهوم لديه، وما استتبع ذلك من إعادة إنتاج لصورة «العدو» الذي حفر هذه «الهزيمة» في وعيه.

٨ ـ ولكن في سياق إعادة إنتاج صورة العدو، عمد «الإسرائيلي» ـ خصوصاً الجهات المعنية ببناء الإتجاهات لدى الجمهور اليهودي ـ إلى استخدام بعض من أساليب «التعويض النفسي» لكسر حدة «انحفار» الهزيمة في وعي جمهورهم، من قبيل تعمد تضخيم العدو، بتقديم حزب الله وكأنه «دولة داخل الدولة»، سواء على مستوى إمكانياته، أم حتى قدراته التأثيرية في الداخل «المحلي»، والداخل «الإقليمي»... أم بسلوك طريق عكسي، من خلال

تعمد «التوهين» والاستخفاف بالعدو، وتقديمه على أنه مجرد تابع لغيره، ورأس حربة لعدو أكبر يقاتل عنه بالنيابة.

٩ ـ كجزء من الصورة الكلية عن حزب الله، أظهر «الإسرائيلي» احتراماً (وإعجاباً) كبيراً بالقدرات التي يتميّز بها حزب الله على مستوى الحرب النفسية، سواء بالآليات الإجرائية في تنفيذ تلك الحرب، أم بالتقنيات الفنية التي يستخدمها، والتي في مقدمها تقنية «بث الصورة» (تلفزيون المنار)، حيث أقّر «الإسرائيلي» بأن حزب الله كان رائداً في هذا المجال ... وهذا ما انطبع في «العقل الإسرائيلي» حتى صار للصورة التي يبثها حزب الله مكانها الخاص، حتى في الداخل الإسرائيلي.

١٠ ـ ويبقى فوق كل ذلك، وقبله أيضاً، لسماحة «السيد حسن نصر الله» صورته الخاصة، التي تستقلّ عن حزب الله حيناً، وتصبح هي «الصورة» بكاملها حيناً آخر ... فقد انزرعت تلك الشخصية «القيادية ـ الكاريزماتية» في عمق الوعي الإسرائيلي، موقعة «الرأي العام اليهودي» في حيرة «تحديد اتجاهات النظرة» إليه، بين أن يكون «العدو الأول» و«اللدود»، وبين كونه «الزعيم» الأكثر مصداقية واحتراماً ، والأوسع تأثيراً ، من بين «الزعماء» كافة (العرب تحديداً) الذين كانت لهم سنين من المواجهات مع «الإسرائيلي»... وبغض النظر عن كل ما كُتب باللغة العبرية عن هذا «القائد»، بشقيه «المتحيّز» و«الموضوعي»، فإن المؤكد ـ وفقاً لمنطوق ذلك الجمهور ـ أن الصورة الأكثر ثباتاً في وعيه ـ وفي لا وعيه أيضاً ـ هي التعبير الذي قيل ذات يوم، وتكرّر مرات عديدة، بلغة عبرية واضحة : «نحن نصدّق (السيد) حسن نصر الله».

ـ ثالثاً : صورة حزب الله بعد هزيمة حرب «تموز ٢٠٠٦».

لم يكن الحدث الكبير والمتعدد التأثيرات، الذي شهد لبنان مجرياته خلال صيف ٢٠٠٦، والذي عنونته الدوائر الإسرائيلية باسم «حرب لبنان الثانية» ... لم يكن بتداعياته ليتوقف عند حدود الفعل العسكري المباشر، أو عند سقف القرار السياسي المحرّك له. حيث فرضت قوة الحدث، بمستوياته المتعددة، التعدي إلى مدارك أخرى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمركبات السوسيولوجية للمجتمع الإسرائيلي، والحراكات التي يعيشها على المستوى النفس اجتماعي.

ولا شك بأن أكثر المركبات تفاعلاً مع أحداث حرب «تموز ٢٠٠٦» داخل المجتمع كانت

تلك المتعلقة بالتصورات التي أعاد إنتاجها الوعي الإسرائيلي على ضوء مجريات الحرب ونتائجها، والتي كانت ذات تأثير صادم، وتفاعلي، ومباشر على التأسيسات البنيوية للتمثلات، الواعية واللاواعية، التي كان يعيشها الإسرائيلي في نظرته إلى الذات من جهة، وإلى الآخر من جهة ثانية.

وبما أن حزب الله، كان قلب المعركة وعنوانها، فقد احتل الموقع المركزي في الحراكات التمثلية للوعي الإسرائيلي، الذي لم يتوان عن إعادة إنتاج الصورة الحاضرة لديه عن حزب الله، ولكن ليس من منطلق إسقاط العناصر المتشكلة في وعيه عن تلك الصورة، بل من خلال التأسيس على تلك العناصر، والمراكمة عليها، وصولاً إلى تطوير الصورة، وإعادة انتاجها بما يتناسب مع العناصر الجديدة التي فرضت حضورها الأحداث الخاصة بالحرب الأخيرة.

واستناداً إلى هذا التأسيس النظري للصورة المستجدة عن حزب الله بعد حرب «تموز ٢٠٠٦»، فإنه يمكن الوقوف عند مجموعة من العناوين الأساسية، والقادرة على المساهمة في تظهير تلك الصورة كما باتت حاضرة في الوعي الإسرائيلي ... حيث يمكن إجمالها وفق العناوين التالية:

١ ـ حزب الله ... القوي ... فالأقوى ...

لم يتعاط الرأي العام الإسرائيلي مرة مع حزب الله على أنه قوة «باهتة»، ولا يُحسب لها حساب، إذ كان واضحاً، ومنذ أن اقتحمت صورة حزب الله العقل الجمعي الإسرائيلي، بأن «القوة» و«الصلابة» هي واحدة من العناوين الرئيسية التي تعنونت بها تلك الصورة لدى الجمهور الإسرائيلي ...

وما كان بعد حرب «تموز ٢٠٠٦» لم يكن مختلفاً عما كان قبله، فقد أعلنت القيادتان الاسرائيليتان ـ السياسية والعسكرية ـ أن أحد الأهداف الأساسية للحرب هو تدمير قوة حزب الله، وهو ما كان يتمناه ـ ويترقبه ـ كل الجمهور الإسرائيلي، غير أن النتائج التي آلت إليها الحرب، وما حقّقته المقاومة من مفاجآت خلالها، أدخل ـ كل ذلك ـ عناصر جديدة على صورة حزب الله التي كان يتمثلها الجمهور الإسرائيلي، بحيث تحوّل من صورة «القوي» إلى صورة «الأقوى»، خصوصاً مع الاعترافات التي قدّمتها القيادات العسكرية ـ والتي هي محل تقدير لدى الجمهور الإسرائيلي ـ قبل غيرها عن قوة حزب الله خلال

الحرب، حيث أكّدت أنه « ... في الواقع لقي الجيش الاسرائيلي عدوا محكما، وذا حيلة، ومصمّما، ومستعدا للتضحية، وذا نظام قيادة وسيطرة قوي ومنيع، يلعب هو أيضا في الملعب التكنولوجيّ، ويملك سلاحا بسيطا لكنه فعال، وأدوات لإدارة القتال الالكتروني»[1].

وما أعطى لهذه الصورة «زخمها وقوة حضورها في الوعي الإسرائيلي، هو ذلك التأكيد بأن ما يُسمّى بـ «قواعد اللعبة» إنّما كانت قائمة بفعل ما فرضه حزب الله من خلال القوة على طرفي الحدود، وهو ما لا يصحّ قياسه عسكرياً باستخدام المعايير الكلاسيكية المعتمدة (بين جيش نظامي، وقوة مقاتلة بأسلوب العصابات)، إلا أن المحللين العسكريين داخل إسرائيل يقرّون بقدرة حزب الله على فرض تلك القواعد، حيث يعتبرون أن «قواعد اللعب هذه هي في الحقيقة نتاج ميزان ردع صغير متبادل. ردعت إسرائيل حزب الله عن تجديد العمل الواسع الموجّه إلى البلدات المدنية، أما حزب الله فردع إسرائيل عن هجوم عام يهدف إلى كسر المنظمة»[2] ... وهذا «الميزان» هو ما دفع أيضاً «إسرائيل» للسعي إلى تغيير «قواعد اللعبة» نظراً لما كانت تشكله من تظهير واضح لتحرّر قوة حزب الله في مقابل تكبيل قوة «إسرائيل» عن استخدامها بالطريقة التي تشاء، ولهذا فإن «إسرائيل التي كانت قواعد اللعب قذى في عينيها أصلاً، لأن حزب الله فرضها قبلُ، طلبت أن تُغيّر بالعملية العسكرية الوضع في جنوب لبنان تغييراً جذرياً، حتى لقد حُددت أهداف المعركة على هذه الصورة»[3]...

حتى أن هذا التصور عن «قواعد اللعبة» التي يمسك حزب الله بخيوطها، انسحبت في الوعي الإسرائيلي إلى الداخل اللبناني، على الأقل في الجزء الذي يتصل بخصوصيات الساحة الداخلية في إسرائيل، في دلالة واضحة على الحضور المتقدم للصورة القوية التي يحتلها حزب الله في تمثلات الجمهور الإسرائيلي ... ولعل نموذج القرار ١٥٥٩ هو أحد أهم الأمثلة التي يتوقف عندها المحللون الإسرائيليون في تقديرهم لقوة حزب الله في الداخل اللبناني، إذ يُقرّون بأن «معارضته (حزب الله) كبحت تطبيق القرار ١٥٥٩، وتُبيّن عملية الخطف بالطبع أن جرأته ومطامحه لم تضعفا. وبدا أن الأمل الأميركي بأن تستطيع

---

١ - آفي كوبر، مشكلات في ادارة الحرب، مركز بيغن - السادات للأبحاث الاستراتيجية - العدد ٢٢

٢ - يئير عفرون، الردع وحدوده، مركز يافي للدراسات الاستراتيجية، تقدير استراتيجي، مجلد ٩، العدد ٢، آب ٢٠٠٦، جامعة تل أبيب.

٣ - المصدر نفسه.

حكومة لبنان أن تتقدم نحو الاستقرار والسيادة مع وجود حزب الله هو مجرد وهم»[1].

ثم جاءت مجريات المعركة ـ في حرب تموز ٢٠٠٦ ـ لترفع من منسوب هذا التصوّر القبلي عن حزب الله وذلك بفعل «القوة» التي استخدمتها المقاومة خلال المواجهة، حيث تؤكد الشهادات الإسرائيلية على أنه «في الأسبوعين الأولين من القتال نجح حزب الله في تحقيق تصوره القتالي. وبهذا عبر عن الاستعداد المتصل الشديد لمخازن السلاح بعيد المدى الذي جمعه وقدرته على تنفيذ إطلاق النار على نحو متصل دائما في ظروف صعبة من قبله أيضا هي ظروف التفوق الإسرائيلي الجوّيّ التام»[2].

وبالعودة إلى «قواعد اللعبة»، وقوة حزب الله في الداخل اللبناني، فإن مجريات المعركة، وما بعدها من نتائج، أنتجت صورة أكثر قوة من تلك التي كانت حاضرة لدى الإسرائيلي في المرحلة التي سبقت الحرب، خصوصاً أن المقارنة هذه المرة لم تقتصر على المجموعات السياسية اللبنانية، أو الحكومة القائمة، بل إنها جاءت في قبالة القوة التي باتت الأكبر في الداخل اللبناني وهي قوة الأمم المتحدة، والتي لم تكن محل اطمئنان الإسرائيلي لجهة قدرتها على «ضبط» حزب الله، أو ـ على الأقلّ ـ الحدّ من قوته، إذ اعتبر المحلّلون الإسرائيليون «أنه إذا أراد حزب الله أن يعمل في جنوب لبنان لا ريب، وإذا قرر مواجهة القوة الدولية فسيكون هو الغالب ... في اللحظة التي سيواجهون فيها منتحري حزب الله، ستقوم قوات الأمم المتحدة وتمضي ببساطة. أصبحنا نعلم أن قوات الأُمَم المتحدة في لبنان لا تنجح في منع تهريب السلاح من سوريا إلى حزب الله، ونعلم أيضا أن قوات الأمم المتحدة لا تنجح في منع حزب الله من الاستعداد من جديد في جنوب لبنان. والأمر مسألة وقت، أو مسألة قرار حزب الله أن يعمل في جنوب لبنان...»[3].

وبما أن الإسرائيلي يعطي للمجال الاستخباري أهمية قصوى، خصوصاً مع «الصورة المتفوقة» دائماً التي كان يقدمها عن نفسه في مواجهته للجيوش العربية خلال الحروب السابقة ... لهذا فقد قدّمت الشهادات الإسرائيلية العنصر الاستخباري الذي امتازت به المقاومة خلال حرب تموز، كواحد من عناصر القوة التي يتملكها حزب الله، مقدّمة إياه

١ – روني بيرت، حرب إلى هنا: الولايات المتحدة في استعداد لإجراء معقّد، مركز يافي للدراسات الاستراتيجية، تقدير استراتيجي، مجلد ٩، العدد ٢، آب ٢٠٠٦، جامعة تل أبيب.

٢ – المصدر نفسه.

٣ – إفرايم عنبار، حرب لبنان الثانية وما بعدها: اخفاقات التفكير الاستراتيجي في حرب لبنان الثانية، مركز بيغن. السادات للأبحاث الاستراتيجية، العدد ٢٢، تموز ٢٠٠٧.

بصورة أكثر تفوقاً بعد التجربة القاسية التي خاضتها إسرائيل في قبالته خلال الحرب الماضية، حتى أنها كادت تصل إلى التأكيد بأن لا إمكانية لخرق حزب الله ومعرفة ما يدور في كواليسه، إذ كشفت ـ تلك الشهادات الإسرائيلية ـ عن اعتقادها ذلك من خلال الإشارة إلى أنه «كيف يمكن الدخول من بعيد، من واقع آخر، إلى مستوى نوايا منظمة قيادتها هي طائفة مغلقة، تقوم على المعرفة الشخصية والإخلاص الديني، وتنشر حولها اللامعلومات بالدعاية»[١]... ؟

طبعاً هذا لا يُلغي محاولة الإسرائيلي العمل على توهين «قوة» حزب الله، وتجميع الشواهد التي تساعد على تأكيد الزعم بأنه أصبح أكثر ضعفاً ممّا كان عليه قبل الحرب، كالقول بأن «الحرب، مع انقضائها، خلّفت حزب الله جريحاً، ومصاباً وحائراً. واجه حزب الله طول الحرب وبعدها اتهامات معارضيه في الداخل والخارج، لأنه ـ أي (السيّد) نصر الله ـ أخطأ الحسابات، وأخطأ تقديره للإسرائيليين ولردّهم، وجرّ لبنان كله، مع طوائفه وأحزابه المختلفة، إلى الدمار والخراب، والرجوع سنين إلى الوراء»[٢]... إلا أن هذه المحاولات في هذا الاتجاه، بقيت هشّة وخجولة، ومحدودة جداً، ذلك أن دوي الانتصار المنجز بـ «قوة المقاومة»، التي كانت والتي ظهرت لاحقاً، كان أقوى على مستوى الحضور في الوعي الإسرائيلي على مستوى التأثير وترسيخ الصورة لديه، من أن يُشوّش عليه بما هو أدنى من ذلك، خصوصاً أن كل الجمهور الإسرائيلي بات على اتفاق بأنه «في نهاية الأمر أصبحت صواريخ الكاتيوشا رمز انتصار حزب الله. تلقّت دولة إسرائيل نحوا من ٢٠٠ صاروخ كاتيوشا في اليوم، وأصبح واضحا للجميع أن ليس الجيش الإسرائيلي هو المنتصر في الحرب بل حزب الله»[٣].

٢ ـ إن لم يأت من الخارج ... فليكن من الداخل

لم يكن بمقدور الرأي العام الإسرائيلي تجاوز «الصورة القاسية» التي قدّمها حزب الله عن هزيمة جيش الدولة العبرية، ذلك أن التداعيات والنتائج للمواجهات الميدانية مع المقاومة كانت ترتد بشكل مباشر ـ ودون واسطة ـ على مدركات الوعي الإسرائيلي والتمثلات التي يعيشها تحت تأثير ما يجري في ميدان المعركة، وهو الأمر الذي ضيّق على

١ - مردخاي كيدار، ما الذي يريده حزب الله حقاً، مركز بيغن ـ السادات للأبحاث الاستراتيجية، العدد ٢٢.
٢ - المصدر نفسه.
٣ - إفرايم عنبار، حرب لبنان الثانية وما بعدها: اخفاقات التفكير الاستراتيجي في حرب لبنان الثانية، مصدر سابق.

وسائل الإعلام والكُتّاب والمحلّلين الإسرائيليين هامش المناورة لتغيير معالم الصورة، ولهذا فقد لجأت تلك الوسائل، وأولئك المحلّلون، إلى تغيير «زاوية المشهد» الذي يمكن من خلاله تحسين بعضٍ من جوانب الصورة المنكسرة التي عاش تفاصيلها الإسرائيليون، فبدل أن يكون «المشهد» من زاوية التداعيات الداخلية الاسرائيلية، تحوّل ليكون «خارجياً» على الضفة الأخرى في لبنان. وبات النظر إلى حزب الله يتم من خلال موقعه ووضعه في الخارطة اللبنانية، ولعل في ذلك محاولة للتعويض - على مستوى الجمهور الإسرائيلي - وتقديم ما يمكن به «المواساة»، وبعث الأمل بأن هناك، في مكان ما، يمكن لحزب الله أن يسقط.

ولا شك في أن في ذلك الكثير من الدلالات، أن يتحول الإسرائيلي للتعويض عن صورته التي اهتزت في الداخل بالاعتماد على ما يمكن أن يقدّمه له الخارج اللبناني على مستوى التوهين من صورة حزب الله، ومثال ذلك ما أشاعته وسائل الإعلام في إسرائيل بأن «حزب الله يناضل اليوم نضالاً لا هوادة فيه عن مجرد وجوده، وخوفه الأكبر ليس من إسرائيل، بل إن مخاوف حزب الله تنبع من الساحة الداخلية، ومن الوكلاء الخارجيين»[1]... والأساس الذي يستند إليه الإسرائيلي في تقديمه لهذه الصورة عن حزب الله هو ما كان يصدر عن المستوى السياسي اللبناني بهذا الصدد، حيث كانت تلاحق حزب الله - كما التقطها الإسرائيلي - «تهمة الإضرار الشديد بالاقتصاد، وبالسياحة، وبالبنى التحتية، والثقة بلبنان كدولة يحسن الاستثمار فيها، في أعقاب حفاظها (منظمة حزب الله) على مكانة - الدولة داخل الدولة - التي بنتها لنفسها في السنين الأخيرة ...»[2].

والأمر الملفت في هذا الإطار، هو استخدام الإسرائيلي للعناصر ذاتها التي يقدّمها بعض الأفرقاء اللبنانيين - من المعارضين لحزب الله، ووجوده السياسي والعسكري - في ترسيمه للصورة المستجدة عن حزب الله بعد حرب تموز بمستواها الداخلي اللبناني ... ومن ذلك استشهاده (أي الإسرائيلي) بأقوالهم في تحديد استراتيجية حزب الله داخل لبنان، إذ يعتبر أنه زمن الواضح لجميع المتحدثين عن تيار ١٤ آذار، من معارضي حزب الله، وسوريا وإيران، أن أهداف حزب الله الاستراتيجية هي السيطرة على لبنان،

١ - أيمن منصور، الصراع الطائفي في لبنان ومكانة حزب الله في المستقبل، مركز يافي للدراسات الاستراتيجية، تقدير استراتيجي، مجلد ٩، العدد ٢، آب ٢٠٠٦، جامعة تل أبيب.

٢ - مردخاي كيدار، ما الذي يريده حزب الله حقاً، مصدر سابق.

بالسلاح، والمال والرحم الشيعية ... الطائفة الشيعية اليوم هي كبرى طوائف لبنان، ومطامح أناس حزب الله هي إخراج الطائفة الشيعية من مكانة الانحطاط السياسي والاجتماعي الذي عاشت فيه على امتداد التاريخ... وهكذا سيصبح لبنان رأس جسر شيعياً يقود الثورة الشيعية، وهبة المستضعفين، إلى داخل العالم السني، ومنه إلى سائر أجزاء العالم»(١).

ولا يكتفي الإسرائيلي بهذا القدر من تنميط الصورة على الطريقة اللبنانية، بل هو، وإمعاناً في تكريس هذا النمط للصورة عن حزب الله، يذهب بعيداً في إطلاق الأحكام التي يقدّم بعضها على نحو قطعي، من قبيل اعتباره أن «خطوات حزب الله منذ سنين متجهة إلى إحراز هذا الهدف (دولة حزب الله)، ولا تغيب هذه الخطوات عن عيون معارضي حزب الله، لكن هؤلاء مقسّمون متفرقون، ويوجد فيهم حتى مسيحيون مستعدون ـ مثل ميشال عون ـ لبيع الشيطان الشيعي أرواحهم، لقاء وعد ما لفترة مستقبل لبنان الشيعي. قد يبدو هذا هاذياً، لكن هذا يلائم بالتأكيد أحلام الشيعة منذ ١٣٥٠ سنة، أن يكونوا السادة الشرعيين للعالم الإسلامي، بعد أن سُلبوا الحكم بغير حق بعد موت النبي محمد»(٢).

إلا أنه، في مقابل ذلك، وعلى الرغم من الاستعارات «اللبنانية» التي لجأ إليها الإسرائيلي لرسم صورة حزب الله داخل بيئته الخاصة، فإنه يعود ليقدم صورته الخاصة التي تراكمت تفاصيلها لديه بفعل التجربة الطويلة معه، والعنصر الزائد في الصورة هذه المرة يتجسد في «الإضافة» التي يُفترض ـ وفقاً للمخيال الإسرائيلي ـ بحزب الله أن يزيدها إلى عناصر قوته الداخلية، إذ يعتبر البعض بأنه «وعلى رغم الأضرار الشديدة بقوته نتيجة عملية الجيش الإسرائيلي، سيواصل حزب الله إقامة العقبات الشديدة جداً في وجه أولئك الذين يريدون اختفاءه كدولة داخل دولة»(٣)... بينما زاد عليه البعض الآخر، حينما أكّدوا بأن مثل هذا الأمر غير قابل للتحقيق، نظراً للحضور القوي الذي يمتاز به حزب الله، ليس في مواجهة إسرائيل فحسب، بل وفي طريقة إدارته للشؤون السياسية والعامة في الداخل اللبناني، وهو أمر كان شديد الوضوح ـ وفقاً للملاحظة الإسرائيلية ـ بعد انتهاء

---

١ - المصدر نفسه.

٢ - مردخاي كيدار، ما الذي يريده حزب الله حقاً، مصدر سابق.

٣ - أيمن منصور، الصراع الطائفي في لبنان ومكانة حزب الله في المستقبل، مصدر سابق.

الحرب مباشرة، حيث «ظهرت المنظمة (حزب الله) فوراً بعد الحرب كالجهة الوحيدة التي تملك الوسائل لإعادة بناء بيوت المصابين، وجزء من البنى التحتية، والتأسيس في الأساس للثقة بينها وبين السكان كجهة منظمة، وأمينة، ووطنية، والأهمّ من كل شيء، أنها مصمّمة على رأيها ومتمسكة بأهدافها، ولم تصرفها حرب وحشية عن مواقفها الواضحة»[١].

وفي النتيجة يصل الإسرائيلي، على مستوى تكريسه لصورة حزب الله في الداخل اللبناني، إلى خلاصة مكثّفة العناصر، حينما يجمع بين الانتصار المدوّي للمقاومة في مواجهة إسرائيل، وبين التداعيات التي سيتسبب بها هذا الانتصار لبنانياً، وذلك من خلال تقديم المعادلة التالية : «... يبرهن نصر ٢٠٠٦ لحزب الله على أنهم - برغم الأضرار والإصابات - في الطريق الصحيح، ذاك الذي سيفضي بهم إلى الغلبة على أرض الأرز»[٢].

٣ ـ صورة حزب الله، بين الأصيل و... الوكيل

لا يتوانى الإعلام الإسرائيلي، في كل مرة يستحضر فيها صورة حزب الله، عن استحضار صورة غيره من الأطراف الإقليمية، والداخلة معه - وفق التصنيف الإسرائيلي - في منظومة محور الشر، إما بوصفها أطرافاً داعمة ومساندة، كسوريا، وإما باعتبارها الأطراف الراعية والحامية كما هو الحال بالنسبة لإيران.

وهذا المستوى من الصور النمطية التي يقدّمها الإسرائيلي عن حزب الله ليس جديداً، بل هو من الأنماط الأساسية الأولى التي اعتُمدت كجزء من عملية القولبة التي يخضع لها حزب الله في الوعي الإسرائيلي، وذلك بسبب أهمية الدور الذي يلعبه هذا الشكل من أشكال القولبة النمطية على مستوى التدعيم النفسي للجمهور الإسرائيلي، والذي ربما يساعده ذلك - وفق اعتبارات منتجي الصورة - على تقبّل الخسارة، ولكن مع الحدّ من الأضرار النفسية، حيث الفارق بين الشعور أن هزيمة «الجيش الذي لا يُقهر» كانت على يد منظمة صغيرة، وبين أنها كانت بسبب الائتلاف القائم داخل «محور الشرّ»، والذي يبدأ في طهران، ويمر في سوريا، وقد لا ينتهي - عند بعض الإسرائيليين - في لبنان على الحدود

---

١ - مردخاي كيدار، ما الذي يريده حزب الله حقاً، مصدر سابق.

٢ - مردخاي كيدار، ما الذي يريده حزب الله حقاً، مصدر سابق.

الشمالية لفلسطين.

على هذا الأساس فقد بادرت وسائل الدعاية الإسرائيلية، خلال الحرب الأخيرة، إلى التركيز مجدداً على ما تعتبره امتداداً إقليمياً لحزب الله، سواء على مستوى المواقف والأفعال، أم على مستوى البنية المادية واللوجستية ... ووفق هذا المنطق يصبح لعملية الأسر التي نفذها حزب الله يوم الثاني عشر من تموز ٢٠٠٦ بُعد آخر، إذ يرى البعض أن «لا ضرورة لرؤية اختطاف الجنديين الإسرائيليين، سبباً للتدهور الحالي في لبنان، وهو العمل الذي يقترن اقتراناً لازماً بمبادرة النظام الإيراني الذي هدف إلى صرف الضغط الدولي عنه في قضية سعيه لامتلاك سلاح ذري»[١]... ولهذا فقد توافق المعلّقون والمحلّلون الإسرائيليون على القول، ومنذ الأيام الأولى للحرب، بأن «المعركة الحالية قد ابتدأت بتحرّش مقصود من حزب الله، الذي يُعرض ويُرى كممثل بارز لمثلّث الشرّ: الإسلامي، الأصولي الإرهابي»[٢].

هذا التأسيس النمطي الذي بناه الإسرائيلي عن صورة حزب الله ببعده الإقليمي، أدّى في سياقه الطبيعي إلى ارتفاع منسوب الاهتمام لدى الدوائر الإسرائيلية لجهة رصد مآلات مجريات الحرب ونتائجها على هذا الجانب من جوانب الصورة ... وفي هذا الإطار فقد توصلت تلك الجهات إلى نتيجة مفادها أن الصورة لم تتغير، وذلك انطلاقاً من استنتاجها بأنه زمن الممكن جداً أن تكون مكانة حزب الله السياسية الداخلية قد ضعفت، لكن حتى لو كان الأمر كذلك، فإنه لم يكن لذلك أثر ظاهر على سلوكه الإقليمي. لم تضعف صلاته بإيران وسوريا، وزادت مشاركته في النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني»[٣].

وما تقدّم لا يعدو كونه تكراراً وإعادة للصورة المعتمدة لدى الإسرائيليين عن حزب الله وعلاقاته الإقليمية. أما الجديد الذي دخل على تلك الصورة ـ وبتأثير من حرب لبنان الثانية ـ فقد تمثّل في بروز اتجاه جديد يحاول التخفيف من مستوى الارتباط «العضوي» القائم بين حزب الله وإيران بشكل خاص، دون أن يكون لعملية التفكيك هذه مستوى واحد

---

١ - إفرايم كام، نظام الملالي وحزب الله وحسن نصر الله، مركز يافي للدراسات الاستراتيجية، تقدير استراتيجي، مجلد ٩، العدد ٢، آب ٢٠٠٦، جامعة تل أبيب.

٢ - مئير ألران، الجبهة الإسرائيلية الداخلية كمركّب رئيس في مواجهة حزب الله، مركز يافي للدراسات الاستراتيجية، تقدير استراتيجي، مجلد ٩، العدد ٢، آب ٢٠٠٦، جامعة تل أبيب.

٣ - روني بيرت، حرب إلى هنا: الولايات المتحدة في استعداد لإجراء معقد، مصدر سابق.

فقط، حيث قُدمت إيران في واحدة من تلك الصور، بأنها جهة غير مستعدة للذهاب إلى أقصى المخاطرة من أجل حزب الله، وهي صورة تم استخراجها من اعتقاد البعض بأن «عملية الجيش الإسرائيلي أثبتت بأن قدرة إيران على مساعدة رعيتها زمن الامتحان محدودة، فإسرائيل تضرّ بحزب الله إضراراً شديداً، وتضطر إيران إلى الوقوف ناحية وان تساعده في الأساس بالأقوال وبمحاولات إرسال السلاح إليه. ليس عَرضاً أن يهدد النظام الإيراني إسرائيل هذه الأيام بردّ شديد إذا هاجمت إسرائيل سوريا، لكنه يمتنع من أي تهديد صريح بالرد على سحق حزب الله. ربما يخصّص (السيد) نصرالله في المستقبل إذن تفكيرا آخر في سؤال إلى أيّ حدّ يستطيع الاعتماد على دعم إيران زمن الأزمة»[1].

ومن داخل لعبة «الموضوعية» و«الحياد الموضوعي» التي فرضها حزب الله بفعل الإنجازات الواضحة التي حقّقها في الميدان العسكري والسياسي، وتحديداً على مستوى إدارته وقيادته للمعركة، فقد استطاع انتزاع اعتراف إسرائيلي مهمّ، قد لا يتكرر مرة أخرى، أقله في المدى القريب، وهو الإشارة إلى أنه «وعلى رغم قرب حزب الله من إيران، وصلته بها، فإنه ليس دمية إيرانية، وانكشف في الماضي بينه وبينها اختلاف في قضايا سياسية وتنفيذية. يمتلك حزب الله نظام تقديرات يخصه، يتصل بمكانته كعامل مهم في الساحة اللبنانية، وهو واقع تحت تأثير سوريا أيضا. لهذا يجوز أن نفترض أن العملية (عملية الأسر) كانت قبل كل شيء ثمرة قرار قيادة حزب الله»[2].

أما الجهات التي لم تقدر على القبول بمنطق «الاتجاه الموضوعي» في تشكيل صورة حزب الله لجهة علاقاته الإقليمية، فقد اتخذت مساراً بينياً، دون أن تطلق الأحكام النهائية، حيث فضلت بناء نظرتها وفقاً للمعايير التي تقول بأنه زمن غير الدخول في قضية الصورة الدقيقة للعلاقة بين إيران وحزب الله، عمّا إذا كان الحديث عن منظمة هي دمية لدولة، أو عن منظمة تحركها أكثر الاعتبارات اللبنانية الداخلية، أو شيء بين ذلك ... ما نراه بوضوح هو أنه توجد علاقة بين إيران وحزب الله من جهة صورتهما كليهما في نظر دول أخرى، كجهتين تُخلان بالاستقرار في الشرق الأوسط وتُعرضانه للخطر. وتأييد إيران الصريح المعلن لأعمال حزب الله الحالية يُقوي فقط الخوف وخيبة

---

١ - إفرايم كام، نظام الملالي وحزب الله وحسن نصرالله، مصدر سابق.

٢ - المصدر نفسه.

الأمل من أعمال المنظمة»[1].

ولكن بالمحصلة، ومن خلال متابعة معظم أنماط الصور التي تُقدّم عن حزب الله في هذا الإطار، فإن مثل هذه الأنماط ـ عن استقلالية حزب الله ـ تبقى في سياقها الفردي، الذي لم يستطع تجاوز حدود الرأي الشخصي، دون القدرة على تعميمها لتدخل كجزء من الصورة النمطية في الوعي الإسرائيلي، إذ إن الحاكم على الصورة يبقى في اعتبار أن «حزب الله هو لولب مهمّ في محور الإرهاب والعدوانية الإسلامية والعربية التي تشتمل أيضاً على إيران، وسوريا، والقاعدة، والمنظمات الإرهابية التي تعمل في العراق، وحماس والجهاد الاسلاميّ.. فالنضال هنا يقوم على نظام أدوات متآلفة»[2].

٤ ـ أنموذج الاستنهاض ... والقدرة على الانتصار

أما الصورة الأقوى، والتي يحسب لها الإسرائيلي دائماً كل الحساب، فهي صورة حزب الله الذي استطاع ـ من خلال قدرته على المواجهة والانتصار ـ أن يتحوّل من مجرد تنظيم محلي (كمقاومة وطنية)، إلى جهة فاعلة في حراكات البيئة الإقليمية على المستويين السياسي والعسكري، وذلك بفعل الدور الريادي الذي لعبه على مستوى قيادة العمل المقاوم في الساحتين اللبنانية والفلسطينية، وهو أمر لم يستطع الإسرائيلي تجاهله ولا حتى تجاوزه، حيث برزت تلك الصورة «الريادية» و«القيادية» في العديد من المحطات التي تميّزت بجولات «حامية» بين حزب الله والجيش الإسرائيلي، والتي كانت حرب تموز ٢٠٠٦ أهمها وأبرزها ...

ولهذا فقد ركّز الإسرائيلي في الحقبة التي تلت حرب تموز ٢٠٠٦ على رصد المكانة التي سيصل إليها حزب الله، وقائده السيد حسن نصر الله، في أعقاب النتائج التي ستتمخض عنها الحرب، ليس على المستوى الداخلي اللبناني، بل الأهمّ على مستوى قيادة حركات الممانعة والمقاومة في المنطقة العربية، وبالأخص في الداخل الفلسطيني ... ولهذا فإن التقدير لدى الجهات الإسرائيلية المهتمة كان يقوم على الاعتقاد بأنه «سيصعب على نصر الله وحزب الله الخروج بلا ضرر تماماً من الأزمة مع إسرائيل، ولكن على خلفية الصورة

---

١ – إميلي لنداو، ردود في العالم العربي: طمس الخطوط التقليدية، مركز يافي للدراسات الاستراتيجية، تقدير استراتيجي، مجلد ٩، العدد ٢، آب ٢٠٠٦، جامعة تل أبيب.

٢ – إيتان غلبوع، سياسة الولايات المتحدة في حرب لبنان الثانية: من خيبة أمل إلى استعداد إقليمي جديد، مركز بيغن ـ السادات للأبحاث الاستراتيجية، العدد ٢٢.

التي تُرى فيها القضية في المنطقة، يكفيهما ألا يُهزما هزيمة مُذلّة كي يستطيعا زعم الانتصار. إذا حدث هذا ـ ويبدو أن احتمال ذلك معقول أكثر من بديله ـ فإن خطاب ومنطق المقاومة سيحصلان على زخم آخر، وكل دعوى من أجل اعتدال حماس وبراغماتيّتها ستُلقى بعدم ثقة، في المستقبل المرئي بالتأكيد، وسيكون الباعث على المضي في طريق حزب الله أقوى»[1].

هذا هو العنصر الأكثر إقلاقاً ـ على ضوء مجريات حرب تموز ـ بالنسبة للدوائر الإسرائيلية المتابعة لحركية حزب الله ومقاومته، وهذه هي المباني الأساسية التي كان يخشى الإسرائيلي أن تقوم عليها صورة حزب الله ... أن يتحول إلى نقطة الضوء التي يستضيء بها كل المعارضين للوجود الإسرائيلي، وحتى لما هو أبعد من الوجود الإسرائيلي، وذلك من خلال ريادته للعمل المقاوم، وتحديداً فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، لأن الإسرائيلي كان يرى بأن «عملية كل جهة، أنشأت صدى إيجابياً عند الجهة الأخرى وجمهورها. في حقيقة الأمر نُسب بعض مسوغات عملية حزب الله إلى تأييد القضية الفلسطينية، وذكرت بصراحة شمل الأسرى الفلسطينيين في كل صفقة تبادل قد تُنفّذ لضمان إطلاق سراح الجنود الإسرائيليين الأسرى»[2].

من هنا كان الإسرائيلي معنياً ـ خصوصاً خلال أيام الحرب ـ بالعمل على التوهين من صورة حزب الله، ومحاولة تشويه صورة قائده السيد حسن نصر الله، نظراً للأهمية الإستراتيجية التي توليها دوائر المتابعة الإسرائيلية لهذا الموضوع، وذلك انطلاقاً من الاعتبار بأن «التحدي الذي يواجه به حزب الله إسرائيل هو ارتفاع المكانة السياسية لحسن نصر الله بين الفلسطينيين، بلا ريب. أُجريت مظاهرات تأييد في مدن فلسطينية، ويحتل علم حزب الله مكانة إجلال وتُعرض صور نصر الله عرضاً واسعاً بجانب ـ إذا لم تكن بدلاً من ـ صور ياسر عرفات وأحمد ياسين... بهذا المعنى يبدو نصر الله في العام ٢٠٠٦ القائد غير الفلسطيني الذي يرفع علم القضية الفلسطينية»[3].

١- مارك هيلر، مواجهة حزب الله ومواجهة حماس وما بينهما، مركز يافي للدراسات الاستراتيجية، تقدير استراتيجي، مجلد ٩، العدد ٢، آب ٢٠٠٦، جامعة تل أبيب.

٢ - المصدر نفسه

٣- المصدر نفسه.

ـ خلاصة واستنتاجات ـ

لقد كان لصورة حزب الله حضورها الدائم في الوعي الإسرائيلي، وعلى مختلف المستويات، السياسية والعسكرية والاجتماعية، حيث استطاعت تلك الصورة ـ بقوة العمل المقاوم ـ اقتحام العقل الجمعي الإسرائيلي، والدخول إلى تفاصيل التمثلات التي يعايشها العقل الإسرائيلي عن ذاته، وعن الآخر المحيط به ...

ولم تكن تلك الصورة لتخرج من موقعها هذا في أعقاب حرب تموز ٢٠٠٦، وإن كانت التمنيات الإسرائيلية تأمل إعادة إنتاجها بصيغة جديدة تكون أكثر ملائمة لمتطلبات التدعيم النفسي، وتحديداً لجهة إعادة الثقة بالذات العسكرية في الداخل الإسرائيلي، غير أن النتائج التي آلت إليها حرب تموز ٢٠٠٦، والتداعيات التي تسبّبت بها، قدّمت صورة أخرى عن حزب الله، ليست مختلفة ـ من الناحية البنيوية ـ عن الصورة الموجودة أصلاً في المخيال الإسرائيلي، ولكنها متقدمة عنها، على الأقل في عنصرين اثنين:

ـ **الأول:** أن حزب الله بات أكثر قوة ممّا كان عليه في أيّ يوم آخر، وهذا يعني أن ميزان الردع المتقابل ـ وفق الصورة المتخيلة إسرائيلياً ـ لا زال يعمل لصالحه، بل إنه ـ أي حزب الله ـ قد تجاوز مرحلة الإمكانية في القضاء عليه، وأن على إسرائيل أن تفكر في الآلية الأنسب للتعايش مع هذا الخطر الجاثم على حدودها الشمالية ... ولا شك بأن هذه الصورة عن «حزب الله القويّ ... الذي أصبح أقوى» ستكون لها تداعياتها المهمة على كل البنية المعرفية التي تقوم عليها آليات التنميط في العقل الإسرائيلي.

ـ **الثاني:** أن الحضور الجماهيريّ لحزب الله، ولقائد السيد حسن نصر الله، صار أكثر تألقاً، وأكثر بروزاً، خصوصاً لدى جماهير الساحة الفلسطينية، وهو أمر لا يستطيع الإسرائيلي تجاوزه، أو المرور عنه مرور الكرام، لأن مثل ذلك الحضور سوف يتحوّل، في كل المحطات القادمة، إلى جزء من أدوات المعركة، وسلاح يلجأ إليه حزب الله للضغط على الجبهة الخلفية الإسرائيلية، التي ظهرت كم هي هشة ـ في مقابل جبهة حزب الله ـ خلال الحرب الأخيرة.

المقاومة ما بعد انتهاء الحرب الباردة

منير شفيق*

تستهدف هذه المداخلة جلاء ثلاث موضوعات، وتأكيد ثلاث حقائق:

الموضوعة الأولى: الكشف عن خطأ المقولة التي راجت إثر انهيار المعسكر الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفياتي، والقائلة إن نظاماً عالمياً أحادي القطبية أخذ يحل مكانه، فيما الوقائع أثبتت أن العالم دخل مرحلة من الفوضى، فكل مساعي الإدارات الأميركية فشلت في إقامة نظام عالمي بقيادة أميركا.

الموضوعة الثانية: تبيان خطأ المقولات التي اعتبرت أن عهد المقاومات والممانعات قد أصبح من الماضي. وحسبت أن شعارات حركات التحرر والوحدة والتضامن والاستقلال والسيادة الوطنية غدت خشبية (وفقاً للمصطلح الفرنسي). فالوقائع أثبتت أن مرحلة ما بعد الحرب الباردة عرفت من المقاومات والممانعات، ومن شعارات التحرر والاستقلال والسيادة والنضالات الشعبية يفوق ما عرفته مرحلة الحرب الباردة.

الموضوعة الثالثة: لم يقم نظام العولمة وفقاً للتصورات التي سادت بعد الإعلان عن قيام منظمة التجارة العالمية، والمنظمة العالمية لحقوق الملكية الفكرية، فقد تبين أن كل تلك التصورات إما تحولت إلى طريق باتجاه واحد، كما حدث في مسائل رفع الحمايات وتخفيض الجمارك وفتح الأسواق. فما طُبِّق على العالم الثالث لم تطبقه الدول الغنية على نفسها. كما أخذت تحل الاتفاقات الثنائية للأسواق الحرة مكان السوق العالمي الواحد

* منسق عام المنتدى القومي العربي.

المفتوح. وفي المقابل ارتفع احتجاج غالبية دول العالم ضد ما تقدمه الدول الغنية من دعم لزراعتها ومن حماية للتكنولوجيا والصناعة المتقدمة ولا سيّما صناعة الدواء.

أما الحقائق التي يراد تأكيدها، فهي:

أولاً: أخذت تبرز أكثر فأكثر ظاهرة الصراعات الدولية بين الدول الكبرى حتى بدأت تلوح في الأفق بوادر سباق تسلح جديد، وربما نشوء محاور، كما أخذت تبرز ظاهرة استعادة دور ما سمي بلجنة الـ ٧٧ في المجال الاقتصادي، وحركة عدم الانحياز والدول المتحررة المتحدّية للهيمنة الأميركية . فعالم الدول الغنية أو المهيمنة عسكرياً : عالم الرأسمالية الإمبريالية المعولمة آخذ بالتصدع والاضطراب بأزماته السياسية والاقتصادية وتناقضاته، بل ثمة مظاهر للشيخوخة أخذت تطفح على جلد تلك الدول ومجتمعاتها. وهذا ممتد إلى الدولة العبرية الصهيونية في فلسطين.

ثانياً: لقد تكرست استراتيجية المقاومة والممانعة أينما حل عدوان واحتلال عسكري، أو محاصرة دولية ضد دولة مظلومة. فالانتصارات التي حققتها المقاومات في لبنان وفلسطين والعراق وأفغانستان وإرهاصاتها في الصومال، كما الصمود الذي أخذت تبديه إيران وفنزويلا وبوليفيا وكوبا وسورية وماليزيا وعدد من دول العالم الثالث، تؤشر إلى أن الآفاق رحبة أمام نهوض الشعوب وتحررها من هيمنة الطاغوت العالمي المتمثل بالرأسمالية الامبريالية العولمية التي تتقدمها الولايات المتحدة والصهيونية العالمية.

ثالثاً: إن العالم الإسلامي وقف ما بعد الحرب الباردة في طليعة المقاومة ضد الهيمنة الأميركية والعدوانية الإسرائيلية ولعب دوراً أساسياً في إفشال قيام نظام عالمي أحادي القطبية، أو قيام ما سمي (زوراً وبهتاناً) بالشرق الأوسط الكبير. فأمام العالم الإسلامي فرص كبيرة للنهوض ولعب دور هام في الميدان العالمي إذا ما نجح في وأد الفتن الطائفية أو الإثنية داخل بلدانه، أو فيما بين دوله. فتكريس الوحدة الإسلامية على المستويين الشعبي والرسمي يشكل في هذه المرحلة شرطاً لنهوض العالم الإسلامي والأمة الإسلامية، كما الأمة العربية، وإلاّ فالفشل والتدهور وذهاب الريح وضياع ما تحقق من إنجازات.

عالم ما بعد انتهاء الحرب الباردة

يذكر الكل ذلك المناخ الذي تولّد بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وتفكك حلف وارسو، وتولي السلطات تيارات ليبرالية مؤمركة مصهينة فاسدة حتى النخاع الشوكي. هذا المناخ

سادته مقولات راحت تروج أن أميركا وحدها أصبحت القطب الأقوى والحاكم للعالم، وأن المقاومات وحركات مناهضة الإمبريالية تهاوت بعد أن فقدت ركيزتها؛ الاتحاد السوفياتي ومعسكره، وقد تهاوت معها دول حركة عدم الانحياز وسياساتها الاستقلالية والتحررية.

هذا المناخ راح يتغذى من جانب الولايات المتحدة التي راحت تصور أنها أصبحت القوة الوحيدة في هذا العالم، وأنها ستعيد صوغه على طريقتها ووفقاً لمصالحها واستراتيجياتها وسياساتها. ثم تغذى أيضاً من قبل القوى التي انهارت مع انهيار الاتحاد السوفياتي، وتراجعات الصين السياسية والأيديولوجية وتركيزها على الاقتصاد والتجارة. فهذه القوى مع سيطرتها على الإعلام والمنابر الثقافية راحت تهوّل بقوة أميركا، وبجلد القوى التي تعارض الصهيونية والإمبريالية وجعلت تبشر بعالم الرأسمالية والديمقراطية والليبرالية الغربية نظما سياسية واقتصادية وثقافية وقيمية وأخلاقية.

لكن هؤلاء جميعاً لم يلحظوا حقيقتين كبيرتين، هما: أولاً أن انهيار الاتحاد السوفياتي ومعسكره أضعف أميركا ولم يقوّها وجعل إمكان إقامة نظام عالمي مكان نظام القطبين وإلى جانبه حركة دول عدم الانحيار، أمراً فوق طاقة أميركا وقدراتها المادية والعسكرية والمالية والمعنوية فالمعادلة الدولية غير المعادلة بين ملاكمين على حلبة يمكن لأحدهما أن ينتصر فيصبح بطل العالم الأوحد على الحلبة؛ ذلك لأن المعادلة مشكلة من تداخل دول كبرى ومصالحها وأدوارها كما من تداخل دول متوسطة وأصغر تطمح لمراعاة مصالحها ولنهوضها. ناهيك عن الشعوب وحركاتها المقاومة والممانعة، فضلاً عن نهوض العالم الإسلامي.

ولهذا حين قررت أميركا أن تقف وحيدة في مواجهة العالم لإخضاعه، أصحبت أضعف من ذي قبل يوم كانت محصنة بمعسكر غربي وأحلاف عسكرية في مقابل معسكر كبير دخل معها في توافق ومساومات، إلى جانب سباق التسلح والحرب الباردة والصراع. فالمعسكر كان بمقدوره التحكم بالعالم (نسبياً لا كلياً) أكثر تقدر أميركا منفردة مع قوى تابعة ومنهارة أمام شعوبها كي تسير على درب التبعية لأميركا والصهيونية.

انفراد أميركا وفرض مصالحها، وإلغاء، أو إضعاف الدول الكبرى الأخرى، يدخلها في الصراع مع تلك الدول، وإن لم يأخذ شكل الصراع الذي عرفته مرحلة الحرب الباردة. ثم أدى تعاظم نفوذ اللوبي الإسرائيلي الصهيوني داخل مراكز القرار في عهدي بيل كلنتون

وجورج دبليو بوش، ولا سيما في عهد الأخير، إلى مصادمة أميركا مع العرب والمسلمين؛ ما أتاح فرصة ذهبية لروسيا والصين والهند وحتى أوروبا وعدد من دول أميركا اللاتينية لالتقاط الأنفاس وإعادة ترتيب الأوضاع، فيما إدارة بوش منشغلة في محاربة فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان وإيران وحتى الإسلام والمجتمعات الإسلامية.

فعلى سبيل المثال بدل مواصلة تمزيق روسيا وهلهلة دولتها وانتزاع قدرتها النووية والصاروخية، أعطي بوتين فرصة ثمينة لاستعادة وحدة روسيا والإمساك بالدولة وتقويتها وتعزيز قدراتها الاقتصادية والعسكرية، والتحول إلى طلب دور دولي لا يقل عما كان عليه الاتحاد السوفياتي.

والأمر عينه مع الصين التي نظمت خلال انشغال إدارة بوش في «إقامة الشرق الأوسط الكبير»، والانغماس في حروب مع المقاومات والممانعات والشعوب في بلادنا، وضعها الاقتصادي العالمي وطورت إمكاناتها الصاروخية والنووية والتكنولوجية.

وخلاصة القول إن أميركا اليوم أضعف من أي يوم مضى في أثناء الحرب الباردة وقبلها. ما يؤكد أن أميركا عملياً، ودعك من الظاهر ومن أخطائها الاستراتيجية، أصبحت أضعف لا أقوى مع انهيار الاتحاد السوفياتي وتصديها وحدها لإخضاع العالم لإرادتها.

فمن هنا ما يسود العالم الآن هو الفوضى، وليس نظام الأحادية القطبية بالرغم من قدرة أميركا على الحيلولة دون قيام نظام عالمي متعدد القطبية يحجِّم دورها ويحول دون انفرادها المنشود. فالضعف السياسي والاقتصادي والمعنوي الذي وصلته إدارة بوش، وما تعانيه من انقسام داخلي وعزلة عن الرأي العام يشهدان على خطأ المقولة التي راجت إثر انهيار الاتحاد السوفياتي، وانتهاء الحرب الباردة. بأن عالماً أحادي القطبية، سيحل مكان عالم القطبين فيما اللانظام هو الذي يسود عالم اليوم.

فأميركا وحدها لا تستطيع التحكم في العالم، ولا العالم يقبل بأن تحكمه دولة واحدة هو اقوى منها إذا ما عارضها ومانعها وقاومها وتصدى لها وهذه كلها سنن الله.

أما من جهة أخرى فإن المعادلات العالمية التي تشكلت بعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفياتي مع استحالة قيام نظام عالمي أحادي القطبية أوجدت ظروفاً مؤاتية أكثر لاتساع الصحوة الإسلامية ولاندلاع المقاومات وتعاظم الممانعات، فالضبط الذي كان

يمارسه المعسكران كلاهما بالنسبة إلى الحركات الإسلامية، وإلى حركات التحرر بعامة، فقد بعد انهيار نظام القطبين. وقد أدى فقدان هذا الضبط إلى بروز ظروف أفضل للمقاومات والممانعات على الضد مما راح يروّج له بأن حركات التحرير والمقاومة فقدت نصيرها بعد سقوط الاتحاد السوفياتي.

يمكننا هنا أن نذكر كم من أن الانقلابات التي أطاحت بأنظمة التحرر الوطني تحققت في ظل وفاق المعسكرين وصراعهما من غانا نكروما إلى أندونيسيا سوكارنو، إلى تشيلي أليندى. وكم من حروب العدوان التي نُفذت وبقدر من النجاح في ظل صراع المعسكرين ووفاقهما كحرب حزيران ١٩٦٧ ضد مصر وسورية والأردن و ١٩٧٨ و ١٩٨٢ ضد منظمة التحرير الفلسطينية ولبنان. وكم عانت فياتنام من القصف الأميركي على عاصمتها وأراضيها (او اجتياح كمبوديا وللوسي) في ظل الاتحاد السوفياتي كما في ظل الصين (إن ما كانت تتلقاه فيتنام من مساعدات لا يلغي ما تعرضت له من عدوان مسّ سيادتها وحرمة أراضيها). ولا حاجة إلى السير مع تجربة الثورة الفلسطيية وما آلت إليه أوضاعها في ظل الحرب الباردة وتلغي هنا، مقارنة سريعة بين ١٩٦٥ و١٩٩٠، وإنجازات الانتفاضة الأولى والثانية والمقاومة في قطاع غزة والضفة الغربية، وما أنجزته المقاومة في لبنان عام ٢٠٠٠ وعام ٢٠٠٦، وما أنجزته المقاومة في العراق في أقل من أربع سنوات.

كل ذلك يشهد بأن الآفاق أمام المقاومات والممانعات والنهوض الإسلامي والعالم ثالثي، وحتى بالنسبة إلى الصين والهند، أصبحت أفضل كثيراً في مرحلة ما بعد الحرب الباردة مما كانت عليه في مرحلة وفاق المعسكرين وصراعهما واقتسام العالم بينهما ووضع حركات التحرير والدول الأصغر بين خيارين صعبين. فإذا أفلت من هذا أطبق عليك ذاك وإن اخترت عدم الانحياز عانيت من الضغطين.

طبعاً هذا لا يعني المساواة بين المعسكرين الأميركي والسوفياتي من حيث الموقف السياسي من كل منهما وما مثلا، أو الدور الذي قامت به أميركا والصهيونية والاستعمار ضد الشعوب لا سيما شعوبنا العربية والإسلامية. ولكن المقصود هنا أن العالم في ظلهما كان أكثر انضباطية» و«نظاماً» وذلك بالرغم من الفوضى التي سادت أيضاً في ظلهما وسمحت بعدد من الاختراقات هنا وهناك.

صحيح أن المرتكزات الأساسية للمقاومة تنبع من مجموعة عوامل ذاتية وموضوعية

تقرر اندلاعها وصموها وأداءها لكن ما يسود من معادلات دولية، وميزان قوى يجب ألا يُغفلا عند احتساب الآفاق المفتوحة أمام المقاومة؛ لا سيما عند الانتصار. فإذا كان الانتصار من عند الله فإنه يعبر من خلال سنن الله التي وضعها في عالم التدافع والصراع. ومن لا يُحسن قراءة تقدير الموقف وموازين القوى لا يستطيع أن يقود مقاومة أو ممانعة ناجحة مهما تحصّنها في المرتكزات الأخرى للمقاومة مثل الإيمان وروح الفداء والاستشهاد وحسن التنظيم والالتصاق بالشعب وما شابه.

من هنا إن محاولة قراءة الوضع العالمي، ما بعد انتهاء الحرب الباردة وتبديد مجموعة من المقولات التي صحبت انهيار الاتحاد السوفياتي ليس ترفاً، وليس تجاوزاً لمجموعة المقوّمات، أو المرتكزات التي تحتاج إليها المقاومة، أو الثورة أو الممانعة وليس تقليلاً من أهميتها.

ولكن الإمساك أيضاً بقراءة دقيقة للوضع العالمي والإقليمي والصراعي المحلي من أجل رؤية الآفاق المفتوحة، على إمكان تحقيق النصر في الميدان، ضرورة من ضرورات النصر وإدارة الصراع ومقتضيات الدفاع والهجوم.

وهكذا تأكد خطأ المقولات التي اعتبرت أن عهد مقاومة الإمبريالية وممانعتها ولى، وأن شعارات حركات التحرر والاستقلال والنهوض أصبحت خشبية . فقد تكرست استراتيجية المقاومة والممانعة من خلال الرؤية الدقيقة لإمكان اختراق معادلات مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة، وما تتسم به أميركا من ضعف؛ إذ تحاول التحكم منفردة في العالم. والأهم تكرست استراتيجية المقاومة والممانعة عملياً أيضاً، عبر الانتصارات التي حققتها المقاومة الإسلامية في لبنان والانتفاضتان والمقاومة والصمود الشعبي في فلسطين والمقاومة والممانعة في العراق وأفغانستان إلى جانب الصمود الذي تبديه إيران وفنزويلا وبوليفيا وكوبا وسورية وماليزيا، وعدد من دول العالم الثالث في وجه الهيمنة الأميركية والدفاع عن سيادة دولتها.

أما على مستوى الدول الكبرى، فإن ما بعد السنتين القادمتين وعلى التحديد بعد انتهاء إدارة بوش فإن الاستراتيجية الأميركية قد تشهد تغييراً في أولوياتها باتجاه احتواء روسيا أو الصين أو كلتيهما، وهو ما قد يولد نمطاً جديداً من سباق التسلح والمحاور والحرب الباردة، الأمر الذي سيعيد ترتيب معادلات الوضع الدولي. ولهذا حديث آخر بالنسبة إلى

المقاومات والممانعات والنهوض الإسلامي والعالم ثالثي والصراعات الدولية . وكيفية انعكاسها على بلادنا العربية والإسلامية.

على أن السنتين القادمتين ٢٠٠٧ و ٢٠٠٨ تحملان فرصاً لإحداث تقدم على مستوى المقاومات والممانعات في تثبيت ما أنجز من انتصارات كما في إحداث اختراقات جديدة؛ وذلك نتيجة سلسلة الإخفاقات التي منيت بها الإستراتيجية الأميركية الإسرائيلية في فلسطين ولبنان والعراق . وقد انهار مشروع الشرق الأوسط عموماً، ولم يعد هدفاً للإستراتيجية الأميركية التي انتقلت سياساتها إلى مواقع الدفاع وفقدان المبادرة، فهي تعالج كل موقف على حدة من دون ترابط أو تماسك أو استمرارية، فعلى سبيل المثال: عندما تم لقاء مكة وتشكلت حكومة الوحدة الوطنية الفلسطينية ظهر الارتباك في الموقف الأميركي؛ حيث لم يستطع أن يأخذ موقفاً رافضاً قاطعاً، ولم يستطع أن يماشيه أو يُوافق عليه. وهو ما يحدث الآن في الموقف من سورية وإيران ولبنان. ومن يريد التأكد من ذلك، فليقارن بين السياسات الأميركية قبل حرب تموز / آب على لبنان، وبعده، فأميركا لم تعد قادرة على حمل مشروع للمنطقة والسعي لفرضه، فهي في حالة ردة الفعل إزاء خطوات تتخذ من هنا وهناك.

يجب أن يلاحظ في هذا الصدد أن بوش نفسه أصبح في وضع مهتز داخلياً لا سيما بعد خسارة حزب الجمهوريين لأغلبيتهم في مجلس الكونغرس إلى جانب التدني المستمر في شعبيته من خلال الاستطلاعات الأميركية نفسها.

وهذا الأمر نفسه أصيبت به حكومة أولمرت التي أصبحت في اضعف حالاتها. وقد انتقلت الأزمة لأول مرة في تاريخ المشروع الصهيوني إلى الجيش الإسرائيلي لتضرب في بنيته واستراتيجيته ومراتبه القيادية المختلفة. أما أولمرت فقد غدت أولويته البقاء في السلطة التي أصبح وجوده فيها بلا معنى، بعد تقرير فينوغراد وهبوط شعبيته إلى ٣٪ وفقاً لاستطلاعات عدة.

ويكفي أن نتوقف مع طلب كونداليزا رايس من الرباعية العربية أن تساعد أولمرت بتقديم تنازل له من أجل مساعدته على البقاء وعدم السقوط.

ويتسم الوضع الراهن بحدوث فراغ في المنطقة مع الإخفاقات الأميركية الإسرائيلية،

فيما لم تصل قوى المقاومة والممانعة إلى مستوى سده بسبب وجود قوى محلية وأنظمة عربية راهنت على نشوء أوضاع غير الأوضاع التي نجمت عن إخفاقات الهجمة الأميركية الشرق أوسطيه، وغير خروج قوى المقاومة والممانعة أقوى كثيراً من ذي قبل. وهذا يفسّر ما نشب من أزمة داخلية، وتصلُّب إلى حد الانقاسامات والاقتتال في فلسطين، وإلى مستوى ما نشهده في لبنان كما إلى مستوى خطير من أزمة عربية - عربية خفف منها خلال القمة العربية ما جرى من مصالحة سورية - سعودية، وتحسن للعلاقات السورية -المصرية، ثم إلى أزمة مع إيران خففت منها المفاوضات الإيرانية السعودية، وهذا الانقسام راح يضرب في العراق والصومال والسودان.

ولعل استثارة صراع شيعي سني على مستوى الأمة كان العلامة الأبرز للأزمة المتولدة من تغيير ميزان القوى في مصلحة قوى المقاومة والممانعة، والناجم عن إخفاقات المشروع الشرق أوسطي الأميركي والإسرائيلي. فالانقسامات الداخلية، وفي مقدمها ذات الطابع المذهبي أو الديني أو الطائفي، تشوه طبيعة الصراع مع أميركا وإسرائيل وتمنع المقاومات والممانعات من جني ثمار الانتصار، وتعطي الفرصة للتدخلات الأميركية الإسرائيلية لتستعيد أنفاسها، أو لامتلاك زمام المبادرة من جديد.

لم يبق في جعبة أميركا والعدو الصهيوني المغتصب لأرض فلسطين من أوراق في هذه المرحلة غير التحضير لحرب عدوانية ضد إيران في محاولة لاستعادة موقعهما المتفوق في ميزان القوى، والحيلولة دون امتلاك إيران القدرة على التخصيب النووي.

صحيح أن ثمة وجهات نظر قوية الحجة تستبعد إقدام أميركا على شن حرب ضد إيران لا سيّما من زاوية ما ينتظرها من رد موجع، أو من زاوية ما تعانيه بسبب تجربتها في العراق، وما تلقّاه الجيش الإسرائيلي من درس قاس في لبنان، ولكن إذا وُضعت تلك الحجج وغيرها في كفة الميزان، ووضع القرار الإسرائيلي وقرار المحافظين الجدد في أميركا في الكفة المقابلة (كفة ترجيح الحرب)، لا بد من أن توضع الحرب على رأس الأجندة الأميركية - الإسرائيلية. وقد لا يؤثر في هذا القرار غير تدخل جنرالات الجيش الأميركي برفض شن حرب في الظروف الراهنة للجيش الأميركي. ولكن هذا التوجه إن وُجد لا يظهر للعلن. ما يوجب إبقاء احتمال الحرب راجحاً.

ولكن على أية حال فإن وقوع العدوان العسكري، أو عدم وقوعه، سيضع بصماته على

خريطة ميزان القوى للسنوات القادمة؛ لأن وقوعه وفشله سيكون حاسماً على مستقبل المنطقة، ولأن عدم وقوعه يعني التراجع السياسي للاحتلال. وإعطاء إيران حقها في التخصيب النووي للأغراض السلمية سيزيد من الصحوة الإسلامية على مستوى الأمة كلها.

من هنا، فإن تلافي الصِدامات الداخلية والانقسامات في صفوف الأمة، ووأد ما يثار من فتنة بين الشيعة والسنة؛ سيعزز الظروف والشروط التي يوفرها اختلال ميزان القوى الحالي لمصلحة المقاومات والممانعات لمزيد من الاختراقات والإنجازات خلال السنتين القادمتين، وذلك قبل مجيء إدارة أميركية جديدة تخرج الوضع الأميركي الراهن من تدهوره.

ورقة عمل لمشروع
مؤتمر العام القادم

المواطنــــة والمقــاومـــــة

د. أمين حطيط*

١. مفهوم المواطنة:

عمد الباحثون في تفسير نشأة المجتمعات الأولى إلى تحديد الأسس الفلسفية التي قامت عليها تلك المجتمعات. وتفرع البحث إلى موضوع أسس التنظيم وكيفيته، والأهداف التي رمي إليها من قيام النظم تلك. ففي التفسير الديني والسماوي خاصة بدأ الاجتماع فطرة وظهرت السلطة حاجة .. وفي النظرة الفلسفية العقلية الحرة غير المقيدة بضوابط الدين وسواه، كان الاجتماع يتقلب بين الغريزة والحاجة. أما السلطة فكانت ضرورة لا بد منها لحفظ الفرد، حفظاً يبتدئ به أولاً وتحفظ عبره الجماعة التي انتظم فيها، أو حفظاً يتوجه إلى الجماعة أولاً فيستفيد الفرد منه تالياً، ويكون ذلك في مسار سلوكي متعاكس الاتجاه: فردي ويتجه إلى الجماعة أو جماعي ابتداءً ثم يتوجه إلى الفرد، لكن وفي الحالين يؤدي في النتيجة إلى جعل الفرد يعيش الطمأنينة، أو يأمل بتحقيق طمانينة حول حياته في الحد الأدنى، ثم حريته بعد ذلك، ثم يتطور إلى أن يصل إلى تمكينه من استعمال ما تبقى له من حقوق اختلفت تصنيفاتها بين حقوق طبيعية أو ممنوحة أو مكتسبة إلى آخر ما اعتمد من تصانيف.

والملاحظ هو أن أموراً توحدت الأفكار والاتجاهات الفلسفية والدينية على الإقرار بها واعتبارها أساسية لا بد منها بعد أن توقف الجدل حولها. ونستطيع إجمالها بالقول: إن للفرد حقوقاً وحاجات (مهما كان المصدر) خاف عليها أو عجز عن تأمينها بمفرده، فلجأ

❖ عميد ركن متقاعد في الجيش اللبناني.

إلى الجماعة ليستعين بها على ذلك. وعندما انتظمت الجماعة في كيان واحد استشعرت الحاجة إلى من يضبط السلوك العام ويسير بها إلى غايتها، فكان البحث عن السلطة التي تتولى ذلك . وقام التباين من جديد في مسألة الأساس الفلسفي للسلطة وحدودها وصلاحياتها وواجباتها. فكانت القوة والتغلب عند البعض أساساً للتبرير، وكان الحق الإلهي كافياً لدى البعض الآخر، واكتُفيَ بالإرشاد الإلهي عند فئة من الفقهاء، ثم كان العقد الاجتماعي عند الفلاسفة الآخرين. وكلها نظريات جاءت لتبرر وجود هذه السلطة وتحدد أسس قيامها.

وبقيام السلطة في المجتمع القائم على أرض معينة اكتملت العناصر الثلاثة للدولة بمفهومها المعتمد لها، ما أحدث تغيراً في توصيف العناصر المكونة هذه وفي متعلقاتها. واعتمدت تسمية متطورة تلازم وجود السلطة المنظمة الآمرة أو الحاكمة، فسُمِّيت الأرض أو الإقليم وطناً، وأصبح الفرد- العنصر في تكوين المجتمع هو المواطن في الدولة، وأصبحت الجماعة شعباً، يتكون من مواطنين. وكان لتعبير «مُواطن» دلالة اجتماعية وسياسية وحقوقية. ومواطن هو اسم مشتق من وطن ومن فعل واطن، وواطن الفرد غيره يعني شاركه في أرض واحدة اتخذت من قبلهما وطناً (على وزن مفاعل)، وارتضى وجوداً مشتركاً معه فيها يتعاون معه على تحمل أعباء العيش المشترك الذي نشأ بينهما، ويستفيد معه من منافع هذه الشراكة، مع التزام بالخضوع معه لسلطة واحدة تقوم على الأرض التي هو فيها السلطة التي يكون لها أن تأخذ منه ما يمكنها من حفظ ما يتبقى له من حقوق.

وإذا كان الأصل في الدخول في الوطن هو المساواة الطبيعية بين الأفراد في الحقوق، فإن المواطنة تفترض استمرار المساواة في الحقوق بعد تحول الفرد من إنسان يمارس الحياة الطبيعية منفرداً، أو في جماعة غير منظمة، إلى مواطن في دولة انتظمت وقامت فيها السلطة المنظمة. وبقيام الدولة هذه يتغير أيضاً توصيف الحقوق المتعلقة بالفرد، فتنقلب من حقوق طبيعية يكون على صاحبها أن يحميها بنفسه إلى حقوق مدنية تلتزم السلطة بحمايتها له، بعد أن تضاف إليها حقوق مستمدة من طبيعة الدولة ووجود السلطة، حقوق مضافة مكتسبة تكون على نوعين: حقوق تقوم في مواجهة السلطة لتحول دون هدر حقوق المواطن، وحقوق تعتبر واجبات على الدولة تضطلع بها السلطة لحماية حقوق المواطن. ونشأت هنا إلى جانب نظرية حقوق الإنسان، نظرية حقوق المواطن، وهي الوجه الأكثر

تطوراً ودقةً من النظرية الأولى.

ومن غير الغوص في التمييز بين حقوق الإنسان وحقوق المواطن، أكتفي هنا بلفت النظر إلى أن الأولى هي ما ينبغي حفظه وممارسته من قبل الإنسان بحكم كونه إنساناً في أي مكان وزمان، بينما تكون الثانية لمواطن دولة محددة بعينها ينبغي أن يتساوى مع سواه من المواطنين في الممارسة وتبدأ بحقوقه كإنسان ثم يضيف إليها بشكل خاص الحقوق المتعلقة بالمساهمة في تكوين السلطة وإدارة الدولة. وهي أمور يتميز بها المواطن عن سواه من المقيمين على أرض الإقليم أو من الذين لا يُعترف لهم بحق المواطن أو بالمواطنة. وهذا التمييز بين المواطن في الدولة والمقيم على أرض الدولة لم يكن وليد اليوم، فقد كان منذ عرفت الدولة – المدينة في عهد الإغريق وقام التمييز بين المواطن والأجنبي أو الغريب، وحرم الأجنبي من معظم حقوق المواطن حتى ولم يكن له من حق يمارس من الحقوق الطبيعية، إلا ما تعلق بحق الحياة وسلامة الجسد. وقد سُمح بانتهاك حق الحرية، فقامت فئة العبيد. وانتقل الأمر ذاته إلى الرومان الذين ميزوا أيضاً بين الوطني أو المدني الروماني، وبين الأجنبي إلى أن وصل الأمر بهم إلى حد وضع قانونين واحداً لمواطني روما وسُمي القانون المدني وآخر لمن تبقى من بشر حكمتهم روما وسُمّيَ بقانون الأجانب.

وعندما جاء الإسلام أسقط التمييز بين البشر على أساس العرق أو اللون أو الإقليم، وميز في الإقليم بين دارين: دار الإيمان أو الإسلام؛ حيث تقوم فيها سلطة الإسلام، ودار الكفر بالإسلام حيث تكون السلطة لسواه. وفي دار الإسلام اعتُدَّ بفكرة الوطن من غير دلالة سياسية تامة، بل اعتُمدت لدلالات اجتماعية وعبادية. وقد قامت المساواة التامة بين المسلمين في الحقوق والواجبات، بما يتجاوز فكرة المساواة بين المواطنين لاعتبار المسلمين اخوة، أما غير المسلمين المقيمون في دار الإسلام، فقد أقر لهم من الحقوق كل ما لا يؤثر على النظام الإسلامي العام، وكلفوا بالواجبات التي لا تتعارض ومعتقداتهم وما يتناسب مع ما أقر لهم من حقوق. فلم يعترف لهم مثلاً بحق تولي السلطة خوفاً من أن يحكموا بغير ما أنزل الله، ولم يطلب منهم الدفاع عن دار الإسلام خشية إرغامهم على قتال من لا يرون فيه عدواً، ورغم ذلك حفظت لهم سلامتهم وأمنهم بالكامل فرداً وجماعة.

وفي عصر التنوير أو النهضة الأوروبية، كان التطوير لفهم المواطنة وحقوق المواطن هاماً؛ إذ بعد أن أُرسي مفهوم الدولة على العقد الاجتماعي (بشتى الصيغ المتباينة من هوبز إلى لوك ومونتسكيو وصولاً إلى روسو) اعتُبر أن الفرد أساس في تكوين السلطة وأن

إرادته هي جزء من الإرادة العامة، وأن الإرادة العامة هي التي تقيم السلطة ويكون الفرد شريكاً لا يستغنى عن شراكته في تكوينها. و طرحت وبشكل حاد مسألة المساواة بين المواطنين مساواة في الحقوق والواجبات، وتشكلت مقولة الفرد والسلطة، وحقوق الفرد - المواطن وواجباته وصلاحية وواجبات السلطة في المقابل.

والتطوير الرئيسي هنا، كان في تخطي مسألة حقوق الإنسان إلى أبعد منها مع الاحتفاظ بكل ما فيها من الأسس، وبلورة حقوق المواطن، والإقرار بحق المواطنة العام، أو الحقوق الأساسية الناشئة عن المواطنة. ومن المتفق عليه بين فلاسفة القانون والسياسة اليوم في هذا الشأن، هو القول بأن المواطنة ملازمة لقيام الدولة ذات السلطة، وقيام المواطنة يتلازم مع حقوق لا بد من احترامها والإقرار بها. لكن هناك تباين في مسألة طريقة ومراتب إقرار الحقوق تلك، فهل تكون للفرد بقطع النظر عن الجماعة التي ينتمي إليها في الوطن، أو تكون للفرد وللجماعة التي ينتمي إليها، أو تكون للجماعة ابتداءاً ومنها تتحول إلى الفرد ضمن الجماعة ؟ أي بمعنى آخر هل أن الدولة تتخذ في تركيبتها الفرد أساساً في التكوين من غير اعتبار مطلق للطبقة أو الجماعة، أم تكون الجماعة هي الأساس؟ والمواطن يكون مواطناً في دولة أو عضواً في جماعة تنضوي في الدولة (الانتماء على درجتين).

إن الجدل والنقاش الفلسفي لم يُحسم بعد حول هذا الموضوع ونميز في الأمر بين ثلاثة مذاهب أساسية في هذا الشأن:

الأول: المنحى الفرنسي:

وقد تشكل هذا الاتجاه إثر الثورة الفرنسية التي قامت على رفض الطبقات القائمة مهما كان عنوانها وصيغتها، ورفض تشكل الطبقات الجديدة. لذلك رفضت الثورة وما انبثق عنها من تشريعات ونظم لا زالت مستمرة حتى الآن، رفضت الإقرار للجماعات بحقوق خاصة ومنعت تشكلها، ولم يخفف من هذا الرفض وحدته، سوى الحاجة التي ظهرت في مسألة تكوين النقابات المهنية والحرفية والاتحادات النقابية.

الثاني: المنحى الأميركي:

لم يكن ممكناً لبناة الدولة الأميركية السير بالفهم الفرنسي للمواطنة القائم على فكرة المساواة التامة بين المواطنين؛ لأن ذلك كان سيتسبب بالاعتراف بحقوق للعبيد وإلغاء

الرق، كما والإقرار بحقوق لسكان البلاد الأصليين، وهذا ما كان مرفوضاً تماماً من قبل المستوطنين الآتين من شرق الأطلسي . فميزوا بين الجماعات واعترافوا بذاتية تلك الجماعات، مع وعد بسعي نحو صهرها في بوتقة واحدة لإنتاج المجتمع الواحد المسقط للتمييز. والسبب في ذلك يعود إلى طبيعة تكوين الدولة هناك، ووضع السكان الأصليين، ثم الهجرات الجماعية من سود وغيرهم. وقد تأثرت نظم كثيرة في العالم بهذا المنحى واتجهت إلى الاعتراف بخصوصية الجماعات المكونة للمجتمع العام وبذاتية معينة لها. وهذا ما استُقر على تسميته بالتمييز الإيجابي.

الثالث المنحى الإسلامي:

وقد أقام المساواة التامة بين المسلمين وهم إخوة، واحترم حقوق الجماعات غير الإسلامية وحقوق الأفراد فيها كمواطنين مكتملي الحقوق، إلا ما مس النظام الإسلامي السياسي العام. وتميزت النظرة الإسلامية بخصائص ثلاث: الأخوة بين المسلمين وهي عابرة لحدود الأوطان الجغرافية (و تتجاوز المواطنية بذاتها) وتفرض اهتمام المسلم بشؤون المسلمين بصرف النظر عن أوطانهم، على قاعدة من أمسى وأصبح ولم يهتم بشأن من شؤون المسلمين فليس منهم، والمساواة بين المقيمين في دار الإسلام كمواطنين، إلا ما لامس المصلحة الإسلامية الشرعية، فيكون أمره في الممارسة للمسلمين وحدهم ولكن لا يعامل غير المسلم كأجنبي مطلقا). وأخيراً حماية الجماعات غير الإسلامية في نظمها الذاتية ومعتقداتها من غير إكراه لها أو إذابة أو تصفية. أي أن الإسلام اعترف في داره بالخصوصيات المتعلقة بجماعات لم تعتنق الإسلام، وخصوصيات الأقوام التي أسلمت. وكانت المواطنة فيه تقوم على المساواة بين المسلمين في الحقوق والواجبات، والاعتراف بخصوصيات الآخرين في ما لا يمس الشأن الإسلامي عقيدة وبقاء.

٢ـ تعريف المواطنة وشروطها:

يجنح الفلاسفة والمفكرون اليوم إلى اعتماد مفهوم ملائم للمواطنة يرتكز على المساواة وعدم التمييز بين الأفراد- المواطنين، مهما كانت الجماعات التي ينتمون إليها، مع القبول أحياناً وبحدود ضيقة بترك هامش معين للجماعة يحفظها من الذوبان والانحلال والاضمحلال في بعض الحالات. وعلى ضوء ذلك فإننا نرى أن التعريف الأنسب للمواطنة يكون بتحديدها كما يلي:

المواطنة هي انتماء وعلاقة تقوم بين افراد مجتمع ما ارتضوا التعاون والعيش المشترك

في إقليم معين؛ مشاركة تقوم على المساواة في الحقوق والواجبات، في ظل سلطة ترعاهم وتوفر لهم ممارسة تلك الحقوق وتلزمهم بالموجبات من غير تمييز.

وهذا التعريف يقود إلى القول بأنه يشترط لقيام المواطنة وجود الدولة وقيام السلطة التي ترعاها. فالمواطنة ذات دلالة سياسية لا تتحقق خارج إطار الدولة. ثم إن المواطنة الصحيحة التامة هي التي تمكن الفرد من إقامة العلاقة المباشرة بالدولة من غير وسيط - علاقة على درجة واحدة - ودونما اشتراط انخراطه في جماعة أو فئة وسيطة. وإذا صعب تفكيك الجماعات الدينية أو العرقية أو الإثنية، واستحال بناء دولة المواطنين وكان اضطرار لبناء دولة الجماعات وقيام المواطنة على درجتين، فإن المواطنة هنا تكون ناقصة؛ لأن شرط المساواة وعدم التمييز بين الأفراد قد يختل عند مراعاة خصوصية تلك الفئات . وينبغي أن نحفظ دائماً أن المواطنة والتمييز، أو عدم المساواة، نقيضان لا يستقيمان في وجودهما معاً.

لذلك نرى أن للمواطنة شكلين: المواطنة التامة وفيها المساواة التامة بين المواطنين، والمواطنة الناقصة وتكون المساوة قائمة داخل أفراد الجماعات المكونة للدولة، وتتخلف المساواة بين الجماعات ذاتها فيختل عنصر المساواة بين المواطنين بشكل عام. (ويمكن أن يكون التصنيف على أساس المواطن فئة أولى والمواطن فئة ثانية أو ثالثة).

إن قيام المواطنة التامة يوفر على الدولة الكثير من الصراعات الإثنية والعرقية والدينية ويؤدي إلى تفكيك الجماعات التي تهدد بعضها بالصدام أو التصادم في ما بينها، أو خرق الأمن والسلام الوطني والاجتماعي وتهديد سيادة الدولة ووحدتها ويسهل بناء الوحدة الوطنية والانصهار الوطني. والأهم في ذلك هو شعور الفرد بالانتماء المباشر إلى الدولة وتحفيزه على الدفاع والتضحية في سبيل أي شأن يعنيها في أي مكان وزمان. بينما يثير قيام المواطنة الناقصة الكثير من الصعوبات في وجه الدولة والمواطنين. وأشد ما يرى في هذا الإطار تراجع فكرة الوحدة الوطنية، وتراجع النظرة إلى السيادة الوطنية وتطبيقها، ويكون هم الجماعة منصرفاً أولاً لحفظ ذاتها التي منها تُستمد وتُحمى الحقوق. إنه اهتمام يتقدم على همها في حفظ الوطن بكليته.

وهنا لا يكون عدلاً أن تكون الواجبات بين المواطنين هي ذاتها في الوقت الذي تتخلف فيه المساواة بينهم في الحقوق. كما أن الاعتراف بكيانات وحقوق للجماعات يفرض

الاعتراف لهم بوسائل قانونية ومادية تحمي تلك الذاتية. وهنا تطرح مسألة وسائل الحماية تلك وتتعقد المسألة كلما اشتد التباين بين خصوصيات الجماعات. لكن وجود الجماعات المهضومة الحقوق يشكّل دائماً عامل تفجير وإخلال بالاستقرار كما شهد التاريخ سابقاً لثورات من قبل جماعة ظُلمت أو حُجّمت حقوقها. وإن كان الإقرار بذاتية ما، لأي جماعة أو أخرى، أمراً لا مناص منه، فيكون هنا من الأفضل أن تراعى المساواة بين الجماعات، ويكون الحل عندها على وجهين: الأول أساسي جوهري لإقامة المساواة بين المواطنين، والثاني عرضي شكلي ليحفظ شكل الجماعة أو الفئة وخصوصيتها، في ما لا يمس الانصهار الوطني العام. وهنا لا بد من تحديد الحقوق الملازمة للمواطنة، حتى يكون أمر المطالبة بها والدفاع عنها يسيراً ومقبولاً ومبرّراً وفقاً للمبادئ العامة ومنطق الأمور.

٣- حقوق المواطنة:

إن الحقوق الملازمة للمواطنة متقاربة مهما اختلفت النظرة إلى مفهومها ومداها، وتكون هذه الحقوق بحراسة السلطة القائمة ومسؤوليتها، وعليها واجب الحماية وتأمين الممارسة. هذا ويمكن أن ندرج الحقوق تلك في فئات ثلاثة كما يلي:

أ- الحقوق المتعلقة بطبيعة الوجود الإنساني (الطبيعية):

١- الحق بالحياة:

وهو الحق الأساس الذي لا بدّ من احترامه. فلا يقبل المس به إزهاقاً للروح، أو تهديداً بذلك، أو خلق الظرف المنتج لهذا الأمر.

٢- الحق بسلامة الجسد.

٣- الحق بالحرية.

٤- الحق بالمأوى.

٥- الحق بالمعرفة.

٧- الحق بالعمل.

٨- الحق بالتكاثر والإنجاب.

٩- الحق بتربية الأولاد وتنشئتهم.

ب- الحقوق المتعلقة بطبيعة المواطنة ذاتها:

عندما نتحدث عن المواطنة وحقوقها فإننا ننطلق من الحقوق المتوجبة للإنسان

كإنسان وفقاً لما مر ذكره (الحق الإنساني العام) ويضاف إليها الحقوق المستمدة من كون هذا الإنسان انضوى في دولة ذات سلطة. ونميز هنا من الحقوق الإضافية ما يلي:

١- الحق في المشاركة في تكوين السلطة الوطنية.

٢- الحق في المشاركة في إدارة الدولة.

٣- الحق بالأمن والسلام والاستقرار الوطني العام.

٤- الحق في الاقامة في أي مكان داخل الوطن.

٥- الحق في العمل في أي مكان داخل الوطن.

٦- الحق في الإنتقال الآمن داخل الوطن.

٧- الحق في التقاضي وحماية الحقوق المدنية.

٨- الحق في الضمان الاجتماعي والصحي.

٩- الحق بالحياة الخاصة.

١٠- الحق بالملكية والتصرف بالملك.

١١- الحق بالتعليم.

ج- الحقوق المنبثقة عن الاجتماع الإنساني العالمي (الإنسان العالمي):

لم يعد الفرد منعزلاً في مجتمع، ولم تعد المجتمعات الحديثة مقبولة في انغلاق يفرض عليها أو تفرضه على نفسها؛ لذلك أوجدت الحضارة الحديثة نمطاً حديثاً من الحقوق يُستمد من حق المواطنة في جغرافيا معينة، ليصل إلى مستوى المواطن المنطلق من دولة والمنفتح على العالم ونذكر في هذا المجال:

١- الحق بسلامة البيئة العامة (بيئة نظيفة غير ملوثة).

٢- الحق بالتطور ومواكبة مقتضيات الحضارة.

٣- الحق بالأمن والسلام العالمي العام.

٤- الحق بالانتقال عبر الحدود.

٥- الحق بالتضامن الإنساني ونصرة الإنسان في أي مكان.

٦- الحق بالاستفادة من منتجات الحضارة والتطور العلمي والتقني.

٤ـ حماية حقوق المواطنة

إن حقوق الإنسان/ الفرد في العصر الحديث هي الحقوق الطبيعية الأصلية التي تنقلب إلى حقوق مدنية بحمى القانون عند انخراطه في المجتمع المنظم، يضاف إليها الحقوق

الناشئة عن مجرد الانخراط في المجتمع المنظم ذي السلطة، وهي حقوق تنشأ مكفولة بالقانون سواء كانت سياسية أو مدنية. وتكتمل الحقوق بانضمام الفئة الثالثة التي يضمنها القانون الداخلي والقانون الدولي العام، عبر أحكام ومواثيق ومعاهدات تضمن احترام الفئتين الأولى والثانية وتتعهد بصون الفئة الثالثة . ونرى بذلك أن منظومة الحقوق (الفرد/الجماعة) تطورت مع التطور الإنساني العام، وباتت هذه الحقوق كسقف يُطمح بالوصول إليه، مرتبطة في تحقيقها بعاملين أساسيين، الدولة القادرة العادلة، والفرد/الجماعة / الساعية والمطالبة.

ونظراً للتفاوت في قدرات الدول في حماية الحقوق تلك، إضافة إلى مسألة النزاعات العدوانية أو الطغيانية، التي تسجل عند هذه الدولة أو تلك، أو هذا الحاكم أو ذاك النظام أو ذاك، طُرحت مسألة بالغة الأهمية تتمثل بتحديد الكيفية والجهة التي يجب عليها أن تحمي الحقوق وتصونها، سواء إذا كانت السلطة الداخلية هي التي طغت وانتهكت، أو إذا كان الاعتداء خارجياً والسلطة الداخلية هي التي عجزت عن الرد. بمعنى آخر كان السؤال هل للمواطن أن يواجه السلطة في حال طغيانها، أو يقوم بنفسه بحماية حقوقه في حال عجزها؟

أ- الحماية في مواجهة طغيان السلطة:

تتوزع الآراء السياسية أو مواقف فلاسفة القانون والسياسة بين مذاهب عدة: أولها يعتمد فلسفة الحكم المطلق، ويقول: إن المواطن لا يملك أي حق في مواجهة السلطة، وعليه أن يخضع لها خضوعاً تاماً، بعد أن كان قد تنازل لها عن الحقوق كافة؛ أي ليس للمواطن أن يرفض أو يعترض أو يثور على السلطة، وإن فعل كان عمله غير مشروع وإن ذلك يبرر قمعه ومعاقبته. وفي مواجهة هذا الرأي انطلق دعاة الحكم المقيد قائلين: إن السلطة قامت وفُوضت من قبل المواطن بالعمل لصيانة حقوقه واحترامها، فإن طغت وانتهكت سقطت مشروعيتها بذاتها ما يبرر تصدي الشعب لها. وهنا ينقسم فقهاء هذا المذهب إلى فئتين: الأولى فئة الاعتدال وتقول بأن معاقبة السلطة المنحرفة تكون عبر وضع حد سلمي لها ويكون ذلك بعدم تفويضها، أو تجديد تفويضها مجدداً. ويكون هذا الأمر عبر قرار يتخذه الشعب وتعبر عنه الإرادة العامة في الانتخابات. وأما الثانية، فهي فئة التغيير بالقوة، التغيير الذي ينفذ عبر الثورات ورفض طاعة الحاكم والعمل على إسقاطه باللجوء إلى

العنف. وهنا تُطرح تسميات عدة لجهات رفض طغيان الحاكم.

ب- في مواجهة العدوان الخارجي: نشأة المقاومة:

من البديهي أن تكون السلطة هي المسؤولة عن مواجهة أي اعتداء على الوطن وعلى المواطنين فيه، وأن تضطلع بمهمة الدفاع والحماية، وهو ما يعبر عنه بمقولة توفير الأمن القومي أو الأمن الوطني. ونعود هنا إلى أصل ومبرر وجود الدول، فنرى أن الوظيفة الأولى للدولة تتمثل بهذا الأمر لذلك أسميت الدولة في وجهها الأول الدولة الحارس أو الدولة الشرطي. كان ذلك قبل أن تتطور الدولة إلى الدولة الرحيمة التي تؤمن إلى جانب الوجود والسلامة الرفاه والتطور. والسؤال المطروح هنا هل أن الشعب / أو المواطن تنازل للدولة عن حقه بالدفاع عن النفس تنازلياً كلياً لا رجعة عنه، وأن عليه أن يتحمل نتائج أداء الدولة نصراً أو هزيمة في مواجهة العدوان الخارجي، وأن يستسلم لتلك النتائج من غير حراك، أم أن فعله كان بمثابة التفويض المشروط المعطى للدولة للدفاع والحماية وهو تفويض قابل للنقض في حال العجز، نقض يؤدي إلى استعادة الحق وممارسته لتحقيق المبتغى وحفظ الوجود والمصالح؟

رغم التباين في المواقف في مسألة الاعتراض على طغيان السلطة ومواجهتها، فإن رجال الفكر والفقه والفلسفة والقانون والسياسة، يكادون يجمعون على مسألة ضرورة مواجهة الاعتداء الخارجي من قبل الشعب إذا عجزت الدولة بسلطتها عن ذلك. ويقولون بالحق الفردي والجماعي للدفاع المشروع عن النفس، فمن اعتدي عليه وعجزت السلطة عن حمايته كان له الحق بأن يقوم بنفسه برد الاعتداء. والدفاع المشروع عن النفس يمارس فردياً أو جماعياً. وفي الصور الحديثة للممارسة الشعبية لهذا الحق نشأت فكرة المقاومة.

لكن المعضلة هنا تظهر عندما لا تكون المواطنة التامة قد استقامت، و يكون الشعب مستمراً في جماعات غير منصهرة تظهر قيام المواطنة الناقصة، ويكون العدوان الخارجي محيداً لفئة ومستهدفاً لمنطقة تقوم عليها فئة أخرى. هنا تجد الفئة المستهدفة بالعدوان نفسها مستفردة إن لم يهب الشعب بكل جماعاته للوقوف مع الوطن، وينجد الجزء أو الشريحة المعتدى عليها. إن تخلف الوحدة الوطنية بنتيجة عدم اكتمال المواطنية يجعل من مسألة التصدي للاعتداء الخارجي، الذي عجزت الدولة عن مواجهته، مسألة فئوية محدودة لا تصل بنظر البعض إلى المستوى الوطني الشامل. ويكون العدوان الخارجي الذي

يفوق قدرات الدولة سبباً لكشف وهن المواطنة فيها. ولكن تبقى المقاومة ضرورة للمعتدى عليه أو المهدد باعتداء في دولة عاجزة، سواء كانت المقاومة رهن الممارسة من قبل الشعب والمواطنين كلهم أو من قبل فئة محدودة أو حصرية منهم. لكن ها هنا، تثار مسألة جديدة تتمثل بالعلاقة بين المواطنة والمقاومة، خاصة وأننا قلنا: إن المواطنة تفرض التعاون والمشاركة في تحمل الأعباء. فإذا لم يسارع المواطنون إلى إعانة بعضهم البعض عند عجز الدولة عن القيام بواجباتها هنا تطرح مسألة المواطنة بذاتها وآثارها، وترسم علامات الاستفهام حولها. فأي مواطنة تنتقص منها مسألة التعاون والمشاركة في دفع الضرر والخطر؟ ثم ما هي الحدود التي يمكن أن تصل إليها المقاومة دون أن تنتهك جوهر المواطنة بما فيها من مساواة بذاتها؟

٥ ـ مفهوم المقاومة وعلاقتها بالمواطنة

تطورت مفاهيم المقاومة منذ نشأتها الأولى، وتقلبت في مراحل وصور شتى مستوعبة مفاهيم المقاومة السلمية اللاعنفية، وأشكال العنف المستند إلى أقصى درجات الشدة، وكل ما يقع بين هذين الطرفين من أشكال. وقد بلغت المقاومة في شكلها الحديث المعاصر، وفي ظل التفاوت الهائل والفاضح بين قدرات الدول وإمكاناتها، وتحكم الدول القادرة بمصادر القوة والسلاح، وأصبح عجز السلطة في الدول الضعيفة يقينياً في مواجهة الدول القوية، في ظل هذا الواقع باتت المقاومة حاجة لا بد منها تمارسها الشعوب لحفظ حقوقها ومصالحها التي تعجز السلطات عن تحقيقها. وإننا نرى أن التعريف الأحدث للمقاومة هو القول إن:

المقاومة هي ممارسة المواطن لحق مشروع، وفقاً لأي شكل متاح بما فيه القوة المسلحة، من أجل استعادة حق انتهك أو اغتصب، أو الدفاع عن حق مهدد بالانتهاك وحمايته، إذا ثبت عجز السلطة أو فشلها في توفير تلك الحماية والدفاع أو تحقيق ما يسمى الأمن الوطني /القومي العام.

وتتوجه المقاومة في الأساس للدفاع عن الوجود والحرية في الإقليم المعتبر وطناً، لحفظ السيادة عليه أو لاستعادتها إن كانت فقدت، إذا كانت الدولة عجزت عن القيام بهذا الأمر، ما يعني أن المقاومة تهدف إلى حفظ حقوق لصيقة بالمواطنة ذاتها. والمقاوم هو من أكد على مواطنته وحقوقها بالدفاع عنها وحمايتها . لكن استعمال المقاومة لوسائل القوة

والعنف يجعلها تقع في شبهة الخلط والالتباس مع ممارسات للعنف بقصد مختلف. ولكن يبقى التعريف الذي نعتمده للمقاومة معياراً يميز المقاومة بشكل جذري عن الأشكال الأخرى للعنف، خاصة ما يسمى الإرهاب أو الجريمة العادية أو الجريمة المنظمة (والإرهاب بنظرنا هو ممارسة غير مشروعة يقوم بها فرد أو جماعة تؤدي إلى انتهاك حق أو مصلحة مشروعة للأفراد أو الجماعات البريئة، بقصد الحصول على منفعة أو مكسب غير مشروع بشكل مباشر أو عبر الضغط غير المباشر على من بيده القدرة على التنازل عنه أو تقديمه). في ضوء هذا التعريف للمقاومة نطرح الأسئلة الأساسية التالية:

- هل المواطنة تنفي المقاومة أو تؤكدها؟
- ما هي الحقوق التي يمكن للمقاومة أن تتصدى لها مع حفظ مزايا المواطنة وخصائصها؟
- ما هي حدود المقاومة وضوابطها على ضوء خصائص المواطنة ومقتضياتها؟
- ما مدى التفاعل بين فكرة المواطنة ومفهوم المقاومة؟
- المقاومة واجب أم حق أم صلاحية؟
- كيف تحفظ المساواة التي تفرضها أو تقتضيها المواطنة، إذا تخلفت فئة أو أكثر من الشعب عن المقاومة؟

وتكون الإجابة على هذه الأسئلة مجدية بشكل أكبر إذا كان هناك تعمق وشرح مستفيض لكل من مفهومي المواطنة والمقاومة على ضوء التطور العصري للمفهومين هذين في ظل الأفكار الفلسفية الحديثة وعلى ضوء الواقع الدولي القائم.

بيروت في ١٥- ٥- ٢٠٠٧

العميد الدكتور أمين محمد حطيط

المداخلات

بلال:

سؤالي للأستاذ وليد: تفضلتم بالقول: إن القطب الأميركي أمسى كهلاً، وفي حال انهياره هل نحن أمام تفاقم الفوضى العالمية ومن يضمن استقرار العالم وعدم تدهور الأوضاع على غير صعيد؟

تعقيباً على كلام د. منوتشهر محمدي:

لقد أدخلت المقاومة ونصرها شرطاً جديداً في الفكر الاقتصادي المعاصر للتخلص من التخلّف والتمكّن من إنجاح عملية التنمية الشاملة والنقل الناجح للتكنولوجيا:

أ - سبب التخلف كما يراه الاقتصاديون هو قابلية الاستعمار . وقد أنتجت قابلية الاستعمار عند الأمة حكّاماً تابعين ومحكومين خانعين، وراح الاستعمار ينهب ما أتيح له أن ينهب.

المستشارة نبيلة صعب فتح الله:

سؤالي موجه للدكتور محمّدي: نحن نفتخر بدولة إيران التي أعطتنا المثل لنردّ على القوة بالقوة. إذا كانت أهداف المقاومة النبيلة القائمة على فطرة العدالة والعزة متكافئة حسب الهجوم بأسلوب رصين، فإن العدو لا يفهم ذلك على أساس أن القوة هي أساس النصر عنده. بدليل أنه يصر على بثّ الفتن بين الإخوة في الوطن الواحد. السؤال: كيف نستطيع إفهام الشريك في الوطن أن مفهوم القوة العسكرية قد تغيّر؟ وأن لا مجال لشيء سوى التفاهم بين الشركاء في الوطن للحفاظ على حياضه؟ وشكراً.

د. حطيط.

هناك ملاحظات على ما تفضّل به المحاضرون في مداخلاتهم القيّمة، الأولى بالنسبة لأهداف المقاومة. ما تفضّل به الدكتور محمّدي هذا في النظام القديم للمقاومة، حيث لا تستهدف المقاومة إلا أهدافاً عسكرية محضة، الجديد هو تطوير اختيار الهدف الذي يسبِّب الإيلام وانتقل الفكر من هدف عسكري إلى هدف إيلام العسكري.

أما في مسألة ابتداء المقاومة وتطويرها، الآن سقطت استراتيجية الدول القادرة على الحماية بأنظمتها الرسمية، وبدأنا باستراتيجية دفاع الشعوب. وهذا الإرباك الجديد الذي سبّب عدم قيام النظام العالمي الجديد هو حل استراتيجي لدفاع الشعوب مكان استراتيجية تبعية الأنظمة والقوى التقليلدية. وبرأيي أميركا لن تشن حرباً على إيران.

ليلى الرحباني:

سؤالي للأستاذ شرارة: كنّا نتمنّى لو أن انهيار الاتحاد السوفياتي أضعف أميركا، ولم يقوّها كما قلت. لكن أحداث السنين التي مرّت منذ سقوط الاتحاد السوفياتي أثبت قدرة أميركية فائقة على الهيمنة بالتأكيد، لم تصل إلى فرض أحادية قطبية. فبدل أن نقول: إن الاتحاد السوفياتي أضعف أميركا ولم يقوّها يمكن أن نقول: إن انهياره أفقدها العدو الذي تستخدمه، فاتبعت الإرهاب عدواً جديداً فاستغلته للدخول إلى أفغانستان والعراق والتدخل في أماكن جديدة في العالم. وشكراً.

مصطفى أرزوني:

هل نرى في عصرنا الحاضر دولة كالاتحاد السوفياتي تقف في وجه أميركا؟

سليم الأعور:

جوهر الصراع هو فلسطين ونأمل أن لا تتحوّل القدس إلى قضية دينية تصبح أهم من فلسطين والقدس نفسها.

إجابة الأستاذ وليد:

في ما يتعلق بالسؤال الأول عن الفوضى العالمية. وما يمكن استنتاجه منذ انهيار الثنائية القطبية أن الفوضى العالمية زادت مع محاولة الولايات المتحدة فرض هيمنتها على العالم منذ الحرب العالمية الثانية وتحوُّل الولايات المتحدة إلى قوة عالمية مهيمنة على العالم. ركيزة الهيمنة الأولى هي القوة العسكرية، والركيزة الثانية هي السيطرة على

النفط. وقد حاولت الولايات المتحدة باستمرار، منذ الحرب العالمية الثانية عبر استخدام السلاح ضد اليابان، أن تؤكد أنها تمتلك القدرة على الإبادة. وبالتالي، تستطيع فرض زعامتها على العالم مستخدمة تفوّقها العسكري مع نهاية الثنائية القطبية. شنّت الولايات المتحدة سلسلة من الحروب، وهي أدّت إلى تزايد حالة الفوضى، تراجع النفوذ الأميركي، إذ أدى إلى صعود أقطاب سياسية وتشكّل عالم متعدد الأقطاب. هذا ما يمكن أن يضمن حالة نسبية من الاستقرار في العالم.

ثانياً: في ما يتعلق بالعدوان على إيران أنا أظن أن الولايات المتحدة عازمة على شن حرب على إيران؛ لأن تحوّل إيران إلى قوة نووية، هو تحوّل في موازين القوى الاستراتيجية الإقليمية والدولية لثلاثة أسباب:

١- تحوّل إيران إلى قوة نووية يعني تحوّلاً استراتيجياً إقليمياً ضد مصلحة إسرائيل والهيمنة على العالم.

٢- هذا التحول سيطلق ديناميات تحول سائر الدول إلى دول نووية.

٣- عندما تتحول إيران الدولة النفطية إلى دولة نووية، فهذا يعني أنه أصبح لديها مخزون نفطي استراتيجي خارج إطار الهيمنة الأميركية. وهذا ما يستحيل أن ترضى به أميركا والدول الغربية. وشكرا.

د. علي الخطيب:

قال المسيح (ع) «أفترش الأرض وأتوسّد الحجر وألتحف السماء وآكل العشب وأنا أسعد الناس، لا تقدروا أن تعبدوا ربّين الله والمال». وكان الإمام علي (ع) يقول: «طوبى للزاهدين الذين رضوا الحياة على منهاج المسيح». عالمنا اليوم عالم ماركسية انهزمت ورأسمالية تترنّح في ظل عولمة متعثّرة تعبد المال، ولا تعبد الله ولا تتدين بدين إلهي ينقذ العالم الذي ملأه الطغاة ظلماً وجوراً. هذا مع المهدي والمسيح (ع). هل يعني هذا أن تحالف المؤمنين المسلمين والمسيحيين هو الطريق إلى هذا الخلاص؟ إذا كان بنعم، فأتصور أن تحالف قم والنجف والأزهر والفاتيكان هو الممر للمؤمن وعليه أن يكون مع هؤلاء لا مع آلهة الأرض الذين يصنعون إلهاً من تمر ثم يأكلونه. وشكراً.

علي رباح:

سؤال موجه لسعادة الأب:

هل في المسيحية ما يشرّع وجوب الدفاع عن الوطن والكرامة والأرض؟ وهل يتساوى في

المنظور المسيحي من يستشهد، ومن يموت ميتة طبيعية من حيث المكافأة والجزاء الأخروي؟ وشكراً.

رحاب غازي:

نحن جميعاً نعلم أن المقاومة هي منظومة قيم ومفاهيم راقية تشكّلت وتجلّت من خلال مقاومتنا الإسلامية ومن خلال السلوك والممارسة والثقافة. أما الحركات التكفيرية التي نشأت متأخّرة فقد ألصقت تهمة الإرهاب والتطرف بالإسلام، بالإضافة إلى أنها كفّرت بعض المذاهب الإسلامية. السؤال: على أي أساس ديني وشرعي استندت هذه الحركات والمعتقدات؟ وشكراً.

إجابة الأب مسّوح:

بالنسبة إلى تحالف المؤمنين، فأنا أطمح إلى أن يتشارك كل الناس في الدفاع عن القيم الإنسانية ومحورية الإنسان ومكانة الإنسان التي أعطاه إياها الله. وبالنسبة إلى وجوب الدفاع عن الوطن، نعم علينا الدفاع عنه بكل الأساليب المتاحة من أجل خير الناس. وبالتالي الدفاع عن الوطن واجب. وبهذا المعنى طلب السيد المسيح من الله أن يغفر لصالبيه. ولكن لو أن السيد المسيح مرّ بأحد المظلومين، فهل يحمل السوط كما حمله في الهيكل وطرد التجار من الهيكل قائلاً: جعلتم هذا البيت بيتاً للصوص؟ فالمسيحي ملزم بأن يغفر لمن يعتدي عليه شخصياً، ولكن لا يحق له أن يغفر لمن يعتدي على جاره وصديقه، فعليه أن يدافع عنه بكل أشكال المساعدة والدفاع.

الشيخ غازي: عضو قيادة جبهة العمل الإسلامي.

لدينا حديث صحيح وهو قول الرسول (ص): «من صلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو منّا ونحن منه»، ناهيك عن حديث: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة». هناك قاعدة موجودة في كتاب «الجرح والتعديل» أُلِّف من حوالي مائة سنة للشيخ جمال الدين القاسم، فمن يقرأ هذا الكتاب يجد أن المسلمين كلهم إخوانه من كل المذاهب. فواحدة من القواعد التي جعلها ابن حجر العسقلاني تقول: «لو أن كل طائفة من طوائف المسلمين حكمت على غيرها بحسب أصولها ما بقي أحد في الإسلام». كل مذهب من المذاهب سواء كان فقهياً أم فكرياً أم سياسياً أم كلامياً له أصول مستنبطة من أصول مجمع عليها هي وحدانية الله، ونبوّة محمد، ونزول القرآن من عند الله. هذه الأصول الثلاثة نحن نتفق

عليها، بعد ذلك هناك فهم لهذه الأصول، وهذا الفهم عندما يعتبر أصول هذه الأصول نحكم من خلاله على غيرنا به.

عزيزة حمدان:

سؤال موجّه لحضرة الأب جورج مسوح: تحدّثت عن محبة الإنسان لأخيه الإنسان وفرّقت بين الإنسان وعمله، أليس العمل هو الأثر الذي ينبغي أن نرتب عليه الحكم على هذا الإنسان؟ فكيف نفرّق بين العمل وبين صاحبه؟ هذا أولاً.

وثانياً: مفهوم المحبة مفهوم واسع جداً، ألا يجب أن يكون هناك مسار يحدّد أو يوجه هذه المحبة، خصوصاً أنها قد تفسّر بعكس ما قيل؟ مع ملاحظة أن المقاوم يبذل دمه محبة لوطنه وفي الوقت ذاته نجد الكثيرين الذين برروا مدّ يدهم للعدو الإسرائيلي وهدم بيوت اللبنانيين وسفك دمائهم تحت عنوان أنني أحب أرضي ولا أريد أن أتركها. وشكراً.

- أتقدم بالشكر الجزيل للدكتور مسوح على الورقة التي قدّمها، لما فيها من رقة وصفاء طويّة. وفي الحقيقة قد استفدت كثيراً منها واستأنست في الوقت ذاته. دائماً عندما نطرح موضوع السلام أو موضوع الإرهاب، نشعر أننا أصبحنا أسرى التبرير، نتحدّث عن السلام ونبرّر أننا مجتمع سلام دائماً ونبرّر أننا لسنا إرهابيين. واستُهلِكنا واستُنزفنا في الحديث عن عدم كوننا إرهابيين، وعن السلام وأننا أصحاب السلام، حتى عنوان المؤتمر، قيم المقاومة: خيار الشهادة، أنا أتصور أنه من الأفضل أن يكون (للحياة)؛ لأن كل ما قدّمناه من شهداء ومقاومة وجهود، وما تقدّم به قادة المقاومة يُظهر أننا نعشق الحياة أكثر مما يعشقها أي إنسان آخر، وبالتالي لم أفهم عبارة (العنف واللاعنف). نحن نتحدّث عن الثورة. عندنا في القرآن معنى الجهاد ونفتخر بهذه المسألة. أريد القول: إننا حينما نتحدث عن السلام أرجو أن لا نتحدث عن السلام على طريقة رئيس إحدى الدول العربية حينما يقول: «فإذا جنحوا للسلم فاجنح لها»، عندنا معنى الجهاد الذي يحمل معنى الموت لأجل الحياة وقمع الظلم لأجل العدالة فما هي المفردة المقابلة في الثقافة الدينية عندكم؟ شكراً.

د. يوسف ضاهر:

يقول الأب د. مسّوح: إن الفقراء هم فريسة الأغنياء، وهذا يطابق وضعنا في لبنان حيث الأغنياء سرقوا مال الفقراء، وأصبح علينا دين يبلغ ٥٠ مليار دولار. يقول السيد المسيح: «من ضربك على خدك الأيمن فأدِر له خدك الأيسر» هذا ما يعارض فكرة المقاومة

والثورة على الأغنياء وإعادة المال المسلوب. نرجو توضيح ذلك.

خديجة سلّوم:

ورد في مداخلة الدكتور فتحي يكن عند تعداده للخلفيات الكامنة وراء ظاهرة الإرهاب في البند رقم ٦ إخفاق التجارب الإسلامية ذات النهج الوسطي، فوضع إيران في مصافّ أفغانستان والجزائر، مع العلم أن نهج الإمام الخميني انطلق من الخطاب السياسي الوحدوي البعيد عن المذهبية والخلافات التاريخية، وهذا ما استفادت منه حتى الحركات الإسلامية غير الشيعية والتي أثبتت فعاليتها في مجال المقاومة، ولا نحتاج للتعليق على ما قدّمت أفغانستان من نموذج مصدِّر للإرهاب برئاسة بن لادن؛ وما قدّمته إيران في المقابل من تجربة في المجالات المتعددة الإنسانية والثقافية والتكنولوجية وصولاً إلى النووي السلمي. وشكراً.

سـؤال للأب مسـوح:

تحدّثت في محاضرتك عن المقاومة وعن الشهادة بطريقة جميلة. ونحن نشهد حملة من جماعة «أنا أحب الحياة»، ضد المقاومة، تنعتها بثقافة الموت. وأغلب هذه الأصوات هي أصوات مسيحية، فما هو تعليقك على هذا التناقض القائم؟

عبـاس شلهوب:

أتوجه بسؤالي إلى الأب الدكتور جورج مسوح، ما هي برأيكم الآلية التي تمكننا، كمسيحيين ومسلمين، من إنتاج مشروع مقاومة لهذا المشروع الصهيوني المعادي لكل تعاليم السماء اليهودية والمسيحية والإسلام، هذا العدو الذي ظلم وقتل مئات الآلاف من الأبرياء من كل الأديان، ولا زال يجهد بكل ما يمتلك من مقوّمات مادية ودعم لا محدود من محتكري المفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان في العالم، لإطفاء آثار كل من المسيحية والإسلام في فلسطين؟ وشكراً.

الأب جورج مسوح:

بالنسبة لسؤال السيدة عزيزة حمدان: طبعاً نفرّق بين الإنسان وأعماله طالما هو حي، وأنا قلت: إن كل إنسان مدعو إلى التوبة، ولا أريد القول إن كل الناس سوف تتوب كي لا أقع بالتعميم، إلا أن باب التوبة مفتوح، لذلك علينا التمييز بين الإنسان وأعماله؛ لكي لا يستفحل الشر. عندها نستطيع استعمال المقاومة المسلّحة أو غير المسلّحة كما في حالة

العدو الصهيوني. والتفرقة بين الإنسان وأعماله واضحة بنسبة استفحال الشر عنده وعدم قابليته للتوبة.

أما في موضوع المحبة، فالمحبة هي التي تعني البذل، بذل الذات إلى المنتهى. وفي موضوع السلام الذي يقوم على العدل والمساواة التامة بين البشر وعلى عدم الاعتداء، وعلى احترام الاختلاف وعلى القبول بالتنوع والتعددية، هذا ما نسعى إليه. ومن الطبيعي بالتالي أن نميل إلى السلام بأي طريقة على قاعدة الجنوح للسلم.

أنا أريد أن أدخل من هنا إلى فلسطين، نحن من أكثر الناس الذين أسيء إليهم في فلسطين بالنسبة للعدو. كنا في خلال ١٣ قرناً من عمر الدولة الإسلامية، كنا حوالي ٢٠ إلى ٢٥ في المائة ثم انحدر عددنا إلى ٢ في المائة في ظل الكيان الإسرائيلي الغاصب. وبالتالي يجب على المسيحي قبل المسلم أن يكون مقاوما ضد العدو المشترك إسرائيل؛ لأنها لو استطاعت لأنهت الوجود المسيحي في فلسطين. وبالنسبة لموضوع الجهاد وما يقابله، نحن نرفض القول بالحرب العادلة، ونحن ليس لدينا مصطلحات، أنا أرثوذكسي وأنا أتحدث عن الشهادة ونموذجها الصارخ هو السيد المسيح الذي بذل نفسه على الصليب.

أما بالنسبة لقصة «أنا أحب الحياة» فقد طلبوا مني أن أتكلم على التلفزيون فقلت لهم: أنا لا أحب أن أُستغل بقصة غير صحيحة. كل إنسان يحب الحياة، أنا استقبلت مهجّرين من الجنوب في كنيستي ورأيت كم كانوا يحبون الحياة، وبالتالي فهو كلام فارغ وهو سخرية ولا معنى له. والحياة هو أن تحب الحياة لك ولنفسك. وهذا الأمر له علاقة بنمط معيّن من الكره والبغض في هذا البلد. وشكراً.

إجابة الشيخ حنيني:

أنا أستأذن من سعادة الأب وأوضّح للأخت السائلة التي قالت بالتفريق بين الإنسان وعمله، عندنا قاعدة تقول: نحن نكره كفر الكافر ولا نكره الكافر، ونكره معصية العاصي ولا نكره العاصي، فإذا آمن الكافر أصبح أخاً لنا في الدين وإذا تاب العاصي أصبح مؤمناً طائعاً.

المسألة الثانية حول موضوع سؤال الأخت لا أهرب من السؤال لكنه سؤال تفصيلي جداً يحتاج من الدكتور فتحي شخصياً أن يجيب عنه؛ لأنني لم أستوضح منه لماذا حكم بفشل التجربة في إيران وأفغانستان والسودان. أقول بالمعنى الإيجابي إنه يتمنى الأفضل لعالمنا

الإسلامي، أن نكون بحال أفضل، وأعود لأقول الجواب التفصيلي عند الدكتور فتحي ولست أتهرب من الجواب.

بالنسبة لسؤال الدكتور حول استخدام الآيات ومحاولة إظهار الإسلام يحمل صورة عدوانية عن الناس فمراجعنا التي نستقي منها الفتاوى مثل الدكتور القرضاوي وغيره على المستوى السني والإمام الخميني رحمة الله عليه عندما أطلقوا الفتوى، وقال: ادخلوا بهم الجنة.

العمليات الاستشهادية في مواجهة المحتل، لا في مواجهة جاري الذي لا أتفق معه على طريقة الصلاة والقبلة والذبح، فحتى لو اختلفت معه بالمعنى العقائدي، فعندما كنّا نرى تفجير الكنائس في العراق كنّا نضع علامات استفهام كبيرة هي أنه لماذا تُفجَّر يوم السبت ولا تُفجَّر يوم الأحد؟ لو كان المقصود قتل المسيحيين كانوا فجّروها يوم الأحد لكنهم فجّروها يوم السبت فهذا يعني إخراج ٥٥٠ ألف مسيحي من العراق. أين سيذهبون ضمن المشروع الأمريكي الصهيوني؟ أنا أوجّه سؤالاً فقط.

أما موضوع أنّ لدينا آيات تدعو إلى القسوة على العدو، نعم هذا صحيح. في الحرب ليس هناك من رحمة، الرحمة في الحرب تكون على الضعيف المظلوم، كالطفل، والشيخ، والمرأة، والراهب في كنسيته، وعلى الشيخ في جامعه ومسجده، نعم يجب علينا أن نرحم هؤلاء. لكن أنا المسلم السني غازي حنيني سأعلّم ابني وابن ابني وابن ابن ابني سأعلّمهم كيف يعيدون فلسطين، أنا اللبناني المسلم السني اللبناني. هذه هي قيم المقاومة.

وأنا قلت: نحن نرفض الظلم؛ حتى لو حمل الظالم عنواناً إسلامياً، حتى أنّ علماء المسلمين السنة في تاريخهم الطويل، كانوا يرفضون ظلم بني أمية وظلم بني العباس وخاصة ما كان يجري من ظلم الأمويين وظلم العباسيين على أئمة أهل البيت (ع). وشكراً.

العميد أمين حطيط:

أقدّر ما جاءت به الدكتورة الشهّال، وأنطلق مما ذكرته حول مسألة تراجع المفهوم الذي حصل في الفترة الأخيرة، وهنا يهمّني أن أشدّد على مسائل عدة في هذه النقطة بالذات.

في الواقع العملي الذي نعيشه، هناك على سبيل المثال في لبنان، وأدّعي أنّي أراقب وأتابع في هذا الموضوع، هناك أكذوبة كبيرة في لبنان اسمها الإجماع الوطني على المقاومة، وهذا غير صحيح، وعاينت هذا الأمر في الميدان، عندما كنت قائداً لأكثر من قطاع في الجنوب وفي الداخل. والذي كنت أسمعه من الفئة التي تناهض المقاومة أكبر بكثير مما يُعلن في الصحف، وظلّ الأمر على حاله حتى ١٩ أيار ٢٠٠٠.

ما تغيّر الآن هو نتيجة لما نسمّيه «الشدائد تؤدي إلى الفرز الشديد»، وعندما حصلت الشدائد بعدما حصل في العراق وفي لبنان ٢٠٠٣- ٢٠٠٥، كان هذا الفرز الشديد، وتبيّن من كان حقاً مع المقاومة واستمر، ومن كان كاذباً معها ثم فُصل عنها، ونحن في تعريفنا للمقاومة دائماً نقول: إنها التزام ثابت ينطوي على التضحية مهما كانت الأثمان.

وفي لبنان هناك مقاومة جادة وأنصار جادون وهناك فريق ثان من الأنصار بالمجاملة. في أوقات الشدة انقلب المجاملون إلى أعداء للمقاومة. أما في مسألة المقاومة فهي التزام ثابت أهميتها في مسألة الاجتماع السياسي كما أرى أنها تتجاوز فردية المقاوم والأنا عنده، ليعتبر المقاوم نفسه جزءاً من أمة، فيكون جسراً لاشتداد التماسك الاجتماعي. ولأن المقاوم لا يستطيع أن يستثمر تضحياته ما لم يكن التماسك الاجتماعي قائماً، فتقوم علاقة جدلية بين تضحيات الفرد الذي يقوم بعملياته في المقاومة، وبين الفرد الذي يضحّي من أجل الجماعة، وبين الجماعة التي تلتقط التضحية فتستثمر الانتصار. وبالتالي المقاومة في هذا المجال إن كانت مقاومة ثابتة وتستجيب صدقاً وعُرفاً لمفهوم المقاومة تؤدي بشكل مباشر إلى تنمية الاجتماع السياسي باعتباره جزءاً وليس كلاً، وباعتبار المجتمع هو الوحدة التي تستثمر التضحيات. وشكراً.

أ. وليد محمد علي

القضية الأساسية أن الجميع مستعد للموت من أجل قيمه. أميركا ترسل الجنود ليموتوا في أفغانستان والعراق متذرّعة بالدفاع عن قيمها. والأمر المهم هو كيف نحقق إجماعاً على المقاومة وقيمها التي تميزها عن غيرها من القيم المدعاة؟ مثلاً فكرة العدالة الإنسانية، فإذا تكرّس مفهوم العمل من أجل تحقيقها لرفع الظلم، نستطيع عندئذٍ أن نخلق نوعاً من الالتفاف في الأغلب حول فكرة القيم. أما إذا نظر كل منا إلى قيم خاصة، ربما لا تكون مشتركة، فسوف يؤدي ذلك إلى اختلاف حول المقاومة وحول قيمها. وربما

يرى بعض الناس أن تعبير العدالة الاجتماعية تعبير أيديولوجي مرتبط بالحالة الإسلامية، لكني أرى فيه شمولاً لكلّ حالات التمييز العنصري والاضطهاد، القادر المتمكّن من عوامل القوة لمن لا يملك هذه العوامل. فالتركيز على هذه الفكرة هو ما يمكننا من توسيع دائرة الملتفّين حول المقاومة لتحقيق العدالة الإنسانية، وأنا لا أعرف رأيك د. نهلا. وشكراً.

المستشارة نبيلة صعب فتح الله:

تأكيداً لما قالته الدكتورة، وكخبيرة في علم النفس الاجتماعي السياسي أقول: إن طلب الإنسان المستحيل ليكون واقعياً يذكّرني بقول أحد الحكماء: «لا تبحث عن الأخطاء! ولكن إبحث عن العلاج. وإن من الأمور الطريفة في الحياة، أنك إذا لم ترض سوى بالأفضل، فسوف تحصل عليه بالتأكيد». هذه هي حقيقة ثقافة المقاومة بالفعل التي تضع الخطط المستقبلية الواعدة بعد أخذ الدروس من أخطاء الغير ومن أخطائها أيضاً. وكذلك بعد البحث عن العلاج بإيمانها بحياة شريفة كريمة كما أن وضع الأفضل أمام عينيها للحصول عليه تتبيّن نتيجته بوضوح، ما يعدنا به سيد المقاومة دائماً هو النصر الأكيد لإيمانه بأن المقاومة سيحميها الله (عز وجل) خصوصاً وأن الله هو الحق فكيف لا يكون مع هذا الحق؟

أخيراً، أثني على ما قالته المحاضرة الكريمة، بأنه مهما يكن سؤال الآخر الغيور منه لا عليه، عمّا سيغيّره في المجتمع لوحده أقول: إن لكل فردٍ منّا ابتداءً من منزله ومكان عمله ومجتمعه، لكل فرد، مسؤولية أكيدة نحو مجتمعه، فكلمة صغيرة صادقة قد تغيّر آراء الكثير وذلك عن طريق المواجهة والمثابرة عليها بالصدق علّ هذا الغير المضلل قد يعود إلى صوابه بعد سماع الحقيقة الحقة، وهذا ما يحصل لي مراراً من ضمن خبراتي على مسؤولية المواطن تجاه وطنه والتي تؤكد على الاستمرار على حضانة المقاومة المسلّحة، وشكراً.

هيفاء مرتضى صايغ، مؤسسات الإمام الصدر:

كلنا نعلم بأن هناك حرباً جديدة نشبت بعد الحرب العالمية الثانية هي حرب الإيديولوجيات والأفكار والعقائد والتي شهدها العالم ولم يزل؛ وهي حرب غير متكافئة لأن وقودها كان دائماً من الطبقة الكادحة والشباب المثقف الأعزل. وأنا أجد أننا بحاجة

لمقاومة غير المقاومة العسكرية والسياسية، مقاومة ضد استباحة المقدّسات بما تعني من قيم ومبادئ، وما هي هذه الحروب إلا أساس لهذه الانتهاكات لاستباحة المقدّسات والقيم والمبادئ، فما الذي حضّرناه تجاه مقاومة هذه الاستباحات للمبادئ والمقدّسات؟ وشكراً.

د. نهلا:

أولاً: لم أقل إنّ هناك تراجعاً للمفهوم، بل هناك تراجع لإدراك المفهوم، والمفهوم ليس جوهراً مطلقاً قائماً بذاته وهو محفوظ في النفوس. المهم هو كيف يتم إدراك المفهوم من قبل عموم الناس على مستويات مختلفة، وهنا أريد القول: بالنسبة لأكذوبة الإجماع الوطني على المقاومة، أوافق تماماً على أنها أكذوبة، ونحن مارسناها لسبب تكتيكي، فكنّا نقول درءاً لسجالات ليست في وقتها، نحن كنا نقول: إن هناك إجماعاً. وكانت هناك مناهضة من قبل صفوفنا لكل نقاش يحاول التدقيق في نظرية الإجماع الوطني على المقاومة. ما يهمّني هو أولاً تسجيل أن هناك لحظة كانت ثورية تماماً في ذاك الوقت عند مجابهة العدوان وتمكنت الموجة المتعددة القوى والميادين من محاولة خنقها وجعلها مرتبكة. هذا هو المبدأ، والآن بعد المبدأ نتكلم عن الاستراتيجيات. وأنا موافقة، ليست هناك مقاومة مسلّحة دون مقاومة إعلامية وثقافية ومفهومية وأخلاقية وقيمية وهذا مستحيل. المسألة المطروحة اليوم هي: كيف تتمكّن المقاومة بكلّ هذا التنوّع في ميادينها من دفع الانقسام العمودي العقيم غير القادر على توليد آليات تجاوز نفسه، كيف نتمكن نحن من جعل هذا الانقسام بإدراك الآخرين، وهنا أتكلّم عن المجتمع لأنه ليس بيئة واحدة، بل هو متعدّد. على المقاومة اليوم أن تفكّر هي وبيئتها بأدقّ التفاصيل، وبكلّ سلوك وبما نصرّح به وبشعاراتنا وبخطابات قادتنا لنستهدف كسر الانقسام العمودي العقيم، ونستهدف بالمعنى الشعبي كسر الآخرين الموجودين في الجناح الآخر لهذا الانقسام أو أجزاء منهم إلى مفهومنا، ولهذه المسالة اشتراطات يجب مناقشتها.

أما في حرب الإيديولوجيات، فهي موجودة منذ أن وُجِد الإنسان، أنا أقول: يجب أن نناقش المسائل الواقعية الملموسة لأنها تفاصيل تضيع في النهاية إذا كانت المبادئ موجودة، تفاصيل الحرص على وجود المقدار نفسه من الإتقان في الإعلام كما في العمليات العسكرية أو القدرة الأمنية، كل ذلك هو ما يجعل من حالة المقاومة حالة جاذبة، لأقول أخيراً: إنّي متأكّدة أنه بحال وجود سجال وصراع يومي مع بيئات مختلفة جداً أن ذلك هو في عمق البشر المحيطين بنا. لقد أخمد في أعماقه طموحاً موجوداً عند الجميع إلى تغيير

هذا الواقع لأنه مُزرٍ ومهين. وأقول لكم: إنّه يخاطب في سريرتهم مكاناً موجوداً في ضمير كل عربي وكل مسلم وكل حرّ في العالم، هذه هي مهمّتنا. وشكراً.

مهى أبو خليل مؤسسات الإمام الصدر

تعقيباً على ملحوظة د. شهّال حول مساهمة المرأة، رأيت من واجبي أن أسألها شخصياً حول دور ومساهمة المرأة في المقاومة بدءاً من الحالة الفلسطينية وصولاً إلى الحالة اللبنانية.

د. نهلا:

هذا الموضوع جداً مهم، أقول لكم وأعتقد أنّ في القاعة فلسطينيين يمكن أن يشهدوا لمصلحتي على ما سأقول، لولا النساء لتبدّدت النكبة والقضية الفلسطينية في لحظة. لنتصوّر مجتمعاً مقتلعاً بكامله، من الذي احتضنه، ومن الذي شكّل له بديلاً عن مأساة لم تكن متوقعة؟ أنا أعرف الكثير من النساء الفلسطينيات، وأقول: ليس لدي أي حامل دكتوراه أن يكون له ذلك الوعي وذلك الإدراك وتلك الصلابة، لولا النساء في العراق أثناء سنوات الحصار مثلاً الذي فرض عليه احتضنت واستولت النساء العراقيات على المجتمع العراقي واحتضنته وجعلنه بعيداً عن الانهيار الكامل، كما كان ينوي مقيمو الحصار. ولولا ما رأيته من ابتسامات رضا وصفاء على وجوه النساء الموجودات في المدارس أثناء العدوان الأخير على لبنان، ثم أكتشف أن واحدة من الشابات الموجودات معي في الأوتيل هي زوجة مقاوم وعمرها عشرون سنة ومعها طفلها صغير تحتضنه، كانت صلبة بكل معنى الكلمة، هذا ليس دوراً إسنادياً، بل هو دور أساسي، ولولا هذا الموقف من النساء لما وصلنا إلى هنا. وشكراً.

الشيخ غازي حنيني:

نشكر الإخوة الأفاضل على هذه المداخلات، وربطاً بين العنوانين حول مفهوم الشهادة وسيادة العدالة أسئلة أطرحها انطلاقاً من قوله تعالى: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾**[1].

هل من العدالة أن يستشهد الشهداء الذين قدّموا دماءهم وأرواحهم من أجل تثبيت

---

١ - سورة الأحزاب، آية ٢٣.

العدالة بردع الظلم والظالمين واستحقاق حقوق المظلومين، ثم بعد ذلك تضيع دماؤهم وينتهي أثرهم بأن يسود الظلم ويسود الفساد في الأرض، والشواهد على هذا الأمر في أقطارنا العربية والإسلامية منذ ما بعد سقوط الخلافة حتى عصرنا اليوم كثيرة ولا يمكن أن أتوسّع في ذكرها، السؤال بين يدي أحد المحاضرين من شاء منهم. وشكراً.

سعدى القاضي:

أشكر كلاً من المحاضرَين على ما قدّماه من مفهوم الشهادة وما قدّماه من كلمات، يقول الإمام الحسين (ع) في حديث يوجّهه إلى كل الأمة: «إذا لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد كونوا أحراراً في دنياكم».

ما دامت كل الأديان تنادي بمفهوم الشهادة والاستشهاد والمقاومة، لماذا لا نرى مثل هذه الثقافة في بقية الأديان وفي بلد متعدّد كلبنان؟ لماذا كل الأديان تقف عند حدود هذا المفهوم وتعتبر أن المقاومة هي فعل إرهابي كما يسوّق له في الخارج اليوم؟ وهل يصبح الفعل المقاوم إذا لم يكن هناك من معاناة لم يكن له مثل هذه الثقافة. وشكراً.

مهى أبو خليل: مؤسسات الإمام الصدر.

مع الشكر للأستاذ دهقاني نلاحظ أنه تفضل بالدعوة إلى إيجاد ميثاق للمقاومة، ولكنه لم يذكر لنا مفهومه حول هذا الميثاق. وشكراً.

سؤالي لسماحة الشيخ:

تحدّث البارحة الأب جورج مسوح في مقام الحديث عن مفهوم المقاومة في الفكر المسيحي، وتحدّث عن الانتظار الإيجابي للمجيء الثاني للمسيح (ع)، وهذا الطرح ينسجم إلى حدّ ما مع الطرح الإسلامي حول انتظار الإمام المهدي (عج) لإحقاق دولة الحق والعدل المطلق. والانتظار الإيجابي لا يكون إلا بالمقاومة، انطلاقاً من إجماع مختلف الأديان على توحيد هذا الطرح الديني ووضع ميثاق للمقاومة لوضع استراتيجية عالمية في مواجهة الاستكبار العالمي. وشكراً.

مسعود أسد اللهي، باحث وكاتب إيراني:

سؤالي للسيد دهقاني، في اللغة الفارسية توجد الكثير من المفردات العربية، ولكن معناها مختلف عن المفردة في اللغة العربية المعاصرة. مثلاً: كلمة (الاستقامة) في اللغة الفارسية هي بمعنى الصمود في اللغة العربية، ولكن الاستقامة في اللغة العربية المعاصرة

تعني السير في الخط المستقيم، سؤالي هو أي معنى للاستقامة تريد قوله من كِلا المعنيين؟

هاني فاخوري: ندوة العمل الوطني

الكلام الذي قيل هو لجمع المواطنين اللبنانيين حول مفهوم المقاومة أو أن تأثيره هو فرز المواطنين دينياً؟ من هو الشهيد في مفهوم المقاومة، ومن هو ليس شهيداً في المفهوم الديني، غير محاضرة المحاضرين الكريمين، تدوير الزوايا حول هذا الموضوع. لكنّي أظنّ وجود مواطنين مسيحيين بين الحضور يؤيدون المقاومة، فهل هذا الكلام يؤدي إلى الجمع أم إلى الفرز. وشكراً.

الإجابات:

أراد أخونا سماحة الشيخ غازي، الإشارة إلى ضرورة حفظ دماء الشهداء ومسؤولية الأمة تجاه الشهداء. والكل يعلم أنه إذا كانت الأمة غير لائقة لحفظ دماء الشهداء تكون شهادة الشهداء عقوبة على الأمة؛ إذ تكون قد فقدت أخيارها وفي فقدهم عقوبة للأمة. نعم لا شك أن مسؤولية الأمة هي حفظ دماء الشهداء. أما حول علاقة مفهوم الشهادة وإذا لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً، هناك ملاحظة وهي أنّ بعض الأشخاص المحسوبين على بعض الأديان يعتبرون المقاومة إرهاباً، أجزم أنّ مفهوم المقاومة مقدّس عند جميع الأديان ولكن التشويش يأتي من خلال البُعد السياسي العدائي، ومن ينكر شرعية مقاومة ما فهو ينكر سياقها، أما مفهوم المقاومة كمقاومة، فلا يمكن لأحد أن ينكر قيمة المقاومة وقيمة الشهادة.

أما حول الانتظار الإيجابي، فنحن نتلاقى مع المسيحية في موضوع الانتظار. نتلاقى مع الضمير الإنساني؛ لأننا نعتقد أن كل ما يجري بمعزل عن كل النقاشات. أنا كشخص ينتظر مخلّصاً، لا أشك في أن الانتظار الحقيقي هو استعداد الأمة، وفي قدرتها على تحمّل المصاعب والبلاءات وخروجها منها قوية إلى مزيد من الكمالات والرقي. وما نراه في بعض المجتمعات، وفي بعض الدوائر العالمية من سعي لمواجهة الاستكبار العالمي هذا أيضاً يصب في بحر الانتظار، فإذا بلغت الأمة استعدادها للتضحية في سبيل العدل فهذا من العوامل المسرّعة للظهور.

أما السؤال الأخير فهو مهم جداً، لقد أتاني هذا الهاجس، وأنا أشترك معه بأنه ربما يكون هذا البحث له بعض الآثار الجانبية لكن المعتقد الديني مفتوح حتى على غير المسلمين

في التضحية، وبالتالي يمكن لي كمسلم أن أعترف بشهادة وقيمة تضحيات غير المسلم، وبالتالي لا أحصر القيمة بالمسلم ولا أفرز كل المستوى القيمي وهذا أتركه لله تعالى.

السيد دهقاني:

بسم الله الرحمن الرحيم، مع الشكر للسيدة نبيلة صعب فتح الله، نحن ما زلنا في حال بناء الجسور، عندنا مشاكل في الدول الإسلامية والعالم الإسلامي أكثر بكثير. إذا وصلنا إلى هناك سوف نطرح هذا الموضوع، نحن لن نقبل بالذل والظلم، ولكن بعض الإخوة يطرحون فكرة التمييز بين الأرض التي احتلت عام ١٩٤٨ وتلك التي احتلت عام ١٩٦٧.

- أريد من جنابكم توضيح وتحديد أي ثوابت وأي أسس ننطلق منها وإلى أين نصل وكيف نحاكم هذه النتائج.

وبالنسبة لجناب الدكتور عصام، ففي الحقيقة إن ما تقدمتم به هو دراسة نظرية وافية فيما يتعلق بموضوع الشهادة، هناك تفاعل شعبي كبير جداً من جميع أقطار العالم العربي والإسلامي ولكنه مهما ارتفعت حرارته لا تلبث أن تبرد، لا توجد هناك الأطر العملية التي تستطيع أن تحشد هذه المشاعر والأحاسيس وهذا الحب للمقاومة في مشروع عملي ينتج فعلاً المقاومة. ومشاريع الاستعمار من حولنا دائماً في تطور ونحن لا نملك دائماً إلا التعبير النظري في أكثر الأحيان. وشكراً.

هاني فاخوري:

لقد حصرتم المقاومة بكونها مسلّحة، بينما مقاومة غاندي والمؤتمر الهندي التي هزمت الإمبراطورية البريطانية، كانت بشكل غير مسلّح هذا يساوي ما تعارفنا عليه بمقاومة التطبيع، ففي مصر مثلاً، معاهدة كمب دايفيد لكن الشعب يقاوم هذه المعاهدة، وحتى أن المبادرة العربية سلاحها الوحيد هو مقاومة التطبيع مع إسرائيل ولو أن هذه المبادرة قد يعتقدها الكثير من المواطنين العرب تراجعاً كبيراً أمام مطامع العدو الإسرائيلي، فهل المقاومة هي المسلحة فقط؟

أما المسألة الثانية المتعلقة بلبنان فهي الصيغة اللبنانية نفسها التي لا تسمح بتعريفكم المقاومة للمواطنة أن تكون واقعاً في لبنان، لا يستطيع الإنسان اللبناني أن يكون مواطناً لبنانياً، إلا من خلال طائفته أو مذهبه أو دينه، أما المواطنة كما عرفتموها وأنتم مدركون أن لا وظيفة ولا منصب سياسي وزاري لا يستطيع المواطن اللبناني أن يكون مواطناً حسب

تعريفكم لأن الصيغة اللبنانية تمنع ذلك فما العمل؟ وشكراً.

هيفاء مرتضى صايغ: مؤسسات الإمام الصدر.

سؤالي للأستاذ زاهر الخطيب، هل لاهوت التحرير يطلق على حركات التحرّر في العالم أم في المسيحية فقط أم أنه حالة تنطبق على جميع الشعوب التي تتعرّض للظلم؟ وهل يمكن للمقاومة الإسلامية أن تكون حالة لاهوت تحرير في العالم العربي كافة؟ وشكراً.

مداخلة:

في التعليق على موضوع الشهادة، قال أحد المحاضرين: يمكن اعتبار من آمن بشيء وحارب وقتل من أجله يمكن اعتباره شهيداً، واعترف بأن هذا المعنى ضعيف، ولكن أريد تأكيد ضعف هذا المعنى إن المسيحية هي دين المحبة والإسلام دين الاستقامة ويقول المسلم كل يوم ﴿**إهدنا الصراط المستقيم**﴾ معناه أن القيمة والنية قبل العمل ولا قيمة للعمل بدون دافع، إذا كان الدافع نظيفاً كان العمل نظيفاً، وإذا كان الدافع غير نظيف فإن العمل يكون بالطبع غير نظيف، لا قيمة للأعمال الخارجية بدون عقيدة، ثم إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم، إذن لا يمكن اعتبار الشهيد شهيداً، إلا إذا كانت عقيدته صحيحة ثم استشهد من أجل هذه العقيدة الصحيحة، وأما أن يكون الإنسان معذوراً عند الاشتباه والجهل فهذا يعفيهم من العقاب. وشكراً.

إجابة الأستاذ عصام:

أبدأ بما تفضّل به الأستاذ هاني فاخوري بالنسبة للمواطنة بأنه لا يمكن أن يكون المواطن مواطناً إلا من خلال مذهبه أو دينه أو حزبه، أنا أختلف مع الأستاذ هاني في هذا، وقد يصح هذا النظر وهذا الرأي في خلال الخمسين سنة التي مضت، نحن اعتدنا دائماً على التقسيمات، فإمّا أن تكون حزبية، وإما أن تكون دينية، ولكن الحقيقة أن ما فعلته حرب ٢٠٠٦ أنها أعادت تقسيم الأمور من جديد هذا يقف في خندق المقاومة وهذا يقف في خندق آخر. أي أعيد التقسيم مرة أخرى. لكن كيف يستثمر هذا التقسيم الجديد من أجل مصلحة الأمة؟ على المقاومة والمقاومين أن يقوموا بتفهيم الناس وتعليمهم.

وفي ما يتعلّق بالمشروع العملي على مستوى العالم العربي عند الشعوب ومشروعات المقاومة عندهم، وأثناء الحرب الأخيرة ٢٠٠٦ كانت هناك حركة شعبية قوية جداً، وفي ما يتعلّق بالشهادة، لا ليس كل من قُتل لأي سبب فهو شهيد. وشكراً.

- إجابـة المحاضـر الثـاني د. حسن جوني

بالنسبة للأخ مصطفى حول ما إذا كان هناك ثمة ثوابت للانطلاق، والأستاذ فاخوري حول ما إذا كانت المقاومة المسلّحة هي فقط المقاومة التي ينبغي أن نفهمها والسيدة مرتضى صالح حول لاهوت التحرير:

في ما يختص بالمنطلقات، لا بدّ من منطلق وفي هذا المعنى حاولت إيجاد المنطلق الواحد الموحّد للأديان السماوية وللمجتمعات الأرضية؛ بمعنى أنّ الفهم الجوهري للموقف المقاوم واحد؛ بمعنى إذا شئنا أن نأخذ الإسلام هناك آيات تؤكد على الجهاد ومقاتلة الطغيان والاستكبار، لكني حاولت أن أحيط بما يلتبس عند المسيحية، جئت لأستشهد بلاهوت التحرير كفهم جديد للكنيسة بما أنها قد تكون في الشاعر أو تحت شجرة الزيتون، وللمقاومة والخلاص فهم جديد رمز إليه السيد المسيح في أن الخلاص رمز مقاومة الاستبداد، وبهذا المعنى ليس كل من ضربك على خدك الأيمن فأدِر له الأيسر، هذا تفسير آخر للمسيحية، أما جوهر الموقف فهو أن لا تقبل بالاستبداد والظلم.

ويحق للإنسان أن يلجأ وفق المجمع الفاتيكاني إلى الكفاح المسلّح شرط المحافظة على أخلاقية الوسائل باعتماد الوسائل المسلّحة. إنّ قوة النموذج في القيم الأخلاقية التي قدّمتها المقاومة وأن لا تسفك نقطة دم واحدة ضد عميل لا مثيل له في تجارب الشعوب كلها. ونعم المقاومة المسلّحة هي السبب الرئيسي الأوحد الذي ينبغي أن تكون في خدمته سائر المقاومات، ويستطيع الاحتلال الصهيوني، أو أي قوة غازية مستبدة هي على استعداد للتعايش مع أي شكل من الاحتجاج الشعبي والثقافي، هي ضرورية ولكن يجب أن تكون في خدمة المقاومة المسلّحة.

إن قيمة الشهادة تكمن في الدفاع بالسلاح عن الحياة، وليس أن ندافع عن السلاح بالحياة. وقدسية السلاح تنتج من القيم التي يدافع عنها السلاح. للمسألة الغاندية ظروف لا تستبعد ضرورة اللجوء إلى العصيان المدني وشلّ الدول لكن تتقاطع لتشكّل استثناءً وليس قاعدة.

هناك قرار صادر عن الأمم المتحدة رقم ٢٦٢٥ سنة ١٩٧٠ ينص أن على الدول الامتناع عن التهديد باستخدام القوة، ويقول أيضاً: لا يجوز الاعتراف بشرعية أي اكتساب ناتج عن تهديد استعمال القوة في هذا الموضوع.

مبدأ آخر تستمد منه المقاومة شرعيتها هو حق الشعوب بتقرير مصيرها، وأشار الدكتو زيد شكر إلى ذلك. عندما تعطي الشعوب حقها في تقرير مصيرها، فكيف تقوم بذلك هل بالتفاوض؟ لا بدّ من استعمال القوة.

قواعد القانون الدولي العام، مادة (٤ أ ٢ جاءت في اتفاقية جنيف في الفقرة الأولى) ٤ أ ١ تتحدث عن الميليشيات والوحدات المتطوّعة.

وتتكلّم أيضاً عن الميليشيات الأخرى وحركات المقاومة.

هي وضعت عدة شروط: شروطاً موضوعية وشروطاً ذاتية.

الشروط الموضوعية:

١- يجب على المقاومة أن تكون منظّمة، وبالتالي فهي إن لم تكن منظّمة فهي غير شرعية.

٢- يجب على المقاومة أن تنتمي إلى أحد أطراف النزاع.

المقاومة لا تذهب كفريق في القانون الدولي العام، بل كجزء من فريق تابع، وهي مهمة في الحديث عن مشروعية المقاومة.

وهل هناك في التاريخ مقاومة حصلت على إجماع شعبي؟ بل هي تبدأ بأقلية ثم تمتد.

٣- أن تعمل داخل أو خارج الإقليم.

الحديث اليوم أنه هل يحق للمقاومة أن تعتقل جنوداً من داخل أو خارج الخط الأزرق؟

رجعت إلى مرجع رسمي صادر عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر تشرح هذه النقطة وتقول: داخل أو خارج الأراضي المحتلّة أو غير المحتلّة وأيضاً أراضي العدو وأكثر من ذلك سماء العدو وبحره وفي أعالي البحار. إذن، هذه حجة في القانون الدولي العام. على المقاوم أن يُشهر سلاحه وأن يكون له مسؤول عنه، وأن يلتزم بتطبيق قانون الحرب.

اليوم جاء البروتوكول الأول فيما بعد، حركات التحرر لها وضع مختلف؛ لأنها مشروع دولة وليست فريقاً في النزاع، أتى القانون الدولي، واعتبر أن حركات التحرر التي تعمل:

١- ضد الاستعمار.

٢- ضد الاحتلال.

٣- ضد نظام عنصري.

تقوم بحرب لها طابع دولي.

يبقى موضوع شرعية المقاومة اللبنانية. للأسف، بعض المنظّمات الدولية وغير الدولية لأول مرة تطرح على بساط البحث هذا الموضوع. إسرائيل ترفض تطبيق إتفاقية جنيف على الفلسطينيين وعلى اللبنانيين باعتبارهم يمارسون الإرهاب.

هناك في القانون الدولي ما يسمّى بالأعمال الإرهابية لكنها لا تنزع الشرعية إذا قامت بها دولة أو جيش نظامي أو جيش غير نظامي، هي جريمة حرب بمعزل عن مرتكبها. وشكراً.

المستشـارة نبيـلة صعب فتـح اللـه:

نظراً للحضارة العربية والإسلامية التي سبقت الحضارة الغربية، ألا ترى أنّ هذه الحضارة قد أخذت من الأولى؛ حيث نرى الغرب غير الهوامش فحسب، وليس الأصل؟ لذا من الصعب القول: إن الغرب لا يفهم الشرق، بل إنّهم لا يريدون هذا الفهم. من ناحية ثانية نرى أن الحرية والمساواة والديمقراطية بالمعنى الدقيق للكلمة هي واحدة. أنا كخبيرة في علم النفس الاجتماعي أرى أنّ الكلمة يمكن تفسيرها حسب التفسير النفسي للشخص، حتى وإن كان الإنسان في نفس المكان مما يدل على نفسية هذه الكلمة. هل المفروض أن تغيّر الأمم المتحدة هذا المبدأ؟

الإجابـة: السيـد كروك

الاحتجاج على الغرب بأن المقاومة متناغمة مع المعايير القانونية؛ لأن النظام الدولي أسَّس لإعداد الدولة الأمة، وهذا القانون يقول: إن أي أمر ترتكبه الدولة الأمة فهو صحيح، وأن المقاومة العنيفة من قبل أي طرف أو أي دولة هو غير شرعي وغير قانوني، أعتقد أنه من الأفضل في ما يتعلق بالشرعية أن نشكِّك في مسألة سيادة شرعية الدولة الأمة، وهو ظاهر ونراه في أفغانستان والعراق وكل مكان آخر، ونشكّك بقانونية أفعالهم ولماذا هي غير قانونية عند غيرهم.

يفترض الغرب أن له الحق باستعمال القوة والأعمال العسكرية ضد البلدان غير المتحضّرة؛ لأنهم قد زوّروا، لذا ليس من المفاجئ أنهم لا يحققون إلا ما يريدون.

بما يتعلق بمسألة الشرق، أعتقد أن انعكاس حول كيف ينظر الغرب إلى السلطة، نحن لم نعد نستخدم لغة في محاولة معرفة ما يحصل في العالم الإسلامي والمجتمعات

الإسلامية، نحن نستخدم لغة خاصة للتقليل من هوية المسلمين عموماً.

لذا، اللغة أصبحت جزءاً من فرض السلطة ولم تعد مجرّد فهم، بل هي تحاول أن تقول: إنّ هؤلاء هم إرهابيون وليس لديهم قيم، ومحاولة لتدمير هوية هؤلاء. لذا نحن نحاول العثور على لغة للمقاومة تستطيع أن تواجه لغة فرض الهوية التي تحاول تفكيك هذا الأمر. وشكراً لكم.

د. حسن جوني

أنا أوافق السيد كروك على أن القانون الدولي العام هو صناعة أوروبية، ولكن بالرغم من أنّ هذا القانون هو صناعة غربية، فهو خاضع لميزان القوى في العالم. منذ وجود الاتحاد السوفياتي وإلى سقوطه استطاعت الشعوب أن تدخل إلى هذا القانون وتضع لها بعض القواعد، مثلاً المادة الأولى فقرة ٤، جاءت لتشرّع الحق بمقاومة المستعمر. إذن، بشكل عام استطاعت الشعوب أن تنتقل من مرحلة عندما كانت كل ما تقوم به هو عمل إرهابي وأن تضع عبر ميزان قوة جديد آنذاك أن تدخل إلى هذا القانون وتحمي نفسها. عندما سقط الاتحاد السوفياتي أن تعود الولايات المتحدة وتعتبر كل شيء إرهابي. وشكراً.

سؤال للسيد كروك

الحضارة الغربية في نكران هذا البعد الديني والروحي ورفض الآخر، إلا أنها تشيّئ الإنسان، حتى للمستضعف الموجود في الغرب نفسه.

ثانياً: أنت تنظر إلى الزمن أنه ممتدّ، فأنا أرى أن الزمن هو متوقف بالنسبة للمشروع الصهيوني، وبالنسبة للولايات المتحدة الأميركية، إذن، هم يقولون: بوقف الزمان لا بامتداده.

نحن ربما نستطيع أن نقارب بين اللغات. أنا أعتقد أن الأزمة ليست بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية، إنما هي بينهما معاً، وقد أصبح الصراع بين الشركات المتعددة الجنسيات والحضارة الإنسانية. يجب أن نقوم بتأطير مقاومة فعلية لهذه الحالة. وشكراً.

– أحيّي حضرة العميد على محاضرته في ما يتعلّق بالمواطنة، مع أنه لم يحدّد أين هذه المواطنة في الحيّز المكاني ولم يحدّد المقاومة في حيّزها المكاني. نظن أنّ المواطنة هي في لبنان، والمقاومة هي في لبنان. إذن، نحن أمام حالة قائمة وليست ماهية يجب نقلها إلى

الوجود كي ننظّر لها من أجل أن تنتقل إلى الوجود. المقاومة قائمة وأنجزت إنجازات تاريخية مهمة جداً. وهناك إشكال حول المواطنة في لبنان. وأنا أتصوّر أن كلمة المواطنة ليست قريبة لا من حيث اللغة ولا من حيث إمكان التطبيق. ربما تكون المواطنة باعتبارها فعل مواطن في حيّزه الاجتماعي أقرب إلى الصواب من المواطنة، لأن المواطنة تعني السكون، هناك حضور ساكن لهذا الإنسان في المجتمع.

نحن أمام منجز تاريخي ينبغي أن يُنظَّر له؛ أي أنّ الحدث أتى قبل التنظير، لكن حقيقة الأمر أن هذه المقاومة بدت يتيمة على مستوى التنظير الفكري، وكونها أنجزت هذا التنظير هي مؤهّلة ومستعدة ولديها قابلية غزيرة لإنتاج الأفكار والمفاهيم. ليس بالضرورة أن نعود إلى كلاسيكيات الحداثة الغربية ونستنتج منها كل هذه المقولات، وأنا على يقين أنّنا لن نصل إلى نتيجة على الإطلاق لإمكان تطبيق المفاهيم الغربية بحسب واقعه الخاص.

يجب أن نضع إطاراً للمواطنية والمقاومة في الحيّز اللبناني، حتى نعرف كيف يمكن أن نصوغ نظرية المواطنية والوطنية في لبنان بناءً على مقاربتها مع المقاومة في لبنان. وشكراً.

الطاولة المستديرة:

د. نهلا:

أنا أريد معرفة ما هي وظيفة هذا الاجتماع؟

أنت حضرة العميد لا تحاضر هنا ونطرح نحن عليك الأسئلة، أنا فهمت أنّ هذا النقاش لتحضير الندوة المقبلة، فلا يفترض إلا أن نبلور انطلاقاً من اقتراحك خطوطاً عامة.

قال الأخ: إننا بصدد إنتاج ندوة من هذه الندوة وهي مسألة جديدة، هذه المسألة ليست بجديدة ومن يغص في علم المنتديات الاجتماعية يعرف أن هناك ما يسمّى بالتفاعل والتراكم المستمرّين.

كنت أتمنى لو أنها طرحت الإشكالية لمناقشتها، وعلينا أن نفكّر كيف تُثار الإشكالية لكي نناقشها. ما يحدث في العراق يفترض به أن يكون حركة تحرّر وطني، وهو عاجز عن ذلك، أنا أقترح أن نحضّر لندوة قادمة بهذه الطريقة المتراكمة بشحن أفكارنا لنقول كيف

نقدّم الإشكالية وكيف نتعامل معها.

من المجدي فعلاً مع التواضع أن لا ننطلق من فرضية أن الفكر الغربي الحديث هو فكر عالمي. لديّ أصدقاء مفكّرين في الهند واليونان وأميركا اللاتينية يقولون: هناك تيارات فكرية عديدة يمكن أن توصف بالعالمية. يقول الفكر الغربي الحديث الدولة تحتكر العنف، فجأة صدرت مقالات في الصحف اللبنانية والعالمية تقول على حزب الله تسليم سلاحه، حتى تحتكر الدولة العنف وحتى تطبق المقولة العالمية. أميركا في العراق تتحدث عن ديمقراطية المكوّنات، وهم مستعدون فجأة أن يقيموا توليفة تلفيقية على مفهوم الديمقراطية القائم على مسألتين: الفرد وأن الدولة مُنتج من المجتمع.

يجب أن ننطلق من أننا نحاول بلورة المفاهيم، وهذا جهد ونحن لدينا مشكلات كثيرة في هذا الأمر. لماذا لا نحاول أن نقول: ما هي المفاهيم التي نريدها من المخزون الفكري؟ وهو مجهود يحوي الإبداع الكبير. وشكراً.

د. عتريسي:

أنا أميل إلى عدم البقاء على ما ورد في الورقة مع الشكر لما بذلته من جهد، لكنه في الحقيقة جهد نظري أكاديمي، أريد أن أنتقل منه إلى الواقع باعتبار أن المشكلة المطروحة هي مشكلة لبنانية: علاقة المقاومة بالمواطنة أو بالمواطنة مشكلة مُثارة.

أعتقد أنّ المشكلة المطروحة هي التالية: إذا كان من مواصفات أي دولة لها سيادة، ومن حق أي دولة أن تكون لها سيادة وبالتالي حقها هو بالحماية من الاعتداء. نحن في لبنان منذ قيامه واحتلال فلسطين، هناك قسم كبير من اللبنانيين بشكل خاص وباقي اللبنانيين بشكل عام لم يتمتّعوا بالحماية من الاعتداء الإسرائيلي. نشأت المقاومة في مراحل مختلفة وصولاً إلى المرحلة الحالية.

هل يمكن أن نعتبر أن دفاع المقاومة عن اللبنانيين عموماً، وعن من يتعرّض للاعتداء خصوصاً طوال السنوات الماضية هو حماية لمواطنية هؤلاء؟ وهذا فعل من أفعال المواطنية يجب التمسك به والدفاع عنه في مواجهة أسئلة كثيرة تشكك بهذه المسألة.

نحن في لبنان لدينا إشكالية مواطنة وهي مطروحة عند كثير من الباحثين والمفكّرين في مختلف اتجاهاتهم وانتماءاتهم ومن الواضح دائماً بروز مسألة الطائفة على مسألة المواطنة فكيف تكون في مثل هذه الحالة تعبيراً عن المواطنة وليست تعبيراً عن مذهبي أو

ديني أو عصبي خصوصاً في أزمات سياسية معينة؟ كيف يمكن عطفاً على الفرضية الأولى أنها تحمي المواطن؟ كيف يمكن أن تتخلّص من الإشكال الثاني وهو مطروح في لبنان؟

الإشكال الثالث: هل يمكن للمقاومة التي تحمي المواطن من الاعتداء الخارجي، هل يفترض بها أن تحمي المواطن من الظلم الداخلي واستبداد الدولة أو من الفساد في الداخل؟ هل هذا أيضاً من فعل المقاومة باعتبار أننا إذا وافقنا على التصنيف الأول، فهل يحق لنا في هذا التصنيف الثالث حماية المواطن من الظلم والفساد والانحراف أم أنه غير منوط بالمقاومة؟ هناك اعتراض واتهام للمقاومة على الساحة اللبنانية فهل لها الحق وهل يجب أم لا يجب؟ نتركه إلى السنة القادمة. وشكراً.

الشيخ حسين غبريس:

هناك سؤال أساسي أني ألاحظ وجود محاولة لحصر موضوع المقاومة بالواقع اللبناني، فهل نحن أمام هذا الموضوع أم لا، أي أن نستطيع أن نفعل شيئاً وأن ننظّر لنظرية متكاملة، فمن الممكن بعد فترة أن ينشأ ظرف مشابه لظرف لبنان في بلد آخر، فهل هذا التنظير خاص بلبنان أم لا؟ لأنني قد أفيد الشعوب الأخرى فأقدّم لها نموذجاً، إذن إذا كان مختصاً بلبنان فمن يحدّد عجز السلطة وكيف يتم عجز السلطة؟ وشكراً.

أ. وليد

إن معنى الوطن والمواطنية هو أن يتمكّن الوطن؟ الدولة من تأمين أمن المواطنين، الأمن الاقتصادي والغذائي والبيئ، هل دولنا قادرة على تأمين هذا لمواطنيها، أم أنها قُسّمت ووُضعت بطريقة لتأمين هذا لمواطنيها ولتبقى دائماً بحاجة للآخر الذي أوجدها ويتولى الأمر من يتبعه. يجب على الدولة أن تكون قادرة على تلبية حاجات المواطن، ودولنا غير قادرة على هذا الأمر.

نحن نناقش الأمور بعدما يتجاوزها التاريخ، فنحن الآن نتناقش بالأوطان في حين أنّ العولمة لها مفاعيل عديدة. الدولة المركزية التي قامت على أساس عرقي إثني عنصري جاءت على حساب الإسلام الذي كان يطرح دولته على أساس متجاوز للكيانات الإثنية والمسيحية. التطور جعل الكل يحافظ على ثروة في يد الرأسماليين المتحكّمين بهذه الحدود. نحن في ظرف يتم فيه تجاوز الدول موضوعياً ونضع عدة أمثلة، ونحن في واقع الدولة الإثنية تفكّك الدول القائمة عندنا كإيران ولا تعطي للدول قوة، فالمواطن في الخليج يعيش

حياته مرفّهاً ومرتاحاً بينما في مصر المجتمع معرّض للتفكّك. الإجابة على هذه الأسئلة تعطي إمكانية للحديث عن الوطنية والمواطنية.

أخيراً: أعترض على العنوان؛ لأن المقاومة غير مسؤولة عن تأمين حاجات المواطن وطرح المواطنة والمقاومة طرح خاطئ، على المقاومة أن تضرب مشروع التجزئة وأن تؤسس لمشروع جديد قائم على أساس التوحّد والتقدّم والتحرّر من الهيمنة. وشكراً.

أ. دهقـاني:

هل ينبغي علينا هنا أن نتباحث حول موضوع وندقّق فيه مثل المؤتمر؟ وهل يمكن لمثل هذا العنوان أن يكون صالحاً لمؤتمر قادم؟ وكيف نستطيع أن نطرح أسئلة ونجيب عنها في المؤتمر القادم حتى لا يبقى السؤال ولا نغطيه ولا نتناوله في المؤتمر القادم؟

هل يجب أن نصل إلى مفهوم قريب للمواطنة وللمقاومة؟ هل أن المقاومة هي حقّ أم صلاحية أم واجب؟ هل يختلف الجواب. إذا قلنا: إنها واجب فقد أدخلناها في الأحكام التكليفية، ولذا يجب أولاً أن نصل إلى مفهوم مشترك للمواطنة والمقاومة.

ثانياً: ينبغي أن نعرف هل هناك تعارض أو تناقض بين المقاومة وبين المواطنة أم لا؟ قد نصل إلى درجة وإلى مفهوم أنه لا يوجد هناك خلاف بين المواطنة وبين المقاومة عندئذٍ لماذا نتباحث؟

علينا أن نصل إلى مفهوم مبدأ الحق في المواطنة ومبدأ الحق في المقاومة. البعض يقولون: إن المقاومة هي حق طبيعي في مقابل المواطنة. أنها حق مدني ومكتسب، لذا نصل أن الحق الطبيعي مقدّم على الحق المكتسب، يجب عندئذٍ أن نسأل هل يمكن أن يكون منح المواطنية للمقاومة لا أن نقول: هل يمكن للمقاومة أن تمنح المواطنية؟

ثم نصل إلى أن الذين لم يصلوا إلى مفهوم مشترك في كيفية الدفاع عن الوطن والمواطن كيف نستطيع أن نتباحث عن المواطنية في هذا الوطن؟ هل الاتفاقيات التي وضعناها هل لا زلنا متفقين عليها أم لا؟

الحروب الداخلية تحصل عندما تتغير موازين اتفاقيات بين القوى في الدول، متى تحصل حرب داخلية عندما تصل مجموعة بشرية في داخل المجتمع إلى معايير مخالفة لما كانت تؤمن بها هذه المجموعة منذ سنة ولديكم مثال وهو اتفاقية الطائف.

أخيراً: يجب علينا أن نسأل أولاً هل أنّ المقاومة هي جزء من المواطنية أم لا؟ عندما وصلتم وأتفقتم على ذلك عندئذٍ تستفيدوا.

وأنا لا أوافق مع تكملة التعريف التي يقول: المقاومة هي ممارسة المواطن لحق مشروع (حتى يصل إلى) إذا ثبت عجز السلطة وفشلها. المقاومة حق مستمر عندما تأتي يعني أنه إثبات من قبل السلطة عليها، فإذا استطعت أن أدافع عن نفسي انتهى الأمر، وإلا فعلى السلطة أن تدافع عني.

أيضاً لست موافقاً على التفريق بين الدفاع في مقابل الهجوم الأجنبي والحروب الداخلية، يجب أن نركّز على الحرب الأجنبية على البلد، وهذه المواطنة هي علاقة تقوم بين أفراد مجتمع ما ارتضوا التعايش والعيش المشترك في إقليم معين. هذا القسم ليس منطبقاً على مجتمعنا. فنحن لسنا مجتمعاً واحداً اتفق أهله على العيش المشترك حتى أنه لا يوجد لدينا إقليم مشترك. وشكراً.

د. أدونيس عكرة

أتمنى في المؤتمر المقبل أن تستخدم كلمة (مواطنية(لا)مواطنة)، وهناك أسباب عديدة. من المفيد أننا نوجّه كيف سيكون مخطط المؤتمر المقبل وملاحظة د. نهلا جيدة. لن أدخل في نقاش نظري إلا ضمن حدود ما يمكن أن يؤثر على استنباط محاور وقضايا قد تدخل في المؤتمر المقبل.

أريد أن أتوقف عند تعريفك حضرة العميد للمواطنية، وأظن أنه يستوفي الجزء الكبير من مضمون المفهوم التام ولكنه غير كافٍ ليؤدي مضمون المفهوم التام للمواطنية. أعتقد أنه تنقصه فكرة أنّ المواطن هو مصدر السلطة وصاحب السيادة، أظن أنك تعتقد أن الحقوق التي سردتها هنا مستوفاة شروطها، أعتقد أنها لا زالت غير مستوفاة للشروط، فمشاركة المواطن بتولية السلطة الوطنية، ومشاركته في إدارة الدولة، فهذا لا يكفي.

من يعطي الشرعية للمقاومة؟ إذا كان الحاكم هو من يوزع الحقوق على الناس فلن تكون مقاومته من قبلهم شرعية أما إذا كانوا هم مصدر السلطة عندئذٍ يستطيعون أن يستردوا سلطتهم متى شاؤوا. من الضروري أن تدخلنا هذه النقطة في مسألة الشرعية. وشكراً.

د. غسان طه:

انطلاقاً من مفهوم السيادة أتصور أن موضوعة المواطنة والمقاومة لا زالت قائمة للطرح وللنقاش في المؤتمر القادم. هناك إشكالات قد تطرح، فقد ذكرتم أن هناك حقوقاً طبيعية وحقوقاً مدنية، وحق الدفاع عن النفس هو حق طبيعي للإنسان، ويتحول بعد ذلك إلى حق مدني. لكن لم يذكر مسألة الدفاع عن الأرض، فعندما أتعرّض للخطر هناك حق طبيعي في الدفاع. لكن الدفاع عن الأرض، هناك دول مترامية الأطراف فإذا احتلت أرض كالجزائر أو أكثر.

لفتني في كتاب للدكتور أدونيس أن هناك تربية على المواطنية، المواطنة التامة كما ذكرت هي عنصر أمان وليست عنصر تفجير، لكن لنطبق المواطنة التامة في دول لا تزال فيها المقوّمات الاجتماعية تقليدية تفرز عصبويات جديدة، هل التربية الدينية تؤسس لقيام مواطنية؟ (وهذه إشكالية أولى).

الشيخ مالك وهبي:

لم أفهم الربط بين الدولة وصدق المواطنة، فماذا لو تخلّفت السلطة عن ممارسة حقوقها وتأمين حقوق المواطنين؟ ما هو تأثير قناعة المواطن بنظام الدولة في مساواته بالحقوق مع الآخرين؟ هل هذه القناعة بالنظام دخيلة في الحقوق؟ يقول الواقع العملي، نعم. ربط المواطنة على التوافق على إقليم معين للعيش والتعاون يحتاج للإجابة عن سؤالين:

١- معايير تحديد هذ الإقليم سعة وضيقاً؟

٢- هل هناك خلفية يجب أن تجمع هؤلاء ليتفقوا على خلفية معيّنة أم لا؟ هل يمكن أن نجمع بين الاختلاف في الحقوق وبين المساواة في الحقوق؟

وفقا للتعريف المقدّم عن المواطنة تصبح المقاومة مفردة خاضعة للرفض والقبول، فإذا انطلقنا من هذا التعريف يمكن أن تكون المقاومة مرفوضة، ثم إنه هل يمكن أن تتحقق المواطنة أم لا؟ وشكراً.

عبد الرحيم فخر الدين:

المقاومة قيمة يمارسها كل إنسان ضد الظلم وهي لا بدّ أن تصبح ثقافة تسري في السلوك الإنساني وكي لا تبقى ترفاً عند البعض. أما تعبير المقاومة فهو تعبير ملتبس حتى

الآن، فهل لغير المواطن في بلد معين كالفلسطينيين أن يقاوموا ليعودوا إلى وطنهم؟ هل مفهوم المواطنة ملتبس أم لا؟ أقدّم بعض الإشكالات:

١- هل المقاومة هي مقاومة المسلمين فقط؟ إذا كان الجواب بالنفي فماذا عن الاسم بالذات (المقاومة الإسلامية)؟

٢- هل المقاومة هي مناطقية على مساحة معيّنة؟ أم هي لكل أبناء الوطن؟

٣- هل المقاومة عقائدية أُطُرية وتنظيمية؟ أين أصحاب العقائد الأخرى ومفاهيمهم للمقاومة؟

٤- هل المقاومة مسلّحة وعنفية فقط؟ وأين أوجه المقاومة على الأصعدة الأخرى؟ وشكراً.

د. زيد صفي الديـن:

ما قالته الأخت نهلا أنّ المقاومة لا تستطيع بعد أن تفرز مفاهيم، هل البرلمان اللبناني يأتي برئيس جمهورية؟ المطلوب جبهة عريضة تتجاوز المواطنية.

بماذا تساهم المقاومة في كشف بنية المجتمع الإسرائيلي عن طريق المنار وغيره؟ هل أثارت عندنا أحاسيس ومعرفة معيّنة؟ بنية الدولة. المطلوب برنامج اقتصادي لتسير عليه الناس. وشكراً.

الشيـخ غـازي حنيـني:

كنت أتمنى أن أرى بين الحاضرين والمحاضرين أطرافاً تختلف معنا في المقاومة لنحاورها ونستمع إلى آرائها ونرى ردّ فعلها على كلامنا ورد فعلنا على كلامها أيضاً.

عندما أخذت الورقة من الأخوة برغم أني إنسان ملتزم بإسلامي كنت أقرأ عالمية المقاومة، والسبب هو أن عدوَّنا عالمي بدليل أنّ أميركا لها ٧٥٠ قاعدة عسكرية حول العالم. إذن المقاومة عالمية. فعندما تصبح المقاومة على لسان أبناء أميركا الجنوبية حديث الناس، وعلى لسان أطفال ليست في أجواء المقاومة لا نستغرب أنها أصبحت لسان حال الكثير من الشرائح العالمية.

ليس هناك مفاهيم ثابتة في الغرب، في أميركا في التسعينات طُرحت نظرية دبلوماسية الأفراد، والتي عبَّر عنها كارتر، والأوروبيون والغربيون مفاهيمهم مطاطة. ما أراه: لماذا لا نقدّم نحن مفاهيم نفرضها على العالم الغربي، وهو ضمن مصالحه يستطيع

أن يقبلها ويأخذها؟ وشكراً.

ليلى الرحباني:

أوافق مع العميد حطيط على المواطنية التامة، خاصة أننا هل نحن مواطنون تامّون ونحن نتساوى بالواجبات ولا نتساوى في الحقوق؟ هل نحن مواطنون أم رعايا ليس فقط في لبنان، بل في كل العالم العربي. عندما أعطت المفاهيم الغربية الحق للسلطة باحتكار العنف الشرعي، من هنا هل يمكن لأي فئة من الشعب تدعي أنها مقاومة وتقول: إن هذه السلطة تعتدي عليّ، فهل أحمل السلاح لأقاومها أم أقاومها بطريقة مختلفة؟ أما في مسألة رفض المفاهيم فلا يجب رفضها لأنها غربية بالمطلق. وشكراً.

السيد كروك:

من المفيد أن نتحدث عن التجربة الإيرلندية عندما حاولوا مواجهة مسألة المواطنية ومسألة الدولة وصحيح أن هذه المسالة مختلفة عن مسائلكم فهي أكثر تعقيداً، ولكن كانت هناك مقاومة وكان هناك انقسام شعبي وطائفي. عندما نظروا إلى ما يجب أن يكون عليه مفهوم الدولة انهارت المباحثات السياسية، وفشلوا لمدة أعوام فبدأوا من اتجاه مختلف وسألوا كِلا الطائفتين وكانت الروايتان منفصلتين ولا يمكن جمعهما.
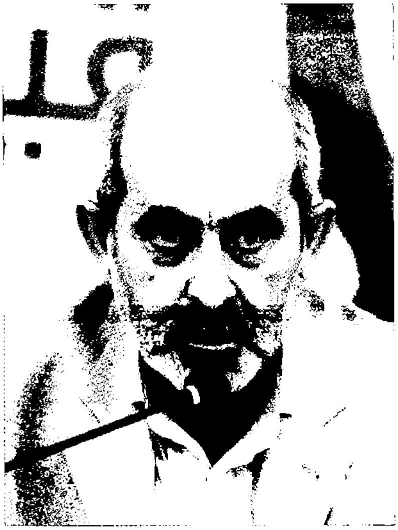
مؤتمر
الشهادة